فؤاد مطر

صدّام حسين

الرّجُل والقضيّة والمستقبل

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر



صدر هذا الكتاب اولاً باللغة الفرنسية

تحت عنوان :

Saddam Hussein
ou le devenir irakien

Editions Le Sycomore

الطبعة
الاولى
١٩٨٠

صَدّام حسَين

الرَّجُل والقضيَّة والمستقبل



فـؤاد مَطـَر

صَدّام حسَين

الرَّجُـل والقضيَّـة والمسـتقبَـل

دَارُ القضَـايا

المؤسَّسة العـَربيَّة

المحتويات

مقدمة

سيظل العراقيون على مدى سنوات ينظرون الى يوم الأربعاء ١٧ ايلول (سبتمبر) ١٩٨٠ على انه من الايام القليلة الاستثنائية في تاريخ العراق الحديث . ففي هذا اليوم حدثت نقلة بالغة الأهمية في حياة العراقيين الذين وجدوا انفسهم فجأة يعيشون الحرب ويمارسون طقوسها واصولها*.

في هذا اليوم وقف الرئيس صدام حسين في المجلس الوطني (وهو البرلمان الأول بعد غياب للحياة البرلمانية دام حوالى ربع قرن) وأعلن بالنبرة التي سبق لجمال عبد الناصر أن أعلن بها في الخمسينات تأميم قناة السويس ، الغاء اتفاقية ٦ آذار ١٩٧٥ مع ايران و « عودة شط العرب عراقياً عربياً مع كل حقوق التصرف والسيادة الكاملة » .

وحتى اليوم الذي اعلن فيه صدام حسين الغاء اتفاقية ٦ آذار ١٩٧٥ كان هذا القائد الذي لم يألف العراقيون حاكماً من نوعيته لا يزال يرتدي بدلته العادية التي يظهر فيها على الناس ، لكنه بعد ذلك اليوم ارتدى زي القائد العام للقوات المسلحة وارتدى القياديون في الحزب والدولة زي المقاومة الشعبية . فقد بدأت الحرب التي كانت مؤجلة مع ايران .

والقول بأنها حرب مؤجلة معناه انها كانت مقررة أو واردة في السنين الماضية . وهذا صحيح .

لماذا وكيف ؟

ان خلفية العلاقة والاحداث تشكل في استمرار مقومات الجواب عن أمر يحدث فجأة ، خلافاً كان هذا الأمر أم انفجار علاقات ، أم كان الحرب بكل زواياها . ومن أجل ذلك فاننا سنعرض في السطور الآتية أهم ما في خلفية العلاقة العراقية - الايرانية التي انتهت حرباً .

ونبدأ باليوم الذي وقعت فيه اتفاقية ٦ آذار ١٩٧٥ .

في ذلك اليوم كان رجل الجزائر القوي هواري بومدين نجح في ان يجمع في بلاده وعلى هامش القمة الأولى لدول منظمة « الاوبك » الشاه محمد رضا بهلوي

---

* ملاحظة من المؤلف : قامت الحرب العراقية - الايرانية في وقت كان هذا الكتاب في مرحلة التنفيذ الطباعي . ومن أجل ذلك اخترت ان يكون موضوع الحرب هو مقدمة الكتاب .

وصدام حسين الذي كان يشغل في ذلك الحين منصب نائب رئيس مجلس قيادة الثورة في العراق . ولقد جاء امبراطور ايران الى تلك القمة وهو في ذروة تألقه وقوته . وجاء صدام حسين تاركاً في العراق جيشاً استنزفته حرب الشمال مع المتمردين الاكراد الذين حصلوا من الشاه على المال والسلاح وبكميات خرافية الأمر الذي مكنهم من اشغال جيش يفترض ان تتركز اهتماماته على الدفاع القومي وليس المجابهات المحلية . وعلى مدى سنة سبقت التوقيع سقط في حرب الشمال ستون ألف عراقي بين قتيل وجريح بينهم ١٦ ألفاً من العسكريين .

تمكن هواري بومدين من ايجاد الارضية المناسبة لكي يتناقش الرجلان القويان ويضعا اسساً لعلاقة جديدة بينهما . وساعده على ذلك ان الاثنين تصرفا بعقلية رجل الدولة . الشاه قوي وفي عز قوته ولكن رياح الثورة تلفح له وجه امبراطوريته وهنالك عمليات تجري بتشجيع من العراق وفي عمق الامبراطورية فضلاً عن ان المعارضة الايرانية التي يرعاها الامام آية الله الخميني من منفاه في العراق وبالتحديد في مدينة النجف التي لها قدسيتها عند الطائفة الشيعية (فيها قبر الامام علي والحوزة العلمية التي يتخرج منها رجال الدين الشيعة) قد بدأت تقوى وتظهر فعاليتها داخل الشارع الايراني . ومن اجل ذلك فانه يريد ان يرتاح وينصرف لدوره الذي اكتملت ملامحه في تلك الفترة وهو دور شرطي المنطقة الذي تحقق قوته الضاربة للولايات المتحدة ما تريد . وصدام حسين يسعى من أجل تأمين ظروف لالتقاط الانفاس وبناء الدولة العصرية والجيش القوي .

وانتهى اجتماع القويين محمد رضا بهلوي وصدام حسين الى التفاهم على توقيع اتفاقية ارتضى صدام حسين كل الاجحافات التي فيها ثم ارتضى بعد ذلك التشكيك بالموقف العراقي الذي سجلته اطراف عربية عدة .

وتصافح القويان بعدما وقعا الاتفاقية وفي ذهن كل منهما فكرة أو أفكار . في ذهن الشاه ان الاتفاقية اعتراف مطلق بقدراته العسكرية وبدوره كشرطي للمنطقة . وفي ذهن صدام حسين ان الاتفاقية هي الظرف المطلوب لكي يبني الدولة والجيش على ان تستعاد الحقوق في الوقت المناسب .

ولقد قضت الاتفاقية باجراء تخطيط نهائي للحدود البرية بناء على بروتوكول القسطنطينية لسنة ١٩١٣ ومحاضر لجنة تحديد الحدود لسنة ١٩١٤ ، وتحديد الحدود النهرية حسب خط تالويغ . كذلك تضمنت الاتفاقية العودة الى هواري بومدين عند الاقتضاء وازالة جميع العوامل السلبية في طريق العلاقات .

في اعقاب التوقيع نشطت اللجان من اجل وضع الاتفاقية موضع التنفيذ وسط انفراج ملحوظ في العلاقات وهدوء على الحدود . وكان من المقرر ان يقوم الشاه بزيارة رسمية الى العراق ، لكن الشرط الذي وضعه كان ابعاد الامام آية الله الخميني عن العراق في فترة الزيارة وهذا ما رفضه العراق علماً بأنه لا وجود لتنسيق بين النظام في العراق والخميني ضد النظام في ايران . كذلك رفض العراق صيغة ملطفة للشرط وهي ابعاد الامام الخميني عن النجف حيث ان الشاه يتطلع الى زيارة المراقد المقدسة في كربلاء والنجف .

ودخلت ايران في مرحلة من الفوضى بعدما اشتد ساعد الثورة الايرانية التي استمر الامام الخميني يرعاها من منفاه في العراق ثم اتسع حجم الفوضى بعدما قاد الامام الثورة من المنفى في فرنسا لان العراق كان قد ابعده . وتأجل تبعاً لذلك تنفيذ الاتفاقية . ثم سقط الشاه وقامت السلطة الجديدة بقيادة الخميني ، والاتفاقية لا تنفذ .

وافترض العراق ان ما لم ينفذ في ايام الشاه سينفذ بعد قيام الحكم الجمهوري . ولكن التوتر في العلاقات بلغ أشده بين العراق وايران . وصدرت عن السلطة الجديدة في ايران تصريحات ومواقف شعرت القيادة العراقية انها تستهدف تحريك المشاعر الطائفية علاوة على التصرفات التي تعتبر بعض دول الخليج فارسية . وتلت هذه التصريحات والمواقف حوادث أمنية تميز بعضها بالتحدي لعل ابرزها على الاطلاق كان محاولة اغتيال طارق عزيز عضو مجلس قيادة الثورة ونائب رئيس الوزراء بقنبلة القاها عليه في الجامعة المستنصرية في بغداد شاب ايراني الأصل ينتمي الى حزب الدعوة الذي كان واستمر يحظى بدعم ايران له . وهذا الحزب إذا جاز التحديد هو الطبعة الشيعية لحركة الاخوان المسلمين المنتشرة في عدد من الدول العربية والاسلامية . ووجه التحدي في هذه المحاولة ان طارق عزيز مسيحي فضلاً عن انه من القيادات المتقدمة في حزب البعث الذي يقود العراق .

وبالاضافة الى هذه الحوادث والتصريحات بدأت ايران تدعم بقوة جماعات كردية مناوئة للحكم في العراق وهي جماعات مسعود وادريس البرزاني . وفي الوقت نفسه كان العراق يجري اتصالات مع كل العناصر المعادية للثورة في ايران . وكان واضحاً من خلال النظرة والممارسة ان الهدف المركزي للامام الخميني هو اسقاط حكم الرئيس صدام حسين .

وهو لم يخف ذلك حيث انه في اعقاب اعدام آية الله محمد باقر الصدر (وهو من اقطاب حزب الدعوة ومن رجال الدين المؤيدين للامام الخميني في العراق) بعد ايام من محاولة اغتيال طارق عزيز ، دعا الجيش العراقي الى ترك الثكنات والانقضاض على حكم الرئيس صدام حسين الذي يعتبره « غير مسلم » . كذلك كان واضحاً ان الهدف المركزي للرئيس صدام حسين هو ضرب سلطة الخميني الذي بدأ يتعامل معه على اساس انه « عنصري وفارسي » .

وفي مطلع ايلول (سبتمبر) ١٩٨٠ بلغ الرئيس صدام حسين ان هنالك استعدادات في الجانب الايراني من الحدود ، وان المدنيين في بعض المناطق العراقية يتعرضون يومياً لنيران المدفعية الايرانية . وفي الوقت الذي بدأ الرئيس صدام اجتماعات مع القادة العسكريين للبحث في الأمر طلب من وزارة الخارجية العراقية ارسال مذكرة بالوسائل الدبلوماسية الى الحكومة الايرانية يطلب فيها إنسحاب القوات الايرانية من الاراضي المحتلة من جانب ايران وأهمها منطقة « زين القوس » خصوصاً وأن الرد العراقي على القصف الايراني لا يبدو ممكناً إلا اذا تمت استعادتها . وحدث بعد تسليم المذكرة يوم ٧ أيلول (سبتمبر) ١٩٨٠ أن القوات الايرانية لم تنسحب وانما تم تدعيمها وبدأت الطائرات الايرانية تحلق فوق

هذه القوات . وكان ذلك معناه بالنسبة الى الرئيس صدام حسين ضرورة البدء بتحرير « زين القوس » وبعض المواقع الأخرى . وفي الوقت الذي كان الرئيس صدام حسين يستقبل في مكتبه بالقصر الجمهوري صباح الاثنين ٨ ايلول (سبتمبر) ١٩٨٠ اعضاء المجلس الاعلى للحملة الوطنية الشاملة لمحو الامية ويقول امامهم في سياق كلمة حول أهمية الانتصار على الأمية « ان كل مواطن عراقي اصبح مستعداً لان يسفح دمه رخيصاً من اجل الوطن ومن اجل المبادىء ... » كانت القوات العراقية تنفذ على الحدود خطة استعادة الاراضي التي اطلق عليها اسم « عملية صدام حسين » . ولم تستغرق العملية الوقت الكثير . بدأت بقصف مدينتين ايرانيتين مقابلتين ثم اسقاط طائرتين وأسر عدد من العسكريين . وفي خلال ساعات استغرقتها معركة اتسمت بالسرعة والكفاءة والشجاعة جرت يوم ٩ ايلول (سبتمبر) ١٩٨٠ حسم الجيش العراقي الأمر لمصلحته . اعاد « زين القوس » الى السيادة العراقية ورفع العلم العراقي فوقها واسر اعداداً من الجنود الايرانيين واوقع خسائر فادحة في القوات الايرانية واستولى على كميات كبيرة من الاسلحة والذخائر والوثائق .

وبدأت البيانات العسكرية تتوالى وتتحدث عن اسقاط المزيد من الطائرات واحداث المزيد من الخسائر واستعادة المزيد من الاراضي ، حيث ان رقعة المعارك اتسعت ثم دخل الطيران العراقي في المعركة ليرفع من سخونتها .

وفي اليوم السابع لبدء العمليات العسكرية وكان الرئيس صدام حسين اطمأن الى النتائج دعا مجلس قيادة الثورة الى اجتماع عقد صباح يوم الأربعاء ١٧ ايلول (سبتمبر) ١٩٨٠ وتقرر فيه اعتبار اتفاقية الجزائر بين العراق وايران ملغاة . وجاء اعلانه بعدما كان الرئيس الايراني ابو الحسن بني صدر أوحى بأن ايران لن تطبق المعاهدة من جانبها وتمثل ذلك بقوله « من وقع اتفاقية الجزائر ؟ حتى نظام الشاه لم يطبقها ... » . ثم دعي المجلس الوطني (أي البرلمان) الى جلسة استثنائية ألقى الرئيس صدام حسين فيها خطاباً أوضح فيه ظروف اتفاقية الجزائر واعلن استعادة سيادة العراق على شط العرب . وقال مخاطباً دول العالم « اننا نؤكد للعالم ان العراق الذي كان يقوم بادارة شؤون الملاحة في شط العرب طبقاً لحقوق السيادة الكاملة قبل آذار (مارس) ١٩٧٥ اثبت قدرة وكفاءة حقيقيتين ومسؤولية عالية في ذلك ، وان العراق اليوم اكثر قدرة على تأدية واجباته في هذا الشأن » .

وفي ضوء قرار الرئيس صدام حسين صدر بيان عراقي توضيحي وفني يشير الى ان السفن التي ترغب في استخدام شط العرب للملاحة يجب ان ترفع العلم العراقي وان تتبع التعليمات والاوامر التي تصدرها الجهات العراقية المختصة تنفيذاً لقرار الغاء اتفاقية الجزائر . وذكر البيان ان قرار الغاء اتفاقية الجزائر يعطي العراق حق السيادة الكاملة على اقليمه البري وفضائه الجوي واصدار اوامر تتعلق بالملاحة . كما ان القرار العراقي يوجب على السفن دفع رسوم للعراق مقابل عبورها شط العرب وانتفاعها من الخدمات الملاحية المقدمة لها وكذلك الاتصال بنقاط الادلاء العراقيين البحريين الذين يرشدون السفن في شط العرب الى افضل السبل الصالحة للملاحة فيه . وجاء في البيان أيضاً ان بسط السيادة العراقية الكاملة على شط العرب يمنح العراق حق الاختصاص قانونياً بجميع المسائل

الجنائية والمدنية التي يمكن ان تطرأ على شط العرب وتحمل نفقات ادارة وصيانة الملاحة باعتباره شطاً عراقياً وطنياً .

ولقد ظهر حرص الرئيس صدام حسين منذ اللحظة الاولى على انه لا يريد الحرب ولا يطمع في اراضي ايران ، وانما يريد استعادة ارض عراقية لا تعيدها ايران بالحسنى . وهو بهذا الخصوص اراد ان يقول للدول الكبرى ان تبقى بعيدة ولا تتدخل في شكل أو آخر .

ولكن العملية العسكرية التي استعاد العراق بموجبها السيادة على اراضيه التي كانت تحتلها ايران والسيادة على شط العرب كان معناها الحرب . وفي مثل هذه الحال تكون خطوات مواجهة هذه الحرب جاهزة سلفاً . وجاء البيان الذي اصدره مجلس قيادة الثورة العراقي يوم الاثنين ٢٢ ايلول (سبتمبر) ١٩٨٠ متضمناً الايعاز الى القوات العراقية بتوجيه ضربات الى الاهداف العسكرية الايرانية . ولمجرد ان صدر الأمر بدأ توجيه الضربات ثم تطورت الحرب بشكل أوحى انها لن تكون تلك الحرب السريعة النهاية . فقد توغلت القوات العراقية في اراضي ايران وسيطرت على بعض المواقع واحكمت الطوق حول بعض المدن ، ومنها مدينة المحمرة (الاسم الفارسي لها هو خورمشهر) وهي مدينة معظم أهلها من العرب . وبعد محاصرة هذه المدينة التي تصب في مينائها النسبة الكبرى من الاستيراد الايراني ، ثم ضرب المصافي والمنشآت الاقتصادية والمطارات والقواعد العسكرية في تلك المنطقة وفي عمق ايران حتى العاصمة طهران ، ثم بدء عملية حصار لاسقاط مدينة عبادان ، ساد الانطباع بان العراق يبغي من وراء ذلك اجبار السلطة في ايران على الاقرار بالهزيمة وبدء مفاوضات للتعايش في ضوء ما انتهت اليه الحرب .

لكن تلك السلطة لم ترضخ ولم تسلم بالهزيمة واشاعت معلومات وتحليلات بان الجيش الايراني يتأهب لهجوم مضاد . وعلى رغم ان اسطورة القوة الجوية والقوة البحرية والقوة البرية التي ارتبطت باسم الجيش الايراني قد اهتزت نتيجة لاسقاط عشرات الطائرات وتدمير الكثير من القطع البحرية ووقوع المئات من الضباط والجنود اسرى في ايدي القوات العراقية ، فإن الامام الخميني دعا في اليوم الثامن عشر للحرب الى قتال العراقيين واصفاً اياهم بانهم « مشركون » وبان الرئيس صدام حسين « كافر » . وكان الرئيس بني صدر في هذه الاثناء يواصل عملية الافراج عن ضباط وطيارين سبق ان وضعوا في السجن نتيجة الشك في ولائهم للثورة الايرانية أو ارتباطهم بالسافاك ، وارسالهم الى جبهة القتال . وفي الوقت نفسه كانت هنالك بعثات عسكرية تجوب سراً بعض عواصم العالم بحثاً عن سلاح وقطع غيار وذخيرة وخبراء . ومثل هذا الامر ليس متيسراً ازاء جيش مسلح باحدث انواع السلاح الاميركي .

في الوقت نفسه نشط عدد من الوسطاء العرب بعضهم في السر وبعضهم في العلن ولكن محاولة هؤلاء تعثرت منذ اللحظة الاولى ليس لأن الرئيس صدام حسين اعتبر ان العرب يجب ان يكونوا الى جانب العراق وليسوا وسطاء ، وانما لأن هؤلاء وابرزهم السيد ياسر عرفات رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية سمع وهو في ايران كلاماً قرر في ضوئه ان يختار موقف الحياد في النزاع الايراني ـ العراقي . اما الرئيس الجزائري الشاذلي بن جديد الذي اتجهت

اليه الانظار بعدما اتسعت رقعة الحرب لارتباط بلاده وارتباطه شخصياً كخليفة للرئيس الراحل هواري بومدين باتفاقية آذار ١٩٧٥ فانه بدأ سعياً ما لبث ان توقف .

ولم يكن الوسيط الاسلامي (الرئيس الباكستاني ضياء الحق والحبيب الشطي رئيس المؤتمر الاسلامي) أكثر حظاً . فقد اجهضت لهما ايران سعيهما . وعندما زار طهران الرئيس ضياء الحق لم يمكنوه من الاجتماع الى صانع القرار كما ان منفذي القرار لا يملكون القدرة على الاختيار . وهذا ما حدث بالنسبة الى ياسر عرفات . وصانع القرار في ايران هو الامام الخميني اما منفذ القرار فهو رئيس الجمهورية ابو الحسن بني صدر . وعلى رغم ان الامام الخميني استقبل بعد ذلك الشطي إلا ان جهد الوسيط الاسلامي قوبل بالصد .

والذي يلفت النظر هنا هو ان صدام حسين المنتصر عسكرياً تجاوب مع السعي الاسلامي واصدر قراراً بوقف اطلاق النار في حين ان الطرف الايراني المهزوم عسكرياً هو الذي لم يوافق واشترط للقبول عودة الوضع الى ما كان عليه قبل ان تبدأ العملية العسكرية يوم ٨ ايلول (سبتمبر) ١٩٨٠ ، بل ان بعض المحسوبين على الامام الخميني ومنهم سفير ايران في موسكو وضع شروطاً مثيرة للاستغراب وتتضمن اضافة الى سحب القوات العراقية ان يستقيل الرئيس صدام حسين وان يتم اهداء البصرة الى ايران تعويضاً عن الخسائر التي لحقت بايران . وعندما استدعي هذا السفير الى بلاده في اعقاب طرح هذه الشروط وهو في موسكو بدا الأمر كما لو أنه عقاب أو تنفيذ لرغبة سوفياتية بايفاد سفير أكثر تعقلاً ، لكن السفير عاد الى مركزه بعد غياب دام بضعة أشهر .

ولم يدم وقف اطلاق النار من جانب العراق أكثر من ساعات ذلك ان الايرانيين لم يلتزموا به واستمروا يردون على التوغل العراقي في العمق بغارات شملت عدداً من المدن العراقية من دون تمييز بين المناطق السكنية وبين المنشآت الاقتصادية والعسكرية . ويبدو انه كان لا بد من تصعيد من جانب العراق يتسم بالقساوة . ومن هنا جاءت الغارات الجوية العراقية يوم ٦ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٨٠ على العاصمة الايرانية والضواحي . ورافق ذلك تحطيم القواعد البحرية الايرانية في شط العرب الأمر الذي جعل السلاح البحري الايراني مشلولاً .

ومع ذلك تواصلت الحرب . ولكن ليس معنى ذلك انها بلا نهاية . ولو ان هذا الكتاب كان عن الحرب بتفاصيلها وتفاعلاتها ونتائجها لكان من المفترض ان يبقى مفتوحاً تضاف يومياً الى صفحاته اسطر جديدة ويجري تعديل لبعض الأسطر والكلمات . ولكن الكتاب عن الرئيس صدام حسين والظروف التي عاشها من الطفولة الى ان تسلم المسؤولية الكاملة في الحزب والدولة . انه عن صدام حسين الرجل والقضية والمستقبل والقرارات الصعبة واسلوب ادارة الصراع .

ان الكتاب عن الرجل الذي قاد الحرب . ومن خلال القراءة المتأنية لأحد فصول الكتاب وهو الفصل المتعلق بالعلاقات العراقية ـ الايرانية والذي كتبته قبل أشهر من الحرب ، وقراءة متأنية أيضاً لتحليل الرئيس صدام حسين لهذه العلاقات خلال حوار أجريته معه وهو يشكل الفصل الأخير من هذا الكتاب ... ان مثل هذه القراءة المتأنية توضح أن الحرب كانت حتمية .

لماذا حتمية ؟

حتمية لان الإمام آية الله الخميني لا يستطيع أن ينسى ان العراق أبعده عن أراضيه ؟

وحتمية لان الامام الخميني بعدما نجح في اسقاط امبراطورية الشاه يريد تصدير الثورة التي قام بها الى خارج أراضيه وهو في اي حال لم يخف ذلك ، ولان التصدير لن يتم ما دام العراق الذي يقوده صدام حسين يزداد قوة واستقراراً .

وحتمية لان آيات الله في ايران يحللون دم البعثيين ويعتبرون قتلهم حلالاً وشرعاً . وهم لا يخفون ذلك لان الاذاعة الموجهة من طهران الى العراق والتي تبث باللغة العربية تردد هذه الفتاوى في استمرار .

وحتمية لان الامام الخميني يردد في استمرار « ان العراق فارسي » و « ان صدام حسين والبعثيين كفرة » . وقبل اربعة اشهر من بدء الحرب كانت الاذاعة الايرانية تبث تصريحات للامام الخميني قال فيها « على الشعب العراقي ان يحرر نفسه من براثن المعادين ومن الواجب على الشعب والجيش العراقي أن ينقلب على هذا الحزب غير الاسلامي في العراق » .

وحتمية لان هنالك تعبئة مستمرة داخل الجيش الايراني بان على هذا الجيش الاستعداد لاجتياح العراق وان العراقيين سيرحبون بذلك .

وحتمية لان هنالك سعياً حثيثاً من جانب اقطاب الثورة الايرانية لتفجير المسألة المذهبية في العراق .

وحتمية لأن هنالك أرضاً وحقوقاً اخذتها ايران القوية من العراق الذي كانت ظروفه لا تسمح له بالتشدد ، وعندما اشتد ساعده كان عليه ان يستعيد وبالقوة ما أخذ منه بالقوة .

* * *

وتبقى بعض الملاحظات التي يمكن من خلالها تلمس ابعاد وظروف أخرى للحرب .

الملاحظة الأولى ـ قد يجوز الافتراض ان قرار الحرب اتخذ كمبدأ في اللحظة التي تم فيها توقيع اتفاقية الجزائر يوم ٦ آذار (مارس) ١٩٧٥ وان هذا التوقيع الاضطراري على اتفاقية مجحفة بحق العراق كان اذا جاز التعبير مثل قبول جمال عبد الناصر مبادرة روجرز في تموز (يوليو) ١٩٧٠ . وهو قبول تكتيكي ، استطاع عبد الناصر من خلاله تحريك الصواريخ الى منطقة قناة السويس .

ان اتفاقية الجزائر كانت مجحفة بحق العراق وكان صدام حسين (نائب الرئيس في تلك الفترة) مضطراً للقبول بها ، والا فكيف سيتمكن من بناء الدولة والجيش . وقد تم بناء الجيش العراقي على اساس انه سينازل ذات يوم وبعدما يكون اشتد

ساعده الجيش القوي الذي بناه الشاه . هذا في حال عدم استعادة الارض والسيادة على شط العرب بالحسنى .

الملاحظة الثانية ـ ان الحرب لم تبدأ فجأة ذلك انها كانت دائماً قائمة على شكل مناوشات ، باستثناء الفترة بين توقيع اتفاقية الجزائر عام ١٩٧٥ وسقوط الشاه وقيام الجمهورية الاسلامية .

ولكن المتميز في هذه الحرب انها تتم للمرة الأولى بين العراق وايران بالشكل المباشر بعدما كانت ايران في الماضي تحارب العراق من خلال الاكراد .

ومن خلال سير الحرب بدا واضحاً ان العراق خطط على اساس ان تتم الحرب على الاراض الايرانية مع الأخذ في الاعتبار انها لن تكون سريعة نتيجة اتساع العمق الايراني .

والى جانب ذلك فان الحرب من جانب العراق لم تسبقها اشارات حول مناورات اجراها الجيش وطبيعة هذه المناورات . ولكن كان واضحاً ان هنالك تعبئة حقيقية للشعب وهي تعبئة معلنة تتمثل في ان الرئيس صدام حسين زار منذ ان تسلم المسؤولية الكاملة كل مناطق العراق ووضع من خلال الخطب والاحاديث الشعب في مناخ الصيرورة . كذلك فانه مارس مرونة سياسية ملحوظة في التعامل مع دول العالم . وهذه المرونة حققت في زمن الحرب غرضها .

ومنذ ان تسلم المسؤولية كاملة في الدولة والحزب وهنالك ايماءات على ان العراق على أهبة أمر ما . وثمة عبارة رددها كثيراً جاءت الحرب بمثابة تفسير دقيق لها . وهذه العبارة وردت في سياق خطاب له في الموصل يوم ١٥ نيسان (ابريل) ١٩٨٠ وشكل في مجمله خطوة متقدمة جداً على صعيد الصراع مع الامام الخميني ، وهي : « وعندما تقرأون تاريخ العراق تجدونه اما بالمنارة أو ينسحق تدوسه سنابك الخيل » .

وفي هذا الاطار يمكن القول ان حزب البعث الذي يقوده صدام حسين وضع قبل بضعة أشهر من بدء الحرب في جو احتمالات حدوثها . ففي تعليمات حزبية عممت على القيادات المتقدمة وردت اشارات الى ان ايران لن تعيد الأرض . وعلى هامش هذه التعليمات بدأت القيادات القريبة من صناعة القرار تلمح في سياق مناقشات لا تنشر الى انه اذا كان العراق لن يقوم بعملية عسكرية واقية فان ايران هي التي ستبدأ الحرب . وقد استندت هذه التلميحات في جوانبها الى وثائق وجدت في حوزة بعض قيادات حزب الدعوة وتضمنت « ان العراق هو مفتاح الجزيرة العربية وعندما نستولي على العراق نستولي على الجزيرة » .

وعلى صعيد الجيش فان الصحيفة اليومية والمجلة الاسبوعية الخاصتين به بدأتا قبل بضعة أشهر من بدء الحرب معالجة للعلاقات العراقية ـ الايرانية في اتجاه تعبئة هذا الجيش ووضعه في احتمالات حدوث الحرب . وفي كلية الاركان كان هنالك درس يعطى للضباط ويدور حول : كيف نهاجم ايران وماذا نفعل اذا هاجمتنا ايران ؟ .

وعند حدوث الحرب تبين ان الشعور القومي هو الاساس لدى الجيش العراقي الذي يشكل الشيعة النسبة الكبرى فيه ، في حين ان الجيش الايراني كان يعبأ للقتال تعبئة مذهبية . ولقد احدث تركيز الاعلام الايراني وتصريحات رجال الدين في ايران على ان الحكم العراقي كافر ردة فعل معاكسة في نفوس العسكريين

العراقيين الذين استبسلوا في القتال وخاضوا الحرب وهم على درجة عالية من الايمان بالعقيدة السياسية وبالدين .

الملاحظة الثالثة - ان حرباً يخوضها العراق ضد ايران تبدو من الحروب البالغة التعقيد والتي تحتاج الى القائد الذي يجمع بين القدرة على التخطيط والدقة في التصويب الاستراتيجي اذا جاز التعبير ، والثقة العالية بالنفس وتحمل تبعات النتائج .

فالحدود التي تربط البلدين تزيد على ألف كيلو متر . والكثافة السكانية غير متكافئة حيث ان عدد سكان العراق ثلاثة عشر مليون نسمة في حين ان عدد سكان ايران يزيد على اربعين مليون نسمة .

وبالنسبة الى العراق هنالك تركيز دخل سنته العاشرة على خطط التنمية وتطلع من جانب الرئيس صدام حسين الى ان تنقل هذه الخطط العراق من دولة نامية الى دولة أكثر نمواً أو ذات تميز نسبي في مسألة النمو .

وبالنسبة الى العراق هنالك طموح لدى الرئيس صدام حسين من اجل ان يمارس العراق الدور الأكثر فعالية على صعيد الصراع العربي - الصهيوني .

والى ذلك ان الشاه ترك قوة عسكرية مهمة . وعلى رغم انهيارات معنوية حدثت في صفوف الجيش الايراني بعد قيام الثورة نتيجة التشكيك به وتصفية مجموعات من قادته وهرب مجموعات ووضع كثيرين داخل السجن وترك العنان للحرس الثوري يقدم افراده على تجاوزات داخل الجيش وتتسبب في حساسيات كثيرة في اوساط الضباط ... على رغم كل ذلك فان الجيش الايراني استمر قوياً واستمرت قواعده ذات التجهيز الحديث والالكتروني سالمة . وصحيح ان الأزمة التي نشأت بين الثورة الايرانية والولايات المتحدة تركت آثارها على احتياجات السلاح الايراني للصيانة الدقيقة وقطع الغيار الا ان هذا السلاح لم يستعمل لكي يصيبه التلف أو يحتاج الى قطع الغيار بشكل مستمر . والدليل على ذلك انه خلال الحرب حقق الطيران الايراني اذى ملحوظاً داخل العراق وخفف بعض الشيء من حدة الهزائم الايرانية التي تتالت في الايام الخمسة عشر الأولى من الحرب .

وبالنسبة الى العراق انه لم يعش من قبل جو الحرب ذلك ان حرب الشمال كانت في جبهة بعيدة عن المدن وبين الجيش العراقي والمتمردين الاكراد . والبعيدون عن هذه الجبهة لم يشعروا وبشكل مباشر بمرارتها .

ان هذه النقاط وغيرها أخذت في الاعتبار عندما وضع الرئيس صدام حسين قرار الحرب موضع التنفيذ . وكان واضحاً له كل الوضوح ان العراق لا يتحمل الهزيمة .

ولأنه صاحب خبرة في مسألة القرارات المصيرية من قرار القيام بثورة ١٧ تموز ١٩٦٨ الى قرار ٣٠ تموز ١٩٦٨ الذي حسم وضعاً فرض نفسه على الثورة (ابعاد عبد الرزاق النايف) الى قرار تأميم النفط الى قرار حلّ المسألة الكردية الى قرار المشاركة في حرب اكتوبر ١٩٧٣ الى قرار مواجهة كامب ديفيد بالقمة التي عقدت في بغداد ... لان صدام حسين صاحب خبرة في مسألة القرارات المصيرية فإنه وضع قرار وحسابات الخسارة مع ترجيح حجم الخسارة وعندما انتهى الى ان الربح وفير على رغم فداحة الخسارة أعطى الضوء الأخضر وخاض غمار الحرب .

ماذا يربح العراق وماذا يخسر من الحرب ؟

يربح في انه يستعيد ارضا تواصل ايران احتلالها .

ويربح في انه يضع حدا للطموح الايراني في اسقاط حكم البعث وتصدير الثورة الايرانية الى الخليج عن طريق العراق .

ويربح في انه يجعل بعض الدول الكبرى تحسم امر تخميناتها وتنظر بشيء من التنبه الى حجم العراق وقوته وتأثيره ، عند رسم الاستراتيجيات الجديدة لاوضاع المنطقة العربية وبالذات منطقة الخليج .

ويربح في انه يكتشف وبالشكل العملي مواقف الآخرين تجاه العراق .

ويربح في انه يضع بعض الدول العربية امام اختيارات لا بد منها . وفي ضوء ذلك يخلط الأوراق من جديد ثم يقوم بعملية فرز دقيقة .

ويربح في انه يختبر ميدانيا مدى استيعاب جيشه للسلاح المتطور الذي استقدم له ومدى قدرات هذا الجيش على المواجهة ، خصوصا ان هذا الجيش يجري اعداده لدور قومي كبير وهو التصدي لاسرائيل . وعندما نلاحظ ان نوعية تسلح الجيش الاسرائيلي من نوعية تسلح الجيش الايراني ، فان الانتصار الذي يحققه الجيش العراقي في المواجهة مع ايران يعني ان في استطاعة هذا الجيش ان يتصدى للجيش الاسرائيلي .

ويربح في انه يضع الجيش الشعبي في موضع الاختبار الدقيق للقدرة على مواجهة الاخطار في زمن انشغال الجيش النظامي بمعارك حدودية .

ويربح في انه يضع الشعب في جو الحرب ومواجهة كل المخاطر وتحمل كل التبعات وتذوق لذة الانتصار .

ويربح في انه ينقل ابناء الحزب من دائرة التنظير للنضال الى دائرة ممارسة النضال ، ومن التوتر الجامد الناشىء عن مخاوف الى الحركة النشيطة في مواجهة المخاوف .

تلك هي بعض مظاهر الربح .

أما ماذا يخسر العراق . فالجواب انه يخسر بعض انجازاته التي حققها على مدى ثماني سنوات في سبيل التنمية . ولكن هذه الانجازات كانت ستبقى دائما مهددة اذا كان العراق لن يثبت انه قوي عسكريا . فمن السهل لدولة مقتدرة ماليا ان تقيم عشرات المشاريع وتواصل توظيف الثروة في اتجاه وضع البلد في خانة المتقدمين إلا أن استمرار التوظيف من دون الركون الى القوة التي تحمي سيبدو نوعا من المغامرة . وهذا ليس معناه انه كان على الرئيس صدام حسين ان يسعى من اجل الحرب لاختبار حجم القوة . ولكن الظروف قادت الى الحرب وجاءت الحرب هنا تحقق الاختبار .

والملاحظ ان ما بذل في سبيل التنمية على مدى ثماني سنوات في العراق كان كبيرا جدا ويتوافق مع طموحات قيادة صدام حسين في النقلة النوعية التي يريدها للعراق . وعندما بدأ التوغل العراقي في الاراضي الايرانية وتكاثرت خسائر الجانب الايراني في العتاد والرجال اصبحت معظم مراكز التنمية اهدافا للمقاتلات الايرانية . وما دامت الثروة في العراق في منأى عن ظواهر التبذير فانه من الممكن اعادة البناء وتطوير التنمية بحيث يتم وضعها في المدار الحربي لان الحرب التي حدثت مع ايران لن تكون الأخيرة فضلاً عن أن هذه الحرب صنفت العراق على أنه مؤهل لخوض الحرب مستقبلاً من اجل فلسطين .

ويربح في انه يعرف الى اي مدى يمكن أن يقف معه في مثل هذه المرحلة الدقيقة الاتحاد السوفياتي الذي تربطه به معاهدة للصداقة والتعاون والى اي مدى يمكن ان تشكل استقلالية الموقف العراقي معوقات في طريق الوقفة السوفياتية المطلوبة .

الملاحظة الرابعة ـ لقد اضافت الحرب جديدا الى خصال يتميز بها صدام حسين . والجديد الذي نعنيه هو انه صاحب قدرة متميزة في موضوع خوض الحرب . اما الخصال الاخرى فهي انه صاحب تجربة نضالية متميزة وصاحب افق فكري متميز لفت نظر مؤسس الحزب ميشال عفلق فقال فيه ما بدا انه مبايعة فكرية من الرجل التاريخي الى الرجل الذي يقود الحزب في العراق .

والملاحظ ان صدام حسين خاض الحرب مع ايران وهو على درجة عالية من الثقة بالنفس وهدوء الاعصاب وتقبل النتائج ومتابعة الحرب بعقلية المطمئن الى الفوز وباستعداد لتطويع النكسات في حال حدوثها . وهو لم ينس الناس بينما الحرب متواصلة ولم يقبع في غرفة العمليات لا يغادرها الا من اجل التوجه الى البرلمان ليعرض وقف اطلاق النار مثلما الرئيس السادات عندما اوقف شلال الحماسة من جانب الجيش المصري في اتجاه تحرير الارض . واكثر من ذلك انه ترك غرفة العمليات للقادة العسكريين يديرون خطة الحرب وحرص على ان يكون يوم ٢٢ ايلول ١٩٨٠ داخل اول دبابة عراقية عبرت الحدود . ولولا ان الضباط قالوا له إما أن تعود او ننسحب لكان عبر الحدود وقاتل . وهو في هذا الأمر يكرر ما فعله في صبيحة ١٧ تموز ١٩٦٨ عندما اقتحم القصر الجمهوري وهو داخل دبابة جنبا الى جنب مع العسكريين .

وصحيح ان صدام حسين لم يفسح المجال امام اطراف عربية تتوسط بين العراق وايران الا انه في الوقت نفسه لم يغلق الباب امام المسعى الحميد على رغم انه في وضع عسكري جيد . وفي الوقت نفسه كان شديد الحرص على ان يظهر للعالم انه سيعمل على تأمين النفط لدوله . وقد اكسبه ذلك اعجاب العالم به .

ولقد اظهرت الحرب قدرة العراق على افشال المراهنات عليها . وأظهرت الى ذلك ان السياسات والمواقف التي اتخذها صدام حسين منذ ان تولى المسؤولية الكاملة في الدولة والحزب واتسمت بالمرونة (ومنها الميثاق القومي الذي طرحه يوم ٨ شباط ١٩٨٠ لتنظيم العلاقات بين الاقطار العربية وجيرانها) كانت لتهيئة ارضية سياسية تخدم ظروف الحرب التي كانت واردة في تفكيره . ولقد افادت تلك السياسات والمواقف بعدما قامت الحرب في تحييد دول كثيرة وفي جعل دول عربية واسلامية تتقبل العراق القوي بعدما كانت لا تتقبله . وهذه الدول لو كانت تتحمل العراق الاقوى لكانت الحرب حسمت بسرعة .

كذلك فان الحرب اظهرت ان صدام حسين ليس من النوع الذي يتحمل زج جيشه وشعبه في حرب ثم يبحث له عن المتطلبات التي كان يحتاجها خلال الحرب . ففي الفترة التي سبقت الحرب كان هنالك تخزين على الصعيد التمويني وكان هنالك تخزين غير عادي للذخيرة لان صدام حسين لا ينسى محنة الذخيرة التي عاشها الجيش خلال الحرب مع المتمردين الاكراد. والى ذلك قيل انه كانت هنالك عمليات شراء واسعة على مدى السنوات الخمس التي سبقت الحرب للذهب

وانه بهذا الذهب غطى الدينار العراقي بحيث لا تصيبه الحرب باهتزازات .

وفي الوقت نفسه كان هنالك تسليح من دون استعراض ومن دون ان يتباهى احد بذلك . ومن المؤكد ان الارقام التي تنشرها مراكز الدراسات الاستراتيجية في الدول الغربية حول السلاح في دول العالم كما ونوعا لم تصب فيما يخص العراق . وهذه المراكز لم تكن على علم اطلاقا بانه على مدى خمس سنوات كان هنالك عسكريون عراقيون يدرسون طبيعة الاسلحة التي يستخدمها الايرانيون . وعندما حدثت سيطرة على اعداد من الدبابات والآليات الايرانية خلال بعض ايام الحرب كان هنالك عسكريون عراقيون يعرفون كيف ينقلون هذه الدبابات والآليات من مواقع المعركة الى مراكز داخل العراق . والى ذلك فقد حدث في بعض ايام الحرب ان قاتل العراقيون بأسلحة غنموها من الايرانيين .

كذلك فان اخلاء العراق من الايرانيين في السنوات الخمس التي سبقت الحرب وتسفيرهم بدا كما لو انه نوع من الاستعداد لحرب لا بد منها مع ايران . وقبل أن تبدأ الحرب كان العراق شبه خال من الايرانيين ووصل عدد الذين تم ابعادهم الى مئة الف ايراني . وقيام الحرب بوجود هذا العدد كان معناه ان المدن العراقية كانت ستعيش متاعب الطابور الخامس المعروف بان معظم افراده من الاثرياء .

وأظهرت الحرب ايضا ان ذلك النمو الحثيث في العلاقات العراقية ـ الاردنية منذ ان تسلم صدام حسين المسؤولية الكاملة في الحزب والدولة كان داخلا ضمن الاستراتيجية التي وضعها الرئيس صدام حسين للحرب الحتمية مع ايران . فما دامت سوريا ليست معه ، وما دامت الكويت لا تتحمل ، فانه كان لا بد من العمق الذي يتحمل والذي يقف بشجاعة والذي يشكل ملاذا آمنا للطائرات ومركزا تتدفق عليه المعدات والمواد التموينية . وقد يصعب على العراقيين ان ينسوا على مدى سنوات الموقف الذي اتخذه الملك حسين . كذلك قد يصعب عليهم ان ينسوا بعض فصائل حركة التحرر العربي التي اتخذت موقفا يقترب قليلا من ايران ويبتعد كثيراً عن العراق .

الملاحظة الخامسة ـ ان تحمل بغداد وسكانها للغارات الجوية الايرانية يشكل ظاهرة مهمة في تاريخ هذه العاصمة . فهي لم يسبق لها ان ضربت لا بصواريخ طائرات الفانتوم ولا بغيرها من الطائرات . وحتى الانكليز في الماضي لم يضربوا العاصمة وانما ضربوا بعض المعسكرات في ضواحيها البعيدة .

ولقد كان ملفتا للنظر ان الطائرات الايرانية اغارت مرات عدة على بغداد الامر الذي يعني ان اختراق العاصمة العراقية ليس صعبا او ان شبكات الرادار غير كافية . والذي ساعد الطائرات الايرانية على شن تلك الغارات هو ان بغداد مدينة عنكبوتية ذات عرض يبلغ حوالى ٥٦ كيلو مترا وعمق يصل الى حوالى ٧٠ كيلو متراً .

وعندما تكون المدينة عنكبوتية الشكل وليست دائرية يصبح من الصعب تفادي الاختراقات مع الأخذ في الاعتبار ان الطائرات الايرانية التي اسقطت خلال غاراتها على بغداد كانت كثيرة .

ومنذ اللحظة الاولى لبدء الحرب كانت انظار العراقيين مشدودة الى الفرن الذري الذي بذل صدام حسين جهدا خارقا في سبيل بنائه خصوصا ان حملة شرسة من جانب اسرائيل على العراق بسبب تطلعه الى امتلاك قدرات نووية سبقت

الحرب ببضعة اسابيع . وعندما قيل ان طرفا ثالثا دخل الحرب كان معنى ذلك ان اسرائيل حاولت بشكل او بآخر ضرب هذا الفرن . وجاء اعلان سفير فرنسا في بغداد حول هذا الأمر يؤكد ذلك . لكن الحماية الاستثنائية من جانب العراق لهذا الموقع الذي يعلق الرئيس صدام حسين عليه اهمية قصوى افشلت خطط الطرف الثالث . فقد سلم الموقع من الاذى البالغ وامكن سد بعض الثغرات الدفاعية في ضوء محاولة الاغارة عليه. وقد تامنت الحماية الاستثنائية للفرن الذري قبل أن تبدأ الحرب وكان واردا في حساب الرئيس صدام حسين ان اسرائيل ستنتهز الفرصة وتحاول ضرب هذا الموقع البالغ الاهمية خصوصا ان امتداد العمق الايراني يتيح المجال امام اسرائيل لكي تحاول القيام بعملية ما قبل ان يتصدى لها الجيش العراقي المنشغل بذلك العمق الممتد .

ويلفت النظر ايضا في الحرب العراقية ـ الايرانية ان سلاح الجو العراقي لم يرم بثقله في المعارك التي دارت . وفي الوقت الذي كان السلاح الجوي الايراني صاحب الشهرة الذائعة الصيت يفقد في الاسبوعين الأولين من الحرب ١٥٠ طائرة من اصل ٤٠٠ طائرة يمتلكها هذا السلاح ، فان السلاح الجوي العراقي لم يخسر سوى بضع عشرات من الطائرات. وقد توزعت الطائرات العراقية داخل العراق وخارجه الامر الذي جعل السلاح الذي اكتسب سمعة طيبة خلال حرب ١٩٧٣ في مأمن . وفي حرب ١٩٧٣ كان الطيارون العراقيون بطائرات الهوكر هنتر يقصون اذا جاز التعبير الشريط الافتتاحي للحرب على الجبهة المصرية واصابوا تجمعات ومعسكرات للعدو على طول الجبهة.

كذلك يلفت النظر انه لمجرد أن بدأت الحرب هرع بعض الجنود الهاربين من الخدمة العسكرية الى وحداتهم ، بل ان الحرب حركت ضمير احد هؤلاء وقد مضى على هربه من الخدمة ثلاث عشرة سنة فسارع وطلب ان يشارك في الحرب . وقد حارب ببسالة .

ويلفت النظر ايضا ان التعليمات التي اعطيت للجيش العراقي قضت بان يحاول كسب الجنود الايرانيين الى جانب منطق العراق والتوضيح بان الحرب ليست ضد ايران ولا ضد الجيش الايراني وانما هي ضد سلطة الامام الخميني وحراس الثورة . وقد تعامل العراقيون مع اسرى الجيش الايراني ، وهم كثرة ، باسلوب لا يخلو من الرقة في حين ان التعامل مع حراس الثورة وهو التنظيم الذي رافق قيام السلطة الثورية في ايران كان مختلفا . واخذ العراقيون في الاعتبارات الحساسيات القائمة اصلا بين افراد الجيش النظامي وبين حراس الثورة ، وهي حساسيات ادت الى ان الجيش الايراني لم يقاتل بالهمة المفروض ان يقاتل بها ولم يظهر منه استعداد للتفاني من اجل الحفاظ على سلاحه . وإلا ما هو التفسير لظاهرة استيلاء العراقيين على آليات لم تصب بأذى . وما هو التفسير لكثرة عدد المستسلمين .

كذلك يلفت النظر في الحرب العراقية ـ الايرانية ان خطة هذه الحرب قضت بان تتحرك الدبابات من دون كثافة في المشاة حولها . ومن هنا جاءت الخسائر في صفوف المشاة العراقيين قليلة جداً .

واستكمالا لهذه الملاحظة تجدر الاشارة الى ان صدام حسين خاض الحرب بجيش عريق في الانضباط وله تقاليده ووهجه الوطني . ولعله الجيش الوحيد في منطقة

الخليج الذي يتميز بانه عراقي مائة بالمائة وان قياداته من الضباط الكبار والصغار الرتبة هم في أكثريتهم الساحقة حزبيون بعثيون ٠

الملاحظة السادسة ـ لا بد ان الرئيس صدام حسين وضع في الاعتبار وهو يخطط للحرب ان تتم الحرب والامام الخميني على قيد الحياة ٠ وقد يجوز الافتراض ان الوضع الصحي الدقيق للامام الخميني في الاسابيع التي سبقت الحرب عجلت في اتخاذ القرار ٠

وقد يجوز القول في هذا الصدد ان الحرب خدمت سلطة الامام الخميني ، بدليل ان تناقضات كثيرة جمدت وتوحد جهد الاطراف المتناقضة ٠ وذلك طبيعي في حالات الاحساس بالخطر الخارجي . لكن ما لبث التناقض أن تفجر وبمرارة وأصبح الشارع الايراني مسرحاً لانواع شتى من التناقضات ولحرب شبه طاحنة بين آيات الله ورجال الحكم من المدنيين ٠

كذلك قد يجوز القول ان ايران التي خاض العراق الحرب معها وهي ايران المعزولة دوليا وغير المتعايشة مع العالمين العربي والاسلامي والتي تتنازعها الاهواء والتناقضات والتي لا يستقر لها قرار ، افضل من ايران البونابرتية التي قد تتكون نتيجة الحرب ، او ايران التي قد ينتهي امرها على الطريقة الافغانستانية خصوصا ان في ايران حزبا شيوعيا مؤثرا ٠

ولعل الجواب عن ذلك هو ان العراق دولة ومستعد للتعامل مع ايران الدولة ايا كانت طبيعتها وهويتها ٠ أما مع ايران ذات الوضع الزئبقي فلا مجال على ما بدا للتعايش والتفاهم ٠

الملاحظة السابعة ـ ان الحرب العراقية ـ الايرانية كانت الاولى بين دولتين عضوين في منظمة الدول المصدرة للنفط (الاوبيك) ٠ والحرب الاولى التي لا تتكاثر المداخلات في شأنها من جانب الدول الكبرى ٠ والحرب الاولى بين قائد في الثالثة والاربعين من العمر هو صدام حسين وقائد ناهز الثمانين هو اية الله الخميني ٠

وهي ايضا الحرب الاولى من نوعها في المنطقة بين توجه عربي قومي علماني وتوجه ديني ، والاولى التي يقودها صدام حسين بعد اقل من سنتين من تسلمه المسؤولية الكاملة علما بأنه هو شخصياً يعد العدة لها منذ ان كان شريكا في القيادة ٠

وهي ايضا الحرب الاولى التي يمنى فيها السلاح الاميركي بهزيمة ويحقق السلاح السوفياتي والسلاح الفرنسي تفوقا ملحوظاً ويتبين ان هنالك سلاحاً له فعاليته ويمتلكه الجيش العراقي هو السلاح البرازيلي . وبعد اليوم وبعد ان تتكشف حقائق كثيرة عن الحرب لن تعود شهرة البرازيل محصورة في البن، وانما في بعض أنواع السلاح ايضاً ٠

* * *

ويبقى ان الحرب العراقية ـ الايرانية اضافت تأكيدات الى ان صدام حسين من نوع القادة الاستثنائيين : استثنائي في تجربته النضالية المثيرة ٠ واستثنائي في اسلوب تمكين الحزب الذي ناضل فيه ومن اجله من تسلم السلطة ٠ واستثنائي في

انه مخطط من طراز غير مألوف . وفي اطار هذه الملحوظة تجدر الاشارة الى ثلاث حالات :

الاولى ـ عندما لم يترك لعسكريي حزب البعث ان ينفذوا لوحدهم عملية تسلم السلطة بشكل اولي يوم السابع عشر من تموز ١٩٦٨ وبالشكل الكامل يوم الثلاثين من الشهر نفسه والسنة نفسها ، وبذلك حمى المؤسسة الحزبية من هيمنة العساكر وابقى على فعاليتها.. ووقى المؤسسة العسكرية مخاطر اللعبة الاكثر شيوعا في العالم الثالث ونعني بها لعبة الانقلابات العسكرية . وفي الوقت نفسه اوجد وحدة بين مدنيي البعث وعسكرييه بحيث ان الطرفين ذابا في بحر العقيدة بدل ان يتناحرا حولها وعليها . وقد اظهرت الحرب العراقية ـ الايرانية بعد عشر سنين من هذا التخطيط لدور الحزب والجيش ولعلاقة كل منهما بالآخر كم ان ذلك التخطيط أتى بمردود جيد..

الثانية ـ عندما تمكن في فترة ممارسة الدور القيادي بالاسلوب غير المطروق (اسلوب القيادة بقائدين) من تحقيق انجازات داخلية اساسية مثل تأميم النفط وحل المسألة الكردية ورفع قدرات الجيش والشروع في بناء الدولة العصرية ومواصلة بناء الحزب القومي . ولولا هذه الانجازات لما كان استطاع ان يخوض الحرب ويحقق الانتصارات .

الثالثة ـ عندما اعتمد مرونة غير متوقعة ووحد الموقف العربي وتمثل ذلك في القمة التي عقدها الملوك والرؤساء العرب في بغداد وهي قمة حمت بالنتائج المتواضعة التي توصلت اليها ، الوطن العربي من الوقوع في شرك صفقة كامب ديفيد . وقد شكلت هذه القمة نقلة نوعية بالنسبة الى صدام حسين اذ انه اصبح بعدها « رجل العرب القوي » وليس فقط « رجل العراق القوي » .

ولقد شكل انعقاد القمة العربية في بغداد اول حالة تعايش مثالية بين البعث في العراق وانظمة عربية تقليدية كان البعث يرى قبل ذلك ان الضرورة القومية تفرض عليه العمل على ضربها ثم أصبحت انظمة تفرض الضرورة القومية عليه التعاون معها من اجل مواجهة الخطر الاكبر .

وفي اطار قدرته كمخطط تجدر الاشارة الى انه في الفترة القليلة التي تلت تسلمه المسؤولية الكاملة في الحزب والدولة عزز الشريان العربي في جسم حركة عدم الانحياز . وبعد قمة عدم الانحياز في هافانا (ايلول ١٩٧٩) وقبل القمة المقبلة في بغداد عام ١٩٨٢ سيكون معظم قادة عدم الانحياز زاروا العراق وسيكون الشريان العربي اصبح اكثر فعالية .

والى ذلك ان الرئيس صدام حسين يركز على القارة الافريقية بشكل لم نألفه في اسلوب التعامل العربي ـ الافريقي . ومنذ ان تسلم المسؤولية الكاملة في الحزب والدولة بدأ تنفيذ استراتيجية من تصميمه لهذا التعامل . وفي اطار هذه الاستراتيجية فإنه يختار بنفسه سفراء العراق لدى الدول الافريقية . ويحدث أنه يختار النوعية الممتازة بحيث انه خلال ثلاث سنوات سيكون سفراء العراق لدى الدول الأفريقية هم سفراء الدرجة الاولى في الخارجية العراقية بعدما كان السفراء لدى الدول الكبرى هم اصحاب هذه الصفة .

وعلى رغم ان هنالك معاهدة صداقة وتعاون بين العراق والاتحاد السوفياتي الا ان الميثاق الذي اعلنه الرئيس صدام حسين يوم ٨ شباط ١٩٨٠ لتنظيم العلاقة بين

الدول العربية ساوى بين الاميركان والسوفيات في مسألة التدخل الخارجي في شؤون الآخرين ، وهذا ما جعل الميثاق يحظى بشبه اجماع عربي وبارتياح نسبي من جانب معظم دول العالم الثالث .

وفي حركته السريعة وغير المألوفة لا يبدو صدام حسين أسير عقدة الزعيم التاريخي لانه هو في الاصل اكتسب مواصفات هذه الزعامة وجاءت الحرب العراقية ـ الايرانية تضيف الكثير على هذه المواصفات . ومن هنا فان المشاعر التي عانى منها على سبيل المثال جورج بومبيدو لأنه حكم بعد الجنرال ديغول وانور السادات لانه جاء بعد عبد الناصر والجميع الذين تعاقبوا على الحكم بعد رحيل نهرو وجميع الذين سيتعاقبون على الحكم بعد رحيل ماوتسي تونغ وتيتو .. ان هذه المشاعر لا أثر لها عند صدام حسين لانه يواصل بنفسه دورا بدأه قبل ان يتسلم حزب البعث السلطة عام ١٩٦٨ ثم بعدما قاد الى جانب الرئيس أحمد حسن البكر مرحلة انتهت يوم ١٧ تموز ١٩٧٩ بتسلمه المسؤولية الكاملة في الحزب والدولة .

ويبدو الرئيس صدام حسين في اسلوب قيادته على صعيد الداخل شغوفا ببعض اقطاب التراث العربي والاسلامي . والى ذلك انه رجل الازمات ، وعند حدوث اي ازمة او نشوء ظرف يتطلب قرارا كبيرا تستيقظ كل طاقاته من الشجاعة الى الحزم الى الحنكة . ولقد حدث هذا وهو يترجم التخطيط للحرب مع ايران الى قرار . وهو هكذا في كل قراراته على مدى عشرين سنة ، ومعظمها من النوع الصعب .

ولدى صدام حسين قدرة مذهلة على جعل الشعب لا يكترث بالخطر . ففي فترات حرجة من الحرب ظهر بين الناس في شوارع بغداد وقام بزيارات كثيرة لعائلات شهداء الحرب وزار الجرحى في المستشفيات . واذا كان البريطانيون يتباهون بانهم لم ينقطعوا خلال الحرب العالمية الثانية عن ارتياد المسارح بينما كانت لندن معرضة في اي لحظة للغارات الالمانية فان في استطاعة ابناء بغداد ان يتباهوا بأن رئيسهم الذين اعتادوا على زياراته التفقدية المفاجئة لهم في المنازل والاسواق والمدارس، لم ينقطع عن هذه الزيارات بينما كانت بغداد معرضة في اي لحظة لغارات الفانتوم الايرانية .

ومثل هكذا مواصفات تدفع بصاحبها الا ييأس اذا ووجه سعيه لممارسة الدور بالصد او الرفض او اشغاله بما من شأنه تعطيل السعي . وعندما قال للطيارين العراقيين خلال زيارة لهم بينما كانت الوحدات العراقية تقترب من مشارف عبادان « ان هناك قوى عدة تريد ألا يأخذ العراق دوره ومكانته لانها تعرف ان هذا سينعكس ايجابا على وضع الأمة العربية » ... انما كان يفسر ظواهر كثيرة رافقت الحرب وكلها تلتقي عند نقطة واحدة : العراق القوي شيء والعراق الاقوى شيء آخر . وقد بنيت المواقف على هذا الاساس .

وفي حدود ما استنتجته من جلسات الحوار الطويلة مع الرئيس صدام في فترة اعداد هذا الكتاب ومن الاسلوب الذي اعتمده الرجل في فترة التحضير للحرب ثم خلال ايامها الصعبة ، يمكن القول ان هاجس صدام حسين هو ممارسة الدور الكبير . ومثل هذه الممارسة تكون بالعراق الاقوى على رغم ما في ذلك من مخاطر .

فؤاد مطر



تمهيد

على مسافة قريبة من القصر الجمهوري الواقع على ضفة نهر دجلة الذي يخترق بغداد اقيم مبنى من بضع طبقات وعلى ارض شاسعة ليكون مقرا للقيادة القومية لحزب البعث العربي الاشتراكي الذي يقوده في العراق وبعقلية تتسم بتميز غير مألوف الرئيس صدام حسين .

ولقد راعى الذي صمم هذا المبنى النفسية البعثية وساعده على ذلك حرص الرئيس صدام حسين على ان يكون هذا المبنى افضل على سبيل المثال من مبنى الجامعة العربية الذي اقيم في القاهرة .

ويجمع هذا المبنى بين البساطة والذوق مع تطعيمات عصرية وتكنولوجية تكاد تكون غير مألوفة في المؤسسات الرسمية العربية . والى ذلك ان المبنى الذي وضع له نظام اضاءة خارجية تجعله مشعا طوال الليل، على شيء من الابهة والفخامة، الا انهما ليستا من النوع الذي يستفز .

وقد يكون الرئيس صدام حسين في قرارة نفسه وهو صاحب فكرة المبنى وهو الذي افتتحه بعد أيام قليلة من تسلمه مناصب قيادة الدولة والحزب في العراق ، رأى أن يكون المبنى نموذجا لما يجب ان يكون عليه العراق في المستقبل ، ومن أجل ذلك كانت له لمسات في مسائل كثيرة عند التصميم وبعد التنفيذ .

وفي الطبقة الثانية من هذا المبنى خصص جناح لكي يكون مكتب الرجل الذي اسس البعث وهو الاستاذ ميشال عفلق الذي يواظب، مادام في بغداد وليس في زيارة الى الخارج ، على الحضور الى المكتب الذي يستقبل فيه القياديين البعثيين في الاقطار العربية الذين يحرصون عندما يزورون بغداد على تحية الاستاذ . أما القياديون العراقيون فإن زياراتهم للمكتب منتظمة وهدفهم اشعار قائدهم التاريخي بأنهم حوله ويتطلعون دائما الى الاستئناس برأيه .

وقبل أن تحط الرحال بالاستاذ ميشال عفلق في بغداد وفي هذا المكتب وتلك الدارة الانيقة التي خصصت لسكناه في حي « المنصور » أحد أكثر الاحياء السكنية

رقيا في العاصمة العراقية كان الرجل قاسى الكثير في رحلة البعث الطويلة التي بدأت في مطلع الاربعينات .

وعندما طرح عفلق البيان الاول لحركة البعث على الناس ، وكانت فكرة تحويل الحركة الى حزب في مراحل متقدمة من الاختمار ، كان يفترض ان رحلة البعث ستكون قاسية لكن ليس بالضرورة ان تكون احد ابرز الفصول المأساوية في التاريخ العربي الحديث . وعنصر المأساة في الأمر ان البعث الذي يدعو العرب الى الوحدة غير موحد ، وان البعث الذي يفترض فيه ان يكون القدوة والأمثولة اخترقته ظاهرة التعامل بالاسلوب الانتقامي مع رجاله التاريخيين . وعندما يتحول ميشال عفلق وسائر التاريخيين الذين سقوا بذرة البعث زمنا طويلاً من أجل ان تنبت مطاردين ومحكوما عليهم من قبل البعث الذي يحكم في سوريا ، يصبح بالتالي تصور حجم المأساة التي نشير اليها .

كانت قضية العرب الاولى في الاربعينات هي الاستقلال . وكانت الوحدة هي الموضوع الذي من شأنه أن يشكل نقطة الجذب . وكانت الساحة السياسية في سوريا وقفا على حزبين هما الحزب الشيوعي والحزب القومي السوري وكلاهما ضد فكرة القومية العربية والوحدة العربية .

ولكن تبين بعدما طرح ميشال عفلق افكارا وحدوية ان هنالك توقا من جانب الكثيرين الى بلورة نقية للشخصية العربية . وهؤلاء كانوا يعيشون حالة فراغ معذبة . لقد رفضوا الايديولوجية الماركسية التي ينادى بها الحزب الشيوعي ولم تجذبهم فكرة القومية السورية التي تقسم الوطن العربي الكبير . وبين حالة الرفض وحالة عدم الانجذاب نشأت حالة الفراغ المعذبة .

ولو أن الدعوة الاسلامية التي بدأت تبرز في تلك الفترة لم تكن على شيء من الجاهلية لكان لها أن تشكل شبه بديل للباحثين عن هوية . لكن تلك الدعوة كانت عودة الى الوراء بينما جيل الاربعينات يتطلع نحو آفاق المستقبل .

ولم يجترح ميشال عفلق وبعض الحواريين الذين التفوا حوله معجزة عندما تحدث عن التاريخ العربي وعن القومية العربية وعن العروبة . وانما عرف كيف يعبر عن معاناة في النفس وكيف يحدد معالم الطريق للباحثين عن أمر مفقود .

ويذكر الذين عاشوا الفترة بين ١٩٤٢ و ١٩٤٥ ان التطورات السياسية الناشئة عن الاحتلال الفرنسي لسوريا ولبنان ضغطت في شكل لا مثيل له من أجل ان يتحول « البعث العربي » من حركة الى حزب خصوصا ان الحلقات التي أعتبرت الافكار التي طرحت تمثل طموحاتها وأمانيها اتسعت وتتسع يوما بعد آخر . فهي لم تعد وقفا على بعض الطلاب وبعض المدرسين وبعض المثقفين وانما بدأت هذه الافكار تستهوي اعدادا من المهنيين والحرفيين وموظفي الدولة . ولم تعد الساحة البعثية وقفا على دمشق وانما بدأ كثيرون في المدن السورية الكبرى يلتفون حول الحركة ويتبنون المبادىء التي طرحتها . والى ذلك بدأ هؤلاء يتصدون للشيوعيين الذين بدأوا يرون في حركة « البعث العربي » ما من شأنه ان يشكل معوقات في طريق حزبهم ، خصوصا ان الحركة بدأت تستقطب العناصر التي يرى الشيوعيون انها يجب ان تنتمي الى حزبهم وهذه العناصر هي الطلاب والمدرسون وصغار التجار والحرفيون .

ووجد الملتفون حول حركة « البعث العربي » انفسهم عرضة للاستفزازات

والتحديات والمطاردات . واستقر رأيهم على أن تكون المواجهة علنية .

وفي الايام الاولى من شهر تموز (يوليو) ١٩٤٥ كان اعضاء القيادة العليا لحركة « البعث العربي » وهم ميشال عفلق وصلاح البيطار ومدحت البيطار ينجزون طلباً قدموه الى وزارة الداخلية مرفقا بمبادىء الحركة للموافقة على قيام حزب البعث . وفي ٤ نيسان (ابريل) ١٩٤٧ عقد في دمشق المؤتمر التأسيسي للحزب ، وفيه تم اقرار دستور ونظام داخلي وانتخاب عميد هو الاستاذ ميشال عفلق وهيئة تنفيذية .

ولقد استطاع الحزب في الفترة بين مؤتمره التأسيسي وبين سقوط جمهورية شكري القوتلي في الانقلاب العسكري العربي الاول الذي قام به قائد الجيش السوري حسني الزعيم وتم في ٣٠ آذار (مارس) ١٩٤٩ ان ينظم نفسه في شكل جيد ويستقطب المزيد من المؤيدين . وافترض ان انقلاب حسني الزعيم هو ترجمة للمبادىء التي طرحها (الحزب) على الناس .

ولكن تقييم قيادة الحزب للانقلاب لم يكن مصيباً واستطاعت بعد مرور خمسة أسابيع على قيام الانقلاب أن توحد صفوف الحزب بعدما حدث نوع من التشتت نتيجة انها كانت اعلنت عن تأييدها للانقلاب وشجعت الاعضاء على القيام بتظاهرات للتعبير عن التأييد .

وجاء توحيد الصف في شكل مسيرة شعبية تعارض الانقلاب وقائده . ثم خطت قيادة الحزب خطوة متقدمة عندما رفعت مذكرة تطالب بحكومة ائتلافية وباعادة الحريات واجراء انتخابات ووضع دستور ، رد عليها حسني الزعيم باعتقال قادة الحزب وقادة الاحزاب الاخرى الذين عبروا عن معارضتهم لتوجهاته واسلوب حكمه .

ولم يكن من السهل على السوريين الخارجين من وطأة مقاومة الاحتلال الفرنسي تحمل الاسلوب الذي اعتمده حسني الزعيم في حكم سوريا . وعندما حسم الجيش الأمر عبر انقلاب بقيادة سامي الحناوي لقي فيه حسني الزعيم مصرعه ، وجد البعث يقف الى جانبه ، وكانت الوقفة ضمن مبدأ التعامل بالمثل لان الحناوي سمح للبعث بأن ينشط ووافق على ان تمنح وزارة الداخلية الحزب ترخيصا رسميا وعلى ان يستأنف اصدار صحيفة « البعث » الذي سبق له أن اصدرها لكي تكون المنبر الذي يعبر منه عن مبادئه واهدافه .

وخاض حزب البعث الانتخابات النيابية التي جرت لكنه لم يحقق فوزا ملحوظا . كذلك شارك من خلال عميده ميشال عفلق في الحكومة التي استقال منها بعد انتهاء الانتخابات ليهتم بالانتخابات الحزبية النظامية التي جرت داخل الحزب للمرة الاولى وانبثق عنها مجلس للحزب عقد مؤتمرا له في الاسبوع الاول من شهر كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٩ بحث فيه اموراً مستقبلية .

وبعد أيام قليلة من انتهاء اعمال هذا الموتمر كانت سوريا تشهد الانقلاب العسكري الثالث . ففي يوم ٢٠ كانون الأول ١٩٤٩ قاد أديب الشيشكلي انقلابا . وبدا منذ الوهلة الاولى أنه لا يحتمل الحزبيين ، وبالذات حزب البعث الذي دخل في مواجهات معه .

ولعل أهم الآثار التي تركتها الانقلابات العسكرية الثلاثة في نفوس قادة البعث هي الحذر ، بل والحذر الشديد من هذه الانقلابات ، بدليل ان الحزب استقبل ثورة

٢٣ يوليو ١٩٥٢ في مصر بالحذر ثم عاداها واستمر عداؤه لها حتى آذار (مارس) ١٩٥٥ ، ثم وجد نفسه نتيجة متغيرات شهدتها تلك الفترة أنه الحليف الطبيعي للثورة المصرية . ولعل أهم المتغيرات التي نشير اليها هي ان حديث العروبة بدأ يعلو في مصر عن غيره ، بل ان عبد الناصر وضع في الدستور نصا حول عروبة مصر . وقبل ذلك كان كسر احتكار السلاح بعقد صفقة السلاح التشيكي .

والى ذلك كان عبد الناصر حقق نوعا من الخطوات التي تعكس مفهومه الوحدوي وابرزها الميثاق العربي بين مصر وسوريا والسعودية ثم بعض المواثيق العسكرية الثنائية بين مصر وكل من سوريا والسعودية ، فضلا عن أنه خاض عربيا ودوليا من خلال مؤتمر باندونغ معركة مقاومة حلف بغداد .

وبعد زوال الحذر نتيجة للمتغيرات المشار اليها بدأ البعث ينادي باتحاد مصر وسوريا وبدأ يكثر من الايضاحات بأنه أعاد النظر في موقفه من عبد الناصر لان قائد الثورة المصرية هو الذي تغير . ولكن هذه الايضاحات ، ربما نتيجة كثرتها ، وربما بسبب نوعيتها ، جعلت الحذر الذي نشأ في نفس عبد الناصر بين ١٩٥٢ و ١٩٥٥ (الفترة التي حمل فيها البعث بعنف عليه) يتكرس ويشكل المأساة الكبرى في العمل القومي العربي ونعني بها التناقض بين عبد الناصر والبعث . وحتى برقية التأييد التي ارسلها الحزب لعبد الناصر من دمشق بعد انتخابه رئيسا للجمهورية بموجب دستور ١٩٥٦ لم تخفف من مشاعر الحذر في نفس قائد الثورة المصرية . واذا كان البعث اعتبر ان البرقية هي برقية تأييد فان عبد الناصر لم يعتبرها كذلك ، أو أنه اعتبرها نصف تأييد . فالبرقية تقول « الشعب العربي يرتقب متابعتكم للخطوات التي بدأتموها وهي السير بمصر نحو تحقيق العدالة الاجتماعية والديمقراطية السليمة والتأييد الفعال للنضال العربي في كل مكان » . وعبد الناصر بالعنفوان الذي تملكه في تلك الفترة استوقفته كلمتي « يرتقب متابعتكم » وكان يفضل ان تحل محلهما كلمتان آخريان لا تعكسان حالة الرصد التي اراد البعث ان يسجلها . فالترقب هنا يعني عدم اليقين . والمتابعة تعني ان هنالك بعض الشكوك في استمرار الأمر أو عدمه . والكلمات المفضلة ، بل والمقبولة من جانب عبد الناصر في تلك المرحلة العنفوانية هي من نوع « نبارك خطواتكم » أو « خطواتكم العظيمة » أو أي كلام من هذا القبيل .

هنا لا بد من وقفة ، قد توضح الملاحظات الثلاث التي سنوردها، أسباب الحذر . وهذه الوقفة ضرورية لأن فيها الجواب على طبيعة التعامل اللاحق بين البعث وعبد الناصر .

والملاحظات الثلاث التي نحن في صددها هي :

الملاحظة الاولى : ان قيادة البعث أبدت شكوكا في محاولة تغيير قام بها الضباط في مصر بقيادة جمال عبد الناصر ، لمجرد ان لها تجربة مرة مع ثلاث محاولات قام بها العسكريون في سوريا . وعندما يرى شخص مثل عبد الناصر ان هنالك شكوكا في عذريته الثورية ومشاعره العربية وتطلعاته التقدمية ومن فصيل مطلوب منه في الدرجة الاولى وقبل غيره ان يشكل خط التأييد الاول له ، فمن الطبيعي ان يتملك منه الحذر ، خصوصا ان شكوك البعث استمرت حوالى ثلاث سنوات .

الملاحظة الثانية : ان قيادة البعث بقدر ما انها ابتهجت لكون ضابط في مصر يقود حركة تغيير ويرفع مبادىء وشعارات طرحتها هي في سوريا قبل عشر سنين

من قيام حركة التغيير المصرية ، بالقدر نفسه تملكها نوع من الضيق لسببين أولهما ان قيادة البعث لم تستطع تحقيق هذا التغيير في سوريا ، وثانيهما لان حركة التغيير التي حدثت في مصر رفعت. وبالتحديد بعد السنوات الثلاث الاولى - في الواقع شعارات رفعها البعث قبل عشر سنين من دون ان يؤخذ ذلك في الاعتبار ، علما بان تحقق الهدف يتجاوز مسألة من الذي سبق وحدد الهدف ـ ان اصول الزهد الثوري توجب ذلك .

والى ذلك ان قيادة البعث استشعرت ملامح صورة في الافق لا تطيقها وهي أنه بعد الذي حدث في مصر لن يكون هنالك تغيير ثوري الا عن طريق العسكريين ولن تكون هنالك قدوة بعثية وانما القدوة الناصرية .

وفي العادة ان اصحاب المبادىء يشعرون بشيء من الغيرة على مبادئهم خصوصا عندما يكون هؤلاء مبادرين في استنباطها وطرحها .

الملاحظة الثالثة : في المقابل ان عبد الناصر بعدما اتضح افقه الوحدوي والقومي والعروبي بدأ لا يتحمل ان يقال له أو حتى يتذكر بأن البعث سبقه قبل عشر سنين في طرح مثلث الطموح « وحدة . حرية . اشتراكية » وان اعادة ترتيب الشعار بحيث جاءت « حرية . اشتراكية . وحدة » لا تسقط مبدأ الاقتباس .

واذا جاز القول فان ثمة شعورا مفرطا بالحساسية تجاه البعث انتاب عبد الناصر خصوصا بعدما تبين له ان عمقه العربي بلغ القمة بالوحدة التي حققها مع سوريا وليس بالحرية التي حققها لمصر ، بمعنى أنه في الوحدة مع سوريا اخذ بالترتيب البعثي وليس بالترتيب الذي اعتمده .

والى ذلك ان عبد الناصر بدأ لا يتحمل ان يواصل البعث تبشيره ، وان عليه ترك الأمر له . وتلك بالنسبة الى قيادة البعث كانت تعني المصير ، وكانت بلغة العمل التقليدي اذا جازت المقارنة بمثابة انهاء خدمة من دون تعويضات .

في الفترة التي كان فيها البعث في سوريا يستعد لمؤتمره التأسيسي بدأت تتسرب الى العراق كتيبات ذات مضمون غير مألوف . وقد استهوت هذه الكتيبات ومنها « احاديث في البعث العربي » و « في السياسات العربية » اعدادا من المثقفين العراقيين واستوقفهم ان الكتيبات تحمل توقيع « البعث العربي » . وقد ساعد على انتشار هذه الكتيبات ان مجموعات من شباب الاسكندرون وصلت العراق بهدف الدراسة حاملة معها افكار الحزب الذي رأى النور في سوريا . ولم تمض ثلاث سنوات الا والشباب العراقي المثقف يزداد حماسة لافكار البعث . وعندما حدثت الانتفاضة الوطنية المعروفة بـ « انتفاضة تشرين ١٩٥٢ » في العراق كان البعثيون الذين استهوتهم افكار البعث ولم ينتظموا بعد ينشطون في سبيل انجاح الانتفاضة . ولقد دفعهم ذلك الى تنظيم صفوفهم في حزب اتخذ طابع السرية . وعندما كشفت صحيفة « الاخبار » آنذاك عن ذلك وقالت انه كان لهذا الحزب دور كبير في التهيئة للاضطرابات والتظاهرات التي عمت مدن العراق تزايد اهتمام المثقفين والعمال به ، وتزايدت تبعا لذلك مراقبة أجهزة الأمن وهذا يعني ان مسألة العمل السري نشأت منذ البداية .

وتشاء الصدف ان هذا التنبه من جانب المثقفين والعمال والمدرسين لافكار البعث حدث في وقت كان الحزب الشيوعي العراقي وهو الحزب الاقوى والاكثر

شعبية في تلك المرحلة يعيش تناقضات ويشهد انقسامات حادة في صفوفه تركت أثرها على قدراته في التحرك الشعبي . ومن هنا وجد البعثيون الساحة رحبة أمامهم. وفي هذه الساحة سجلوا جولات جعلت نسبة التفاف الجماهير حولهم ترتفع، وجعلتهم يستعجلون الانتقال الى اسلوب آخر في ممارسة النشاط السياسي ، حيث انهم انشأوا عام ١٩٥٣ صحيفة مركزية سرية سموها « العربي الجديد » ثم اختاروا اسما آخر لها وهو « الاشتراكي » على اساس ان هذه التسمية من شأنها ان توضح المحتوى الاجتماعي فضلا عن انها قد تساعد على استقطاب المزيد من العمال ومن الفئات الشعبية عموما . وكان واضحاً انهم في ذلك يبحثون عن وسيلة يواجهون بها الشيوعيين .

ولكن اصدار الصحيفة لم يكن بالامر السهل . فليس لديهم مطبعة جيدة . وآلة (الرونيو) التي يستخدمونها رديئة جدا بحيث أن أحرف الصحيفة كانت تقرأ بصعوبة . ولكن مع ذلك حدث اقبال على هذه الصحيفة وتزايد تبعا لذلك الشعور بأهميتها . وهذا الاقبال جعل بعض الكتاب البعثيين يسعون من أجل الكتابة في العلن ، اي في صحيفة عادية تباع من الناس ، وليس في صحيفة سرية . وبدأت مقالات البعثيين تصدر في صحيفة اسمها « الحرية » وشيئا فشيئا باتوا هم الذين يحررون الصحيفة ، لكن ذلك لم يدم طويلا لان السلطة هددت صاحب الصحيفة باقفالها اذا استمرت على ما هي عليه . وعلى رغم قصر فترة ممارسة الكتابة في العلن فان هذه الفترة نبهت البعثيين الى اشياء كثيرة وجعلتهم من خلال انتشار الصحيفة يقفون على حجم التأييد الشعبي لهم ومدى التقبل لافكارهم . وجاءت زيارة رئيس وزراء تركيا عدنان مندريس الى بغداد بهدف البحث مع حكومة نوري السعيد في مسائل تتعلق بانضمام العراق الى الحلف التركي ـ الباكستاني مناسبة لكي يواجهوا هذا السعي مستندين الى حجم التأييد الشعبي لهم ومدى التقبل لافكارهم فضلا عن الغياب المتواصل للحزب الشيوعي عن ساحة العمل السياسي نتيجة التناقضات والانقسامات. وقد نشطوا لهذا الغرض في الكليات والمعاهد ، وكانت لهذا النشاط آثار ، حيث ان اضرابات واحتجاجات وبيانات استنكار حفلت بها تلك الفترة . وعلى رغم حملة الاعتقالات التي ردت بها السلطة الا أن ذلك كرس وجود البعث كقوة سياسية بين القوى والتنظيمات الموجودة آنذاك ، وجعله يبادر الى طرح صيغة لجمع القوى والتنظيمات في جبهة وطنية مالبثت ان تشكلت وعرفت باسم « جبهة الاتحاد الوطني » . وضمت بالاضافة الى حزب البعث كلا من الحزب الشيوعي وحزب الاستقلال والحزب الوطني الديمقراطي فضلا عن العناصر الوطنية المستقلة .

وواضح ان الغرض من هذه المبادرة مزدوج : تكثيف جهد القوى الوطنية ضد الحكم من جهة ، ومحاولة من البعث لاختراق هذه القوى والوقوف في شكل أو آخر على نقاط الضعف والقوة فيها خصوصا انها صاحبة تجربة أكثر عراقة منه على صعيد التنظيم والعمل السياسي. بل ان البعثيين ارادوا من عملية الاختراق هذه ضرب هذه القوى في شكل أو آخر لأن من شأن ذلك اضعاف شوكة الآخرين وتقوية شوكة القوة السياسية الجديدة التي تواصل التألق . وفي الاساليب التي تعتمدها الاحزاب يبدو مثل هذا الأمر مألوفا وطبيعيا ومشروعا .

طرح البعثيون مبادرة تشكيل الجبهة الوطنية وواصلوا في الوقت نفسه

محاولاتهم من أجل ترسيخ وجودهم السياسي . وكما ان زيارة عدنان مندريس للبحث في ترتيبات اقامة الحلف الثلاثي كانت مناسبة جيدة حققوا من خلال تصديهم لها حضورا سياسيا قويا ، فان العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ جاء هو الآخر يشكل مناسبة لبلورة ذلك الحضور . ومرة أخرى تتزايد الاعتقالات في صفوفهم وتكثر المطاردات لهم ، وكان ذلك دليلا على انهم باتوا قوة لها فعاليتها . وقد ظهر ذلك واضحا خلال التحرك المشترك للجبهة الوطنية ، وبالذات في ربيع ١٩٥٨ ، أي قبل قيام ثورة ١٤ تموز بأشهر قليلة . ففي ذلك الربيع جرت انتخابات نيابية . وفي حين رأى البعثيون ان تخوض « جبهة الاتحاد الوطني » المعركة وتبذل كل الجهد الممكن من أجل أيصال عناصر منها الى البرلمان ، فان سائر اطراف الجبهة نادت بمقاطعة الانتخابات . ووافق البعثيون ازاء اصرار تلك الاطراف على الفكرة مقترحين ان يكون هنالك تعبير عن المقاطعة بحيث لا تنزوي اطراف الجبهة وتترك السلطة تفعل ما تريد ، وانما تدعو الى الاضرابات والتظاهرات وتكلف عناصر منها باحراق صناديق الاقتراع ... وهكذا . لكن هذه الاطراف لم تلتزم بالاتفاق واختارت المقاطعة السلبية . ووجد البعثيون انفسهم وحدهم ينظمون التظاهرات وينفذون الاضرابات ويحرقون صناديق الاقتراع ، ممهدين بذلك الطريق أمام الثورة التي قام بها يوم ١٤ تموز ١٩٥٨ حوالى مئة ضابط اختاروا عبد الكريم قاسم رئيسا لهم .

ولكن البعثيين لم يقطفوا شيئا من ثمار هذه الثورة لان حكم عبد الكريم قاسم ضربهم وتحالف مع الشيوعيين ضدهم . وكان هذا التحالف وما نتج عنه من ممارسات بالغ الخطورة ، لانه استهدف ضرب الاتجاه القومي الذي يمثلونه هم وبعض الشباب القومي غير البعثي .

ونتيجة لما لقيه البعثيون في عهد عبد الكريم قاسم حدث تبدل اساسي في مفاهيمهم . باتوا يؤمنون باعتماد العنف في التصدي للسلطة بعدما كانوا يدينون اعمال العنف من جانب سلطة نوري السعيد في الماضي .

من هذا التمهيد قصدنا اعطاء صورة مختصرة عن كيفية ولادة البعث في العراق بعدما كان نشأ في سوريا .

وفي ٨ شباط (فبراير) ١٩٦٣ ـ ولم يكن صدام حسين آنذاك في العراق ـ قام حزب البعث بثورة لم يقدر لها أن تبقى أكثر من تسعة أشهر . وبعد سقوطها نشأ انشقاق في الحزب وحدثت ازمات عميقة داخل صفوفه .

... وفي هذه المرحلة يبرز الدور القيادي لصدام حسين .

الفصل الأول

مِن التمرُّد عَلى الأسْرة
الى الثورة على السُّلطة

" آني امها و آني ابوها "

مثل عراقي يقال
في وصف المقتدر

في السنة التي كانت فكرة تحويل حركة البعث العربي الى حزب قاربت من النضوج عند ميشال عفلق في دمشق ، كان صدام حسين الذي ولد يتيما يقترب من السنة الثامنة وهو لم يدخل المدرسة بعد فالاسرة تريده فلاحا مثل كل الفلاحين فيها . ولولا أن إبن خاله عدنان خير الله (اصبح وزير الدفاع بعدما تسلم صدام حسين المسؤولية الكاملة في الحزب والدولة) وكان في مثل سنه حدثه عن المدرسة وكيف أنه بات يقرأ ويكتب ويرسم ، لما كان الطفل صدام حسين يتخذ قرارا بالسفر مع قريبه الى بلدة تكريت لكي يلتحق بالمدرسة .

وكان ذلك هوالتمردالأول من جانبه على ارادة الاسرة التي كانت في ذلك الوقت تسكن منطقة « شويش » .

لقد كان من الصعب اقناع الاسرة فاختار الطفل صدام حسين اسلوب المباغتة . كانت الاسرة نائمة عندما انسل من فراشه ومشى ساعتين في وسط الظلام الى ان وصل الى منطقة يعمل فيها بعض اقربائه . وقد استغرب أحدهم ان يجده بينهم بهذا الشكل المفاجيء ، ثم زال الاستغراب عندما اوضح لهم أنه يريد أن يدخل المدرسة في تكريت بينما الاسرة تعارض .

ووجد الطفل صدام من اقربائه تشجيعا كبيرا عبروا عنه بأن أهدوه مسدسا ووضعوه في سيارة نقلته على مرحلتين الى تكريت حيث رحب بمقدمه الاقارب وأثنوا على القرار الذي اتخذه .

وبعدما أنهى السنة الاولى من الدراسة المتوسطة في المدرسة وجد نفسه يشد الرحال الى بغداد بعدما قرر خاله خير الله طلفاح الذي يرعاه منذ ان ولد يتيما الانتقال الى العاصمة . وفي مدارس بغداد أنهى مرحلة الدراسة المتوسطة ثم دخل المرحلة الثانوية .

أواخر العام ١٩٥٧ وكان صدام حسين في العشرين من عمره انضم الى حزب البعث الذي وجد في مبادئه ما يترجم مشاعر وطنية زرعتها في نفسه أحاديث

والدته عن خاله الضابط خير الله طلفاح الذي شارك في مقاومة الانكليز من خلال ثورة رشيد عالي الكيلاني (ايار ١٩٤١) وعن بعض الاقارب الذين قتلهم الانكليز وأحرقوا لهم بيوتهم ، وعن الأجداد الذين قاوموا الحكم التركي ببسالة .

هذه الأحداث وغيرها فضلا عن الرواسب التي تركتها ممارسات الاستعمار البريطاني واستمرار الحكم العراقي أسير إرادة هذا الاستعمار ، جعلت صدام حسين يقرر ممارسة العمل السياسي وجاءت واقعة مفاجئة لتعزز هذا القرار .

ففي أحد ايام ١٩٥٨ وبعدما قامت ثورة ١٤ تموز لقي احد رجال السلطة مصرعه في تكريت . واتهمت السلطة صدام حسين ووضعته في السجن . وفي هذه الاثناء كانت ممارسات محكمة المهداوي وهي المحكمة التي أنشأها عبد الكريم قاسم الذي كان أحد الذين شاركوا في ثورة ١٩٥٨ تزرع الرعب في نفوس الناس . فالذي يحاكم أمام هذه المحكمة لا بد سيتم إعدامه .

داخل السجن في تكريت تعرف صدام حسين على بعض رفاقه في حزب البعث وكان هؤلاء قلقين على رفاقهم الذين خارج السجن أكثر من قلقهم على أنفسهم . ففي الخارج هنالك مطاردات ، وهنالك عمليات سحل تستهدف البعثيين والقوميين في الدرجة الاولى . ومن يسلم من السحل لن يسلم من الضرب والاهانة .

واستطاع صدام حسين ورفاقه المسجونون توثيق علاقاتهم مع بعض حراسهم من أجل أن يحموا لهم الرفاق الذين في الخارج . واقنعوهم بأن يعتقلوا هؤلاء ويضعوهم في السجن على أساس أن السجن يشكل حماية لهم من عمليات السحل التي لا تتوقف . وهكذا جيء بعدد من البعثيين الى السجن باختيارهم . ويبقى هؤلاء في السجن حتى الثامنة مساء ثم يفرج عنهم لكي يقوموا ببعض النشاطات ليلا ويعودوا الى السجن قبل أن تشرق الشمس . ولقد استمر ذلك بضعة ايام .

نتيجة الضغوط القومية فضلا عن اسلوبه في الدفاع عن نفسه تم الافراج عن صدام حسين . وبعد الافراج عنه تبلغ ان الحزب يريده في بغداد .

ماذا في بغداد ؟

بعدما وصل صدام حسين الى العاصمة من تكريت وجد أحد رفاقه في الحزب يسأله : هل انت على استعداد لاغتيال عبد الكريم قاسم ؟

لم يتردد صدام حسين في أن يقول نعم على الفور . لقد فرح لهذا التكليف ، واعتبره تكريما له .

وعلى الفور بدأ يتدرب على إستعمال الأسلحة الرشاشة بعدما كان أتقن استعمال المسدس ، استعدادا لتنفيذ عملية ضرب عبد الكريم قاسم التي تقوم على اطلاق النار عليه خلال مروره في شارع الرشيد منتقلا من منزله الى مقره الرسمي في وزارة الدفاع أو العكس .

بالاضافة الى التدرب على استعمال الاسلحة الرشاشة بدأ صدام حسين يتعرف على بغداد وبالتحديد على المنطقة التي ستنفذ فيها العملية . وفي هذه المنطقة تم استئجار شقة لتكون وكرا يجتمع فيه الذين سيشاركون في تنفيذ العملية مع صدام حسين .

تم وضع الخطة واختيار كلمة السر وبات كل شيء جاهزا . لكن تباطؤاً في تبليغ كلمة السر للعناصر المشاركة من قبل العنصر الذي يرصد تحرك موكب عبد

الكريم قاسم في شارع الرشيد جعل المحاولة تتأجل . ثم نفذت العملية بدقة بعد ذلك .

كان المشتركون في العملية خمسة من بينهم صدام حسين الذي اوكلت اليه مهمة حماية الأربعة الذين سيطلقون النار على سيارة عبد الكريم قاسم . اثنان يطلقان النار على المقعد الامامي واثنان يطلقان النار على المقعد الخلفي . لم يكن مطلوبا منه اطلاق النار وإنما تأمين حماية رفاقه الاربعة والانسحاب بعد أن يكون هؤلاء انسحبوا . لكنه لشدة حماسه وجد صدام حسين نفسه يسحب رشاشا صغيرا تحت سترة طويلة أخذها من خاله لطيف طلفاح ويطلق النار على سيارة عبد الكريم قاسم ، ثم ينسحب بعد تأمين إنسحاب رفاقه الاربعة الذين اصيب أحدهم في صدرة من رصاص أحد رجال شرطة المرور ، على رغم أن رصاصة أصابت رجله اليسرى .

اتجه صدام حسين وهو مصاب ومعه رفاقه الذين تعاونوا في حمل رفيقهم الذي اصيب في صدره الى سيارة كانت تنتظرهم في شارع خلفي ، نقلتهم الى أحد أوكار الحزب في العاصمة . وكانوا يفترضون أن العملية نجحت وقتل عبد الكريم قاسم .

ازدادت حدة النزف في الرجل اليسرى لصدام حسين . ولما كان من الصعب الاستعانة بطبيب أو الانتقال الى مستشفى فانه طلب من أحد رفاقه اجراء عملية له ، وعندما استفسر هذا الرفيق عن طريقة اجراء العملية قال له صدام حسين : احضر شفرة حلاقة قص بها اللحم حول مكان الرصاصة ثم أحضر مقصا عقمه ببعض اليود الموجود في الوكر وأدخله في الجرح وأنزع الرصاصة ثم اربط الجرح ببعض الشاش . وقد فعل الرفيق بما اشار اليه صدام حسين الذي شعر بالاغماء لكنه بعد دقائق استعاد وعيه . وعند حلول الظلام غادر صدام حسين الوكر الى بيت خاله لطيف طلفاح الذي فاجأه بسؤال عما اذا كان عبد الكريم قاسم قد مات . وتبين ان الخال كان قد راقب من على شرفة أحد اصدقائه عملية تنفيذ محاولة الاغتيال .

وفي الوقت الذي كان صدام حسين وهو في منزل خاله يعالج عن طريق مضمد الالتهاب الذي يحتمل حدوثه نتيجة إصابته في رجله اليسرى وذلك ببعض الحقن التي كان يأخذها بحجة أن لوزتيه ملتهبتان ... في هذا الوقت بلغه ان رفاقه الذين شاركوا في تنفيذ محاولة اغتيال عبد الكريم قاسم قد اعتقلوا وأن عليه أن يتدبر الأمر قبل أن يعتقل خصوصا أنه بسبب الاصابة بدأ يعرج ولا بد أن ذلك سيثير انتباه جماعة الأمن . وغادر المنزل الذي داهمه رجال الأمن بعد ربع ساعة .

وتذكر صدام حسين أحد معارفه فقصده وأمضى الليل عنده ثم بدل البنطلون بدشداشة ووضع كوفية وعقالا على رأسه وطلب حذاء قديما انتعله وسكينا وضعها في جيبه وقرر أن يغادر بغداد مطمئناً الى مبلغ ثلاثة وعشرين ديناراً كان معه . ولكنه لا يعرف بغداد التي عاش فيها سنتين حق المعرفة لكي يغادرها بأمان . ثم سلك طريقا ورأى سيارة أجرة تحدث مع سائقها بلهجة بدوية لكن اسلوب السائق في الحديث جعله لا يطمئن اليه فنزل من السيارة بعد قليل وحاول السير على قدميه لكنه لم يستطع . ثم شاهد فرسا على مقربة منها صاحبها فاشتراها بسبعة عشر دينارا . وركب الفرس وسلك طريق نهر دجلة الذي يوصله الى تكريت . ثم اشترى للفرس شعيرا واشترى ايضا بعض الخبز والتمر ليقتات به في رحلته التي ستكون طويلة .

اثر صدام حسين الا يسير ليلا تفاديا لورطة ما قد يقع فيها . وعند حلول الليل شاهد أحد الأعراب (أي البدو الرحل) فطلب أن يقبله ضيفا عنده . وعند الصباح ركب فرسه وواصل السير . وكان يرتاح بين الحين والآخر ويطعم فرسه ويسقيها ثم يأكل من التمر والخبز التي تزود بها . ولما لم يجد بيتا ينام فيه الليلة الثانية فانه ربط عنان الفرس بيده واستلقى على الارض ينتظر طلوع الفجر. لكن الليلة الثالثة عوضته مشاق الليلة الثانية . فقد حدث وهو يقترب من بلدة سامراء أن رأى بيت شعر لاحظ بعد اقترابه منه ان اصحابه يحتفلون بختان أحد أبنائهم وقد ذبحوا للمناسبة خروفا فتعشى طعاما لذيذا بعدما كان الخبز والتمر غذاؤه في اليومين الماضيين ، ونام مطمئنا مرتاحا .

وفي اليوم التالي اشترى بطيخا من إحدى المزارع . وقد ساعده البطيخ على أن يقاوم هو وفرسه العطش خصوصا بعدما سلك طريقا لا نهر فيه .

فجأة وبينما هو يسير توقفت سيارتان بالقرب منه وصرخ الذين فيهما طالبين منه التوقف وإلا أطلقوا النار عليه . وأدرك أن هؤلاء من رجال الجمارك وليسوا من البدو الرحل الذين لا يستعملون هذا الانذار . وعندما حاول أن ينطلق بالفرس أحاطوا به ووجهوا الرشاشات اليه .

أوقف صدام حسين فرسه ونزل عنها تاركا عباءته تغطي الشاش الابيض الذي لف به ساقه المصابة . ولقد تعمد بحركة سريعة أن يغطي الشاش الأبيض بالعباءة لانها دليل حي على انه هو المطلوب القبض عليه . كذلك راح يفكر في الثواني التي استغرقها توقفه عن السير ثم نزوله عن الفرس بالاجوبة التي سيرد بها على الاسئلة التي ستوجه اليه . وقبل أن يباغته هؤلاء بالسؤال اعتمد هو اسلوب المباغتة . سألهم على الفور لماذا فعلوا به ذلك ولماذا توجيه الرشاشات اليه . وأجابوه انهم يرون انه مبعوث من قبل المهربين لاستكشاف الطريق لهم .

ولكي يزرع الثقة في نفوس رجال الجمارك ناصبي الكمين للمهربين ألح عليهم كي يأخذوه الى المركز لكي يؤكد أمام قائده أنه لا علاقة له بهذه المنطقة وأنه فقط في طريقه الى أهله من البدو .

ووجد ايضا نفسه يجيب بذكاء وبهدوء عندما طلبوا منه بطاقة الهوية فرد بأن « العربان لا يحملون بطاقة هوية » .

ولمجرد ان اطمأن رجال الجمارك تركوه يركب فرسه بعدما جعلوه يقسم اليمين بأنه اذا رأى في الطريق احدا لا يخبره بوجود كمين .

ولم ينس بعدما سار مسافة عن رجال الجمارك أن يتطلع فقط أمامه لانه لو التفت الى الوراء كان سيجعل رجال الدورية يشكون ويلحقون به .

فجأة وجد صدام حسين نفسه بعدما وصل الى بلدة سبق له أن زارها قبل اربع سنوات امام مركز الشرطة . ماذا يفعل ؟ تصرف بكل هدوء . القى على رجال الشرطة التحية ولم يعترضه أحد منهم . وتوجه الى مقهى للاستفسار عن طريقة يعبر فيها النهر من ضفة الى اخرى . وعرض على أحدهم أن ينقله هو وفرسه على نقالة نهرية مقابل دينار ونصف دينار . وأتاه الجواب : لا استطيع فهناك منع تجول . ولو ان صدام حسين اعطاه السبعة دنانير وهي كل ما تبقى معه لكان نقله ، لكن صدام حسين خشي أن يشك الرجل فيه ويشي به .

وقرر أن يعبر النهر سباحة . ولكن ماذا يفعل بالفرس . فهو اذا عبر بها سيثير

تساؤلات البدو في الضفة الأخرى .

وترك الفرس . ثم خلع ملابسه وعباءته وربطها فوق رأسه . ووضع السكين مفتوحة في فمه وعند منتصف الليل بدأالسباحةفي جو بارد . وكان عندما يشعر بالتعب يزداد اندفاعا من اجل الوصول الى البر الآخر . ليس أمامه خيار آخر .

وعندما وصل الى الضفة كان في غاية التعب ، وأسنانه تصطك من شدة البرد . وسمع صوت كلاب تنبح فقرر أن يقصد مكان الصوت حيث أنه لا بد سيجد سكانا يطلب منهم الدفء قبل الطعام .

طرق باب أحد المساكن وهو على الحالة الصعبة التي كان عليها . فتحت له الباب امرأة لمجرد أن رأته صرخت : حرامي .

إنها لا تدري أنه مناضل وليس سارقا . لكن من سيوضح لها الأمر ، وبعدما عاودت الصراخ : حرامي اذبحوه ، وصل رجل يريد أن يضربه .

ما دام صدام حسين أمام رجل ، إذن عليه أن يتصرف ويقنعه بأنه ليس سارقا على الأقل ، أما أنه مناضل فلا ضرورة لاقناعه بذلك .

وقال له : هل ان حالي حال سارق ؟

وتحقق له ما يريد . فبعد محادثة قصيرة طلب الرجل من صدام حسين المبيت عنده .

وبدأ صدام حسين تنشيف ملابسه على نار موقدة الرجل الذي استضافه بعدما كان ينوي ضربه .

شعر بالدفء واستعاد بعض نشاطه . وفي اللحظة التي استأذن بالانصراف جاءته مفاجأة كالصاعقة . قال له الرجل الذي التف حوله اخرون من عشيرته : كيف تستأذن وتنصرف . إنك عبرت نهر دجلة بثيابك ومعنى ذلك أن هنالك أمرا كبيرا وسرا أكبر . ونحن لن ندعك تنصرف الا اذا عرفنا حقيقتك .

مرة أخرى كان على صدام حسين أن يتصرف بما ينقذه من التورط . ووجد نفسه يخاطب الرجل بعقلية بدوية : لنفترض أنني اقترفت امرا كبيرا مع عشيرة من العشائر التي تقطن الضفة التي عبرت منها . ولنفترض أن رجال هذه العشيرة لحقوا بي الى هنا وقتلوني في دياركم . فما هي مصلحتكم في أن تثأر عشيرتي منكم عندما تعرف أنني قتلت بينكم ؟

وتحقق له ما يريد . قال له الرجل : صحيح كلامك . ربنا يكفينا شرك .

أخذ صدام حسين كوفية أحد الرجال الذين اقتنعوا بسلامة تركه يواصل السير . كانت الساعة تشير الى الأولى بعد منتصف الليل . والبرد قارس . ولكن صدام حسين شعر للمرة الاولى ببعض الاطمئنان ، ذلك انه بات قريبا من بلدة عوينات » حيث يعمل شقيقه أدهام حارسا لمدرستها الابتدائية .

مشى طويلا قبل أن يطرق باب المدرسة ويستقبله شقيقه بالدموع . ثم انتقلا إلى منطقة « العوجة » حيث الأهل والاصدقاء والأقارب .

من « العوجة » بدأت رحلة اخرى مضنية وهي تأمين وصول صدام حسين برغبة من حزب البعث الى الاراضي السورية . وفي تحركات سرية ومدروسة بدأت الرحلة بواسطة سيارة جيب ثم بواسطة حمارين ودليل أمكن العثور عليه بصعوبة .

كانت الخطة تقضي بالسير ليلا والاختفاء نهارا . وتطلب التحرك تفادي

الاستراحة في بيوت بدو المنطقة كي لا يكشف أحد منهم الامر .
وسارت الأمور بشكل جيد الى ان وصل الموكب الى ما قبل منطقة البوكمال السورية بحوالى عشرين كيلو مترا . هنا بات الحذر شديدا جدا . وهنا عاش صدام حسين والذين معه ساعات صعبة .. شربوا المياه الوسخة التي تبول فيها الاغنام وكانوا يصفونها من الرمل والديدان قبل أن يشربوها . وأثناء الليل كانوا يتناوبون الحراسة مخافة أن تكتشف مكانهم احدى الدوريات .

وعندما وصلوا الى منطقة قريبة من الحدود وجدوا كهفا احتموا به وبئرا صافية شربوا منها . وارتاح الدليل الذي كان يكثر من الشكوى على رغم انه هو الذي كان يركب الحمار وصدام حسين يمشي .

لم يكتشف صدام حسين ومن معه انهم دخلوا الاراضي السورية الا بعدما كانوا ساروا فيها مسافة . هنا زالت المخاطر وحل شعور بالطمأنينة خصوصا انهم قبل ذلك كانوا تخلصوا من دورية ليلية .

ارتاح صدام حسين في البوكمال ثم في دير الزور أهم مدينتين على الحدود مع العراق قبل ان ينتقل الى دمشق التي بقي فيها ستة اشهر .

ويوم ٢١ شباط (فبراير) غادر دمشق الى القاهرة لتبدأ رحلة جديدة في حياته .

في البداية التحق بمدرسة أعد فيها نفسه للالتحاق بكلية الحقوق في جامعة القاهرة . وفي الوقت نفسه نشط بجدية من أجل تعزيز المنظمة القيادية للبعث في مصر .

وفي القاهرة تعرض صدام حسين لما يتعرض له كل لاجىء سياسي . مضايقات ومراقبات وتفتيش . ولم تنحسر هذه الامور الا بعدما أبلغ صدام حسين أحد موظفي رئاسة الجمهورية بأنه ليس مستعدا ان يتحمل هو ورفاقه هذه المضايقات .
وخلال وجوده في مصر انتخب عضو قيادة فرقة في الحزب ثم عضو قيادة شعبة ثم عضو قيادة فرع مصر . وبعد اسقاط حكم عبد الكريم قاسم وقيام ثورة ٨ شباط ١٩٦٣ عاد الى بغداد ومارس عمله الحزبي عضوا في قيادة مكتب الفلاحين المركزي .

في العراق بدأ يلاحظ أن الحزب في حالة لا توحي بالاستقرار . فهنالك انقسامات وهنالك افتقاد الى قيادة حازمة تنقذ الحزب . ومثل هذه الامور لم يكن صدام حسين يفترض وجودها ربما بسبب غيابه القسري عن العراق .

كانت الامراض متفشية داخل الحزب وصفها في احدى المرات بعدما اصبح نائبا لرئيس مجلس قيادة الثورة بالآتي : « كان هنالك جو ارهابي تكتلي مشحون ، وكان هنالك استزلام وعقبات توضع أمام الرفاق الذين يعملون في اطار الخط الصحيح للحزب » .

بدأ صدام حسين يتصدى للامراض المتفشية داخل الحزب . ورد قياديو تلك الفترة بتعبئة الحزبيين ضده ثم بمحاولات للاعتداء عليه . ثم حدث بعد ذلك انقلاب عسكري ضد البعث بقيادة عبد السلام عارف الذي راح يلاحق البعثيين وفي مقدمتهم صدام حسين . وهنا بدأت معاناة احمد حسن البكر وصدام حسين تتبلور . وفي نظر صدام حسين كان لا بد من حزب قوي يتصدى لنظام عبد السلام عارف ويستعيد الثورة .

في هذه الاثناء كان صدام حسين قد سافر سرا الى دمشق للمشاركة في المؤتمر القومي السابع للحزب ، ومنها وفي ضوء التشاور مع ميشال عفلق ، نشط في سبيل بناء حزب متماسك في العراق ، وعاد الى بغداد لتحقيق هذا الغرض .
وفي هذا الاطار حدثت خطوات متلاحقة ، واشرف صدام حسين في القيادة الجديدة للحزب على التنظيم العسكري إضافة الى مسؤولية الاشراف على المكتب الفلاحي .
انطلاقا من هاتين المسؤوليتين بدأ صدام حسين يعبىء في سبيل تسلم الحزب السلطة . وكانت الخطوات الاولى على هذا الطريق شراء قطع السلاح ، ثم شراء حتى بنادق الصيد . وبعدما تحسنت الاوضاع المالية تم شراء بعض السيارات واستئجار بعض المنازل وتحويلها الى أوكار حزبية .
ثم طلب صدام حسين من القيادة القومية للحزب المزيد من الاسلحة وساهم بعض رفاقه في صنع قنابل من مادة (ت . ن . ت) التي يستخدمها صيادو الاسماك .

وبدأ التحضير لهجوم على مبنى المجلس الوطني . وفاتح صدام حسين أحد ضباط القصر ، لكن فشل الضابط بصورة مفاجئة جعل المحاولة تفشل . وكانت المحاولة تقضي بأن يسهل الضابط لصدام حسين الدخول الى قاعة الاجتماعات في المجلس الوطني خلال اجتماع اركان الحكم العسكريين والمدنيين ، وأن يتولى صدام حسين بعد ذلك قتلهم جميعاً برشاش . بعد ذلك خطط صدام حسين لعملية تغيير شاملة تتم في شهر ايلول (سبتمبر) ١٩٦٤ لكن العملية كشفت قبل التنفيذ وتسبب ذلك في ملاحقات واعتقالات وعمليات تعذيب بشعة لكل بعثي يلقى القبض عليه . وهذه المرة رفض صدام حسين أمرا من القيادة بأن يهرب الى دمشق وكانت تلك المرة الاولى التي يرفض فيها امرا حزبيا . بقي في بغداد ، وتسبب بقاؤه في اعتقاله . وقد امضى في السجن اياما صعبة لكن ذلك لم يحل دون أن يواصل تحركه الحزبي مع الاعضاء خارج السجن . وكان ذلك يتم عبر مراسلات ينقلها بعض حراس السجن الذين تعاطفوا مع صدام حسين .
وكان بعض هذه المراسلات يتعلق بالتحضير لتمكين صدام حسين والمعتقلين معه من الهرب من السجن . والى ذلك أمكن جمع تبرعات لتوكيل محامين يدافعون عنهم .
وفي هذه الاثناء حرص صدام حسين على أن يرفع معنويات رفاقه الذين تأثرت معنوياتهم من التعذيب الذي تعرضوا له ، وأمضى الوقت في انتظار تنفيذ خطة الهرب يقرأ روائع القصص العالمية ويطلب من رفاقه ايضا القراءة ، ويكثر من المناقشات الحزبية التي ترفع المعنويات . ثم نظم اضرابا عن الطعام رفع فيه السجناء مطالب لتحسين أحوال السجن وهدفه من ذلك إحداث ضجة في الخارج تنعكس آثارها على النظام . كذلك استطاع أن يحدث تناقضا بين آمر السجن والجنود العاديين العاملين في إمرته .
والى ذلك امكن صدام حسين تأمين وصول بعض المناشير الحديدية استعملها هو ورفاقه في قطع القضبان الداخلية للغرف التي سجنوهم فيها . واتبع في ذلك اسلوب الابقاء على القضبان ثابتة قليلا بحيث لا يثير انتباه الحراس . وقضت

الخطة - التي لم تنفذ - بأن يتم القبض على حارس الممر وانتزاع بندقيته على أن يبدأ المسجونون الهرب معتمدين التسلسل الحزبي ۰ وارتأى صدام حسين ان يبقى هو وستة معه داخل السجن وذلك لتأمين هروب الآخرين ۰

بدأ صدام حسين بعد ذلك العمل على خطة اخرى ، مارس فيها عملية غسل دماغ للجنود . ثم حدثت بعض التسهيلات أمكن خلالها صدام حسين رؤية طفله عدي الذي كان في ذلك الحين في الشهر السادس من العمر ۰

وعن طريق الطفل عدي بدأت المراسلات بين صدام حسين وأحمد حسن البكر ۰ يضع صدام حسين رسالة تحت ثياب ابنه في اللحظة التي يحتضنه من دون أن يدري أحد بذلك وعند الزيارة الثانية يأخذ رسالة وضعها أحمد حسن البكر ۰ ولان هنالك تسهيلات وزيارات اسبوعية فان الرسائل التي كانت تصل مع كل زيارة أفادت في توضيح ظروف الخارج وهو ما كان يريد صدام حسين أن يعرفه ۰

وذات يوم ونتيجة شعور صدام حسين بأنه من شدة الضعف الذي بدأ يظهر على بنيته مصاب بالسل طلب نقله الى المستشفى لاجراء فحص اشعة ورفضت ادارة السجن واستعاضت عن ذلك بأن احضرت جهاز اشعة الى السجن ۰ وتبين نتيجة الفحص انه سليم ۰

في الوقت الذي استمرت المراسلات عن طريق الطفل عدي تنظم الاتصال بشكل جيد عاودت صدام حسين فكرة الهرب من السجن . وقد تشاور في هذا الشأن مع سعدون شاكر وأوضح له كيف أمكنه اقناع الجنود في السجن بأنهم مثله ، اي مثل صدام حسين مظلومون من النظام ۰

ثم ازداد صدام حسين تصميما عندما وصلته رسالة من احمد حسن البكر يشير فيها الى ثمة احتمالات قريبة بالقيام بحركة ضد النظام ۰

عن طريق الجنود الذين نشأت علاقة جيدة بينهم وبين صدام حسين أمكن تأمين الهرب ۰ طلب من الجنود خلال العودة من محكمة أمن الدولة العليا (حيث كانت بدأت محاكمته مع سبعين من رفاقه بتهمة التآمر باستعمال السلاح وهي تهمة تؤدي الى الاعدام) السماح لهم بأن يذهبوا الى مطعم في شارع ابو نواس وسط العاصمة لكي يأكلوا على أن يرافقهم اثنان من الجنود ۰ وتم الاتفاق على ذلك ۰ وكانت الخطة تقضي بأن يخرج صدام حسين ورفاقه الستة من الباب الخلفي للمطعم ويصعدون الى سيارة كان سعدون شاكر أعدها لهم بينما الجنديان ينتظران خروجهم على الباب الذي دخلوا منه ۰

ولقد كان الهروب من السجن هذه المرة اكثر من ضروري بالنسبة الى ظروف الحزب ، ولتدارك خطر قيام انقلاب عسكري فضلا عن انه كانت حدثت في سوريا حركة ٢٣ شباط التي جاءت بصلاح جديد وجماعته الى الحكم ، وقد حسم صدام حسين بعد هروبه من السجن مسألة الانشقاق في الحزب ومسألة انفراد الضباط بالاستيلاء على السلطة ۰

وفي الثالثة فجر ١٧ تموز ١٩٦٨ كان صدام حسين يرتدي الثياب العسكرية ومعه بعض رفاقه داخل دبابة تخترق القصر الجمهوري وتنهي حكم عبد الرحمن عارف وفق خطة مدنية - عسكرية أعدها لضرب النظام وتسليم السلطة الى حزب البعث منهيا بذلك مرحلة طويلة ومضنية لتعقبها مرحلة ثانية ۰

في المرحلة الثانية سجل صدام حسين أدوارا اساسية على صعيد تهيئة الحزب

لكي يقود ، لكن صيغة مشاركة عبد الرزاق النايف كانت تشكل في نظره حجر عثرة في طريق الحزب .
وانتهى التشاور في الأمر الى تأمين جو لصدام حسين يواجه به النايف داخل القصر الجمهوري . ووضعت خطة أمكن بها عزل الحرس الخاص بالنايف . أما الفصل الاخر والاخير من الخطة فجرى على النحو الآتي : في غرفة الرئيس أحمد حسن البكر في القصر الجمهوري سحب صدام حسين مسدسه وطلب من النايف أن يرفع يديه . وحاول النايف ان يهدىء من صدام حسين ويثير مشاعره الأبوية قائلا له : لماذا هذا الموقف وأنا عندي اربعة اولاد . لكن صدام حسين حدد له على الفور انه واطفاله سيكونون بخير إن هو غادر العراق ووافق على تعيينه سفيرا في الخارج . وعندما سأله صدام حسين عن العاصمة التي يريدها اختار بيروت فرفض صدام حسين ورفض ايضا الجزائر ووافق عندما اختار النايف الرباط .
ولكن الأمر لم ينته عند هذا الحد . لمجرد أن وافق النايف طلب صدام حسين إعداد طائرة تنقله من معسكر الرشيد الى المغرب . وأخذ صدام حسين في الاعتبار احتمال صدور اشارة عن النايف الى الحرس ومن اجل ذلك طلب منه ان يتصرف بشكل عادي ، يرفعون له التحية فيرد التحية من دون ارتباك ويتوجه الى السيارة الرسمية التي يرتفع العلم على مقدمتها . وقال للنايف ان المسدس تحت سترته (أي سترة صدام حسين) وفي اللحظة التي لا ينفذ فيها ما طلبه منه يمكن أن ينهي له حياته في ثوان .
وفي الوقت نفسه طلب من بعض رفاقه الحزبيين ملازمة القصر وحماية الرئيس احمد حسن البكر .
غادرت سيارة النايف القصر في اتجاه معسكر الرشيد وقد جلس صدام حسين الى جانب عبد الرزاق النايف . كانت الطائرة جاهزة . وبعدما اقلعت شعر صدام حسين بأن الدموع تنزل من عينيه . ولقد روى بعد ذلك أن طلقة واحدة كان يمكن أن تجهض عملية التخلص من النايف ، ولكن الاقدار سارت في شكل جعل العملية تنفذ بكل هدوء ومن دون اي خطأ .
ولقد روى لي سعدون شاكر الذي استمر من الذين يحظون بثقة صدام حسين في لقاء معه يوم ٤ نيسان ١٩٨٠ ان مسألة انهاء عبد الرزاق النايف تقررت بالنسبة الى صدام حسين منذ اليوم الاول لثورة ١٧٠ تموز ١٩٦٨ . ويشير في هذا الصدد الى ان صدام حسين طلب من سعدون شاكر تهيئة عشرة عناصر ذات التزام عال جدا بحيث اذا كان سيطلب منها صدام حسين تصفية سعدون شاكر شخصيا فعليها أن تنفذ الطلب . وأعد سعدون شاكر العناصر المطلوبة لكن صدام حسين قال له انه من المحتمل الاستعانة بهم في اي لحظة وانه من المهم أن يكونوا جاهزين .
ويضيف سعدون شاكر الذي تولى منصب وزير الداخلية بعدما تسلم صدام حسين المسؤولية الكاملة ، « ... وكان واضحا امر الارتباط الخارجي لعبد الرزاق النايف وكان في استطاعته ان يعطل مسيرة الثورة » .
ولم يكتف صدام حسين باعداد سيناريو عملية التخلص من النايف وانما أعد أيضا خطوات ما بعد التخلص . وفي هذه الخطوات قطع الطريق على بعض الضباط من اعضاء مجلس قيادة الثورة من تبوء مراكز قيادية في السلطة تحول دون تطور سلطة الحزب داخل الثورة . ولقد تمثلت أبرز الخطوات ببيان قصير

اذيع على الفور وقضى بان يكون الرئيس البكر الذي هو امين سر القيادة القطرية للحزب رئيسا للوزراء اضافة الى منصبه كرئيس للجمهورية ۰ ثم اضاف فقرة تقضي بأن يكون البكر ايضا قائدا عاما للقوات المسلحة ۰

بعد ذلك اجتمعت القيادة الجديدة وتوزعت المسؤوليات ۰ وقد اختار صدام حسين صيغة نائب رئيس مجلس قيادة الثورة من دون ان تعلن رسميا ۰ وهو اختارها بحكم كونه الرجل الثاني في التسلسل الحزبي وفي تسلسل مجلس قيادة الثورة ۰ وهي صيغة تؤمن قيادة حزبية فعالة لمجلس قيادة الثورة ۰ ثم فاجأ صدام حسين رفيقه البكر بالطلب منه أن يكون خارج السلطة معتبرا أن دوره الذي تمناه قد تحقق بتسلم حزب البعث السلطة ۰ لكن البكر رفض ونتيجة لذلك تأخر الاعلان الرسمي للصيغة الجديدة الكاملة لمجلس قيادة الثورة ۰

ثم وجد صدام حسين نفسه يقرر البقاء بعدما لمس وجود محاولات تآمر على البكر وبعدما تأكد له ان حردان التكريتي لا يوقف سعيه لتوسيع دائرة الاستقطاب حوله ۰

... ولكنه بقي في إطار حالة متميزة ۰ وبقي طويلا ۰

الفصل الثاني

قيادة بقائدين

"لم يحدث في التاريخ القديم و منه تاريخ امتنا على اشراقه، و في التاريخ المعاصر، ان يكون في السلطة، ولأحد عشر عاما، قائدان ضمن قيادة واحدة بخواصهما المعروفة لكم من دون ان يوءدي ذلك الى خلل خطير في المسيرة من الناحية الخلقية او الناحية العملية، و من دون ان تنتهي العلاقة بينهما الى اقصاء احدهما لكي يبقى الاخر..."۰

(صدام حسين في الخطاب
الاول له يوم ١٧ تموز ١٩٧٩
بعدما تسلم المسوءولية كاملة
من الرئيس احمد حسن البكر)

في المنطقة التي تحيط بالقصر الجمهوري في بغداد مجموعة من الدارات والعمارات مخصصة لسكنى كبار المسؤولين في الدولة وبعضها مكاتب لدوائر رسمية مدنية وعسكرية . وفي احدى هذه الدارات يسكن أحمد حسن البكر وهو مناضل قديم في حزب البعث سجل يوم ١٦ تموز (يوليو) ١٩٧٩ الحدث الأكثر أهمية في تاريخ حزب البعث العربي الاشتراكي في العراق .

وفي تلك الدارة يشغل هذا الضابط التاريخي أوقات فراغه بإعمال لا علاقة لها بهموم الحكم . يستيقظ مبكراً وينصرف الى حديقته الصغيرة يسقيها ويشذب أغصان غرسات الورد فيها . وعندما يتعب قليلاً يرتاح في جلسة مع أحفاده . وفي استمرار يعيش مع الذكريات وهي في معظمها مأساوية . فهو فجع بوفاة ابنه محمد ابن الثالثة والعشرين في حادث سيارة . وحدث ذلك في وقت كان حزنه متعاظماً على وفاة زوجته . ثم فجعت ابنته بوفاة زوجها تاركا لها اطفالا ليس لهم سوى جدهم (أحمد حسن البكر) المحزون والمفجوع .

وأحزان أحمد حسن البكر ليست شخصية فقط ، لأن الرجل عاش أيضا احزان حزب البعث وماسي المرحلة التي رافقت وصوله الى الحكم والانتكاسات التي حفلت بها تلك المرحلة .

والى ذلك ان الرجل كان في استمرار يشكو من متاعب صحية نتيجة مرض السكر المصاب به والذي عولج منه مرة في فرنسا . ومن أجل ذلك فانه لم يسافر ولم يلبِ زيارات رسمية ، واختصر زياراته داخل العراق فلم يقم الا بالجولات الضرورية في المناسبات التاريخية . وقد يكون في اللحظات التي يعيشها وحيداً بينه وبين نفسه يذرف دمعة تنسيه احزانه وتخفف بعض الشيء من فواجعه الشخصية .

وعلى رغم ان عمل الدولة والحزب لم يتأثر بفضل وجود صدام حسين الى

جانب الرئيس البكر ، الا ان الرئيس كان يشعر ان الساعات الخمس وأحياناً أقل، التي يعطيها للمسؤوليات الرسمية ليست كافية وانه يُحمّل رفيقه ونائبه صدام حسين الكثير . وكان البكر يرى كيف أن النائب يأتي الى مكتبه مع طلوع الشمس ويبقى فيه حتى منتصف الليل . وبقدر ما إن ذلك كان يشعره بالاطمئنان وبالاعتزاز فانه كان يشعره بشيء من الألم خصوصا أنه عسكري والعسكري لا يتحمل ان يؤدي الواجب عنه الآخرون .

لم يكن أحمد حسن البكر في وضع صحي ميئوس منه ولكنه كان لا يتحمل أن يأتي يوم يقرأ في أعين العراقيين وغيرهم تساؤلات عن وضعه من نوع ماذا ينتظر لكي يرتاح وهل أنه يريد أن يكون مثل الجنرال فرانكو الذي اختار من يخلفه لكنه رفض حتى لحظة الحياة الأخيرة أن يتخلى عن الحكم ، أو مثل بريجنيف الذي كلما إزداد وضعه الصحي تعقيداً تمسك بالحكم أكثر . هؤلاء كانوا سيقولون ذلك في شكل أو آخر خصوصاً ان هنالك منظرين لا يمكن للذي شاهدهما على شاشة التلفزيون ان ينساهما . منظر بريجنيف في لقاء القمة السوفياتية ـ الأميركية في فيينا وكيف ان الزعيم السوفياتي سمع بصعوبة ووقف بصعوبة وجلس على الكرسي بصعوبة ، وكان نزل سلم الطائرة بصعوبة ، ونتيجة لذلك كانت مراسم التوديع مثل مراسم الاستقبال سريعة جداً من أجل تفادي حدوث أمر صحي مفاجىء للزعيم السوفياتي . والأهم من ذلك كله أن منظر بريجنيف وهو يوقع اتفاقات « سالت » بعدما وقعها الرئيس جيمي كارتر كان منظراً محزناً . فقد كانت يده ترتعش ليس لإن الاتفاقات لم تأتِ كما يريدها ولا تهيباً من الآثار التي ستترتب على التوقيع وإنما لإن وضعه الصحي في غاية الصعوبة . أما المنظر الآخر الذي نشير اليه فهو منظر وزير الخارجية السوفياتية اندريه غروميكو عندما سقط مغمى عليه وهو في الأمم المتحدة وعلى رغم ذلك فان غروميكو استأنف عمله كوزير للخارجية السوفياتية من دون أن تتاح الفرصة أمام كثيرين في الوزارة مؤهلين لهذا المنصب .

وهذان المنظران صادف حدوثهما في الأشهر القليلة التي سبقت تصميم الرئيس احمد حسن البكر على اتخاذ قرار بالابتعاد لا عودة عنه ، وفي فترة بلغ فيها ضيقه واكتئابه للأسباب الكثيرة التي أوردناها ، أشده .

ومن المهم الاشارة هنا الى ان البكر لم يبتعد لان تركيبة الحكم تقيد حركته أو لأن لعبة مراكز القوى داخل الحزب سارت في الاتجاه الذي يقلل من أهمية دورها . فالرجل قوي في موقعه بحكم الدور التاريخي الذي قام به ومن أجل ذلك فلا قيد على حركته . وهو شريك في أيصال حزب البعث الى السلطة .

والأرجح ان البكر اضافة الى الأمور الكثيرة ذات الطابع الشخصي التي أوردناها شعر أن الظروف الداخلية والعربية والدولية تضغط من أجل ان تواصل بعده قيادة ديناميكية شابة قادرة لأسباب موضوعية ان تمارس دور الزعامة لا الاكتفاء بدور القيادة .

والى ذلك ان أحمد حسن البكر ما كان ليبتعد مهما تعاظم شأن وضعه الصحي

ومهما كثرت احزانه وهمومه الشخصية ، لو أنه ليس مطمئناً الى ان من سيخلفه جاهز بل ويمارس الدور القيادي منذ سنوات .

ان ابتعاد الرئيس أحمد حسن البكر وتسلم صدام حسين المسؤولية هو الحدث الذي ذكرنا في مطلع هذا الفصل انه كان الأكثر أهمية في تاريخ حزب البعث العربي الاشتراكي في العراق .

ولقد جاءت الصيغة التي تمت بها عملية ابتعاد الرئيس البكر وتسلم صدام حسين الرئاسة من النوع غير التقليدي وغير المألوف في العالم الثالث .

ان بعض قيادات الحزب كانت على علم بالأمر ، لكن على رغم ذلك لم يشعر أحد خارج نطاق هذه القيادات بان قراراً كبيراً سيتم الاعلان عنه مساء السادس عشر من تموز (يوليو) ١٩٧٩ ، أي عشية ذكرى ثورة ١٧ تموز التي قام بها البعث عام ١٩٦٨ . فقد أحيط الأمر بالكتمان . وظن العراقيون وهم في منازلهم أمام أجهزة التلفزيون في انتظار سماع خطاب الرئيس ان الأمر لا يعدو كونه خطاباً في ذكرى الثورة . لكنه لمجرد ان قال بعد قليل من بدء تلاوة الخطاب « ... ولقد كنت طيلة حياتي مستعداً لتحمل أية مسؤولية يكلفني بها الحزب والقيادة ما استطعت الى ذلك سبيلاً ، غير انني ... » فهم العراقيون ان هنالك أمراً مهماً سيتم الاعلان عنه .

ثم أوضح الأمر المهم عندما قال في الخطاب « ... ومنذ فترة ليست بالقصيرة كنت أحدث رفاقي في القيادة وخاصة الرفيق العزيز صدام حسين عن حالتي الصحية التي لم تعد تسمح لي تحمل المسؤوليات التي شرفتني بها القيادة وكنت اطلب منهم أن يريحوني من هذه الأعباء غير أن كرم خلق الرفيق صدام حسين والرفاق في القيادة كان يدفعهم الى رفض البحث في ذلك ، وكانوا يعبرون عن استعدادهم لتخفيف كل ما يمكن تخفيفه عن كاهلي من الاعباء . ولقد الححت على الرفيق صدام حسين وعلى رفاقي في قيادة الحزب ومجلس قيادة الثورة ومن موقع الأخوة والعلاقات الرفاقية التي تجمعنا بأن يلبوا طلبي بأن أعفى من مسؤولياتي في الحزب والدولة . وانني لأشعر بالراحة اليوم لإن رفاقي قد لبوا طلبي هذا . وانني اذ اهنىء الأخ والرفيق صدام حسين على تحمله شرف المسؤولية في قيادة الحزب والثورة ، أشعر بالثقة العميقة في أن القيادة قد اختارت بحق الرجل المؤهل للقيادة خلقاً ونضالاً وشجاعة ومقدرة . فالرفيق صدام حسين كان خلال سنوات النضال المريرة قبل الثورة المناضل الشجاع والأمين الذي يحظى باحترام وثقة مناضلي الحزب . وكان في صبيحة الثورة في مقدمة الرجال الشجعان الذين اقتحموا قلاع الدكتاتورية والرجعية.وكان طيلة مسيرة الثورة الحافلة القائد الفذ القادر على مواجهة كل الصعاب وتحمل كل المسؤوليات لذلك حظي بالحب والاحترام من قبل كل الرفاق في قيادة الحزب ومجلس قيادة الثورة ومن كل مناضلي الحزب وابناء الشعب » .

والملاحظ ان الرئيس احمد حسن البكر أشار في الخطاب الى مداولات سبقت اتخاذ القرار والى إلحاح أبداه من أجل أن توافق القيادة على اعفائه من مسؤولياته في الحزب والدولة . فما هي خلفية القرار وماذا رافق تلك المداولات ؟

خلال شهر أيار (مايو) ١٩٧٩ أي قبل حوالى شهرين من اعلان الرئيس البكر

موافقة قيادة البعث على اعفائه من مسؤولياته في الدولة والحزب عقد اجتماع مشترك للقيادتين القومية والقطرية ومجلس قيادة الثورة . وفي هذا الاجتماع سمع الحاضرون الرئيس البكر يقول بلهجة الشاكي وللمرة الأولى انه منذ فترة وهو يحاول اقناع صدام حسين بالموافقة على أن يتخلى له عن مسؤولياته لانه متعب بالفعل ولإن وضعه الصحي لا يسمح له بالاستمرار في تحمل المسؤولية .

وكان واضحاً ان الرئيس البكر في قوله هذا بدا كمن يطلب من القياديين المشاركين في الاجتماع مساندته في ما يطلبه .

بعد هذا الاجتماع بدأ عدد من القياديين يحاولون إقناع صدام حسين بالتجاوب مع ما يتمناه الرئيس البكر الذي بات من الصعب عليه ممارسة المسؤولية . وكان صدام حسين يستمع الى رفاقه هؤلاء ثم يحاول اقناع الرئيس البكر بأن يبقى . وفي مرات عدة حاول صدام حسين اقناع الرئيس البكر بالموافقة على صيغة يستمر بموجبها في موقع أمامي في الدولة دون أن تترتب على هذا الموقع ممارسات مرهقة وعلى أن يتحمل هو (أي صدام حسين) المسؤوليات العملية . لكن الرئيس البكر رفض البحث في الموضوع وأبلغ صدام حسين انه ليس متشبثا بشكليات السلطة ويفضل أن تأخذ الأمور مجراها المتكامل وأن يتحمل صدام حسين المسؤوليات شكلاً وواقعا .

وازاء ذلك اتفق الرئيس البكر مع نائبه صدام حسين على أن يتم الاعلان عن تنحي الرئيس البكر في الخطاب القومي الذي سيلقى مساء ١٦ تموز لمناسبة ذكرى ثورة ١٧ تموز ١٩٦٨ .

يوم ١٠ تموز كان الخطاب جاهزاً . وفي اليوم التالي (١١ تموز) عقد مجلس قيادة الثورة اجتماعاً عرض فيه الرئيس البكر رغبته في التخلي عن مسؤولياته في الحزب والدولة . وفي هذا الاجتماع وقف محيي عبد الحسين أمين سر مجلس قيادة الثورة وقال انه يطلب ان يكون هنالك تصويت على موضوع تخلي الرئيس البكر عن مسؤولياته في الدولة والحزب لصدام حسين وان يصدر القرار بالإجماع ، بمعنى انه لو كان هنالك معترض واحد فان القرار يعتبر باطلاً .

ولقد رد الرئيس البكر الذي كان حاضراً الاجتماع على ذلك بالاتي : بماذا تطالب ؟ لقد ذكرت انني أريد ترك مسؤولياتي لاسباب اوضحتها في الجلسة فلماذا تتحدث بالنيابة عني ؟

لكن محيي عبد الحسين واصل الكلام : لا يمكن أن تترك . وإذا كنت مريضاً لماذا لا تذهب وترتاح .

أثار هذا الكلام مشاعر الرئيس البكر وعدد من الحاضرين ، خصوصاً ان العلاقة بين الرئيس البكر ومحيي عبد الحسين ليست من النوع الذي يجيز للثاني مخاطبة رئيسه بهذا الاسلوب ، كذلك لا تجيز العلاقة أن يبدي كل هذا الحرص عليه . وعلى رغم أن محيي عبد الحسين من أهل القصر بحكم وظيفته كأمين سر لمجلس قيادة الثورة الذي يترأسه البكر الا ان معرفته بالرئيس البكر عادية لأنه من العناصر الجديدة في حزب البعث التي صعدت ووصلت الى مواقع متقدمة . وعلاقة الرئيس البكر التي تتسم بالخصوصية والتميز هي في معظمها مع القدامى . وإلى ذلك ان

منصبه كتابي وتدويني ، وليس ذلك المنصب الذي يفرض عليه مناقشة رئيسه أو التداول معه في أمر من الأمور . وفي استمرار كان بعض القياديين القريبين من الرئيس البكر يشكون أمامه من سوداوية مزاج محيي عبد الحسين وعدم توازنه وتعصبه . ولكن من الأمور المستغربة انه على رغم كل ذلك استمر في منصبه . وبعد اعدامه بتهمة المشاركة في المؤامرة ، وهذا ما سنعرضه في سطور لاحقة ، بدأ يقال ان محيي عبد الحسين وصل الى موقعه في ظروف غير مفهومة ، ومريبة ، وانه ايراني الأصل .

كانت اكثرية أعضاء القيادة تفضل أن تتم عملية التسلم والتسليم في الجو الذي اراده الرئيس البكر ، أي في جو من الثقة والاطمئنان والانضباط خصوصاً ان الوضع الصحي للرئيس البكر ليس مسألة قابلة للنقاش لإنه متعب ومرهق بالفعل ، وان مسألة من يكون القائد البديل محسومة بمفهوم التسلسل الحزبي من جهة ، والكفاءة والقدرة والدور التاريخي من جهة اخرى .

والى ذلك إن صدام حسين كان قبل بضعة أشهر سبقت تصميم الرئيس البكر على اتخاذ قراره ، يمارس الجزء الأكبر من مسؤوليات رئيس الدولة ورئيس مجلس قيادة الثورة . وبسبب الوضع الصحي للرئيس البكر فان اجتماعات القيادة القطرية للحزب كانت تنعقد برئاسة صدام حسين طبقاً لتقاليد الحزب التي تجيز إجتماع القيادة برئاسة أمين السر أو نائبه وكانت اجتماعاتها شرعية وقراراتها قابلة للتنفيذ .

انتهى اجتماع مجلس قيادة الثورة يوم ١١ تموز بقرار يتضمن الموافقة على رغبة الرئيس البكر في التخلي . وفي اليوم التالي (١٢ تموز ١٩٧٩) عقد اجتماع مشترك للقيادة القطرية ومجلس قيادة الثورة برئاسة صدام حسين . وقد تم في هذا الاجتماع انتخاب صدام حسين بالاجماع رئيسا للمجلس وأمينا لسر القيادة القطرية ورئيسا للجمهورية ، وانتخاب عزت ابراهيم نائبا لرئيس المجلس ونائبا لأمين سر القيادة القطرية . وفي هذا الاجتماع كرر محيي عبد الحسين (وبعد عملية الانتخاب التي لم يعترض عليها) كلامه السابق فاتخذ المجلس قراراً بطرده والمباشرة في التحقيق معه .

في ضوء هذا الموقف من جانب محيي عبد الحسين مشهدي المعروف بين رفاقه باسم « الشمري » وفي ضوء ملامح شكوك من جانب صدام حسين بقيادي آخر في الحزب والدولة هو محمد عايش تكونت لديه منذ فترة ، قرر صدام حسين أمرين : الأول هو أن تتواصل عملية التسلم والتسليم بشكل طبيعي . والثاني هو أن تتواصل عملية متابعة الخط المشكوك فيه من قبل بعض القياديين الذين سادهم الارتباك في شكل أو آخر بعدما تقرر في اجتماع القيادة القطرية يوم ١٢ تموز عزل محيي عبد الحسين والتحقيق معه .

وفي الايام التالية أعد المجلس مجموعة من القرارات تضمنت اجراء تعديل وزاري ودمج عدد من الوزارات واستحداث وزارة جديدة باسم وزارة الحكم المحلي . وتضمنت القرارات ايضاً استحداث منصب نائب أول لرئيس الوزراء وخمسة مناصب نائب لرئيس الوزراء . وقد اعلنت القرارات كاملة يوم ١٦ تموز ١٩٧٩ بعدما اعلن الرئيس البكر في خطابه الى الشعب تخليه عن مسؤولياته وبعد اعلان انتخاب صدام حسين رئيسا .

وحتى لحظة اصدار القرارات كان المشكوك فيهم من جانب الرئيس صدام حسين اثنان هما محيي عبد الحسين مشهدي (الذي عين بدلا منه العقيد الركن طارق حمد العبدالله كأمين سر لمجلس قيادة الثورة) ومحمد عايش الذي لم يعد وزيرا للصناعة في الحكومة الاولى في عهد الرئيس صدام حسين . أما عدنان حسين الذي تبين بعد ذلك أنه شريك في المؤامرة (وهذا ما سيرد في الصفحات التالية) فاستمر يحظى بثقة القيادة حيث ان القرارات الاولى التي صدرت عن الرئيس صدام حسين قضت بتعيينه نائباً لرئيس الوزراء وكان ترتيبه الرابع بين نواب رئيس الوزراء . كذلك قضت القرارات بتعيينه رئيسا لديوان رئاسة الجمهورية بعدما كان في الماضي يشغل منصب وزير التخطيط .

في اليوم التالي (١٧ تموز ١٩٧٩) القى صدام حسين خطابه الاول كرئيس لمجلس قيادة الثورة ورئيس للجمهورية أمام حشد جماهيري ضخم . وفي هذا الخطاب اطلق على الرئيس البكر صفة « الأب والرفيق الكبير » وقال حول عملية انتقال السلطة : « استمعتم يوم أمس الى خطاب الأب والرفيق الكبير ابو هيثم ، وان ما جاء في خطابه هو صيغة متفردة من بين كل تجارب العالم . ان نقل السلطة من قائد الى قائد وبالاسلوب الاخلاقي والدستوري والطبيعي الذي جرى في بلادنا وفي حزبنا وفي ثورتنا حالة فريدة من نوعها بين تجارب العالم القديمة منها والمعاصرة . انها فريدة ولكنها ليست غريبة لإنها مستوحاة من إصالة الأمة العربية . من عظمة رسالة الاسلام . من مبادىء حزب البعث العربي الاشتراكي ... » . وفي هذا الخطاب ايضاً ربط نفسه بعهد حدده كالآتي : « انني لن أدعو رفاقي في القيادة والحزب واخواني ابناء هذا الشعب الى فعل أمر لا أفعله بنفسي ولن اجعلهم يمتنعون عن أمر لا امتنع أنا عنه . إن واجبنا هو احقاق الحق ومحاربة الظلم . ولن نقبل لأي مناضل في الحزب ولأي مواطن من ابناء الشعب أن يذل أو يمتهن . وسنتعقب الظلم في مظانه وسننتصر للحق عندما يستصرخنا . ان السلطة في نظرنا ليست الحكم والتحكم وارضاء الذات ، وانما هي العبء الذي نحمل لكي نطبق المبادىء على أرض الواقع من أجل خدمة الشعب ونصرة الأمة ورفع الحيف عنها » .

بعد ذلك قام الرئيس صدام حسين بزيارة الرئيس البكر في منزله لتهنئته بذكرى ثورة ١٧ تموز . ثم توجه لالقاء خطابه امام الجماهير والذي قال فيه : « لقد غادر الرفيق ابو هيثم المسؤولية الرسمية في الحزب والدولة ولكنه بقي في قلوبنا ذلك الأب وذلك القائد الذي نعتز بسيرته النضالية الطويلة وبما قدمه للحزب والوطن والأمة من خدمات جليلة طيلة حياته الحافلة بالكفاح . وانني والرفاق اعضاء القيادة لنرجو من الله العلي القدير أن يمنحه الصحة والعافية ليكون دائماً معنا الرفيق والأب . وإن شعبنا الكريم الذي عمل الرفيق أحمد حسن البكر طيلة حياته من أجل حريته وكرامته ونصرته ولم يبخل في سبيل ذلك بأي تضحية سيظل ينظر بعين التقدير والإكبار الى خدمته الوطنية والقومية » .

وكانت سبقت خطاب الرئيس صدام حسين الذي أطرى فيه الرئيس البكر بشكل غير مألوف برقية بعث بها مؤسس الحزب ميشال عفلق الى البكر وقال فيها « ان تخليكم عن مسؤولياتكم في هذا الوقت بالذات وبعد اطمئنانكم الى مسيرة الثورة وتحقيق ما حققت من عمل جبار في النطاق القطري والنطاق القومي ليحمل في

ذاته من معاني الرجولة والشجاعة والإيثار ما يصلح أن يكون قدوة ومثلا للكثير من حكام العالم وقادته ... » .

لمجرد ان احتفل الرئيس صدام حسين بالذكرى الحادية عشرة لثورة ١٧ تموز ١٩٦٨ والتي كانت خطواتها الاساسية اقتحامه القصر الجمهوري فجر ذلك اليوم بدبابة بعدما كان ارتدى ثيابا عسكرية ، انصرف الى متابعة حلقات المؤامرة التي يحقق فيها شقيقه برزان الذي أوكلت اليه مسؤولية الاشراف على جهاز الأمن القومي . وبرزان مناضل قديم وصاحب ادوار تاريخية . أما المشاركون في المؤامرة فكانوا بعد التحقيق مع محيي عبد الحسين مشهدي بدأوا يرتبكون لكنهم يحاولون اخفاء ارتباكهم .....

وقد وضع الرئيس صدام ضوابط لموضوع التحقيق منذ ان تكشفت نوايا محيي عبد الحسين مشهدي وأوصى بالتنبه الى ان مشهدي قد يحاول توريط كثيرين معه الأمر الذي يحدث خللا اساسيا في القيادة . وحتى بعد ان بدأ مشهدي يذكر في التحقيق معه بعض الاسماء كان هنالك ظن بأنه يريد أن يورط آخرين . ولقد حاول مشهدي خلال التحقيق الايحاء بأنه كان يريد الخروج من التكتل المتآمر ، وان هذا التكتل يضم اسماء غير محمد عايش الذي تربطه به صداقة قوية الى درجة ان محمد عايش كان له تأثير كبير على تصرفات مشهدي .

ولقد أفاد عدم اعتقال الذين أورد محيي عبد الحسين مشهدي اسماءهم في تأكد الرئيس صدام حسين من أنهم ضالعون في المؤامرة . ففي الفترة بين اعتقال مشهدي يوم ١٢ تموز واعتقال محمد عايش يوم ١٦ تموز كان عايش مرتبكا جدا وساعة بعد ساعة يتزايد ارتباكه . كذلك بدأ الارتباك يظهر على غانم عبد الجليل على رغم أنه لم يسأل ولم يجر تحقيق معه ومع عدنان حسين على رغم تعيينه نائبا لرئيس الوزراء ورئيسا لديوان رئاسة الجمهورية . وخلال زيارة الرئيس صدام واعضاء الحكومة الجديدة الى منزل الرئيس البكر مساء ١٧ تموز لتهنئته بذكرى الثورة كان الارتباك واضحاً جدا على المجموعة المتآمرة ولوحظ أن عدنان حسين حرص على أن يردد أمام بعض رفاقه عبارة واحدة هي « لم أكن اجتمع بهم » ولوحظ أنه كان يكرر العبارة مرتين وثلاثا وبلهجة عصبية .

وفي يوم ١٨ تموز وجهت الدعوة الى المسؤولين لحضور حفلة عشاء في القصر الجمهوري ستقام في المساء وقيل للمسؤولين ان اجتماعا لمجلس قيادة الثورة سينعقد بعد الحفلة .

وخلال الاجتماع طلب الرئيس صدام حسين من الحاضرين ان يكتب كل منهم تقريراً مغلقا حول ما اذا كان خلال السنة الأخيرة عقد جلسات مع محمد عايش ومحيي عبد الحسين مشهدي وماذا دار في هذه الجلسات على أن يرفع التقرير اليه صباح اليوم التالي وذلك للاستفادة منه في التحقيق موضحاً ان الهدف من ذلك هو معرفة من التقى بالشخصين المشار اليهما .

مساء ١٩ تموز عقد الرئيس صدام اجتماعاً مع كبار القياديين في مجلس قيادة الثورة غاب عنه عدنان حسين الذي كان كتب رسالة الى الرئيس صدام . وفي الاجتماع قرأ الرئيس صدام ماكتبه عدنان حسين وغانم عبد الجليل ووافقه الحاضرون بأن في الرسالتين امورا ملتوية . ثم قال ان محيي عبد الحسين اعترف

بان عدنان حسين وغانم عبد الجليل ومحمد محجوب كانوا يجتمعون ويخططون وانهم على صلة بسوريا ويأخذون الأموال منها ٠

وطلب الرئيس صدام استدعاء رئيس لجنة التحقيق ليشرح ما توصل اليه ، ثم عاد وطلب ان يتم احضار محيي عبد الحسين مشهدي ليتحدث . وقد روى أنه كانت هنالك لجنة تضم عدنان حسين وغانم عبد الجليل ومحمد عايش ومحمد محجوب ثم اضيف هو اليها تجتمع منذ عام ١٩٧٥ وتخطط من أجل قلب النظام والاستيلاء على السلطة وان هذه اللجنة تتصل بسوريا من خلال ضابط الارتباط محمد عايش الذي يوصل المعلومات الى سوريا ويتسلم الاموال منها ويوزعها على اعضاء اللجنة ٠

وروى مشهدي ايضا ان غانم عبد الجليل كان يستنسخ التقارير التي تصل الى مكتب النائب (أي صدام حسين) ويلخصها في تقارير يبعث بها الى القيادة في سوريا ٠ وقال انه بعد توقيع ميثاق العمل القومي المشترك في تشرين الاول ١٩٧٨ بين العراق وسوريا نشطت الاتصالات وبدأ اعضاء اللجنة يهيئون انفسهم لتسلم السلطة في ما بعد عندما علموا في ايار ١٩٧٩ ان الرئيس البكر يريد التخلي عن مسؤولياته وهو الأمر الذي اشرنا اليه في صفحة سابقة ٠

في اليوم التالي (٢٠ تموز ١٩٧٩) تم اعتقال غانم عبد الجليل بعدما اعترف بدوره ٠ ويوم السبت ٢١ تموز تم احضار عدنان حسين ومحمد محجوب (كان خارج العراق وعاد يوم ١٦ تموز) للمثول أمام اجتماع مشترك للقيادة القطرية ومجلس قيادة الثورة . وقد انكر الاثنان علمهما بالمؤامرة لكنهما اعترفا بعدما احيلا الى لجنة التحقيق ٠

وقبل انعقاد الاجتماع الاستثنائي القطري الذي ترأسه الرئيس صدام وشارك فيه « اعضاء الكادر المتقدم وقيادات الشعب » يوم ٢٢ تموز ١٩٧٩ في قاعة الخلد ببغداد كانت لدى الرئيس صدام جميع اسماء المشاركين من قريب أو بعيد في المؤامرة ومن بينهم العسكري وليد سيرت ٠

وفي هذا الاجتماع سمع الحاضرون اعترافات محيي عبد الحسين مشهدي واحيطوا علما بالاجراءات التي اتخذتها القيادة قبل ان يتخذوا قرارا بطرد محمد عايش وغانم عبد الجليل وعدنان حسين ومحمد محجوب ومحيي عبد الحسين من القيادة القطرية ومن عضوية الحزب ومن مجلس قيادة الثورة وكل مناصبهم في الدولة ، واعتبارهم خونة وتخويل القيادة القطرية ومجلس قيادة الثورة اتخاذ الاجراءات التي يرياها مناسبة ٠

وفي ضوء قرارات الاجتماع الاستثنائي الذي تضمن تأييدا مطلقا للرئيس صدام حسين ، قرر مجلس قيادة الثورة تشكيل محكمة خاصة لمحاكمة المتآمرين ٠ لكن الاعلان عما جرى داخل الاجتماع الاستثنائي وعن القرار بتشكيل محكمة خاصة اذيع بعد ستة أيام (مساء ٢٨ تموز ١٩٧٩) ٠ وقد تشكلت المحكمة برئاسة نعيم حداد عضو مجلس قيادة الثورة وعضوية سعدون غيدان (عضو مجلس قيادة الثورة ونائب رئيس الوزراء) وتايه عبد الكريم (عضو مجلس قيادة الثورة ووزير النفط) وحسن علي نصار (عضو مجلس قيادة الثورة ووزير التجارة) وسعدون شاكر (عضو مجلس قيادة الثورة ووزير الداخلية) وحكمت ابراهيم (عضو مجلس

قيادة الثورة ومسؤول مكتب الشباب والطلاب في الحزب) وعبدالله فاضل (عضو مجلس قيادة الثورة) .

وقد بدت الصورة مؤلمة حيث ان بين المتآمرين خمسة من اعضاء مجلس قيادة الثورة أي ربع اعضاء المجلس المؤلف من ٢١ عضوا .

وواضح انه قد روعي في تشكيل المحكمة ان رئيسها (نعيم حداد) اضافة الى انه عضو مجلس قيادة ثورة فانه عضو قيادة قطرية وعضو قيادة قومية . كذلك روعي في تشكيل المحكمة أمر جماعية اتخاذ القرار من جانب اعضاء في حق زملاء لهم كانوا قبل اكتشاف المؤامرة شركاء في مناقشة قضايا الحزب والدولة .

وبقدر ما ان مشاركة خمسة من اعضاء مجلس قيادة الثورة في مؤامرة كان أمرا مؤلما فان خلو المؤامرة من العسكريين باستثناء وليد محمود سيرت (آمر فيلق) وعدد قليل جدا من العسكريين الصغار كان مدعاة اطمئنان للرئيس صدام حسين لأنه أوضح له امرا يعلق اهمية كبرى عليه وهو أمر الانضباط الحزبي داخل الجيش . وقد اكدت مشاركة ضابط واحد في المؤامرة ان هذا الانضباط قائم وانه كان سيضرب المؤامرة في حال اكتمال فصولها .

لم تستغرق جلسات المحكمة الخاصة كثيرا . فهي تشكلت يوم ٢٨ تموز وبدأت جلستها الاولى في الأول من آب . ويوم ٦ آب انهت الجلسات ، وأصدرت الاحكام التي قضت باعدام ٢٢ شخصاً ادينوا بالخيانة العظمى والسجن لثلاثة وثلاثين مددا تراوح بين سنة و ١٥ والافراج عن ١٣ متهما . وقد اعلنت انها بهذه الاحكام حسمت « جميع القضايا المتعلقة بالمؤامرة ولم يبق امامها أي قضية تتعلق بالمؤامرة » .

ويوم ٨ آب ١٩٧٩ تم اعدام ٢١ من اصل ٢٢ لأن احد الذين حكموا بالاعدام وهو أحمد كريم كان هارباً .

ولوحظ ان البيان الرسمي الذي صدر حول تنفيذ احكام الاعدام تضمن الاشارة الى « ان مناضلين من منظمات الحزب المدنية والعسكرية من انحاء القطر هم الذين نفذوا حكم الاعدام باسلحتهم » ، ذلك أنه بعدما صدرت احكام المحكمة الخاصة طرحت افكار عدة تم الأخذ باحداها وهي انه مادام المتآمرون على الحزب هم من الحزب فلتنفذ الحكم أجهزة الحزب لأن من شأن ذلك ان يرفع معنويات الاعضاء ويحدث تماسكا في صفوفهم حيث أنهم لا بد تأثروا عندما تبين لهم ان حزبهم مخترق وفي المواقع المتقدمة والأكثر حساسية . وبعدما تم اقرار المبدأ طلب من كل منظمة حزبية أن توفد مندوبا عنها مع بندقية . وتجمع مئات المندوبين ثم نفذوا حكم الاعدام برفاقهم الذين ادينوا بتهمة التآمر . ومثل هذا الاسلوب في تنفيذ الاحكام يحدث للمرة الاولى في تاريخ الحزب .

من هنا نصل الى ان توقيت تنفيذ الطرح الرسمي لتخلي الرئيس البكر عن مسؤولياته في الدولة والحزب هو الذي افسد مخطط افراد المجموعة . وصحيح ان هؤلاء كانوا تبلغوا في ايار ١٩٧٩ بصفة كونهم قياديين في الحزب رغبة الرئيس البكر في التخلي عن مسؤولياته الا أنهم لم يتوقعوا حدوث ذلك بهذه السرعة . فضلا عن أنهم لم يكونوا من الحلقة الضيقة التي اختارها الرئيس البكر ونائبه صدام حسين لاعداد ترتيبات التخلي بما فيها الخطاب الذي القاه الرئيس البكر .

ومن أجل ذلك فانه عندما اجتمعت القيادة يوم ١١ تموز لاتخاذ قرار قيادي بالتخلي طرح محيي عبد الحسين فكرة التصويت بالاجماع .

وكان مثل هذا الطرح يمكن أن يبدو كما لو أنه حرص على الرئيس البكر أو مبالغة في الولاء له لو أن علاقة الرئيس به متميزة لكن العلاقة لم تكن كذلك . وهكذا وقع محيي عبد الحسين مشهدي وأوقع الآخرين معه . ولم تستغرق عملية التحقيق معه طويلاً وانهار بسرعة .

وثمة سؤال : هل أن صدام حسين فوجىء بالمجموعة المتآمرة أم أنه كان يمسك من قبل ببعض الخيوط ؟ واذا كان على بينة من أمر المتآمرين أو بعضهم فلماذا لم يحسم المسألة من قبل بحيث لا يبدأ عهده بهذه المأساة الحزبية .

ومناسبة هذا السؤال هو ان الفراسة هي بعض مواهب صدام حسين . والفراسة هنا ليست القراءة في الغيب وانما قراءة المسلكية والافكار والنوايا في ضوء ظروف الواقع . فهو مثلا وقبل اكتشاف المؤامرة بفترة طويلة بدأ يشك في تصرفات محمد عايش بدليل أنه فاتح ذات يوم بعض الذين يضع ثقته بنسبة كبرى فيهم بالأمر . ولقد بنى شكوكه على أساس أن محمد عايش يتطلع الى أن يلعب داخل الحزب والقيادة دورا لا تسمح به مؤهلاته وماضيه بمعنى أنه لا يمتلك ثقافة ثورية على رغم أنه صعد الى موقع قيادي مرموق (عضو في القيادة القطرية) وموقع رسمي حساس (وزير صناعة) . ومثل هذا الصعود لا يعني بالضرورة أن الشخص الصاعد يمتلك المؤهلات . ومحمد عايش صعد لأنه كان عاملا نشيطا وحزبيا مندفعا . وفي اطار عملية الصعود والهبوط في الحزب يمكن لمثله أن يصل لكنه عندما يظن ان الصعود عملية تتواصل يصبح ، اذا لم يكن مؤهلا ، عرضة للانحراف . وتلك هي خلاصة مناقشة مع بعض القياديين في العراق كان محور اسئلتي فيها عن السر في أن بعض رفاقهم في الحزب والقيادة تآمروا ولم يرتضوا المواقع التي وضعوا فيها .

ولقد شملت المناقشة سؤالا من جانبي حول السر في ان هؤلاء عندما لا يريدون للرئيس البكر ان يتخلى فمعنى ذلك أنهم ضد ان يتولى صدام حسين على رغم أنه عزز شأنهم داخل القيادة والحزب ، أو أنه على الأقل عزز الى حد بعيد شأن بعضهم : عدنان حسين على سبيل المثال . اما الجواب الذي سمعته فهو أنه مادام هنالك ثورة فمن الطبيعي ان تكون هنالك في الوقت نفسه ثورة مضادة ....

وأعود الى مسألة قدرة صدام حسين على الفراسة مستندا في هذه العودة الى واقعة حدثت وكلام قاله . أما الواقعة فهي أنه بعدما أصيب الرئيس البكر بجلطة عام ١٩٧٦ وشكلت لبعض الوقت خطرا على حياته وجد صدام حسين نفسه يتحمل كل اعباء الدولة واستمر في ذلك حتى بعدما تعافى الرئيس البكر بفترة طويلة . وعلى رغم أنه لم تكن هنالك مشكلة قيادة لأن الرجل الثاني موجود وموفور الصحة ويتولى تسيير الأمور بدقة فان كلاما كثيرا قيل في أوساط المجموعة التي شاركت بعد ذلك في المؤامرة ابدى صدام حسين عدم ارتياحه له بعدما بلغه .

واما الكلام الذي قاله فجاء في سياق جواب عن سؤالين طرحا عليه في جلسة مقفلة لم يذع عنها شيئا وان كان تم توزيع خلاصة عنها على القيادات . كان السؤالان حول متى تحسم المسألة في الثورة ، ومتى تحسم المسألة في الحزب ، وقد رد بالآتي : « تحسم المسألة في الثورة حينما يكون الخطأ الذي يحدث في اجهزة

الدولة مجرد خطأ وليس صيغا مخططة ومقصودة تصب في بركة كبيرة يراد منها ان تكون المرتكزات المادية والنفسية للثورة المضادة . وتحسم معركة الثورة مع نفسها متى جعلت اجهزة الدولة وعلاقاتها ثورية بالحد الادنى المتصور كما يطمح الحزب . وتحسم معركة الحزب مع نفسه عندما ينتهي الخطر من ان تتسلق مجموعة يمينية في يوم ما ، بأية صيغة من صيغ التسلق غير المشروع ، لكي تحتل مراكز مؤثرة أو قيادية من شأنها ان تحرف المسيرة عن طريقها الذي تسلكه الآن والذي يعبر عن أهداف وضمير الحزب كما هو معروف لدينا . هذا هو جوهر الأمور . ولا بد أن نقول بثقة ان تشخيص هذه المسائل لا يرعبنا ولا يخيفنا وانما يدعونا الى اليقظة المستمرة والعمل الدائم ، وحتى لا يميل الرفاق الى الخدر ، ويتصوروا أن مضي ثماني سنوات على الثورة من شأنه ان يجعل الباب موصدا بشكل نهائي أمام الردة . ولذلك يستوجب الامر تشديد الرقابة الفكرية العالية وتعميق الحصانة المبدئية ، فلا يجب أن نبتعد عن دورنا في الرقابة في الحياة الداخلية للحزب والدولة ، ولا نبتعد عن دورنا في تنشيط الرقابة الجماهيرية على أجهزة الدولة وحتى في الشعيرات الصغيرة التي لا بد أن تحتل فيها عناصر رجعية أو يمينية مواقع معينة باتجاه مضاد ، وأن نعمل بهمة لا تلين في تطهير أجهزة الدولة في المواقع والمفاصل الحيوية التي تحتل فيها العناصر اليمينية مواقع مؤثرة وان نسد فرص الصعود بوجه العناصر المماثلة في الحزب وأن نقوي ضوابط الحصانة التنظيمية المبدئية في الحياة الداخلية للحزب ... »

وأهم ما في هذا الكلام هو ان صدام حسين توقع قبل سنتين حدوث المؤامرة ومن هنا قوله « ان معركة الحزب مع نفسه تحسم عندما ينتهي الخطر من أن تتسلق مجموعة يمينية في يوما ما ، بأية صيغة من صيغ التسلق غير المشروع ، لكي تحتل مراكز مؤثرة أو قيادية ... »

ولقد جاء في البيان الصادر عن القيادة القطرية ومجلس قيادة الثورة مساء ٢٨ تموز ١٩٧٩ ان المجموعة المتآمرة عبارة عن « حفنة من الاشخاص الذين تسللوا الى قيادة الحزب والثورة ومعهم زمرة من الخونة من الذين حسبوا على الحزب . وكان هذا النفر يعد منذ بضع سنوات مخططا تآمريا خبيثا يستهدف ضرب الحزب والثورة ومكتسبات الجماهير الاشتراكية والديمقراطية ووضع العراق في عجلة المخطط الاستسلامي الذي تقوده الامبريالية الاميركية لصالح الصهيونية وقوى الظلام ... ».

وهكذا فان البيان يبدو ترجمة لكلام صدام حسين قبل سنتين حول متى تحسم معركة الحزب مع نفسه . هو أشار الى حالة التسلق . والبيان أشار الى أن المجموعة المتآمرة « تسللت الى قيادة الحزب والثورة » . وهو صنف الذين قد يتسلقون بأنهم « مجموعة يمينية » . والبيان اشار الى ارتباط افراد المجموعة المتآمرة بالمخطط الأميركي .

ويلفت النظر هنا أن بعض حلقات التآمر الخطيرة في مدى عشر سنين ، أي بين قيام ثورة ١٧ ـ ٣٠ تموز ١٩٦٨ والمؤامرة التي سبقت تسليم القيادة الى صدام حسين جاء من الحزب ومن البعثيين أنفسهم . ومثل هذا الأمر يعني أن ثمة خللا ما في ولاء بعض الحزبيين لحزبهم وقيادتهم . وهنالك حالتا تامر حدثتا . حالة التامر الأولى جرت عام ١٩٧٣ وقام بها حزبي عريق هو عبد الخالق السامرائي بالاشتراك مع

ناظم كزار الذي كانت مسؤولية أمن الثورة مناطة به . وهذه كانت في بعض جوانبها في خطورة المؤامرة الثانية ذلك أنه حدث شروع في التنفيذ . فقد اقدم ناظم كزار على اعتقال وزير الدفاع حماد شهاب ووزير الداخلية سعدون غيدان . وكانت خطة المتآمرين تقضي بتصفية الرئيس البكر ونائبه صدام حسين خلال وصول الرئيس الى مطار بغداد . ويومها كان الرئيس البكر في زيارة لبلغاريا وبولونيا . وازاء اصرار البلغاريين على الاحتفال رسميا بالرئيس البكر خلال توقف طائرته في مصيف فارنا وموافقة الرئيس على ذلك ، فان موعد وصول الطائرة الى مطار بغداد تأخر أكثر من ساعتين . وهذا التأخير جعل المتآمرين المنتظرين في مطار بغداد يرتبكون ، ولمجرد ان لاحظ فريق الأمن الخاص بصدام حسين ذلك اجهضت المؤامرة التي نتج عنها مقتل وزير الدفاع حماد شهاب . وفي حين هرب ناظم كزار في اتجاه ايران الامر الذي عزز شكوكا بأنه على علاقة بالايرانيين فان عبد الخالق السامرائي اعتقل وبقي في السجن . وبعد حدوث المؤامرة الاخيرة كان بين الذين تم تنفيذ حكم الاعدام بهم .

ولكن تبقى المؤامرة الثانية هي الأكثر خطورة لأن المجموعة المتآمرة كانت في الموقع المتقدم ، وبسبب ذلك اشاع حدوثها مناخا احباطيا في صفوف اعضاء الحزب . ولعل هذا المناخ هو الذي دفع بالرئيس صدام حسين الى أن يلتقي بعد اسبوع من تسلمه المسؤولية الكاملة ببعض القياديين ويقول لهم الكلام الذي من شأنه ان يرفع المعنويات ويحول دون حدوث تصدعات في نفوس ابناء الحزب .

كان ذلك يوم ٢٣ تموز ١٩٧٩ أي في اليوم الثاني للاجتماع الاستثنائي للمؤتمر القطري الذي عقد في قاعة الخلد وسمع فيه اعضاء القيادة اعترافات محيي عبد الحسين مشهدي . وفي ندوة فرع بغداد بالجامعة المستنصرية خاطب الرئيس صدام الحاضرين بلهجة تجمع بين المرارة والثقة بالنفس قائلاً : « ايها الرفاق . لا تحسوا بالانكسار . فالثورة التي تقتحم مواقع ومعاقل الاستعمار وتريد ان تشع على الوطن العربي كله لتكون منه قوة جديدة في العالم وتسعى لاستنهاض همم كل العرب وتغير حياتهم تغييرا نوعيا متقدما وتطرد كل مهاوي الذل ومواطن التردي الخلقي وأسبابه ، ألا تواجه متآمرين كهؤلاء ؟ هذا أمر طبيعي بعد أن صار كل الشعب معكم ووصل تنظيمكم مليونا . إذن فمن أين يأتي المتآمرون ؟ هل يأتون عن طريق الانزال العسكري المضاد لقهر الثورة ؟ هذا غير ممكن في الظروف الراهنة ، ولا يحقق لهم الهدف كما ينبغي . وحتى اميركا لا تقدر أن تقوم بهذا العمل الا بضربكم بالقنبلة الذرية وعندها يستلمون ارضا بلا شعب . فالطريق الافضل - اذن - هو ايجاد خونة من بين صفوف الحزب ومن حيث مواقع التأثير والايذاء المعنوي والمادي قادرين على تأدية المهمة أكثر من سواهم ، وهذا أمر طبيعي . لذلك أيها الرفاق ليس علينا ان نقاوم اعمالا كهذه الا بالتحصن المبدئي وبالتثبت الكامل بتقاليد الحزب الاصيلة دون أن نصاب بالاهتزاز فنتصور ان طريق منح الثقة الواعية للبعثيين هو طريق غير صحيح ومطلوب تغييره ، أو أن نتصور أن افضل رد على الطرق الخبيثة هو بالمرونة في المنهج الاستراتيجي المبدئي وباخلاق حزبنا وتقاليده .

« ... وعلى أية حال ان الخيانة لا تبرر لأنه ليس هناك اسباب مشروعة للخيانة . ولما كانت كذلك فليس هنالك درجات لها . فاذا كانت للاخلاص درجات

فالخيانة ليس لها درجات بل هي عملية انحدار دون الخط الادنى للاخلاص وهي عملية تدهور منحطة للارادة . ولكننا ينبغي الا نفوت دروسها المستنبطة لكي نزيد من حصانة حزبنا وخبرته ولكي تصلب ارادة البعثيين أكثر فأكثر على طريقنا الطويل » .

وقبل أن يتم حسم الأمر مع أفراد المجموعة المتآمرة وتنفذ الأحكام الصادرة بحقهم كان كلام الرئيس صدام قد وصل الى القادة الذين يوزع عليهم عادة كلام صدام حسين في نطاق التداول المحدود ، وفي اطار تقليد متبع منذ ان قامت ثوزة ١٧ ـ ٣٠ تموز ١٩٦٨ .

وثمة بعض الأمور التي تعني الكثير لصدام حسين تسببت المؤامرة في كشفها . فالرجل صاحب اسلوب متميز في ادارة شؤون الحزب والدولة . ومثل هذا الاسلوب لا يعرفه الا الذين في مواقع متقدمة أو بالقرب منه . وعندما تُكشَف « شيفرة » هذا الاسلوب فان الامر يبدو في منتهى الخطورة ، تماما كما يحدث عندما يتم كشف شيفرة قائد العمليات العسكرية . وبعد تصفية المؤامرة اعاد الرئيس صدام حسين النظر كثيراً في « الشيفرة » الخاصة باسلوب قيادته ، اذا جاز التعبير .

ويبقى استكمالا لموضوع تسلم المسؤولية كاملة سؤال من شأن الاجابة عنه القاء المزيد من الوضوح على طبيعة العلاقة بين الرئيس البكر ونائبه صدام حسين .

ان عملية التسليم التي تمت توضح ان العلاقة كانت في غاية التميز . والسؤال هو : هل أنه على مدى عشر سنين لم يحدث تناقض بين الرئيس ونائبه ، ذلك أنه اذا كان مثل هذا التناقض لم يحدث فمعنى ذلك أنها المرة الاولى في تاريخ السلطة التي يكون التجانس بين الرئيس ونائبه على هذه المثالية .

ان التناقض شيء والخلاف في وجهات النظر شيء آخر . وبين الرئيس البكر ونائبه كانت هنالك بين الحين والآخر خلافات في وجهات النظر لا ترقى الى مرتبة التناقض ، وهي خلافات في التقدير سببها فارق السن من جهة وفارق التجربة من جهة أخرى . كذلك سببها التربية العسكرية للرئيس والتربية المدنية لنائبه . وسببها ايضا وايضا ان الصيغة التي يحكم بها الاثنان ليست من صنع قرارات جمهورية ومراسيم وانما هي ثمرة نضال طويل ومرير ومشترك سبق الوصول الى الحكم .

وفي استمرار كان النائب صدام حسين هو الذي لا يترك الخلاف في وجهات النظر يشتد ويعالجه في اطار الحرص على المركز القيادي والابوي للرئيس البكر ويساعده في ذلك ان الاثنين يلتقيان على ضرورة عدم الاخلال بجوهر مسيرة الحزب والثورة ، وانهما ايضا واعيان لمحاولات كثيرة من جانب جهات معادية للعراق من أجل ضرب « صيغة القائدين » الجديدة من نوعها في العالم الثالث والتي استمرت من دون ان يحدث ما حدث في معظم دول العالم الثالث من صراعات بين الرجل الأول والرجل الثاني وكيف يمارس الاثنان الحكم وهما في حذر دائم ونصب مكامن كل منهما للآخر من أجل التفرد بالسلطة .

ولقد حاولت الجهات المعادية دائما تشجيع لعبة التناقضات الداخلية ، لكن الاثنين كانا في استمرار في غاية التنبه وكان يدفع الثمن في استمرار ايضا العراقيون الذين يقتنعون بامكانية ممارسة اللعبة ، بل ويحاولون لعبها .

والى ذلك ان صدام حسين كان في استمرار حريصا ، بل وشديد الحرص على رغم الشأن الذي له داخل الحزب ، على ان يزن تصرفاته ازاء الرئيس البكر . وهو في الفصل الاخير من هذا الكتاب (والفصل عبارة عن حوار متصل معه بعدما تولى المسؤولية كاملة) نقرأ له كيف كان يتعامل مع الرئيس .

ولقد فوجىء الرئيس البكر يوما بأن وسائل الاعلام العراقية ترفق اسمه بلقب « الرئيس القائد » بعدما كانت تكتفي بصفة « الرفيق أمين سر القطر » و « الرفيق » و « السيد رئيس الجمهورية » . وتبين ان صدام حسين الذي يشرف على الاعلام هو الذي اوعز بذلك . كذلك ان صدام حسين هو الذي أوعز ايضا الى وسائل الاعلام باستعمال صفة « الأب القائد » وهي صفة اقترنت رسميا باسم الرئيس البكر قبل فترة من تخليه عن المسؤولية .

ومثل هذا الأمر ليس عفويا . ذلك ان اختيارات صدام حسين لها دائما اسباب . وهو قد يكون بايعازه الى وسائل الاعلام اعتماد صفة « الرئيس القائد » عند ذكر اسم الرئيس البكر استهدف اجهاض محاولة من محاولات الوقيعة التي ركزت على أن صدام حسين هو الذي يقود وليس أحمد حسن البكر .

وبعد ١٧ تموز ١٩٧٩ ، أي بعدما تخلى الرئيس البكر عن مسؤولياته في الدولة والحزب ، لا يترك الرئيس صدام حسين مناسبة الا ويزوره أو يتصل به . فمثلما ان علاقاتهما على مدى عشر سنين لم تكن اسيرة الطقوس البروتوكولية والتسلسل الدستوري فانها بعدما بات النائب هو الرئيس وانصرف الذي كان رئيسا الى الاهتمام بشؤون حديقته واحفاده من دون ان يحتفظ بأي منصب حزبي ، لا تزال بعيدة عن تلك الطقوس وذلك التسلسل .

كان الهدف من المؤامرة هو الحيلولة دون أن يتسلم صدام حسين المسؤولية الكاملة واحداث خلخلة داخل الحزب كما جاء في التحقيق الذي أجري مع محيي عبد الحسين مشهدي . وكان في تقدير المتآمرين انهم اذا تمكنوا من أن يفرضوا على الرئيس البكر البقاء من دون أن يسلم سلطاته الحزبية والرسمية الى نائبه فان ذلك سيحدث حالة فراغ .

واستناداً الى لعبة توازن القوى داخل حزب البعث في العراق فان ذلك ليس ممكناً الا اذا كان المتآمرون ادخلوا في حسابهم انهم سيطرحون صيغة تستقطب القوى السياسية المناهضة للبعث الى جانبهم تؤيدهم في ذلك قوى خارجية ، وهو أمر سيقود الى مجابهة يدفع الحزب ثمنها . وفي هذا الاطار تجدر الاشارة الى ان قيادة المجموعة المتآمرة قوية في مواقعها الرسمية والحزبية لكن قوتها في القاعدة منعدمة . فهي أخفقت في تجنيد بعض الضباط والعسكريين في مخططها باستثناء ضابط واحد وبعض العسكريين من ذوي الرتب الصغيرة . وهي أخفقت أيضاً في استقطاب عناصر حزبية قوية . واستناداً الى الاشخاص الذين اعدموا والاشخاص الاخرين الذين حكم عليهم بالسجن مدداً متفاوتة يتبين ان عنصر القرابة والعلاقة الوظيفية هو الذي جعل عدداً من الحزبيين يلتفون حول بعضهم ، هذا مع الأخذ في الاعتبار ان الجميع حاصلون على حقوقهم الوظيفية بالشكل الذي تسمح به كفاءاتهم وادوارهم في الحزب .

والأمر الذي يدعو الى الاستغراب هو ان قيادة المجموعة المتآمرة افترضت

حدوث حالة فراغ مع انها تعرف ان مسألة من يقود في السنين العشر التي انقضت على ثورة ١٧ ـ ٣٠ تموز ١٩٦٨ واضحة . بل ان هذه المجموعة تعرف ان صدام حسين هو صاحب الحق الشرعي نضالياً وكفاءة في ان يواصل بعد أحمد حسن البكر تحمل المسؤولية .

انطلاقاً من ذلك يبرز سؤال : ما الذي جعل صدام حسين لا يتسلم السلطة منذ زمن طويل مع انه رجل دولة من نوعية متميزة ؟

وفي الاجابة عن ذلك لا بد من معاودة التذكير بان صدام حسين بعدما تسلم البعث السلطة بالشكل النهائي في ٣٠ تموز ١٩٦٨ كان يفضل أن يبقى للحزب بعيدا عن أي مسؤولية معتبراً ان فترة نضاله التي طالت واثمرت بوصول الحزب الى السلطة تفرض عليه ان ينصرف الى شؤون الحزب لكي تتمكن السلطة من معالجة كل القضايا مستندة الى قوة أساسية .

وازاء اصرار الرئيس البكر على رفض هذه الرغبة فان صدام حسين صمم لنفسه دوراً غير تقليدي . وشيئاً فشيئاً وبسبب قدرات متميزة فيه على مواجهة قضايا العراق بات غارقاً في تحمل المسؤولية الى درجة اتخاذ القرار يشجعه على ذلك الرئيس البكر نفسه . ولقد أحدث ذلك في نفسه حساسية مفرطة ازاء طبيعة التعامل مع رئيسه .

وحتى عندما كان صدام حسين يحقق نجاحات كبرى في قضايا ترك له الرئيس أمر اتخاذ القرار فيها فانه كان شديد الحرص على ان تنسب هذه النجاحات للرئيس على رغم انه هو الذي مارس دور المخطط والمصمم .

وخلال فترات ساء فيها الوضع الصحي للرئيس البكر الى درجة انه بات متعذرا عليه ترؤس اجتماعات مجلس قيادة الثورة بصفة كونه رئيساً لهذا المجلس واجتماعات القيادة القطرية بصفة كونه أمين سر هذه القيادة ، فان هذه الاجتماعات كانت تعقد برئاسة صدام حسين (نائب الرئيس ونائب أمين سر) ، وكانت هذه الاجتماعات شرعية والقرارات التي تتخذها تنفذ . وكثيراً ما ترأس صدام حسين اجتماعات لمجلس قيادة الثورة اتخذت فيها قرارات من نوع تغيير الحكومة وتعيين قائد الجيش واحالة قادة آخرين على التقاعد وعقد اتفاقات دولية .

وقد استغرقت هذه الفترات حوالى سنة وكان في استطاعة صدام حسين أن يتخذ من جملة القرارات التي كانت تتخذ خلال هذه الاجتماعات وكلها بالاجماع قراراً من سطرين يتسلم به المسؤولية كاملة . لكنه لم يفعل ذلك وكان هاجسه في استمرار بقاء تقاليد الحزب في مأمن من النزوات واشعار الرئيس البكر بانه في موقعه وفي المقدمة ولا يقلل من ذلك ان ظروفه الصحية سيئة .

وانطلاقاً من ذلك أيضاً يبرز سؤال أخير : هل لو ان صدام حسين تحمل المسؤولية الأولى منذ قيام الثورة كان استطاع ان يحقق النجاح الذي حققه ؟

وفي الاجابة عن ذلك انه ما دام مارس المسؤولية كاملة من دون أن يكون في الموقع الأول فمعنى ذلك انه كان سينجح . فهو صاحب موهبة تعزز القدرة التي يمتلكها . وفي عشر سنين من الممارسة في اطار الدور الذي صممه لنفسه وحافظ عليه حتى اللحظة التي لم يعد فيها الرئيس البكر قادراً على تحمل المسؤولية اثبت انه القائد الناجح . ولكن بقدر ما ان هذا الدور كان امثولة ضرورية وتقليداً جديداً

على الحزب استهدف منه صدام حسين وقف التطلعات من جانب البعض بدافع الطموح أو الطمع أو مساحة الحركة التي يؤمنها الموقع وليس بدافع الرصيد النضالي ، الى السلطة الأولى ... بالقدر نفسه ان عدم الحسم هذا كان الأرضية التي تحركت فوقها بعض الجيوب البعثية وبالتحديد المجموعة التي تآمرت .

وفي ظل الدور الذي صممه صدام حسين لنفسه اكتسب خبرات كثيرة ونضج أكثر وتبلورت فيه قدرات رجل الدولة .

وثمة مسألة لافتة للنظر وهي انه عندما تسلم صدام حسين المسؤولية الكاملة في الحزب والدولة يوم ١٧ تموز ١٩٧٩ كان رد فعل المواطن العراقي عادياً ، وتعامل مع الحدث بشكل طبيعي وكأنما الرئيس الجديد هو القائد منذ سنوات طويلة .

أما العرب والدول الأجنبية الصديق منها وغير الصديق للعراق ولطبيعة الحكم فيه فانها نظرت الى الأمر على أساس ان رجل العراق القوي منذ ١٩٦٨ بات في الموقع الأول . وعلى رغم تسليم اطراف عربية ودولية كثيرة بشأن الرجل وقوته الا انهم بدأوا يتطلعون الى ما سيصدر عن صدام حسين الرئيس ، اذ ليس بالضرورة ان يستمر معتمداً الدور السابق الذي صممه لنفسه . الدور الماضي فرضته ظروف الماضي . والدور الجديد ستفرضه ظروف المرحلة الراهنة .

وقبل أن تحسم مسألة الزعامة ويتسلم صدام حسين المسؤولية الأولى للحزب والدولة في العراق كان رصيده العربي ضخماً جداً . وكان هذا الرصيد سيبدو أكثر أهمية وتأثيراً لو أنه كتب للاتفاق في شأن الوحدة بين العراق وسوريا أن يتحقق . لكن هذا الاتفاق تعرض لضربة كبرى بعدما روى أركان المؤامرة أنهم كانوا على صلة بسوريا وانهم كانوا يمدونها بالمعلومات وتمدهم بالمال وتعدهم بالمساندة بعد ان يسقطوا صيغة البكر - صدام ويحلوا محلها .

والاتفاق في شأن الوحدة بدأ في الأصل بمبادرة من سوريا ضمن رسالة بعث بها الرئيس حافظ الأسد يدعو فيها الى صيغة جديدة من العلاقة بين العراق وسوريا . وكان ذلك أواخر ايلول (سبتمبر) ١٩٧٨ وفي اعقاب سلسلة من الاجتماعات للقيادتين القطرية والقومية ومجلس قيادة الثورة شهدتها بغداد استهدفت مناقشة الوضع العربي وسبل مواجهة المخطط الذي يسير فيه الرئيس أنور السادات.ومن باب المصادفة انه في الوقت الذي كان الرئيس الأسد يبعث برسالة تدعو الى صيغة جديدة من العلاقة مع العراق كانت محصلة الاجتماعات المتتالية في بغداد للقيادتين القطرية والقومية ولمجلس قيادة الثورة الموافقة على افكار وتصورات طرحها صدام حسين الذي رأى ان مواجهة مخطط الرئيس السادات تكون بأن يدعو العراق الى مؤتمر قمة ، وبأن تكون الساحة السورية والساحة العراقية ساحة واحدة وهذا يوجب البحث في ايجاد علاقة من نوع جديد مع النظام السوري .

وعلى رغم ان الأمرين (أمر الدعوة الى القمة وأمر ايجاد صيغة جديدة للعلاقة بين العراق وسوريا) سارا في خط متواز فاننا سنفصل الأمرين ونبدأ بالحديث حول ظروف الصيغة بسبب اتصال المسألة بموضوع تخلي الرئيس البكر عن مسؤولياته الكاملة في الحزب والدولة الى صدام حسين ، على ان نتبع ذلك بالحديث حول ظروف القمة ونتائجها ولماذا شكلت هذا الرصيد البالغ الأهمية لصدام حسين .

بدأت المشاورات والاتصالات في شأن الصيغة الجديدة للعلاقة بين العراق وسوريا لمجرد أن بادر طرف وكان الطرف الثاني يفكر في الأمر في الوقت نفسه . ورافقت هذه المشاورات والاتصالات حماسة على المستوى الشعبي شكلت اذا جاز التعبير استفتاءاً عفوياً لمصلحة تحقيق وحدة العراق وسوريا . وفي ٢٦ تشرين الأول ١٩٧٨ اثمرت الاتصالات والمشاورات عن توقيع « ميثاق العمل القومي » تم التوقيع عليه خلال زيارة قام بها الرئيس حافظ الأسد الى بغداد . وقبل ان يقوم الرئيس الأسد بعد ذلك بحوالى ثمانية أشهر بزيارة الى بغداد كانت حالة احباط ظهرت في نفوس المواطنين في البلدين . وظن هؤلاء ان الرئيس الأسد سيوقع مع القيادة في العراق اتفاق اعلان الوحدة . بل ان التساؤلات كثرت في شأن نوعية هذه الوحدة . فمن قائل ان اللجان التي انبثقت من الميثاق ارتأت ان تكون الوحدة اندماجية الى قائل انها ستكون كونفيدرالية الى مفترض انها ستكون اتحادية .

وقد جاءت هذه الظنون نتيجة الحماسة التي اشاعها « ميثاق العمل القومي » وتضمن هذا الميثاق عبارات تتسم بالحسم من نوع « وتصميماً منهما على تحقيق انتقال نوعي في العلاقات بين القطرين الشقيقين فقد اجتمعت في بغداد قيادتا القطرين بين ٢٤ ـ ٢٦ تشرين الأول ١٩٧٨ في جو من الشعور العميق بالمسؤولية التاريخية والتفاهم العميق والتصميم الحازم على تلبية الآمال القومية التي تعلقها عليهما الجماهير العربية واتفقت القيادتان على ميثاق للعمل المشترك بين القطرين في كافة الميادين السياسية والعسكرية والاقتصادية والثقافية والاعلامية وغيرها يتضمن العزم على السعي الحثيث ضمن خطة علمية متواصلة من أجل تحقيق أوثق أشكال العلاقات الوحدوية بين القطرين العربيين العراق وسوريا » و « ان القرارات التي اتخذتها القيادتان في اجتماعهما التاريخي في تشرين الأول ١٩٧٨ تشكل انعطافاً نوعياً بارزاً في العلاقات بين القطرين على طريق الوحدة العربية ... » .

ولم تنهِ الزيارة الثانية التي قام بها الرئيس الأسد الى بغداد حالة الاحباط التي اشرنا اليها ذلك ان المحادثات التي جرت بين ١٦ و ١٩ حزيران ١٩٧٩ لم تسفر عن اعلان بقيام الوحدة أو ما هو أقرب الى الوحدة وانما انتهت الى « إعلان سياسي » وقعه الرئيسان البكر والأسد تضمن الاعلان عن تشكيل « قيادة سياسية موحدة للقطرين » تتولى اضافة الى اختصاصات « الهيئة السياسية العليا » التي حددها ميثاق العمل القومي ، والى حين « قيام الوحدة الدستورية ومؤسساتها » الآتي : « وضع السياسة الخارجية للقطرين وإقرارها ووضع السياسة العربية للقطرين وإقرارها ، وإقرار مسائل السلم والحرب والسياسة الدفاعية للقطرين واتخاذ القرارات والاجراءات في كل المجالات الاقتصادية والثقافية والتربوية والاعلامية على طريق استكمال بناء الوحدة بين القطرين على أن تتولى اللجان المنبثقة من ميثاق العمل القومي والوزارات والمؤسسات والهيئات المختصة في القطرين تنفيذ ذلك تحت اشراف القيادة السياسية الموحدة » . كذلك تضمن الاعلان « تشكيل لجنة حزبية تتولى مناقشة الاسس والدراسات والوثائق وإعدادها لتحقيق الوحدة الحزبية مع الوحدة الدستورية » و « تشكيل لجنة حزبية تتولى وضع الصيغة النهائية لدستور الدولة الموحد في ضوء المبادىء والأسس الدستورية التي تمَّ اقرارها في اجتماعات الهيئة السياسية العليا » و « تشكيل قيادة عسكرية موحدة للقوات

المسلحة في القطرين تعمل باشراف القيادة السياسية الموحدة حتى قيام دولة الوحدة » .

كذلك تضمن الاعلان الاشارة الى « ان اللجان التي انبثقت من الميثاق حققت خلال الفترة الماضية نتائج مهمة جدا على طريق توثيق العلاقات بين القطرين العربيين المناضلين كما كان انعطافاً نوعيا في العلاقات بينهما وبداية لمرحلة جديدة تستهدف وضع الأسس المتينة وتوفير الظروف الملائمة لبناء الوحدة بينهما كنواة للوحدة العربية الشاملة » .

وعلى رغم ما تضمنه « الاعلان السياسي » من تمنيات وحدوية الا انه كان من الواضح ان الهوة شاسعة بين بعث العراق وبعث سوريا . واذا وضعنا خطوطاً تحت عبارات وردت على لساني الرئيس البكر والرئيس الأسد بعد اذاعة « الاعلان السياسي » ، اضافة الى وضع خطوط تحت وجهات نظر ومطالب رافقت المناقشات والمحادثات التي اجرتها بعض اللجان المنبثقة عن القيادة السياسية الموحدة لأمكننا الاستنتاج بان حرارة «الاعلان السياسي» تتجاوز بكثير برودة الاجواء التي سارت فيها المحادثات . فالرئيس البكر قال بعد اذاعة « الاعلان السياسي » بقليل « لقد كنا جميعاً نطمح الى أن تكون خطواتنا الوحدوية أطول وأوسع مما حققناه » . والرئيس الأسد قال بعدما رفض دعوة الرئيس البكر في اعقاب انتهاء المحادثات لتناول الغداء وفضل العودة فورا الى دمشق « لا شك في ان المواطنين في القطرين خصوصاً وفي الوطن العربي عموما كانوا يتطلعون الى أن نعلن الوحدة قبل اليوم . ونحن أيضاً كنا نتطلع ونتطلع الآن وسنظل نتطلع كما يتطلع المواطنون الى ان نحقق هذا الهدف في اقصى ما نستطيع من السرعة ، لكننا نريد ان نبني الوحدة بناء عملياً حقيقياً متيناً » .

أما وجهات النظر والمطالب التي اشرنا الى انها رافقت المناقشات والمجادثات فقد أظهرت ان هنالك اجواء من الحيرة غير مفهومة .

في فترة طرح الافكار والتصورات لشكل الوحدة التي اعقبت توقيع « ميثاق العمل القومي » طرح الجانب العراقي مشروعاً لدولة اتحادية فيدرالية تسمى « الدولة العربية الاتحادية » يأخذ في الاعتبار الخصوصيات العراقية والسورية ويترك المجال رحباً أمام تطويره مع الوقت الى صيغة أكثر تقدماً . وبموجب هذا المشروع يبقى هنالك كيان عراقي وكيان سوري ، لكنه الكيان المحلي وليس الدولي . والى ذلك هنالك رئيس للدولة الاتحادية وهنالك السلطة الاتحادية . ورد الجانب السوري طارحاً مشروعين . الأول يدعو الى دولة اندماجية اعتبره العراقيون اندماجاً من حيث الشكل وليس من حيث الجوهر . والثاني كونفيدرالي يؤكد على وجود دولتين جمهوريتين وعلى نظامين وعلى مقعدين في الأمم المتحدة مع وجود سلطة كونفيدرالية تنسيقية .

وقد اطلق الجانب السوري على المشروع الأول اسم « الجمهورية العربية المتحدة » لاحياء وحدة ١٩٥٨ بين مصر وسوريا وضمّنه بنوداً تنص على ان الثروة مشتركة وعلى أن يكون التمثيل في البرلمان متساويا . ووافق الجانب العراقي على رغم ان صدام حسين كان ضد هذه التسمية ويفضل تسميةً جديدة هي « الدولة العربية الاتحادية » وأرفق الجانب العراقي الموافقة ببضع ملاحظات حول مسألة التساوي في التمثيل داخل البرلمان . وخلاصة الملاحظات هي انه ما دامت الثروات

مشتركة فهذا يعني ان يكون هنالك شعب واحد .

ورافق ذلك أيضاً فتور في زيارات الوفود . أما محاولات التنسيق العسكرية فلم تؤد الى أي نتيجة . ثم جاءت اجتماعات بغداد التي اسفرت عن « الاعلان السياسي » المتضمن تشكيل قيادة سياسية موحدة . ومن بعدها بثلاثة اسابيع حدثت المؤامرة التي استهدفت تصفية صيغة « البكر ـ صدام » وبالذات الحيلولة دون تسلم صدام حسين المسؤولية الكاملة في الحزب والدولة لتوضح سر ذلك الفتور .

هنا لا بد من وقفة نطرح فيها التساؤل الاتي :

هل لو ان الميثاق بين العراق وسوريا لم يوضع في الوقت الذي وضع فيه ، أي وضع بعد حسم مسألة الزعامة في العراق وتسلم صدام حسين المسؤولية الأولى في الحزب والدولة ، كان سيحدث الخلل الذي رافق محادثات الوحدة بين البلدين ومحادثات توحيد الحزب ؟

وهل انه لو كانت مسألة الزعامة في العراق محسومة بالنتيجة التي اشرنا اليها قبل الفترة التي ولد فيها الميثاق ، كان يمكن ان تطرح فكرة الوحدة بين الدولتين والحزب المنقسم ؟

وهل أنه من الممكن فصل مسألة توحيد الحزب عن مسألة الوحدة الدستورية كما كانت تريد سوريا على اساس ان وضع مؤسس الحزب ميشال عفلق كان في استمرار النقطة غير المحسومة ؟

وبشيء من التبسيط نحاول الاجابة عن هذه التساؤلات :

انه من المؤكد ان الخلل الذي اشرنا اليه في التساؤل الأول ما كان ليحدث على الأرجح لو أن صدام حسين كان متسلما المسؤولية الاولى عندما طرحت سوريا فكرة الصيغة الجديدة . وعندما نقول « على الأرجح » فلأن نظرة صدام حسين الى وضع ميشال عفلق غير قابلة لأي اعادة نظر حتى ولو ارتضى مؤسس الحزب التضحية بالذات من أجل عودة الحزب موحداً وقيام دولة الوحدة بين العراق وسوريا ، وهو ما كان صارح به الرئيس البكر ونائبه صدام حسين .

ان ميشال عفلق في نظر صدام حسين ليس عضواً في قيادة حزب البعث ولا أميناً عاماً تم انتخابه وانما هو مؤسس الحزب . وقبل ان يتوجه صدام حسين الى دمشق يوم ٢٨ كانون الثاني ١٩٧٩ لترؤس اجتماعات الهيئة السياسية العليا حدد ما يمكن اعتباره شرطاً وحرص على اعلان ذلك في اطار تصريح ادلى به « ان اعلان قيام الوحدة بين العراق وسوريا ينبغي ان يرافقه اعلان قيام وحدة حزب البعث العربي الاشتراكي » ملمحاً الى أن قائد حزب البعث هو الاساس في عملية الوحدة « ان أي وحدة في التاريخ الحديث لم تتم خارج اطار قيادة حزب البعث العربي الاشتراكي باستثناء بعض اشكال العلاقة الوحدوية أو التي سميت كذلك لكنها عملياً لم تستطع ان تقدم قيمة جديدة للوحدة واهدافها وتطبيقاتها . إن الحزب هو الذي صنع الوحدة بين مصر وسوريا عام ١٩٥٨ . كما كانت روح الحزب وافكاره عن طريق قيادته هي الاساس في مبادرة عام ١٩٧٨ المتمثلة بالعلاقة الجديدة بين العراق وسوريا وبالتالي روح العمل الوحدوي » .

وواضح ان صدام حسين يقصد هنا بـ « قيادة حزب البعث » مؤسس الحزب ميشال عفلق ، فضلاً عن انه قطع الطريق بقوله هذا على رغبة سوريا في فصل

مسألة توحيد الحزب عن مسألة الوحدة الدستورية بين البلدين .

و « عقدة القائد المؤسس » ليست بالأمر السهل بالنسبة الى السوريين . فهو محكوم بالإعدام عندهم . وإعادة الإعتبار اليه من جانب النظام في سوريا الذي أصدر الحكم معناه إقرار بخطأ اصدار الحكم ومعناه إعادة نظر جذرية في الخريطة البعثية داخل سوريا .

ولعل السوريين افترضوا انه بضرب صيغة البكر ـ صدام والحيلولة دون ان يتسلم صدام حسين المسؤولية الأولى يمكن أن ينهوا « عقدة القائد المؤسس » بالشكل الذي لا يجعلهم يتراجعون ، على اساس انه ما دام من المستحيل مع صدام حسين تجاوز وضع ميشال عفلق فان الامر يبدو سهلاً جداً مع المجموعة المتآمرة التي في حال نجاحها كانت ستنهي أمر صدام حسين وعفلق معاً في اطار اجراءات « ثورة التصحيح » التي ستعلنها بقيادة عدنان حسين الذي اختاره صدام حسين في مرحلة عدم الشك به عضواً سادساً في اللجنة التساعية التي يتألف منها الجانب العراقي في « القيادة السياسية الموحدة » التي تم الاعلان عنها يوم ١٩ حزيران ١٩٧٩ ، أي قبل ثلاثة أسابيع من اكتشاف المؤامرة . وكان مثل هذا الأمر سيحدث قبل ١٩ ايلول ١٩٧٩ وهو الموعد الذي اتفق عليه لعقد اجتماع « القيادة السياسية الموحدة » في دمشق .

شكل اكتشاف المؤامرة مأزقاً بالنسبة الى الرئيس صدام حسين كان عليه أن يتخذ قراراً سريعاً حوله . وقد تكون روح قمة بغداد أو بقايا التفاؤل بامكانية تحقيق الوحدة السورية ـ العراقية ووحدة الحزب أو تمازج الأمرين معاً ، هما اللذان جعلاه يقرر عدم اتهام سوريا بالاسلوب التقليدي وانما باعتماد اسلوب الايماءات . وبعدما أحاط الملوك والرؤساء العرب بما حدث قرر أمرين :

الأول ـ عدم تسمية سوريا في البيان الذي صدر عن القيادة القطرية ومجلس قيادة الثورة مساء ٢٨ تموز ١٩٧٩ والذي يمكن اعتباره « بيان الاتهام الحزبي » . ومن أجل ذلك تضمن البيان الفقرة الآتية : « وكان هؤلاء المتآمرون طيلة الفترة الماضية على صلات مع جهة خارجية ترى القيادة ان ليس من المصلحة القومية كشفها الآن تسلموا منها الأموال وتلقوا منها التعليمات ونسقوا معها جهودهم التآمرية الاجرامية » .

الثاني ـ اذاعة تصريح يوضح التزام العراق بمقررات قمة بغداد بما فيها التزاماته تجاه سوريا . وقد صيغ التصريح* باسلوب الايماءات أيضاً وكان هنالك

---

* ورد في التصريح المشار اليه الاتي :

« أكدت السلطات العراقية المسؤولة في بغداد ان المؤامرة الأخيرة التي تعرض لها النظام القومي في العراق . وما ذكر عن صلة المتامرين بجهة عربية معينة لن يؤثر اطلاقا على موقف العراق من مقررات مؤتمر القمة العربي الأخير والأجواء العربية التي حققها . ويعتبر العراق نفسه مسؤولا مسؤولية كاملة عن نهج هذا المؤتمر وعن مقرراته . كما ان العراق يحرص أشد الحرص على الايفاء بكامل التزاماته التي تحددت في هذا المؤتمر .

« هذا وقد دفع العراق ضمن التزاماته القومية حتى الان مبلغ ٢٤٦.٦٦٦.٦٦٤ دولار من أصل (٥٢٠) مليون دولار التي أقرها مؤتمر قمة بغداد الأخير . وقد تسلمت سوريا حتى الان ١٨٣.٢٣٧.٠٠٠ دولار وتسلم الأردن (١٢٣.٨٠٨.٥٢٢) دولار وتسلمت منظمة التحرير الفلسطينية

حرص على ان يذاع يوم ٨ آب ١٩٧٩ ، أي يوم صدور قرارات المحكمة الخاصة بمحاكمة المتآمرين ٠

وبعد ذلك توقف اسلوب الايماءات في موضوع المساعدات التي يدفعها العراق الى سوريا ولم تعد ترد عبارة « صلة المتآمرين بجهة عربية .. » . ففي مطلع كانون الثاني (يناير) ١٩٨٠ كان مبلغ ٩١٦١٨٨٠٠ دولار يحول من العراق الى مصرف سوريا المركزي وهو القسط الاول من مساعداته لعام ١٩٨٠ ، بموجب التزاماته بقرارات قمة بغداد ٠ وفي مطلع أيار (مايو) ١٩٨٠ كان العراق يحول مبلغا هو القسط الثاني ٠ وكان الاعلان عن التحويل يقتصر على نبأ تنشره صحف العراق وفي صفحاتها الاولى عن تسديد التزامات العراق المالية الى كل من سوريا والاردن ومنظمة التحرير الفلسطينية مع تحديد الهدف من ذلك وهو « ان العراق يحرص كل الحرص على تنفيذ جميع التزاماته القومية في دعم واسناد مجابهة العدو الصهيوني وافشال الاتفاق الخياني بين الكيان الصهيوني والنظام الساداتي الخائن .. » ٠

وعلى رغم ذلك فان الرئيس صدام حسين استمر يتطلع الى موضوع الوحدة ٠ وفي أول حديث اجريته معه بعدما تسلم المسؤولية الكاملة في الحزب والدولة وكان ذلك مساء يوم السبت ٢٩ ايلول ١٩٧٩ بعد اسابيع قليلة من كشف المؤامرة سألته عن طبيعة العلاقة بينه وبين الرئيس حافظ الاسد فكان رده استراتيجيا « ان بغداد اوقفت الانهيار النفسي وهذا كان واحدا من الاهداف الاستراتيجية الكثيرة لقمة بغداد ، غير ان الامر الواضح انها ليست صيغة النضال المثلى للحركة لنسف الحواجز التي يضعها اعداء الامة وانما صيغة نسف الحواجز هي بالوحدة العراقية ـ السورية التي تأخذ المدى المطلوب وتستقطب حولها الاردن والمقاومة وتقود النضال القومي نحو غاياته المحددة بما يعزز عملية الاستقطاب القومي للامة ، وتبدأ عملية صراع مرة وطويلة لا ترتبط بحواجز دولية تؤدي بها للتوقف السريع والذي يحول دون أن تأخذ الامة مداها كله ٠ وأنا لا اقصد ان العراق وسوريا والمقاومة والاردن تتصرف بمعزل عن ثقل العرب وانما أن يكون تصرفها متقدما نوعيا في الوقت الذي هو متصل بكل قدرات العرب ، أي أن العرب يتحركون بقدراتهم ولنسمها تقليدية ، لكن الحركة الامامية تكون بقدرات غير اعتيادية .. » ٠

في ضوء ذلك هل يجوز الافتراض ان عدم تسمية سوريا في بيان الاتهام والاكتفاء بالاشارة الى « جهة خارجية ترى القيادة ان ليس من المصلحة القومية كشفها الآن » وعدم شن الحملات الاعلامية بعد ذلك عليها والاستمرار في تسديد اقساط الدعم التي التزم بها العراق في قمة بغداد . ثم دعوة الرئيس صدام حسين بعدما تسلم المسؤولية الكاملة الى وحدة عراقية ـ سورية تستقطب حولها الاردن والمقاومة ... في ضوء ذلك وفي ضوء اجتماعه بالرئيس حافظ الاسد في هافانا خلال قمة عدم الانحياز ضمن اجتماع رؤساء دول غرب آسيا وتبادل الرأي معه

\ (١٤,٨٥٧,٥٥٥) دولار وتسلم الصندوق الخاص بدعم الشعب العربي في الأرض المحتلة الذي مقره البنك المركزي الأردني (٩,٩٠٥,٤٢٢) دولار ٠

« هذا وسوف يدفع العراق القسط الأخير من التزاماته القومية في موعده المحدد » ٠

(وهي أول قمة يحضرها صدام حسين الرئيس) هل يجوز الافتراض أن الرئيس صدام حسين لا يريد اغلاق باب السعي الوحدوي على رغم كل ما حدث وانه يرى ان الزمن يزيل مرارة ما حدث ؟

هنا لا بد من الربط بين هذا الافتراض وبين روح الاعلان القومي الذي طرحه الرئيس صدام يوم ٨ شباط ١٩٨٠ . واستنادا الى مضمون هذا الاعلان وروحيته يمكن الافتراض بان حديث الوحدة يمكن ان يتجدد انما بصيغة اخرى . والى ذلك انه اذا كانت محادثات الوحدة جرت وانتهت الى « ميثاق العمل المشترك » ثم « القيادة السياسية الموحدة » قبل ان تلقى الضربة الموجعة التي تلقتها ، انما جرت بعد علاقات بالغة السوء بين الجانبين سادها تعامل اتسم بالعنف والمطاردات ، فانه من الجائز الافتراض ان حديث الوحدة يمكن ان يتجدد في ضوء روح الاعلان القومي الذي نعرض ظروفه في الصفحات الاخيرة من هذا الفصل .

ونعود الى قمة بغداد التي تشكل رصيدا ضخما بالنسبة الى صدام حسين .

في لحظة تأمل في الواقع العربي بعد التوجه الذي اختاره الرئيس السادات وجد صدام حسين أن انهيارا مأساويا ستعيشه الأمة إذا لم تحدث مواجهة لمخطط السادات ـ اسرائيل الذي ستفرضه الولايات المتحدة . ثم كانت الاجتماعات المتتالية التي عقدتها القيادتان القطرية والقومية ومجلس قيادة الثورة خلال ايلول ١٩٧٨ . وفي خلال هذه الاجتماعات طرح صدام حسين فكرة الدعوة الى مؤتمر قمة والاعلان عن استعداد العراق لجعل الساحتين العراقية والسورية ساحة مشتركة . ووافق المشاركون في هذه الاجتماعات على الفكرة وسمع هؤلاء الرئيس البكر يقول مخاطبا نائبه : بارك الله فيك ابو عدي لانك أوجدت لنا الحل .

بعد اتخاذ القرار تم اعداد بيان لكي يذاع . وفي الفترة بين اتخاذ القرار واذاعة البيان كان السفير العراقي في دمشق يتسلم رسالة من الرئيس حافظ الاسد عرف صدام حسين بعدما كان تم اتخاذ القرار بالدعوة الى قمة وبأن تكون الساحة السورية والساحة العراقية ساحة مشتركة ، ان الرئيس السوري يدعو في رسالته الى صيغة جديدة من العلاقة .

لم يترك صدام حسين الأمور تسير بالشكل التقليدي . ولان الوضع الصحي للرئيس البكر لا يسمح له بالتحرك فقد أخذ صدام حسين على عاتقه أن يقوم وعلى وجه السرعة باتصالات تركزت على الذين تشكل موافقتهم على الدعوة الى عقد القمة أو عدم موافقتهم الثقل سلبا أو ايجابا . اتصل بالامير فهد ولي عهد السعودية ثم لم يكتف بالاتصال الهاتفي وانما توجه الى المملكة واجتمع بولي العهد ووجده يرحب بالفكرة . ثم زار الكويت ووجد أميرها يرحب ايضا . وكان رد فعل الملك حسين جيداً جدا .

وفي هذه المشاورات والاتصالات كان صدام حسين يشدد على انه اذا كانت حجة الرئيس السادات في اختيار الخط الذي يسير عليه أن اوضاع مصر المالية سيئة فان المطلوب من الدول العربية ومن القادر منها على وجه التحديد الاعلان عن استعدادها لتقديم المساعدات المالية التي تسقط حجته ، اذا كان السبب بالفعل هو الازمة المالية وليس اي شيء آخر .

تمت الموافقة على انعقاد القمة ولكن صدام حسين لم يكن مرتاحا للجو السائد

حيث ان بعض الاطراف العربية التي تشاور معها كانت تميل الى محاورة الرئيس السادات وعدم تجاوز دائرة الحوار . وهذه الاطراف كانت في موقفها هذا ترجح مصالحها الاقتصادية واستثماراتها في مصر على أي شيء آخر . وحتى عندما عقد وزراء الخارجية العرب مؤتمرهم من اجل الاعداد للقمة كان الاتجاه المشار اليه قويا . وهنا اخذ صدام حسين على عاتقه ادخال تعديلات جذرية على هذا الموقف قبل ان تنعقد القمة . ومن اجل ذلك عقد اجتماعات ثنائية مع معظم وزراء الخارجية العرب ، بل انه قبل افتتاح المؤتمر ارسل من اصطحب الى مكتبه وزير خارجية الكويت الشيخ صباح الاحمد . وعندما عاد الشيخ صباح الى قاعة المؤتمر كانت جلسة الافتتاح قد انتهت فشارك في الجلسة المغلقة وظهرت نتائج لقائه بصدام حسين واضحة .

في هذه الاثناء كانت هنالك لجان عراقية من الخارجية والبروتوكول وأجهزة الأمن تعمل بسرعة مذهلة في اعداد ترتيبات لاقامة الملوك والرؤساء العرب على أساس ان مؤتمر وزراء الخارجية سيوصي بانعقاد القمة فورا . وكانت هناك تعليمات بان يقيم الملوك والرؤساء وتنعقد القمة في منطقة واحدة وليس في فنادق فضلا عن انه ليس هنالك فنادق تستطيع استيعاب هذا العدد الكبير من الوفود .

هنا حدثت مشاركة عراقية شعبية في موضوع استضافة الملوك والرؤساء حيث ان عددا كبيرا من المواطنين في حي المنصور ارقى منطقة سكنية في العاصمة العراقية ابدوا رغبتهم في تقديم داراتهم ليحل فيها الحكام العرب . وتم اختيار عدد من هذه الدارات وفي ايام كانت جاهزة لاستقبال الضيوف الاستثنائيين . وأعيد تأثيث البعض وجيء بثلاجات وأجهزة تلفزيون من النوع المتطور . وتم شراء مجموعة من السيارات التي تليق بالملوك والرؤساء .

وتجدر الاشارة هنا الى أن أحد المواطنين وهو عجوز طلبوا منه تقديم دارته لأن موقعها مناسب لكن الرجل لم يستوعب الفكرة ورفض واعتقد ان دارته ستؤخذ منه الى الأبد . وبقي هذا المواطن في دارته محاطا بالملوك والرؤساء العرب .

وكانت مشاركة المواطنين العراقيين في استضافة الملوك والرؤساء العرب موضع تقدير صدام حسين الذي طلب ابقاء الاثاث والسجاجيد والاجهزة الكهربائية في الدارات هدية من الدولة لاصحاب هذه الدارات . كذلك قدم تذكرة طائرة لكل صاحب دارة يسافر بها الى الخارج للسياحة .

بدأت قمة بغداد اعمالها يوم الخميس ٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٨ واستمر اتجاه محاورة الرئيس السادات هو الاتجاه الغالب . وفي ضوء ذلك اتفق الملوك والرؤساء بعد مشقة وعلى اثر اجتماعات متعددة عقدها اقطاب القمة (الأمير فهد والرئيس البكر والملك حسين والرئيس الاسد والشيخ جابر الاحمد امير دولة الكويت) على ان يتم اعداد رسالة تحمل توقيع رئيس المؤتمر (الرئيس احمد حسن البكر) يحملها الى الرئيس السادات وفد من القمة على رغم ان صدام حسين كان واثقا بان الرئيس السادات لن يغير شيئا من موقفه .

وفي الوقت الذي كان مؤتمر القمة يعيش حالة تجمد حقيقية غادرت مطار بغداد بعد ظهر يوم السبت ٤ تشرين الثاني ١٩٧٨ طائرة عراقية خاصة تحمل وفد

القمة الذي روعي في تأليفه أن يكون على مستوى عال وأن يضم اتجاهي القمة: الاتجاه الداعي الى التحاور وعدم التسرع في ادانة الرئيس السادات والاتجاه الرافض والمتصلب والمتضرر قوميا، ومن اجل ذلك اختير رئيس وزراء لبنان سليم الحص رئيسا للوفد واختير طارق عزيز عضو مجلس قيادة الثورة العراقية وأحمد اسكندر أحمد وزير الاعلام السوري وأحمد خليفة السويدي وزير خارجية دولة الامارات العربية اعضاء في الوفد.

وكانت الرسالة التي حملها وفد القمة وتحمل توقيع الرئيس البكر في غاية المسؤولية* كما يلاحظ من النص الذي ثبتناه في حاشية الصفحة. فهي تخاطبه مخاطبة الشقيق للشقيق وهي تناشده وهي تعتبر عودته عن اتفاقيات «كامب ديفيد» و «بلير هاوس» خدمة كبيرة للامة العربية وهي تتيح له العودة الى الصف العربي وهي لا تهدد ولا تنذر وهي ملزمة بما يتعلق بالمساعدات التي تتعهد بتقديمها الى مصر وهي تنطق وللمرة الاولى باسم كل الملوك والرؤساء العرب. وحتى عبارة «اللهم اشهد اننا قد بلغنا» لا تبدو انذارا وانما هي تعهد.

---

* نص الرسالة:

«السيد انور السادات المحترم.

بعد التحية،

انعقد مؤتمر القمة العربي في بغداد في ٢ تشرين الثاني - نوفمبر - ١٩٧٨ من اصحاب الجلالة والسيادة والسمو ملوك ورؤساء وامراء الدول العربية وممثليهم وكان محور مناقشات المؤتمر الاتفاقيات التي عقدتموها والتي تسعون الى التوقيع عليها مع العدو الصهيوني والتي سميت باتفاقيات كامب ديفيد وبلير هاوس.

وقد وجد السادة المجتمعون ان هذه الاتفاقيات لا تخدم الامة العربية وحقوقها في فلسطين والقدس وسيناء والجولان ولا قضايا الشعب المصري الاخرى في المعنى الشمولي والعملي مع القضية القومية، بل وإنها تلحق أفدح الاضرار بالأمة العربية وبمصلحة الشعب المصري الشقيق في اطار المعاني والمبادىء التي اشرنا اليها. وعليه فإننا بإسم مصلحة الامة العربية وبإسم المبادىء التي تجمعنا مع الشعب المصري المناضل، هذه المبادىء التي تشكل القانون الاساسي في حاضرنا ومستقبلنا على طريق صيانة الكرامة والاستقلال وتحقيق الازدهار، نناشدكم أن ترجعوا نهائيا عن هذه الاتفاقيات صراحة وفورا وتعودوا الى صف الاجماع العربي مع اشقائكم الذين شاركوكم السراء والضراء في أقسى المحن وضحوا مع الشعب العربي المصري وجيشه البطل سافكين دماءهم في خنادق القتال مع العدو الصهيوني مضحين ما لديهم من أجل استرداد اراضينا العربية المقدسة والتي اغتصبها العدو الصهيوني.

انكم بعودتكم عن هذه الاتفاقيات انما تسدون خدمة كبيرة للامة العربية ولمستقبل شعبنا العربي في مصر وتجنبون الأمة مخاطر كبيرة وستجدون الأمة العربية مصممة وقادرة على حماية نفسها واسترجاع اراضيها من خلال السير على طريق العمل المشترك والحفاظ على المبادىء الاساسية التي قامت عليها الامة وقام عليها نضالها ضد الصهيونية طيلة ثلاثين عاما.

إن الأمة العربية ومن خلال ما قرره ملوك ورؤساء وامراء الدول العربية على استعداد لان تقدم لمصر كل ما يجعلها قادرة على مواصلة النضال الى جانب اشقائها العرب وكل ما يحمي كرامة الشعب المصري وقد تضمن المشروع المقدم الى اجتماع القمة ما يؤكد هذا الالتزام. اللهم اشهد اننا بلغنا والله من وراء القصد والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

احمد حسن البكر

رئيس مؤتمر القمة العربي

بغداد في ٤ تشرين الثاني - نوفمبر - ١٩٧٨»

وعلى رغم ان الرسالة هي في الواقع انتصار للخط الذي يريد التحاور مع الرئيس السادات قبل اتخاذ اي قرارات بعزله ومعاقبته ، إلا ان الرئيس السادات رفض استقبال الوفد بل طلب ألا يستقبله اي مسؤول مصري . وبالفعل فانه عندما وصل الوفد الى مطار القاهرة ـ وكانت الخارجية المصرية تبلغت رسميا قبل اقلاع الطائرة من مطار بغداد ـ لم يجد أحدا من الرسميين المصريين في استقباله وإنما كان هنالك موظف تشريفات وحشد من الصحفيين بينهم صحفيون يهود وجهوا الى رئيس الوفد اسئلة استفزازية .

وتوجه الوفد بسيارات السفارة العراقية من المطار الى فندق شيراتون وشعورهم ان هذه الاهانة معناها ان الرئيس السادات لن يستقبلهم . وعندما سمعوا وهم في السيارات فقرات من خطاب كان يلقيه الرئيس السادات في افتتاح الدورة الثالثة لمجلس الشعب المصري (البرلمان) وتضمن عبارات مهينة في حق الملوك والرؤساء المجتمعين في بغداد تأكد لهم أن مهمتهم قد اخفقت . وفي فندق شيراتون جاءهم وزير مصري مغمور ليقول لهم : ان الرئيس السادات رد على مهمتكم بالخطاب الذي القاه . وعندما قال له الدكتور سليم الحص هل نفهم من ذلك اننا لن نقابل الرئيس ونسلمه رسالة مؤتمر القمة أجاب : نعم وأنا هنا لابلغكم ذلك ولاقول لكم حتى أنا لن اتسلم الرسالة .

في الوقت الذي كان الوفد يتبلغ من الوزير المصري ذلك ، ويتوجه اعضاؤه الى مطار القاهرة للعودة الى بغداد ، كان الملوك والرؤساء العرب تبلغوا الرد وذلك من خلال ما جاء في خطاب الرئيس السادات الذي طبعت نسخ منه ووزعت عليهم . وكان الخطاب في منتهى الفظاظة واعتبره الملوك والرؤساء مهينا بحقهم* كما

---

* فقرات تضمنها خطاب الرئيس السادات :

« نحن نبني السلام ايها الاخوات والاخوان وسط أكثر ضجيج من المزايدات والمتاجرات في حقوق الشعب العربي . مزايدات تعلو حناجرها اليوم رغم السلام خفت صوتها بالامس القريب وكبتت ارادتها عن ان تقتحم معنا التضحيات في ميدان الشرف والسلام . نبني السلام وسط مؤامرات تحيكها وتدبرها وتوجهها قوى عظمى هي الاتحاد السوفياتي ارادت لنا ان نركع ، وعندما تصدينا وارتفعت قامتنا شاءت هذه القوى العظمى ان تسخر ما لديها من امكانات وعملاء كي تهدم بناء السلام . اقول لاؤلئك وهؤلاء من فوق هذا المنبر وباسم الملايين من ابناء شعبنا العظيم ان مصر السلام لا تنعزل ولا تعزل لانها مصر اكتوبر .

انها مصر ، السلطة القادرة دائما بعون الله على ان تعزل دون أن تنعزل ، مصر اكتوبر التي عزلت فعلا مواقع المزايدين والمتاجرين بالتفاهات دون ان تنعزل بمسؤولياتها القادرة والرائدة عن اسمى الاهداف والغايات ، مصر اكتوبر التي ردت لهم كرامتهم التي ردت لهم كيان الوجود وهم معزولون عن كل وجود ، اي صوت ضال هذا الذي يجرؤ على القول انه قادر على عزل مصر .

وعزل مصر فيمن وعن من والى أين ؟ عزلها عن الهاربين عندما نالت الارض المغتصبة لجسارة الرجال أم عزلها عن التضحيات بالدم والقوة بعدما تضخمت الكثير من الخزائن بحصاد ارواح اعز ابنائنا واغلى شبابنا ؟ أم عزل مصر عن عراقة وحضارة وأصالة ساهمت في صنع المدنية منذ الاف السنين . وهي تشارك اليوم في صنع أروع تحول تاريخي نحو سلام الانسان وسيادته على ارضه وكرامته .

هذه التفاهات لا تستحق الرد عليها لان المعزول بجهله وحقده وتخلفه الفكري والحضاري هو صاحب الحاجة الى ان ننتشله من عزلته ولن يصل الى اذاننا فحيح الافاعي ولا يرتفع ابدا الى كياننا عبث الصغار . اننا فوجئنا بالوكالات الاجنبية تقول بأن المؤتمرين في بغداد قد اوفدوا وفدا وانهم في الطريق لم يستأذنوا من القاهرة وهم يعلمون اننا نحتفل اليوم بافتتاح الدورة الثالثة◁

يلاحظ من نص الفقرات المثبتة في حاشية الصفحة . ولمجرد ان قرأ الملوك والرؤساء الاهانات التي وجهها الرئيس السادات الى كل منهم زالت حالة الجمود التي عاشها المؤتمر على مدى يومين كاملين ولم ينشغلوا في مناقشة بعض الجزئيات واعتبر دعاة التحاور مع الرئيس السادات انهم مرتاحو الضمير الان إزاء أي قرارات عقوبة ستفرض على نظامه . أما الفريق الآخر فلم تكن عنده في الاصل هذه المشكلة .

وصل الوفد ليلا الى بغداد . وعندما اتصل طارق عزيز بصدام حسين ليطلعه على ما حدث للوفد في القاهرة قال له : لقد نجح المؤتمر لان السادات طردكم .

كان نجاح قمة بغداد جيدا نسبيا . فالقرارات التي اتخذت كان من المتوقع اتخاذها ، ولكن النجاح اصبح ممتازا بعدما استطاع صدام حسين ان يخوض الى النهاية معركة تتصل بقضايا ترك الملوك والرؤساء لوزارة الخارجية والاقتصاد أمر اتخاذ قرارات في شأنها.وهم كانوا قادرين على ان يحسموها لولا انهم استمروا متمسكين ببقايا تفاؤل بأن الرئيس السادات لا بد سيعيد النظر في الخطوات التي اتخذها ويعود الى الصف العربي . ولكن الرئيس السادات بدلا من ذلك ضاعف حملة التجريح في حق الملوك والرؤساء العرب متجاوزا بعض اللياقات غير أخذ في الاعتبار ان هؤلاء بقمة بغداد ارادوا اعادته الى الصف العربي ضمن صيغة تليق به كرئيس للدولة العربية الاولى ، وغير آخذ في الاعتبار ايضا ان الملوك والرؤساء العرب سهلوا عليه العودة بتحديدهم في البيان الختامي* الصادر عن القمة

◁لمجلس الشعب واننا نعني بالسلام وقضية البناء الداخلي السلام وقضية الديمقراطية والحريات . من قبل ان تصدر بياناتهم ، قبل ان اعود الى القاهرة ارسلت لكل الملوك العرب ما عدا جبهة الرفض تحليلا كاملا ، وبدلا من ان يردوا لجأوا الى الاسلوب القديم ودعوا الى الانفعال ودعوا الى مؤتمر بغداد . الى متى يكون مصير الامة العربية رهن الانفعال والتشنج . اذا قبلوا هم هذا لشعوبهم فلن نقبله من اجل مصر ومن اجل شعوبهم سنرد على بلاغهم او على ما ارسلوه بالقول ، لن يجتمعوا بي ولا بأي مسؤول ورسالتي عبر العالم وهم يسمعونني الان.ان ملايين العالم كله لا نشتري ارادة مصر ... ارادتنا . » انتهت الفقرات التي تضمنها خطاب الرئيس السادات) .

---

* أكد البيان الختامي الذي صدر عن قمة بغداد في ختام اجتماعات استغرقت ٤ ايام (من ٢ تشرين الثاني الى ٥ تشرين الثاني ١٩٧٨)«التزام الامة العربية بالسلام العادل الذي يقوم على اساس الانسحاب الاسرائيلي الشامل من جميع الاراضي العربية المحتلة في العام ١٩٦٧ بما فيها القدس العربية وضمان الحقوق الثابتة للشعب العربي الفلسطيني واقامة دولته المستقلة فوق ترابه الوطني » . كما أكد على « ان قضية فلسطين هي جوهر الصراع مع العدو الصهيوني وان النضال من اجل استعادة الحقوق العربية في فلسطين والاراضي العربية المحتلة مسؤولية قومية عامة ، وعلى جميع العرب المشاركة فيها كل من موقعه وبما يمتلك من قدرات عسكرية واقتصادية وسياسية وغيرها » .

ودعا البيان كل الدول العربية الى « دعم المقاومة الفلسطينية من خلال منظمة التحرير باعتبارها الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني من اجل التحرير واستعادة الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني بما فيها حقه في العودة وتقرير المصير واقامة دولته المستقلة فوق ترابه الوطني » . والى « الالتزام بالحفاظ على الوحدة الوطنية الفلسطينية وعدم التدخل في الشؤون الداخلية للعمل الفلسطيني » .

وأكد البيان الالتزام بمقررات مؤتمرات القمة وخاصة قمة الجزائر وقمة الرباط مشيرا الى « ان المبادىء الجوهرية التي لا يجوز الخروج عنها أو التساهل فيها عدم جواز انفراد اي طرف من▷

العربية مفهوما للسلام يمكن التحرك من خلاله وهو المفهوم الذي حددته الفقرة الاكثر اهمية في البيان الختامي ، على النحو الآتي : « اكد المؤتمر التزام الامة العربية بالسلام العادل الذي يقوم على اساس الانسحاب الاسرائيلي الشامل من جميع الاراضي العربية المحتلة في العام ١٩٦٧ بما فيها القدس العربية وضمان الحقوق الثابتة للشعب العربي الفلسطيني واقامة دولته المستقلة فوق ترابه الوطني » . وهذه الفقرة كانت تعني وللمرة الاولى موافقة العرب بالاجماع على صيغة لمعالجة الصراع العربي ـ الصهيوني .

وفي الفترة بين انتهاء اعمال قمة بغداد يوم ٥ تشرين الثاني ١٩٧٨ وانعقاد الاجتماع الاستثنائي لوزراء الخارجية والاقتصاد في بغداد يوم ٢٧ اذار (مارس) ١٩٧٩ انهمك صدام حسين في التخطيط من اجل أن يحقق هذا الاجتماع النجاح المطلوب خصوصا انه اجتماع ترجمة الاقوال الى افعال . فالملوك والرؤساء العرب ادانوا الرئيس السادات واتفقوا من حيث المبدأ على اتخاذ قرارات العقوبة إن هو رفض المناشدة التي جاءت في البيان الختامي الذي اصدروه بالعودة عن اتفاقيتي كامب ديفيد . والرئيس السادات في هذه الفترة التي تجاوزت ثلاثة اشهر ازداد اندفاعا في اتجاه الصلح مع اسرائيل ولم يوقف تجريحاته في حق القادة العرب ، وعلى رغم ذلك كانت هنالك مشاعر بالتعاطف معه . بل ان هذه المشاعر ظهرت في شكل من الاشكال خلال انعقاد الاجتماع الاستثنائي لوزراء الخارجية والاقتصاد في بغداد وهو الاجتماع الذي تقرر فيه سحب سفراء الدول العربية من مصر فورا وتعليق عضوية مصر في الجامعة العربية ونقل مقر الجامعة من القاهرة الى تونس وتشكيل لجنة سداسية من العراق وسوريا وتونس والجزائر والمملكة العربية السعودية والكويت تخول جميع صلاحيات مجلس الجامعة للاشراف على نقل مقر الجامعة والموظفين العاملين فيها الى تونس مع اتخاذ الاجراءات المناسبة لضمان حفظ جميع ممتلكات الجامعة وأرصدتها .

وقد ظهر تخطيط صدام حسين لانجاح الاجتماع الاستثنائي لمجرد أن بدأ وزراء الخارجية والاقتصاد اجتماعاتهم ، فبعدما بلغه ان هنالك بعض الوزراء الذين ابدوا الرغبة في عدم قطع العلاقات الاقتصادية مع نظام الرئيس السادات والاكتفاء بسحب السفراء بدل قطع العلاقات الدبلوماسية ولم يظهروا حماسة ازاء نقل مقر الجامعة من القاهرة الى تونس طالبين تأجيل اتخاذ هذه القرارات الى وقت لاحق ،

◄ الاطراف العربية بأي حل للقضية الفلسطينية بوجه خاص وللصراع العربي الصهيوني بوجه عام . ولا يقبل أي حل الا اذا اقترن بقرار من مؤتمر قمة عربي يعقد لهذه الغاية . » .

وتضمن البيان عدم موافقة مؤتمر بغداد على اتفاقيتي كامب ديفيد « وعدم التعامل مع ما يترتب عليهما من نتائج ورفضه لكل ما يترتب عليهما من اثار سياسية واقتصادية وقانونية وغيرها من اثار . وقرر المؤتمر دعوة حكومة جمهورية مصر العربية للعودة عن هاتين الاتفاقيتين وعدم توقيع اي معاهدة للصلح مع العدو ويأمل المؤتمر منها العودة الى حظيرة العمل العربي المشترك . وفي هذا الصدد اتخذ المؤتمر عددا من القرارات لمواجهة المرحلة الجديدة وأكد ضرورة توحيد الجهود العربية كافة من اجل معالجة الخلل الاستراتيجي الذي ينجم عن خروج مصر من ساحة المواجهة . وقرر المؤتمر أن تنسق الدول التي لديها الاستعداد والمقدرة على المشاركة بجهود فعالة كما أكد ضرورة التمسك بانظمة المقاطعة العربية واحكام تطبيق بنودها » .

دعا الى اجتماع مشترك للقيادتين القومية والقطرية ولمجلس قيادة الثورة نوقشت فيه حالة التردد من جانب بعض الوزراء العرب المشتركين في المؤتمر الاستثنائي. واقترح في الاجتماع المشترك أن يعلن العراق في المؤتمر موقفا لن يكون من السهل على المترددين التملص منه. ويمكن تلخيص الموقف بالآتي:

- انه لا مجال لطريق وسط بين الخط الذي اختاره الرئيس السادات والخط الذي قررته قمة بغداد.
- إن الأمر لا يحتمل اجتهادات فنية وسياسية. فالموقف قومي ولا يحتمل أي تمييع.
- إذا كانت المسألة مسألة حرص على الشعب المصري فان قرارات قمة بغداد هي لمصلحة هذا الشعب. أما إذا كانت المسألة مسألة عدم الرغبة في تقديم الالتزامات المالية لكل من سوريا والأردن ومنظمة التحرير (٣٥٠٠ مليون دولار سنوياً بينها ١٠٠ مليون دولار لدعم الصمود في الأراضي العربية المحتلة) فان العراق مستعد لتحملها وحده ومستعد في سبيل ذلك لوقف خطة التنمية.
- انه لا مانع من تعطيل اعمال المؤتمر لمدة أربع وعشرين ساعة يعود خلالها كل من يريد العودة الى حكومته للتشاور على أن يعود بقرار ما. وفي أي حال إن العراق سيتخذ موقفه الذي أشار اليه ولوحده أو مع أي طرف يتبنى هذا الموقف.

ذلك كان التخطيط الذي وضعه صدام حسين. ولمجرد أن أعلن وفد العراق في المؤتمر الاستثنائي لوزراء الخارجية والاقتصاد ذلك حدث نوع من التنبه. وغادر بعض الوزراء بغداد منزعجاً معتبراً الموقف العراقي على انه نوع من التهديد. ثم عاد الذين غادروا واستأنف المؤتمر اعماله ونجح.

وتبقى الاشارة في معرض الحديث عن قمة بغداد التي تشكل رصيداً عربياً ضخماً للرئيس صدام حسين الى أمرين:

الأول - خلال انعقاد قمة بغداد كان التيار الداعي الى محاورة الرئيس السادات قوياً. وكان صدام حسين لا يرى جدوى من هذا الحوار..وبدلاً من أن يتصلب في رفض مبدأ الحوار لجأ الى التكتيك وأجهض محاولة كان من شأنها افشال المؤتمر. اعلن ترحيبه بمبدأ الحوار على أن يتم ذلك خلال انعقاد القمة. وهذا ما حدث. وبذلك سقطت المحاولة التي كانت ترى أن تكتفي القمة بالتنديد والمناشدة وتتشكل لجنة تبدأ الحوار مع الرئيس السادات ثم تنعقد قمة بعد اسبوعين من بدء الحوار كحد ادنى وشهرين كحد أقصى للنظر في ما يجب اتخاذه. وعندما قوي هذا الاتجاه جاءت فكرة صدام حسين بان تتشكل اللجنة فوراً وتسافر فوراً الى القاهرة. ولو ان ذلك لم يحدث لكانت تاهت فرصة تأمين مواجهة سريعة لمخطط كامب ديفيد في سراديب الحوار، ولما كان للقمة - على الأرجح - أن تنعقد من جديد.

الثاني - انه من أجل أن يكون هنالك تركيز على أمر واحد فان صدام حسين لم ينشط من أجل البحث في الوضع اللبناني فضلاً عن أن لبنان لم يحصل على دولار واحد من الثلاثة مليارات دولار التي خصصتها القمة لسوريا والأردن ومنظمة التحرير.

وكان صدام حسين يعرف سلفاً انه لو فتح ملف الوضع اللبناني في قمة بغداد لكانت هنالك اطراف عربية ستنشغل به عن التعهد باتخاذ موقف واضح وقوي من

نظام الرئيس السادات .

ولكن الرئيس صدام في القمة العربية العاشرة التي عقدت في تونس يوم ٢٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٩ عوّض لبنان اهتماماً لم يبذله من أجله في قمة بغداد . ولم يقتصر الاهتمام على قوله في الخطاب الذي افتتح به المؤتمر « علينا ان نتكاتف جميعاً للوصول الى نتائج جدية تعزز استقلال لبنان ووحدته وسلامة اراضيه وبما يضمن اقامة علاقات أخوية وكفاحية بين لبنان والمقاومة الفلسطينية » ولا على الاشارة بدوره القومي « ... وإذا كان لبنان قد تحمل الكثير من أجل القضية القومية فان على الأمة العربية أن تتحمل مسؤولياتها تجاهه بالمشاركة الفعلية في ايجاد الحلول المناسبة وبالدفاع عنه ضد العدوان حيثما تطلب الأمر ذلك وباعادة تعمير لبنان الذي ضربته الظروف العصيبة التي مرت به وبذلك يكون العرب قد ساهموا مساهمة فعالة في تضميد جراح لبنان التي أصابته لأنه عربي في الشعب والأرض والمسؤولية » ... إن الاهتمام لم يقتصر على ذلك ، بل إن الرئيس صدام حسين وفي أعقاب حديث مع الرئيس الياس سركيس اتسم بالواقعية وبالصراحة الكاملة نشط في سبيل تأمين مساعدة مالية للبنان (تقررت بالفعل) وعقد من أجل ذلك قمة مصغرة داخل قمة تونس . وفي القمة المصغرة التي جمع فيها الرئيس صدام حسين حكام الخليج تم الاتفاق على المساعدة المالية وعلى حجمها .

لقد كانت قمة بغداد تشكل رصيداً ضخماً لصدام حسين وهو يمارس الدور الذي اختاره لنفسه والذي مارسه منذ قيام ثورة ١٧ - ٣٠ تموز ١٩٦٨ ، وكان لا بد لهذا الرصيد بعدما تسلم المسؤولية الكاملة في الحزب والدولة أن يتعزز خصوصاً أنه بين قمة بغداد في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٨ وتاريخ تسلم المسؤولية الكاملة حدثت متغيرات وتطورات كثيرة لعل أبرزها على الاطلاق سقوط الشاه في ايران وقيام ثورة بقيادة الامام آية الله الخميني . ومع قيام هذه الثورة ثم التدخل العسكري السوفياتي في افغانستان انتعش حديث الاحلاف في المنطقة ثم تحركت اساطيل الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي في اتجاه المياه الدافئة في المنطقة وسط تهديدات تراوح بين الجدية والابتزاز وتشير الى ان الولايات المتحدة ستتدخل عسكريا لحماية مصالحها النفطية وهذا معناه ان تحتل آبار النفط ويتم الاحتلال تحت مظلة معاهدات أمنية تعقدها مع بعض دول المنطقة .

والى ذلك ان المناخ الذي أعقب انعقاد قمة بغداد تبدل بعض الشيء واقتحمته رياح شريرة وباتت تلك القمة تحتاج الى دم جديد يتدفق في شرايينها .

ولقد بات الرئيس صدام حسين مقتنعاً بان القوى الكبرى تريد تدمير روح قمة بغداد . وفي قمة عدم الانحياز وقف على بعض المشاعر التي لا تدعو الى الاطمئنان وكانت هذه المشاعر هي الدافع وراء قوله في افتتاح القمة العربية العاشرة في تونس يوم ٢٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٩ « ان الأمة العربية حققت في قمة بغداد فوزاً خاصاً وان المصلحة القومية تحتم استمرار هذا الفوز بالتقدم الى امام » مشدداً على أهمية « عدم السماح بأي شكل من الأشكال بالتراجع عن ذلك الفوز » .

وقبل أن يتوجه الى تونس ببضعة أيام لافتتاح القمة العاشرة كان يطالب العرب (خلال استقباله يوم ١١ تشرين الثاني المديرين العامين لوكالات الانباء العربية الذين كانوا مجتمعين في بغداد) بتجديد روحية العمل التي اجمعوا عليها

في قمة بغداد بـ « صيغ جديدة » .

وفي الحديث الصحفي الأول معه بعدما تسلم المسؤولية الكاملة والذي اجريته مساء ٢٩ أيلول (سبتمبر) ١٩٧٩ (بعد مشاركته في قمة هافانا وقبل افتتاحه القمة العربية العاشرة في تونس) سألت الرئيس عما اذا كان في صدد طرح صيغة عمل عربي جديدة تعزز قمة بغداد بعدما بدأ الوهن يتسلل الى همم بعض أهل تلك القمة . وكان جواب الرئيس : « كان مطلوبا لقمة بغداد ومخططا لها أن تأخذ مدى في الفاعلية أكثر من الذي أخذته الان ولكن يجب ان نقول بأن السادات هزم في قمة بغداد وان الامبريالية الأميركية بكل جبروتها وقفت مهزومة أمام قمة بغداد ، وبدأ التحول في العقلية الأوروبية وأخذت تصريحات زعمائها الأساسيين التي كانت تأييداً لكامب ديفيد تتحول الى القول بأن كامب ديفيد لا يحقق السلام . اذن قمة بغداد أحدثت مفعولاً في التفكير على مستوى العالم وأوقفت الانهيار النفسي على مستوى العرب . بل ان الوضع النفسي للعرب بدأ يسجل صعوداً وخاصة عندما ترادفت الحركة في العلاقة الجديدة بين العراق وسوريا مع قمة بغداد ، واذن انها حققت شوطاً كبيراً ، لكن هل حققت كل ما ينبغي ؟ ليس هنالك صيغة في الواقع العربي الراهن قادرة على أن تحقق كل ما ينبغي أو كل ما يجب ان يحقق لإن الصيغ القريبة الآن في حالة جمع صيغ غير متطابقة أو أحيانا غير متوافقة . هذا هو حال العمل الجماعي العربي ، ٢٢ دولة ، ٢٢ نظاما ، ٢٢ سياسة ، ٢٢ قائداً ، ولذا فطبيعي ألا نخرج من هذا الواقع الصيغة المطلوبة لنضال الأمة ، ولكن نضال الأمة يستطيع أن يوجد صيغة للعرب في ترتيب مساهماتهم ودرجات مساهماتهم » .

لقد كانت هنالك مؤشرات الى ان الرئيس صدام حسين في صدد اعداد صيغة عمل عربي جديدة توقف التراخي الذي بدأ يظهر على قمة بغداد ، لكن لم يفترض أحد أن يتم الطرح بهذه السرعة وبالمحتوى الذي تضمنته الصيغة* . وكانت الصيغة عبارة عن اعلان قومي (بمثابة ميثاق) لتنظيم العلاقات بين الدول العربية .

كيف حدث طرح الصيغة ؟

---

* نص اعلان الرئيس صدام حسين

بسم الله الرحمن الرحيم

« اعـلان »

في ضوء الاوضاع الدوليه في الوقت الحاضر . واحتمالات تطورها في المستقبل . وما تنطوي عليه من احتمالات خطرة . تهدد السيادة والامن القومي العربي من ناحية ، والأمن والسلام في العالم من ناحية اخرى . واستجابة لدواعي المسؤولية القومية تجاه الأمة العربية شعبا ، وأرضا ، وحضارة ، وتراثا . وتمشيا مع مبادىء حركة عدم الانحياز . يجد العراق نفسه مدعوا الى المبادرة باصدار هذا الاعلان . ليكون ميثاقا لتنظيم العلاقات القومية بين الاقطار العربية اولا ، وتعهدا من الأمة العربيه نحاه الدول المحاورة للوطن العربي . التى تعلن احترامها لهذا الميثاق والالتزام به ثانيا .

ان الاعلان يقوم على المبادىء التالية :

اولا ـ رفض تواجد الجيوش والقوات العسكريه واية قوات وقواعد اجنبية في الوطن العربي ، أو تسهيل تواجدها باية صيغة من الصيغ ، وتحت اية ذريعة او غطاء ، ولإي سبب من الأسباب ، وعزل اي نظام عربي لا يلتزم بهذا المبدا . ومقاطعته سياسيا . واقتصاديا ، ومقاومة سياساته بكل الوسائل المتاحة .

ثانيا ـ تحريم اللجوء الى استخدام القوات المسلحة من قبل اية دولة عربية ضد اية دولة عربية ◁

عصر يوم ٨ شباط ١٩٨٠ وقف الرئيس صدام حسين في « ملعب الشعب الدولي » في بغداد خطيباً في جماهير غفيرة تجمعت للاحتفال بذكرى ٨ شباط ١٩٦٣ التي استمرت تسعة أشهر وبضعة أيام عاد بعدها العراق يعيش أياماً دموية صعبة .

كانت تلك هي المرة الأولى التي يحتفل بها صدام حسين وهو رئيس للجمهورية بذكرى الثورة التي سجلت وصول البعث الى الحكم للمرة الأولى .

وطبقاً لعبارة وردت في الدقيقة الأولى من القاء الخطاب كان من المقرر أن يتم الاحتفال في قاعة مغلقة ثم تقرر أن يكون احتفالاً جماهيرياً وفي الهواء الطلق قبل ساعات قليلة من حلول موعد الاحتفال .

وإعادة النظر في طبيعة الاحتفال لم تفرضها ضرورات أمنية ،وإنما ضرورة قومية ، بل انه لو كانت هنالك ضرورات أمنية لكان حدث العكس ، أي بدل الاحتفال بالذكرى في الملعب الرياضي الكبير في بغداد ، يتم الاحتفال بها في قاعة مغلقة .

ولم يكن من السهل ملاحظة الضرورة القومية لإن الرئيس صدام تحدث في الدقائق الأولى من الخطاب عما فعله الشيوعيون في العراق من « تعليق العذاري عاريات على أعمدة الكهرباء حتى الموت » الى « دفن المناضلين وهم أحياء » ثم رد على الذين يلاحظون في استمرار ان الذين يمسكون بزمام الحكم في العراق هم من تكريت ، وذهبت الملاحظة الى حد القول « إن تكريت تحكم العراق » و « ان التكارتة يحكمون العراق » .

وجاء رد الرئيس صدام حسين في سياق تحذيرات وتنبيهات من المحاولات القديمة - المستجدة لتقسيم العراق وتقسيم المنطقة العربية .

ثم ما لبثت مؤشرات الضرورة القومية لخطاب الرئيس صدام تظهر واضحة . فهو أفاض في الكلام حول مخاطر التقسيم قبل أن يعلن ميثاقاً قومياً من ٨ مبادىء لتنظيم العلاقات العربية من جهة ولكي يكون هذا الميثاق بمثابة تعهد من الأمة العربية تجاه الدول المجاورة للوطن العربي التي تعلن احترامها لهذا الميثاق والالتزام به .

أخرى ، وفض أية منازعات يمكن ان تنشأ بين الدول العربية بالوسائل السلمية وفي ظل مبادىء العمل القومي المشترك ، والمصلحة العربية العليا .

ثالثاً - ويطبق المبدأ في البند الثاني على علاقات الأمة العربية واقطارها مع الأمم والدول المجاورة للوطن العربي ، فلا يجوز اللجوء الى استخدام القوات المسلحة في المنازعات مع هذه الدول ، إلا في حالة الدفاع عن السيادة والدفاع عن النفس ضد التهديدات التي تمس أمن الأقطار العربية ومصالحها الجوهرية .

رابعا - تضامن الاقطار العربية جميعا ضد أي عدوان أو انتهاك يقوم به أي طرف أجنبي للسيادة الأقليمية لأي قطر عربي ، أو دخوله في حالة حرب فعلية معه ، وقيام هذه الأقطار بالتصدي المشترك لذلك العدوان أو الانتهاك ، وإحباطه بكل الوسائل والطرق ، بما في ذلك العمل العسكري واجراءات المقاطعة الجماعية ، السياسية والاقتصادية ، وفي كافة الميادين الأخرى التي تقتضيها الضرورة ، والمصلحة القومية .

خامسا - تأكيد التزام الأقطار العربية بالقوانين والأعراف الدولية فيما يتعلق باستخدام المياه والأجواء والأقاليم من قبل أية دولة ليست في حالة حرب مع أي قطر من الأقطار العربية .

سادساً - ابتعاد الأقطار العربية عن دائرة الصراعات أو الحروب الدولية ، والتزامها الحياد التام وعدم الانحياز ازاء أي طرف من اطراف الصراع أو الحرب ، ما لم ينتهك أحد أطراف الصراع أو ◁

وقبل تناول هذا الميثاق وابداء بعض الملاحظات حول ظروف طرحه وبنوده الثمانية نتوقف قليلاً عند العبارات التي رد فيها صدام حسين على الذين يغمزون من قناة الحكم بالقول « ان تكريت تحكم العراق » . وفي احدى هذه العبارات قال : « يتصورون انهم كما خدعوا عبد السلام عارف وجعلوا منه شخصاً طائفياً قادرين على أن يجعلوا من صدام حسين شخصاً طائفياً تحت أي شرط وأي ظرف . مساكين هؤلاء . انهم لا يفهمون حزب البعث العربي الاشتراكي . فلكي يرتاحوا نقول لهم : صدام حسين ولد في قرية العوجة التي تقع جنوب قضاء تكريت . وقضاء تكريت جزء من محافظة صلاح الدين . ولكن صدام حسين ليس تكريتياً . انه عراقي . صدام ولد في محافظة صلاح الدين . ولكن هو ليس إبن محافظة صلاح الدين فقط . هو إبن محافظة اربيل . هو إبن السليمانية . هو إبن الانبار . هو إبن القادسية وذي قار . هو إبن دجلة والفرات . وهو إبن بردى والأردن والنيل . هو إبن دمشق وعمان والقاهرة والدار البيضاء . هو إبن كل المدن العراقية وهو إبن الشعب العراقي والأرض العراقية والهواء العراقي . وهو إبن الوطن العربي والأمة العربية » .

وقبل ان يسترسل في تحديد هذا الانتماء القومي له كان الرئيس صدام حسين مهد لذلك بعبارة واقعية قال فيها : « إن صدام حسين رئيس الدولة الآن هو مناضل قبل أي شيء في حزب البعث العربي الاشتراكي . وأظن لو كان رئيس الدولة من عينكاوة أو من كلالة أو من الرميثة أو من الرارنجية أو من الانبار لقالوا انه من المحافظة الفلانية أو القرية الفلانية . ان رئيس الدولة يجب ان يأتي من العراق . يجب أن يأتي من قرية ، من ناحية ، من قضاء ، من محافظة ... » .

بعد ذلك تحدث الرئيس صدام حسين حول المحاولات الدولية التي تستهدف تجزئة الأمة العربية ، ثم تلا الاعلان القومي الذي يقوم على ثمانية مبادىء . ولقد حول الحشد الجماهيري الى استفتاء حيث أنه كان بعدما يتلو كل مبدأ يسأل الجماهير عما اذا كانت موافقة وترد الجماهير بصوت عال إنها موافقة .

وقبل ان يذيع الرئيس صدام حسين اعلانه القومي كانت الفكرة نوقشت من

◁ الحرب ، السيادة الاقليمية العربية ، والحقوق الثابتة للاقطار العربية التي تكفلها القوانين والاعراف الدولية ، وامتناع الاقطار العربية عن اشتراك قواتها العسكرية ـ كلاً أو جزءاً ـ في الحروب والمنازعات العسكرية في المنطقة وخارجها ، نيابة عن أية دولة أو جهة أجنبية .

سابعاً ـ التزام الاقطار العربية باقامة علاقات اقتصادية متطورة وبناءة فيما بينها ، بما يوفر ويعزز الأرضية المشتركة للبناء الاقتصادي العربي المتطور ، والوحدة العربية ، وتحرص الاقطار العربية على الابتعاد عن أي تصرف يمكن أن يلحق الأذى بهذه العلاقات أو يعطل استمرارها وتطورها ، بغض النظر عن تباين الأنظمة العربية ، والخلافات السياسية الهامشية التي تحدث بينها ، ما دامت اطراف العلاقة ملتزمة بمبادىء هذا الاعلان . وتلتزم الأقطار العربية بمبدأ التكافل الاقتصادي القومي ، وتتعهد الأقطار العربية المقتدرة اقتصادياً بتقديم كل انواع المساعدات الاقتصادية للأقطار العربية بالشكل الذي يصونها من احتمالات الإتكال على القوى الأجنبية بما يمس استقلالها وارادتها القومية .

ثامناً ـ ان العراق اذ يضع مبادىء هذا الاعلان ، يؤكد استعداده للالتزام به تجاه كل قطر عربي وأي طرف يلتزم به ، وهو مستعد لمناقشته مع الاشقاء العرب وسماع ملاحظاتهم حوله ، بما يقوي من فاعلية مبادئه ويعمق مضامينه .

كما يؤكد العراق أن هذا الاعلان لا يشكل بديلاً عن ميثاق الجامعة العربية ، وعن معاهدة الدفاع

قبل قيادة الحزب ومجلس قيادة الثورة في عدة اجتماعات وتم إقرارها . وكان محور المناقشة ان الظروف والتعقيدات الدولية المحيطة بالوطن العربي تحتم إيجاد صيغة تعامل بين الأنظمة العربية تقطع الطريق على محاولات تقسيم الأمة .

ولمجرد أن اذاع الرئيس صدام حسين اعلانه بدأت تسود الوطن العربي حالة من الارتياح النفسي وهي حالة مماثلة لتلك التي سادت في أعقاب إنعقاد قمة بغداد ونجاحها . وقد وجد المواطن العربي في بنود الاعلان ما من شأنه أن يجعل الاستقرار يسود وينصرف الجميع الى التفكير في الواجب القومي . ووجد فيه معظم المسؤولين العرب ما من شأنه أن يحقق السلام العربي المفقود والمنشود ومن أجل ذلك سارعوا الى الترحيب به وأيدوه من دون أن يستوقفهم ان الرئيس صدام باغتهم ولم يحطهم سلفاً بأمر الميثاق (اقتصر ابلاغ الدول العربية بالميثاق على اجتماع قصير عقده عزت ابراهيم نائب رئيس مجلس قيادة الثورة مع السفراء العرب في مكتبه بالمجلس الوطني . وقد عقد الاجتماع في الصباح وفي المساء اذاع الرئيس الميثاق ، وفي الاجتماع القصير ابلغ عزت ابراهيم السفراء العرب بان الرئيس صدام سيذيع في وقت لاحق ميثاقاً قومياً لتنظيم العلاقات بين الدول العربية) . وهو لم يتعمد المباغتة بهدف الاحراج ، إذ ليس في الميثاق ما من شأنه أن يحرج أحداً ، ولكنه اختصر الطقوس العربية لكسب الوقت من جهة ولكي لا يغرق الميثاق في بحار الرتابة العربية ، فضلاً عن ان مثل هذا الأسلوب في الطرح من شأنه ان يشحذ همماً عربية على المستوى الشعبي ويحولها الى وسائل ضغط على الانظمة للأخذ بالميثاق .

ولقد جاء طرح الميثاق في الوقت الذي ارتفعت نسبة تقاعسات البعض ازاء الاستعداد القومي بحجة الانشغال بهموم حدودية على مستوى القطر ، وفي مرحلة حدثت فيها ممارسات لا تخدم في أي حال الصمود المتكامل الحلقات في وجه المؤامرة الدولية التي تبين أن انياب وأظافر اقطابها مسنونة وشريرة أكثر بكثير مما كنا نتوقع . كذلك جاء الميثاق في الوقت الذي امتلأت بعض المياه العربية باساطيل القوى الأجنبية وحاملات الطائرات والرادارات .

واختيار ذكرى ثورة ٨ شباط ١٩٦٣ لطرح الميثاق يبدو كما لو انه اختيار

المشترك والتعاون الاقتصادي القائمة بين دول الجامعة ، بل يعتبره تعزيزا للميثاق والمعاهدة وتطويراً لهما ، بما يتناسب مع الظروف الدولية المستجدة ، والمخاطر التي تهدد الأمة العربية والمسؤوليات القومية التي تترتب عليها في الظروف الراهنة وفي المستقبل .

ايها الشعب العراقي العظيم ،

يا جماهير الأمة المجيدة ،

ان العراق اذ يقدم هذا الاعلان ، ينطلق من مسؤوليته القومية التي تعلو على كل مصلحة ذاتية أو قطرية ، وإننا إذ نتوجه بهذا الاعلان الى الحكومات العربية باعتبارها الجهة المسؤولة عن إقراره والالتزام به ، نؤمن أعمق الايمان بأن مبادىء هذا الاعلان القومي لا يمكن أن تتحقق وتصبح ميثاقاً للعلاقات العربية إلا من خلال نضال الجماهير العربية ومساندتها له ، لإنه يضمن مصالحها الاساسية ويتجاوب مع مطامحها القومية في الحرية والاستقلال ، ويسهل الطريق أمام الوحدة العربية .

التوقيع

صدام حسين

رئيس الجمهورية العراقية

كتب ببغداد في ٢١ ربيع الأول لسنة ١٤٠٠ هجرية الموافق يوم ٨ شباط ١٩٨٠ ميلادية

مدروس . فهذه الذكرى هي ذكرى تسلم البعث الحكم في العراق . ومن المنطق الحزبي يفترض أن تكون هذه الذكرى مناسبة لتحريض البعث على الوصول الى الحكم في اقطار الوطن العربي وليس دعوة الى التعايش بين الأنظمة .

ولكن يمكن فهم ذلك على أنه في الاختيار بين السعي لتحقيق الطموح البعثي في الوطن العربي والعمل من أجل مواجهة الخطر الذي يتعرض له الوطن العربي ، وضع الرئيس صدام بالميثاق الذي اعلنه العمل من أجل مواجهة الخطر في المرتبة الأولى ، عملاً بمرونة تقتضيها ظروف حركة القائد الثوري وليس تحولاً عن مبدئية أو إعادة جذرية في مفاهيم .

ولعله في فقرة من خطابه الذي القاه مساء الأحد ٦ كانون الثاني (يناير) ١٩٨٠ من الاذاعة والتلفزيون لمناسبة الذكرى التاسعة والخمسين لتأسيس الجيش العراقي كان يوضح سلفاً مسألة التصنيف بين تقدمي ورجعي الذي جاء الميثاق بعد شهر يقر بوجودها ويؤكد امكانية التعايش والتعاون في ظل استمرارها . وفي تلك الفقرة قال الرئيس صدام : « ان تقسيم المجتمع والناس بين المواقف التقدمية والمواقف الرجعية ليس أمراً جديداً في الحياة العربية بل هو قديم قدم هذه الحياة وبخاصة بعد انبثاق الرسالة الاسلامية والخلاف حول تطبيقاتها في المراحل اللاحقة ... » .

وبدا الرئيس صدام حسين في هذا كمن يقول إن هذا الواقع المستمر حتى الآن ، لا يلغي امكانية التعايش والتعامل .

ولقد كان رد الفعل الأقوى على الميثاق الذي طرحه الرئيس صدام حسين هو رد فعل المملكة العربية السعودية الذي جاء متجاوزاً أن طارح الميثاق ثوري تقدمي والمؤيد الأقوى له من الفريق المحافظ . وجاء رد الفعل السعودي يشكل أول حالة تلاق بين مفهومين يفترض أن يكون التناقض هو السمة المميزة لطبيعة التعامل بينهما . كما ان التأييد السعودي للميثاق تجاوز الطقوس التقليدية للبروتوكول وأخذ وقته في الدرس والتمحيص . فالرئيس صدام أعلن الميثاق يوم ٨ شباط ١٩٨٠ والملك خالد بن عبد العزيز حرص شخصياً على أن يبعث بعد خمسة أيام الى الرئيس صدام ببرقية (وهذا ما نعنيه بتجاوز طقوس البروتوكول من جانب العاهل السعودي) قال فيها : « ان اعلان مبادىء الميثاق كان له أحسن الأثر في نفوسنا نظراً لأن مبادئه تتفق وسياسة تعزيز الموقف العربي والاسلامي وتكرس الأمن والاستقرار للوطن العربي خاصة في الظروف الراهنة » .

وكان يمكن للعاهل السعودي الاكتفاء بإعلان التأييد لكنه دعا الآخرين الى تبني الميثاق وتمثل ذلك في قوله : « وانني على ثقة بان تلتزم الأقطار العربية بما تضمنه الميثاق وأن يكون محل تطبيق وتنفيذ بما يخدم الأمة العربية والاسلامية » .

هنا تبدو الاشارة ضرورية الى ان المملكة العربية السعودية كانت تشكل جزءاً من خلفية الفترة التي بدأ خلالها صدام حسين (وكان ما زال نائباً للرئيس) يفكر في صيغة تنظيم للعلاقات العربية . ولقد اشار هو الى ذلك في الجلسة الخامسة التي عقدها « المؤتمر القومي الشعبي العربي » في فندق « المنصور » في بغداد لمناقشة الميثاق عندما قال : « كنا في زيارة الى الهند عام ١٩٧٤ وفي طريق العودة توقفنا في دولة الامارات العربية المتحدة والتقينا هناك بعدد من الصحفيين . في ذلك الحين

كانت علاقاتنا مع السعودية في غاية السوء . اذاعاتنا مفتوحة ضدهم ولا كلام بيننا وبينهم . ولقد كان بين الاسئلة التي وجهت من الصحفيين واحد حول العلاقة مع السعودية ، وأجبت : إن أساس السوء في العلاقة هو سوء موقف السعودية من الجزر العربية الثلاث التي احتلتها ايران الشاه وعدم وقوفها موقفاً واضحاً رافضاً لهذا الموقف وعدم تضامنها مع العراق لمنع هذا الاحتلال ، ولكن لو حصل في يوم أن احتل الجيش السوفياتي الذي تربط بيننا وبين دولته علاقة صداقة ، أي جزء من الأرض السعودية فان الجيش العراقي سيقاتله قبل أن يقاتله الجيش السعودي » .

وأضاف : « ما زال هذا الكلام هو الذي يحدد سياستنا ونظرتنا الى الأجنبي ولن يتغير ما زلنا أحياء . نقاتل الأجنبي دفاعاً عن الأرض والشعب بغض النظر عن رأينا بالنظام وبالحاكم وبغض النظر عن علاقاتنا ورأينا بهذا الأجنبي أو ذاك ... » .

وهذه الواقعة التي اشار اليها الرئيس صدام حسين اضافة الى أن طرح الميثاق جاء في اعقاب موقف متميز اتخذه ازاء الدور الذي قام به الاتحاد السوفياتي في افغانستان وهو موقف يرى ان الدور أقرب الى الاحتلال منه الى مساندة نظام ثوري ... إن الواقعة وتوقيت طرح الميثاق جعلا بعض القوى السياسية العربية من انظمة وتنظيمات تنظر الى ميثاق ٨ شباط على انه موجه في الدرجة الأولى ضد الاتحاد السوفياتي . وحساسية السوفيات من مسألة القواعد التي يحصلون عليها في بعض دول العالم الثالث ، حساسية مفرطة ، عندما تصورها القوى والتي على علاقة جيدة بهم مثل العراق ، على انها مثل القواعد التي يحصل عليها الأميركان .

وفي خلال مناقشة مطولة مع الرئيس صدام حول تجربته كرر امامي أكثر من مرة « ان الذي يعطي قواعد للاتحاد السوفياتي كالذي يعطي قواعد للاميركان » .

استطاع الميثاق الذي طرحه الرئيس صدام حسين أن يحرك الأمة العربية في لحظة سكون ناشئة عن مخاوف من احتمال حدوث التدخلات العسكرية من جانب الولايات المتحدة في أي لحظة يرد عليها الاتحاد السوفياتي بتدخلات مماثلة .

وقبل أن يطرح الرئيس صدام ميثاقه كان مفترضاً سلفاً ان القوى الكبرى لن تتساهل معه في ممارسة هذا الدور الذي من شأنه أن يعزز شأن عالم عدم الانحياز ، ولكنه مع ذلك استحصل على موافقة ١٢ دولة عربية ومنظمة التحرير الفلسطينية على عقد قمة لإقرار الميثاق ولما يكن انقضى ثلاثة اسابيع على اعلان الميثاق . وبعد تأييد السودان للميثاق والتغييرات التي حدثت في اليمن الديمقراطية ارتفعت نسبة التأييد العربي للميثاق .

وثمة سؤال : ما الذي جعل همة العراق تبرد قليلاً ازاء السعي لعقد قمة تقر الميثاق ؟ هل هو اشغال العراق من جانب ايران بمعركة طويلة النفس ، أم هل هي مخاوف من أن تجهض القوى الكبرى الفكرة في شكل أو آخر ؟ أم هل ان الرئيس صدام الذي استحصل على التأييد الشعبي والرسمي العربي لميثاقه ترك أمر اقراره الى قمة عادية وتكون حتى ذلك الوقت تعززت القناعات العربية بضرورة اقرار الميثاق ؟

وقد تكون الاسباب مجتمعة أو إحداها هي التي جعلت همة العراق تبرد قليلاً ،

وجعلت الرئيس صدام حسين يرصد حدوث خلل ما في القيود الدولية التي تمنعه من ممارسة دور متميز خارج حدوده ، على أن يخترق هذا الخلل ويمارس الدور ، وفي الوقت الذي يجعل السلامة مأمونة ونجاح الدور مضموناً .

وإلى ذلك ان الميثاق هو ورقة العمل التي يتطلع الرئيس صدام حسين الى ان تكون من ضمن الأوراق التي تتعامل معها بجدية قمة عدم الانحياز المقبلة التي ستنعقد في بغداد .

وحول ميثاق الرئيس صدام هنالك خمس ملاحظات هي :

الملاحظة الأولى ـ كان الرئيس صدام قبل أن يضع الميثاق ـ وما زال ـ لا يبدو مقتنعاً بان الولايات المتحدة يمكن أن تحمي أحداً خصوصاً ان الحمايات باتت مغامرات لن تخوضها الولايات المتحدة من أجل أحد . ولذا فان الأنظمة التي تعول على هذه الحماية ستكتشف ان الوقوف تحت مظلة الميثاق هو الضمانة لها . وهذا لمصلحة الميثاق .

كذلك ان الرئيس صدام لا يبدو مقتنعاً بان الحماية السوفياتية بالاسلوب الحالي ستكون مقبولة بل انها ستشكل على الحكومات الصديقة القابلة بهذه الحماية عبئاً يقودها الى السقوط ، وهذا أيضاً لمصلحة الميثاق .

الملاحظة الثانية ـ ان الرئيس صدام حسين يرى أن التباعد العربي ناشىء عن الحذر في الدرجة الأولى . وعندما خاطب وزراء العمل العرب الذين كانوا يعقدون مؤتمراً لهم في بغداد واستقبلهم يوم ٩ آذار ١٩٨٠ (بعد شهر من اعلان الميثاق) قائلاً « من غير الممكن أن تتحقق الوحدة سياسياً بين العرب قبل ان تتحقق نفسياً ودون أن تتركز على ارضية من مصالح الحياة اليومية ومستلزماتها ... » فانه كان في ذلك يشير الى مسألة الحذر .

ومن شأن الميثاق الذي طرحه أن يزيل مع الوقت هذا الحذر .

الملاحظة الثالثة ـ في إطار محاولته لاقناع الآخرين بأن العراق هو آخر دولة عربية يمكن ان يشكل الميثاق حماية امنية لها قال أيضاً مخاطباً وزراء العمل العرب : « نحن نقول ألا يشهر العرب السلاح على بعضهم . والذي يعتقد ان هذا المبدأ موضوع من أجل العراق فأنا أقول وكرئيس لدولة العراق من عنده القدرة من العرب على أن يشهر السلاح علينا فلا يقصر . هذا القول مؤلم طبعاً ونحن لا نؤمن بان للعرب الحق في أن يشهروا السلاح علينا ، لكن الذي لديه شك في ان هذا المبدأ موضوع للعراق فنحن مستعدون أن نوقع له عندما تكون لديه امكانية عسكرية للهجوم علينا فليفعل ... » .

الملاحظة الرابعة ـ هنالك كلام في موضوع الميثاق رأى الرئيس صدام أن موقعه الرسمي يضغط في اتجاه عدم قوله سواء وهو يعرض الميثاق أو في الفترات التي تلت ذلك . فهو رئيس الدولة وهو لا بد يأخذ في الاعتبار حساسية اطراف عربية ودولية كثيرة من وجهات نظر هو في الأصل مقتنع بها . وما لم يقله الرئيس صدام ورد في الوثيقة التي قدمها حزب البعث يوم ٢٥ آذار ١٩٨٠ الى « المؤتمر القومي الشعبي » الذي عقد في بغداد تحت شعار « لا أحلاف عسكرية ولا قواعد أجنبية . كل الطاقات العربية من أجل تحرير فلسطين » لمناقشة الاعلان القومي

وهي وثيقة* حظيت قبل اذاعتها على المؤتمر بموافقته على أساس أنه يشغل الموقع الأول في الحزب .

الملاحظة الخامسة - هنالك ميثاق ينظم العلاقات بين الدول العربية هو ميثاق الجامعة العربية . ولكن الخلل في ذلك الميثاق هو أنه غير ملزم للدول الأعضاء ، في حين أن الميثاق الذي طرحه الرئيس صدام ملزم . فهو في المبدأ الأول من مبادئه الثمانية ينص على عقوبات منها العزل والمقاطعة السياسية والاقتصادية .

وكما ان ميثاق الرئيس صدام لا يجيز اللجوء الى استخدام القوات العربية المسلحة في المنازعات وفض هذه المنازعات بالوسائل السلمية ، فانه في الوقت نفسه لا يجيز اللجوء الى استخدام القوات المسلحة مع الأمم والدول المجاورة للوطن العربي إلا في حالة الدفاع عن السيادة والدفاع عن النفس .

ومع ان الميثاق لم يتضمن فقرة تستثني اسرائيل (التي لا يعترف العراق أصلاً بشرعية وجودها) إلا انه من الواضح أن الميثاق يشير هنا الى الدول التي بينها وبين العرب علاقات . وهذه الدول هي ايران وتركيا وبعض الدول الأفريقية .

الملاحظة السادسة - إن الميثاق لم يقتصر على المسائل الأمنية والسياسية وإنما يدعو الدول العربية الى الإلتزام بإقامة علاقات اقتصادية متطورة وبناءة في ما بينها . ومعنى ذلك ان الرئيس صدام أراد أن يكون الميثاق متكاملاً وأن يكون

---

* من هذه الحقائق نختار الفقرات الثلاث الآتية :

- « من الحقائق التي لا يمكن تجاهلها أن الكثير من الأقطار العربية ولا سيما الأقطار المستهدفة بحكم موقعها الاستراتيجي أو بحكم ثرواتها لا تستطيع ان تدافع عن نفسها بقدراتها الذاتية المحدودة ولهذا فقد اصبحت هذه الاقطار غرضاً للرماة . وسواء كانت الحجج التي تطرحها هذه الاقطار تصدر عن حسن النية أم إقراراً بالواقع أم عن محاولة تبريرية لقبول الحماية الأجنبية أم عن اظهار قدر من المجاملة السياسية لهذا الطرف أو ذاك فان هذا لا يغير من الحقيقة شيئاً ، لكن هنالك اقطاراً عربية أخرى قادرة في الواقع على مجابهة العدوان » .

- « رغم ان الكثير من دول مجموعة عدم الانحياز هي في الواقع منحازة الى هذا الطرف أو ذاك فلقد اثبتت سياسة عدم الانحياز مع ذلك جدواها على الأقل من زاوية واحدة وهي الحيلولة دون السقوط في دائرة الاحلاف العسكرية وما تفرضه من شروط سياسية وتحكيمية » .

- « ... وبصراحة أكثر إن البعض يربطون بين الإعلان وبين تدخل الاتحاد السوفياتي في افغانستان ، ونحن لم نخفِ انتقادنا لهذا التدخل ولا نريد أن نخفي اننا سنقف ضد أي تدخل من هذا النوع في أي مكان آخر يقع فيه ، ولكن الخطر الماثل هو استغلال الولايات المتحدة لهذا التدخل ومحاولتها البحث عن مواقع في الوطن العربي لوجود عسكري .

وازاء هذا الوضع الخطير فان التدخل السوفياتي في افغانستان يقود بالنتيجة الى تعاظم الصراع الدولي حول ثروات ومواقع استراتيجية تخص الأمة العربية وحدها ، بشكل سيعرض المنطقة الى اخطار الغزو الأجنبي ، وأخطار الصراعات الاقليمية انطلاقاً من وضع « الاستراتيجيات المتقابلة » ، وتكون الأمة العربية في كل الحالات ، وفي كل الحسابات والنتائج هي الخاسر الأساسي .

والتدخل بعد كل ذلك يمثل انتهاكاً لسيادة دولة افغانستان ولإنه يتنافى والاعراف والقوانين التقدمية التي أكدها نضال البشرية لتنظيم العلاقات الدولية بين الدول وأهمها حق الشعوب في تقرير مصيرها بنفسها بدون ضغط أو تدخل خارجي مباشر أو غير مباشر ، فالشعوب قادرة على تمييز خياراتها بما ينسجم ومصالحها وأهدافها ، وهو بذلك يعرض السلام والأمن الدوليين للخطر ويزيد من حدة التوتر في المنطقة ، ويقرب الصراع الدولي من الوطن العربي ، ويخلق مبررات أمام القوى الامبريالية لممارسة مزيد من التهديدات والعدوان والتمركز العسكري الخطير » .

الاستقرار الأمني مدخلاً للازدهار الاقتصادي ، فضلاً عن أن المسألة الاقتصادية يمكن أن تشكل عنصر ترغيب لبعض الدول العربية التي تفضل شراء الاستقرار الأمني بالمال والمساعدات .

ونقول ذلك مضيفين هذا الافتراض الى التصور الذي وضعه الرئيس صدام للمسألة الاقتصادية وهو يُضَمِّنُها ميثاقه . وهو عبَّر عن هذا التصور عندما قال لوزراء العمل العرب لدى اجتماعه بهم يوم ٩ آذار ١٩٨٠ « لا يمكن لعربي أن ينشغل بأخيه العربي ونتصور منه خيراً يحرر فلسطين . لا يمكن أن نتصور أن اليهود يخشون الجياع المتخلفين ثقافياً وتقنياً وعلمياً . إن اسرائيل لا تخشى جيش العرب المكون من ثلاثة ملايين في الوضع الراهن ، وإنما تخشى جيش العرب المكون من نصف مليون جندي والذي هو على ارض اقتصادية متينة وفي ظل مجتمع متجانس ومقدرة علمية وتقنية متقدمة . إن اسرائيل تخشى هذا ، ومن أجل ذلك فإن الميثاق بما فيه المبدأ الداعي الى التزام الأقطار العربية بإقامة علاقات اقتصادية متطورة وبناءة في ما بينها ... يقصد الوصول الى هذا . وعندما يرى العدو هذا التناقض الصارخ داخل الأمة بين من هو جائع الى الحد الذي يبدو مستعداً لأن ينتزع لقمة العيش بالخنجر وبين من هو متخم لا يجد مكاناً لوضع الفائض من الأموال ، فإنه لا يمكن إلا أن يستغل ذلك ويعمل على توزيعنا الى حصص واستخدامنا ضد بعضنا البعض ... » .

بعد هذا كله ، ما الذي حققه الميثاق الذي طرحه الرئيس صدام حسين يوم ٨ شباط ١٩٨٠ وهل إنه كان مجرد محاولة إبحار منه في أعالي البحار لإنه لا يستسيغ الإبحار في السواقي الصغيرة ؟

وهل إن الميثاق اسفر عن امور ايجابية غير الترحيب الكلامي به من جانب أكثرية العرب حكومات وشعوبا ومن جانب قوى سياسية غير عربية من حجم ونوعية اندرياس باباندريو زعيم الحركة الاشتراكية اليونانية الذي وجد نفسه بعدما استمع مطولاً في بغداد الى الرئيس صدام حسين يحدثه عن الميثاق يقول في مؤتمر صحفي يوم ٩ آذار ١٩٨٠ « ان مبادىء الاعلان تستطيع أن تتعدى الوطن العربي الى منطقة البحر الابيض وخاصة دول عدم الانحياز ومجموعة الاحزاب التقدمية والاشتراكية في حوض البحر الابيض الذي يعتبر حزبنا من ضمنها » ومن جانب دولة مثل يوغوسلافيا تشكل احدى الحلقات الأهم في عالم عدم الانحياز والتي أبلغ رئيس وزرائها فيسلين جوارا نوفج عضو مجلس قيادة الثورة العراقي طارق عزيز خلال لقائهما في بلغراد يوم الخميس ٢٢ أيار ١٩٨٠ « إن الميثاق الذي طرحه الرئيس صدام حسين ساهم مساهمة كبرى في تخفيف التوتر الدولي » ؟

قد يكون المناسب من أجل الاجابة على ذلك طرح تساؤلين مرتبطين ببعضهما . أما التساؤل الأول فهو : لو أن قمة بغداد لم تنعقد ألم يكن حدث إنهيار عربي ؟

والجواب هو انه لو لم تنعقد القمة وتحقق النجاح النسبي الذي حققته لكان حدث الانهيار بالفعل .

وأما التساؤل الثاني فهو : لو أن الميثاق لم يطرح ألم يكن الذين وزعوا اجزاء من اراضيهم لتكون مقراً لقواعد أميركية أو سوفياتية في المنطقة لن يظهروا على

هذه الشبهة وتلك الحيرة اللتين تحيط بهم منذ ان ارتضوا وجوداً عسكرياً أجنبياً على أرضهم ؟

والجواب هو انه لو لم يطرح الميثاق ويلقى القبول النسبي الذي لقيه لكانت القواعد الأجنبيـة في المنطقة موضع اعتزاز ولكانت تكاثرت . ولكن الميثاق جعل الحلقة ضيقة بعض الشيء وجعل الذين ارتضوا الوجود الأجنبي على أراضيهم في موضع المرتبك فضلاً عن أن هنالك من آثر التهيب واكتفاء شر التورط .

وإلى ذلك ان الميثاق شكل الى حد ما حماية تحتاج اليها قمة بغداد ، وحسم مسألة كانت غير محسومة من قبل من جانب العراق وتتعلق بالدور السوفياتي خارج الحدود وهو دور يدخل في خانة التدخل الذي ينتهك السيادة ، ومثل هكذا تدخل يصبح مع الوقت احتلالاً .

وعندما تحسم هذه المسألة ، ويحسمها العراق الذي تربطه بالاتحاد السوفياتي علاقة متقدمة ، فإنه يلغي بذلك حجة الذين ارتضوا القواعد الأميركية في اراضيهم تحسباً لمواجهة النفوذ السوفياتي ، مع الأخذ في الاعتبار أن الاستراتيجية الدولية للسوفيات لا ترضيها حواجز توضع في طريق هذا النفوذ من نوع حاجز ميثاق ٨ شباط ١٩٨٠ .

ويبقى انه مثلما ان صدام حسين اختار الحد الأقصى من المرونة وهو يخطط لقمة بغداد بدءاً من التفكير بالدعوة الى عقدها وإنتهاء بقرارات المقاطعة مروراً بفكرة التحاور مع نظام الرئيس السادات من أجل تفادي أي تعثر لإعمال القمة ، ولولا المرونة لما كانت القمة حققت النجاح الذي حققته ، فانه وهو يضع صياغة الميثاق أخذ في الاعتبار ان تأتي بنود الميثاق ترضي كل نظام وتبتعد عن الخوض في قضاياه الداخلية وتضع السيادة العربية في مرتبة الاولوية متقدمة على النضال القومي وحقوق الانسان العربي والصراع التاريخي بين الثورية والرجعية من دون ان يستتبع ذلك بالضرورة فرض قيود على الذين يتدخلون في شؤون غيرهم . وتلك أيضاً كانت مرونة من جانبه وتجربة أخرى لقدرة الثوري على أن يكون رجل الدولة المتميز في الوقت نفسه .

الفصـــل الثـالث

المُحـــاور الدولي

"لنا وزن سياسي مهم في العالم و علينا ان نتصرف بـهذا الـوزن في كل نشاط نقوم به" .

(صدام حسين ـ الخطاب الافتتاحي للقمة العربية في تونس ٢٠ تشرين الثاني ـ نوفمبر — ١٩٧٩)

عندما طرح الرئيس صدام حسين الاعلان القومي كانت الظروف التي تعيشها المنطقة العربية توجب ذلك ، خصوصاً ان حالات من الاحتراب سادت بعض الدول التي شاركت في قمة بغداد ، وأصبحت كل مجابهة تحصل بين الدول المشار اليها تقلل من وهج قمة بغداد وتشكل مادة للرئيس أنور السادات يقول فيها للمصريين ما معناه انظروا الذين اتفقوا ضدي كيف هي حالهم . انهم يقاتلون بعضهم ويتآمرون على بعضهم واذن فان حالنا افضل من حالهم .

وبدت هذه الحروب العربية وبعضها متوارث متجاوزة تحذير الرئيس أحمد حسن البكر في الخطاب الذي افتتح به قمة بغداد وكان خلاصة للتحليل الذي عرضه صدام حسين على رفاقه في القيادة عندما تقررت الدعوة الى القمة . ففي ذلك الخطاب قال الرئيس البكر مخاطباً الملوك والرؤساء : « اذا لم نتفق لا سمح الله في هذا الاجتماع في الوصول الى حد جدي ومعقول للموقف فان العالم العربي سيواجه انقساما حادا لم يشهده ولم تشهده المنطقة من قبل ، ولن يتوقف الأمر عند البلاد العربية وحدها لان صراعا من هذا الطراز لا يمكن ان يقف عند الحدود الاقليمية ولا بد أن يأخذ ابعاداً دولية واقليمية خطيرة » .

لقد كان العراق يرى أن الاتفاق خلال انعقاد قمة بغداد يمكن أن يوفر على العرب مخاطر انقسام الصف ويوفر عليهم ايضاً مخاطر التدخلات الدولية . ولكن الذي حدث أن بعضهم على رغم الاتفاق داخل القمة دخلوا في حروب ثنائية كادت لو لم تتم محاصرتها أن تجعل الدول الكبرى تدخل طرفا فيها في شكل أو آخر . بل أن الرئيس السادات نفسه كاد يلقي بظلاله عندما عرض ارسال قوات الى المغرب لكي تحارب الجزائر .

ونتيجة للروح التي أشاعها ميثاق الرئيس صدام حسين فان وزراء الخارجية العرب عند اجتماعهم في تونس لمعالجة احداث قفصة الشهيرة لم يرهقوا في البحث عن صيغة تسوية تهدىء التوتر الذي ساد العلاقات الليبية ـ التونسية .

ومنذ أن تسلم الرئيس صدام المسؤولية الكاملة لقيادة الدولة والحزب وهو يعمل في ثلاثة خطوط متوازية : خط مواصلة المواجهة لصيغة كامب ديفيد وتثبيت أمر الميثاق الذي طرحه . وخط الاستعداد لقمة عدم الانحياز التي سيستضيفها العراق . وخط تعميق الدور الذي صممه لنفسه بعدما تسلم المسؤولية الكاملة .

ونتوقف عند الخطين الأولين على أن نستكمل الحديث في الخط الثالث بعد ذلك . فالخطان الأول والثاني متلازمان ، بينما الخط الثالث محلي ومتصل بأمور الداخل .

بعد أقل من ثلاثة أشهر من تسلم صدام حسين المسؤولية الكاملة بدأت بغداد تكتسب صفة العاصمة الأكثر حيوية على الصعيد السياسي العربي والدولي . فلا يكاد يمر اسبوع الا وهناك حاكم عربي أو من عالم عدم الانحياز يقوم بزيارة للعراق . وقياسا بما كان يحدث في السابق فان هذه الظاهرة تبدو ملفتة .

ومعظم الذين أتوا ويأتون باستثناء قلة منهم كانوا عرفوا الرئيس صدام في قمة عدم الانحياز التي عقدت في هافانا بعد خمسة أسابيع من تسلمه المسؤولية الكاملة . ولقد تركت مبادرات قام بها خلال تلك القمة أثرها في نفوس معظمهم وبالذات في نفوس الحكام الافارقة الذين كانوا عندما يطلبون زيارته في مقر اقامته يرد بأنه هو الذي سيأتي الى زيارتهم من دون التوقف عند شأن هذا الحاكم أو ذاك .

وقد لقي الحكام الأسيويون والافارقة الذين زاروا بغداد اهتماماً لا مثيل له بدا كما لو أنه رد الجميل من جانب الرئيس صدام لهؤلاء على مواقفهم الذين اتخذوها خلال انعقاد قمة هافانا ضد خط كامب ديفيد . وعلى سبيل المثال لا الحصر ان رئيس موزمبيق سامورا ميشيل عومل عند زيارته للعراق المعاملة التي يمكن ان يلقاها حاكم دولة من الدول الكبرى .

وفي قمة هافانا بدا الرئيس صدام كما لو أنه سيشكل الرمز العربي في المرحلة المقبلة لهذه الحركة الدولية . وكان تعامل الرموز الآسيوية والافريقية والاميركية اللاتينية معه على هذا الاساس . ومثل هذه الصفة مارسها في الماضي جمال عبد الناصر ثم هواري بومدين ، هذا مع الأخذ في الاعتبار أنه بعد وفاة تيتو لم تعد الرموز في حركة عدم الانحياز مشعة باستثناء فيديل كاسترو الذي بدأ يتعرض لمحاولات من جانب الولايات المتحدة تفقده بريقه الحيادي .

والذي يؤهل صدام حسين لان يكون الرمز العربي في المرحلة المقبلة لحركة عدم الانحياز هو أن مواصفات متطلبات هذه المرحلة تنطبق عليه ، فالدور العربي في الحركة مختلف عن الدور الذي مورس في بداية قيام الحركة وفي الستينات حيث كان الدور سياسيا لان قضية الاستقلال والتحرر من الاستعمار كانت من القضايا الملتهبة داخل الحركة ، لكن بعد استقلال معظم شعوب آسيا وافريقيا وأميركا اللاتينية فان المعضلة التي ستواجه العالم الثالث بعد الآن هي التحرر الكامل وعدم التبعية ومواجهة الأزمات الاقتصادية اضافة الى الدور السياسي على أساس أن المسائل متشابكة في النهاية .

وفي اطار الحديث عن المواصفات المطلوبة يمكن التوقف عند ثلاثة أمور تشكل ما يجيز الافتراض بأن الرئيس صدام حسين سيشكل الرمز العربي في المرحلة المقبلة من حركة عدم الانحياز .

الأمر الأول ـ أنه على صعيد الداخل يعمل من أجل تثبيت الاستقرار بحيث

يصبح الانصراف الى التنمية مسألة تسير بكل الاطمئنان المطلوب .

الأمر الثاني ـ انه في الوقت الذي حسم مسألة التبعية بل ومسألة المؤثرات الدولية على القرار الذي يتخذه فإنه يقوي أواصر العلاقة مع دول العالم الثالث بالحد الأدنى من المداخلات والتدخلات ومع حكام هذه الدول وليس مع الجيوب التي تعمل ضد هؤلاء الحكام . ونجد أنفسنا هنا نستند بين الحين والآخر الى الموقف الذي اتخذه إزاء التدخل السوفياتي في افغانستان وهو موقف ما كان من السهل اتخاذه لولا أن هنالك حدا اقصى من الاستقلالية في موضوع العلاقة مع الاتحاد السوفياتي . ولقد جاء هذا الموقف يبدو منسجما مع وجهة نظر الرئيس صدام في ما يفترض أن تكون عليه طبيعة معاهدة الصداقة والتعاون المعقودة بين العراق والاتحاد السوفياتي لكنه جاء متناقضا مع وجهة النظر السوفياتية .

الأمر الثالث ـ بما أنه لا بد من قاعدة اقتصادية قوية للرمز العربي الذي يتطلع الى أن يكون رمز المجموعة التي يمثلها في حركة عدم الانحياز فإن القوة الاقتصادية للعراق تشكل السند الاساسي للرئيس صدام .

وفي هذا الأمر جواب عن رغبة عدد كبير من حكام دول العالم الثالث في زيارة العراق حيث يمكنهم الحصول على السند السياسي والعون الاقتصادي معاً .

والى ذلك ان العراق لا يقدم العون الاقتصادي وحسب وانما يقدم الخبرة ، وهو استنادا الى واقع الحال في عدد كبير من دول عدم الانحياز يبدو متقدما جدا ومليئا بالخبرات .

ولقد لمس كثيرون من حكام عدم الانحياز الذين زاروا العراق بعدما تسلم الرئيس صدام المسؤولية الكاملة أهمية الاستفادة من التجربة الاشتراكية المعمول بها في العراق . وهنالك البعض منهم الذين استوقفتهم الى حد الرغبة في التقليد تجربة محو الأمية وتجربة الجيش الشعبي وتجربة بناء مجتمع اشتراكي لا يغلق الابواب في وجه الدول الرأسمالية وانما يتعامل معها بوعي وبحد أقصى من التنبه ، وتجربة التوازن بين القطاع العام والقطاع الخاص التي شدت على سبيل المثال الرئيس ساموراً ميشيل عندما روى له الرئيس صدام حسين في جلسة مناقشات استغرقت بضع ساعات الكثير عنها ووجد فيها ما قد يحل تعقيدات في هذا الشأن موجودة في بلاده .

والى ذلك ان هؤلاء الذين يتطلعون الى عون العراق لهم وجدوا أن في امكان العراق تقديم الخبرات الفنية مع العون المالي والاقتصادي ، وهي متوافرة وكثيرة ومتنوعة .

ولقد سبق أن أشرنا في صفحات سابقة الى مسألة المرونة التي اعتمدها صدام حسين في قمة بغداد ثم عندما طرح الاعلان القومي يوم ٨ شباط ١٩٨٠ وكيف أنه بفضل هذه المرونة جعل القمة لا تفشل وجعل الاعلان القومي مقبولا من الجميع .

وفي قمة عدم الانحياز التي عقدت في هافانا مارس الرئيس صدام حسين الدور المرن إياه وامكنه بفضل ذلك ان يجعل مواقف كثيرين تتبدل لمصلحة ادانة خط كامب ديفيد . فهو على سبيل المثال نجح وبالتعاون مع الرئيس كاسترو في جعل موقف الوفد اليوغسلافي في مستوى موقف الرئيس تيتو ، وكان موقف الوفد في غاية الاعتدال ولا يزعج الرئيس السادات في شيء . كذلك نجح في تطويق اتجاه بعض الدول الافريقية الداعي الى عدم عزل نظام الرئيس السادات وعدم ادانته ،

وظهرت آثار التطويق بعد لقاء بين الرئيس صدام ورئيس مالي موسى تراوري.
وقد أوضح الرئيس صدام للحكام الافارقة ان العقوبات المطلوب انزالها « لا تستهدف مصر بتاريخها وشعبها وأنتم تعرفون بأن كل عربي يعتز بمصر شعبا ونضالا ولذلك فان العقوبات موجهة ضد تصرف يضر بالنضال العربي وبالأمة العربية. ان السادات لم يقم بعملية انتحار ذاتي وانما وجه النيران ضد آخرين ضد الفلسطينيين والسوريين والاردنيين وضد كل عربي في الوطن العربي ».

ولو أن الرئيس صدام لم يظهر في قمة هافانا وكأنما لا شيء بينه وبين الرئيس حافظ الاسد لكان ذلك انعكس على نتائج المؤتمر. ولكنهما اجتمعا وشاركا في ترتيب بعض الصيغ. وعندما استغرب ذلك بعض الذين شاركوا في المؤتمر ووصل بهم الاستغراب الى حد سؤال الرئيس صدام عن هذا الاسلوب في التعامل مع رئيس يتهمه بأنه وراء مؤامرة ضده سمعوا منه الجواب الآتي: « نحن في مؤتمر أجنبي وعندنا مسائل يجب تحقيقها واذا كنا لن نتعاون فإننا لن نبلغ ما نريده ».

ويبقى أنه من الآن وحتى انعقاد القمة المقبلة لحركة عدم الانحياز في بغداد عام ١٩٨٢ سيكون طبقا لترتيبات أعدت زار معظم حكام دول عالم الانحياز العراق، ويكون تم افتتاح سفارات للعراق في عدد من دول افريقيا واميركا اللاتينية.

وواضح ان القمة المقبلة لعدم الانحياز التي ستعقد في « قصر المؤتمرات » الذي سيتم انجازه قريبا والذي جاءت فكرة اشادته مرافقة لقرار انعقاد القمة المقبلة لعدم الانحياز في بغداد ستكون قمة الاستقلال الاقتصادي لدول العالم الثالث (التكلفة التقديرية لقصر المؤتمرات وهو نموذجي والفندق المقابل له هي ٨٠ مليون دينار). وعلى هذا الاساس يتم اعداد الدراسات والتقارير وباشراف مباشر من الرئيس صدام.

وقد تكون قمة عدم الانحياز المقبلة في بغداد المناسبة المثالية لحسم افكار ومبادىء اقتصادية سبق للرئيس صدام أن طرحها في قمة هافانا ومنها انشاء صندوق عالمي طويل الأمد لمساعدة الاقطار النامية ضد آثار التضخم على اساس أن تقوم الدول الصناعية المتقدمة بغض النظر عن طبيعة نظمها السياسية والاقتصادية بالمساهمة في هذا الصندوق بمقدار التضخم السنوي الذي تصدره الى الدول النامية، كما تساهم فيه الدول النامية المصدرة للنفط. وعندما طرح الرئيس صدام هذا المشروع على قمة هافانا كان رأيه أنه « كفيل في حال تطبيقه بحل جانب مهم وأساسي من هذه الحالة الحائرة في العلاقات الاقتصادية التي تربط اقتصاديات الدول النامية باقتصاديات الدول الصناعية المتقدمة، ويشكل ركناً اساسياً في تحقيق النظام الاقتصادي الدولي الجديد ».

وخلال جولة من المحادثات يوم ٢٨ نيسان ١٩٨٠ مع رئيس جمهورية سيشيل فرانس البرت الذي كان واحدا من بين حكام دول العالم الثالث الذين زاروا العراق حدد الرئيس صدام الخطوط العريضة للافكار والمبادىء التي يمكن أن تدور حولها مناقشات القمة المقبلة لحركة عدم الانحياز على النحو الآتي:

أولاً - من الضروري تطوير العلاقات بين بلدان عدم الانحياز في شتى الميادين الاقتصادية والثقافية والسياسية والتقنية. بذلك يمكن لعالم عدم الانحياز المساهمة بشكل جدي في السلام العالمي والاستقرار وحرية الشعوب وكرامتها.

ثانياً ـ ان مسألة الاستقلالية ما عادت مسألة ارادية لوحدها رغم أن الارادة هي الأساس في الاستقلال ، وإنما اصبحت إضافة الى هذا ، امكانات أخرى موضوعية ينبغي أن تتوافر لكي تمارس كل دولة من الدول استقلاليتها بجدية واقتدار ، ومن بينها يأتي موضوع الامكانات الاقتصادية والتقنية والعلمية مرتبطة ببعضها ارتباطاً حيوياً .

ثالثا ـ ما لم يقم تعاون جدي ومنظم بين بلدان عدم الانحياز في الميادين الاقتصادية والتقنية والعلمية والثقافية والسياسية ستجد نفسها مهما كان شكل ممارسة الاستقلال بشكل أو بآخر ينقصها قدر من الاستقلال وستبقى الفجوة العلمية والتقنية وفي الامكانات الاقتصادية بينها وبين الدول الغنية المتقدمة تقنيا وعلميا ، تلعب دوراً اساسياً في تقرير نتائج الاستقلال في هذا البلد أو ذاك من بلدان العالم الثالث .

والى ذلك ان الرئيس صدام حسين يضع بضعة خطوط في ملف عدم الانحياز الذي هو دائماً بين يديه تحت ظاهرة الانقسام في الولاء والانتماء والتوزع بين القوتين الكبريين التي تعمقت في السنين العشر الماضية بحيث أصبحت هنالك أنظمة وطنية تقدمية ترى ازاء تزايد الضغط الاميركي عليها ورفض الولايات المتحدة للخط الوطني الذي تنتهجه ، ان الحل هو في تبني الماركسية أو الوقوع تحت تأثير ونفوذ الدول الشيوعية بما يضعف من ارادتها الوطنية وحرية الاختيار للطريق الذي تراه صائباً ، وبحيث ان هنالك انظمة وطنية اخرى فقدت توازنها ولم تجد ما يجعلها قادرة على الاحتفاظ باستقلالها ووطنيتها في الوقت الذي تحتفظ فيه باستقلالها عن الشيوعية فاندفعت الى الاحتماء بالغرب واتجهت اتجاهات تبعية موالية للغرب ولاميركا بشكل خاص بصيغ واضحة أو مستترة .

ومن هنا ان الحل لظاهرة الانقسام هذه تكون بصيغة ميثاق يستمد مبادءه من الروحية نفسها التي استقى منها ميثاق ٨ شباط ١٩٨٠ مبادءه . ميثاق يستهوي حتى العرب الذين خاب ظنهم في الولايات المتحدة ومن شأن انتمائهم الى فريق عدم الانحياز أن يؤمن لهم السند الدولي الوحيد . وقبل صفقة كامب ديفيد كان مثل هذا الأمر مستحيلاً لكن تبين بعد تلك الصفقة أن بعض القوى العربية التي كانت تفضل عدم المجادلة في أمر العلاقة مع الولايات المتحدة تملكتها مشاعر جديدة وبدأت تناقش الموقف الأميركي وتتحفظ عليه . وهذه الحالة المستجدة هي لمصلحة عالم عدم الانحياز اذا كانت هنالك الصيغة التي نشير اليها .

وثمة دول يحرص الرئيس صدام على ان تستمر علاقة العراق بها قوية ويتمنى مدها بالمساعدات لولا أن هذه الدول ترفض ان تحسم من جانبها مسألة التسهيلات العسكرية التي تمنحها لدول أجنبية . من هذه الدول على سبيل المثال الصومال ، وكانت له مع الرئيس محمد سياد بري مناقشات مطولة رفض خلالها الرئيس صدام التسليم بمنطق الرئيس الصومالي الذي كان في استمرار يربط اعطاء التسهيلات العسكرية للولايات المتحدة بالظروف الصعبة التي يعيشها الصومال وبالاخطار التي تحيط بالنظام . وفي هذه المناقشات كان الرئيس صدام يروي كيف ان العراق قاتل ايران عام ١٩٧٣ وهي من أنشط الاعضاء واقواهم في حلف السنتو من دون أن يعطي تسهيلات عسكرية لأحد ، وكيف أنه في النهاية لم ينهزم .

ويكاد لا يخلو أي حديث للرئيس صدام في أي مناسبة من الاشارة الى ان

العراق للعرب وللقضية الفلسطينية . ويسمع زواره من حكام ومسؤولين كلاما منه في هذين الأمرين لم يألفوا سماعه . وهناك عبارة شهيرة له نشرت بعناوين بارزة في الصحافة العراقية ورددتها اذاعات العراق أكثر من مرة لا تبدو مألوفة قالها الرئيس صدام من دون أن يستوقفه مضمونها ومن دون أن يتهيب أمام مفرداتها . والعبارة التي نشير اليها هي « مستعدون في العراق أن نضع رقابنا تحت أقدام العرب لكن لسنا مستعدين أن نسمح لواحد من اصابع اقدامنا ان يكون تحت أقدام الأجنبي » . ولقد سمع وزراء العمل العرب الذين كانوا في بغداد يعقدون مؤتمرا واستقبلهم الرئيس صدام يوم ٩ آذار ١٩٨٠ هذه العبارة ، وخرجوا مبهورين .

والمتابع لخطب الرئيس صدام وأحاديثه يجد أن الخط البياني في ما يخص هذا الاتجاه التي تشير اليه العبارة ، في تصاعد مستمر . ولقد حفلت الفترة التي اتسمت فيها العلاقات العراقية - الايرانية بالحدة والتأزم البالغين بالكثير من العبارات التي سيلاحظها القارىء ونحن نتناول بالعرض والتحليل تلك العلاقات .

ويبذل الرئيس صدام مشقة كبرى خلال مناقشاته مع بعض زواره العرب من المسؤولين في موضوع النظرة الى الولايات المتحدة وهو لا يشارك الكثيرين تصورهم بأن الولايات المتحدة في وقوفها الى جانب اسرائيل لا تأخذ في الاعتبار مدى ضرر ذلك على مصالحها ، بل ويرى ان الولايات المتحدة بتأييدها المطلق لاسرائيل تعرف مصالحها بشكل دقيق لإنها في تأييدها هذا تعزز الكيان الصهيوني الذي هو وسيلتها الاساسية لتعطيل تحرر العرب وتطورهم في اتجاه الوحدة .

وحتى الآن ، بل وحتى اشعار آخر لا يبدو ان الخط المرن الذي افرزه الاعلان القومي والذي طرحه الرئيس صدام يوم ٨ شباط ١٩٨٠ سينعكس على العلاقات العراقية - الاميركية التي لا تستأنف وتنوب الهند في رعاية المصالح . هذا مع الأخذ في الاعتبار ان استمرار قطع العلاقات يرافقه نظرة متوازنة في ما يخص التعامل الاقتصادي .

وفي استمرار كان هنالك وسطاء يسعون لدى العراق لكي يعيد العلاقات الدبلوماسية مع الولايات المتحدة . ولم تكن تسفر مساعي الوسطاء عن نتيجة . من هؤلاء الوسطاء ديفيد روكفلر الذي طلب بصفته الشخصية زيارة بغداد عام ١٩٧٥ والاجتماع الى صدام حسين . وتوقع روكفلر أن « يصطاد » صدام حسين عندما بدأ يكثر من كلام الاطراء له خلال اجتماعهما وينقل له كلاماً من النوع نفسه عن لسان هنري كيسنجر . لكن الذي حدث هو ان صدام حسين بعدما انتهى روكفلر من الكلام قال له ما معناه : ان العلاقات بيننا وبينكم مثل هذا الباب (وأشار الى أحد الأبواب) . هذا الباب له مفتاحان . انكم حتى الآن تساندون شاه ايران ضدنا وتساندون تمرد البرزاني ضدنا . هذا مفتاح ، واما المفتاح الآخر فإنه مفتاح القضية الفلسطينية . ونحن لا نتطلع الى ان تكونوا الى جانبنا وانما الى ان تكونوا منصفين . وعندما يتوافر المفتاحان تصبح العلاقات بيننا وبينكم طبيعية .

هنا يبرز سؤال : الى متى ستستمر العلاقات الدبلوماسية مقطوعة بين العراق والولايات المتحدة ، والى متى ستواصل الهند رعاية مصالح العراق في أميركا ؟

والجواب هو أن هذه العلاقات لن تعود اذا كنا سنستند الى تحليلات صدام حسين (النائب) ونظرة صدام حسين (الرئيس) وهي نظرة على كونها لا تبدو

مرنة الى الحد الذي يمكن ان نتوقع حدوث تبدل سريع في الموقف لمصلحة اعادة العلاقات ، الا انها ليست اسيرة الجمود وانما قابلة للتكيف مع متغيرات عربية ودولية .

ونظرة صدام حسين (الرئيس) التي نشير اليها تمثلت في الكلمة التي خاطب بها اعضاء « المؤتمر القومي الشعبي العربي » الذي عقد في بغداد لمناقشة الاعلان القومي . وفي هذه الكلمة قال الرئيس صدام : « لم يمر عام واحد منذ خمس سنوات وحتى الآن دون أن تحاول الولايات المتحدة مرتين أو عشر مرات في السنة بشتى الطرق من أجل أن نعيد العلاقات الدبلوماسية معها ، ونرفض . ونحن نرفض ليس خشية من أحد وانما حباً بالشعب العربي وايماناً بالمبادىء التي اخترناها لانفسنا . ليس لدينا علاقات دبلوماسية مع الاميركان . العلاقات مقطوعة ونعتبرهم أعداء للأمة العربية وأعداء للعراق ونتصرف منذ اثنتي عشرة سنة على هذا الاساس ، ولن تمر مناسبة دون أن نقول هذا الكلام » .

وفي كلمته هذه حدد الحالة التي على أساسها تعود العلاقات « لن نذرف الدموع يوماً ولن نستجدي أميركا في ارسال مندوبيها كما يفعل الآخرون . وما دامت الولايات المتحدة تحتل أرضنا عن طريق الكيان الصهيوني سنبقى ننظر اليها بأنها عدوة العرب . ان اسرائيل تحتل فلسطين بقوة الولايات المتحدة » .

ولكن وقوف الولايات المتحدة الى جانب اسرائيل ليس السبب الوحيد لهذا الحذر العراقي وهذه النظرة من جانب الرئيس صدام . فهنالك اسلوب التعامل الذي كان في استمرار فظا من جانب الادارة الأميركية ، وهنالك المحاولات الأميركية المستمرة لضرب « صيغة البكر ـ صدام » والتسلل منها لفرض حكم لمصلحة الخط الأميركي ، وهنالك الحملات الصحفية الأميركية التي تشكك في كل خطوة عراقية وهنالك ايضاً علاقة الأجهزة الأميركية في شكل أو آخر بالمحاولات الانقلابية وهنالك التسليح الخرافي للشاه من أجل تحجيم دور العراق وهنالك الايحاءات بأن النظام في العراق ضعيف ويحتاج الى من يحميه . بل وهنالك التصريحات التي ادلى بها مسؤولون اميركيون بعدما كان صدام حسين تولى المسؤولية الكاملة وقالوا فيها ان هنالك جنوداً كوبيين في العراق . وفي البداية آثر الرئيس صدام الرد على هذه التصريحات بهدوء فقال يوم ١٧ تشرين الأول ١٩٧٩ وكان في زيارة للنجف (المركز الرئيسي للطائفة الشيعية وتبعد حوالى ١٥٠ كيلومتراً عن بغداد) بعد مضي ثلاثة أشهر على تسلمه المسؤولية الكاملة « ان ابناء العراق هم اسياد على أرضهم ولا مكان فيه لغير ابنائه وابناء الأمة العربية . وسيقارع العراق الظلم في كل مكان بسيوف الأمام علي عليه السلام وسيدنا الحسين وخالد بن الوليد وصلاح الدين الايوبي وكل القادة المسلمين على أرض العروبة ورسالتها وسينتصر » ... لكنه بعد ذلك باسبوع قال أمام حشد جماهيري « ان العراق بحيرة من النفط وان ذلك هو السبب الذي يفسر حقد الولايات المتحدة واطماع الدول العظمى فيه » .

ونحن عندما نشير الى احتمال تكيف نظرة الرئيس صدام مع متغيرات عربية ودولية لمصلحة اعادة العلاقات فإننا نأخذ في الاعتبار بعض الحقائق والبدهيات ومنها :

أولاً ـ ان قمة بغداد ومن بعدها الاعلان القومي الذي طرحه الرئيس صدام يوم ٨ شباط ١٩٨٠ يشكلان ارضية مرنة لم تكن قائمة من قبل . وعلى هذه الارضية يمكن

ان ينمو مع الوقت اتجاه تعديل الموقف من الولايات المتحدة .

ثانياً - ان استمرار العلاقات الدبلوماسية مقطوعة مع الولايات المتحدة سيوصل في النهاية الى وضع اشبه برفض المملكة العربية السعودية الاعتراف بالاتحاد السوفياتي واقامة علاقات دبلوماسية معه .

ثالثاً - ان للرئيس صدام وجهة نظر وضع في ضوئها تصميمه وتخطيطه لقمة بغداد ثم للاعلان القومي . وخلاصة وجهة النظر هذه أنه لا بأس من « وجود فجوات صحو خلال الغيوم التي تكتنف مساحة العلاقة بيننا وبين بعض الدول اليمينية والرجعية ، الا ان ذلك ينبغي الا يلهينا عن الاحتراز والتحسب للمطر والثلوج والزوابع ... » .

ومع الاخذ في الاعتبار ان وجهة النظر هذه متعلقة بالدول العربية الا أنها في أي حال تعبر عن استعداد لاعتماد المرونة . والمرونة مسألة نسبية في أي حال . وكان من المحتمل ان يتسع مدى المرونة قليلاً بحيث تلمس العلاقات العراقية - الاميركية لولا ان الخط الأميركي وتدبير الأجهزة الأميركية كانا واردين بشكل أو آخر في المؤامرة التي رافقت تسلم صدام حسين المسؤولية الكاملة .

والى ذلك ان اعادة النظر من جانب الرئيس صدام في طبيعة العلاقات العراقية - الأميركية يمكن ان تصبح واردة في اعقاب فوز ما يحققه على الولايات المتحدة . ومثل هذا الفوز كان مقدرا له ان يحدث خلال انعقاد قمة بغداد وكان الجهد الذي بذله صدام حسين كبيرا في اتجاه خروج المؤتمر بقرارات ضد الولايات المتحدة ، لكن طبيعة التوجهات العربية والحرص على عدم افشال المؤتمر جعلاه يوقف السعي عند النتائج التي تحققت وهي ليست بسيطة في أي حال قياسا بنظرة الادارة الأميركية الى مصالحها وحلفائها .

والذي يعزز مواصلة العراق قطع العلاقات الدبلوماسية مع الولايات المتحدة طبيعة المعادلة غير التقليدية التي ينتهجها في هذا الاتجاه والناشئة عن قدرته على انتهاجها . فهو في الوقت الذي قطع العلاقات ويواصل قطعها لم يضع كل أوراقه في أيدي الاتحاد السوفياتي ، مفسحا المجال أمام بعض دول أوروبا التي بدأ بعضها منذ سنوات يعزز قدراته من أجل تلبية الاحتياجات العربية . وتتصدر فرنسا (التي قرر العراق تدريس لغتها ابتداء من العام ١٩٨١ في مدارسه بعدما كانت في السابق تُدرّس في الجامعة فقط) ثم ايطاليا والمانيا الغربية هذه الدول ، بل ان هنالك بعض أنواع السلاح الفرنسي المتقدم يتم تطويرها بحيث لا يعود لدى دولة مثل العراق يبدو تعاملها مع فرنسا في غاية الازدهار على هذا الصعيد ، هموم تسليحية . وهنالك احتمالات بأن تلبي فرنسا بالتعاون مع بعض الدول الأوروبية مجتمعة مع نهاية الثمانينات تطلعات العراق نحو تملك سلاح نووي .

وعلى رغم ان العلاقات الدبلوماسية قائمة بين العراق وبريطانيا الا أنها في مستوى لا يتناسب مع نظرة بريطانيا الى حجمها ودورها لكنه يتفق ونظرة الرئيس صدام الذي يرى أن العلاقات العراقية - البريطانية يمكن أن تنتقل الى وضع أفضل مما هي عليه عندما لا تعود بريطانيا « تابعة سياسياً لأميركا » وعندما لا يعود الأنكليز « يتصرفون تصرفات مرتبطة بالماضي ويتخذون مواقف تبعدهم عن تصور التطور الذي حصل في العراق منذ قيام ثورة ١٧ تموز ١٩٦٨ ويسقطون

ما زال عالقا في اذهانهم وهو أن العراق كان واحدا من الجواهر المهمة في التاج البريطاني » ٠

وبقدر ما أن هنالك صعوبة في عودة العلاقات طبيعية بين العراق والولايات المتحدة ، بالقدر نفسه هنالك مشقة تبذل من أجل أن تبقى العلاقات العراقية ـ السوفياتية تسير في الطريق الذي يتم بين الحين والآخر تعطيل بعض الالغام فيه ...

والذي يجعل التعامل العراقي ـ السوفياتي مستمراً بالصيغة القائمة هو أنه يتم في إطار أمرين بالغي الأهمية هما :

الأول ـ ان العلاقات بالصيغة المتقدمة بدأت بعد قيام ثورة ١٧ تموز ١٩٦٨ ومعنى ذلك أنها مع القيادة السوفياتية المستمرة حتى الآن وليس كما حدث مع عبد الناصر مثلاً عندما وجد نفسه يتعامل مع قيادتين : قيادة خروشوف ثم قيادة بريجينيف التي انقلبت على القيادة السابقة ٠ ولإنه كانت لكل قيادة مفاهيمها فإن ذلك جعل عبد الناصر يغير بدوره اسلوب التعامل ٠

والى ذلك ان صدام حسين وضع منذ البداية ملف العلاقات العراقية ـ السوفياتية على مكتبه وأدار بنفسه عملية العلاقات في منأى عن صراع الأجنحة الذي كان سائدا في ايام عبد الناصر ومن دون أن يكون هنالك جناح داخل الحكم يحظى بعطف السوفيات ويفضلون التعامل مع عبد الناصر من خلال هذا الجناح ٠

وحتى اليوم مازال صدام حسين هو الذي يدير شخصياً عملية العلاقات العراقية ـ السوفياتية ٠

الثاني ـ ان صدام حسين أبعد هذه العلاقات عن مفهوم الابتزاز السياسي والمساومات منذ البداية ، بمعنى أنه لم يوظف سوء العلاقات مع الولايات المتحدة للحصول على طلبات من الاتحاد السوفياتي ولم يذهب بعيداً في هذه العلاقات لكي يجعل الولايات المتحدة تعيد النظر في مواقفها من العراق ٠ وهنا تلعب القدرات الذاتية للبلد دوراً سياسياً .

ولكن السوفيات من جانبهم لم يكتفوا بهذا الحد من العلاقات وحاولوا التدخل في شكل أو آخر. وحولوا بعض دول اوروبا الشرقية الى مراكز للتحرك في سبيل وضع أفضل لهم داخل العراق . ولكن الرد على ذلك كان قاسياً ولا يلغي قساوته انه لم يعلن ٠

وعلى رغم ان العلاقات مقطوعة بين العراق والولايات المتحدة يقابل ذلك علاقات معقولة بين العراق والاتحاد السوفياتي ومعاهدة للصداقة والتعاون بينهما الا ان حالة التنبه العراقية للقوتين واحدة . ولا ينسى الرئيس صدام للسوفيات انهم حاولوا اختراق المؤسسة العسكرية التي يعتز بها كل الاعتزاز وساهموا في انشاء تنظيم عسكري للحزب الشيوعي العراقي داخلها ٠ وعندما تم الكشف عن هذا التنظيم وضربه ثارت ثائرة الاتحاد السوفياتي وكلف حلفاءه الخارجيين القيام بحملة رد عليها العراق بالعنف المماثل ٠

ولا يبدو السوفيات مقتنعين حتى الان بأن اعتماد المنهج الاستقلالي لا يعني بالضرورة اعتباره انحيازا للآخرين ٠ وازاء ذلك فان الرئيس صدام ارتأى ان يتعايش مع حالة عدم الاقتناع هذه على أمل ان يحدث مستقبلاً التفهم المطلوب

وعلى أمل ان يحذف السوفيات بند مساندتهم للحزب الشيوعي العراقي ولا يضعونه كملف من الملفات على طاولة العلاقة المشتركة .

وفي الوقت نفسه يرافق ذلك صدور كلام عن الرئيس صدام لا يوحي بأن العلاقة بينه وبين السوفيات على شيء من الحرارة .

وهنالك مناسبتان قيل فيهما الكلام المشار اليه . الأول خلال لقاء جماهيري في مدينة « بلد » على بعد خمسين كيلومتراً شمال بغداد . وفي هذا اللقاء الذي تم بعدما تسلم المسؤولية الكاملة روى أمام المواطنين الذين جاءوا للاستماع اليه انه خلال عام ١٩٦٩ كان الوضع المالي في غاية السوء وتم ايفاد أحد اعضاء مجلس قيادة الثورة الى دول الخليج لطلب قرض يمكن بواسطته تجاوز الوضع المالي الصعب وعاد الموفد بخمسة ملايين دولار .

ثم ربط هذه الواقعة بواقعة أخرى رواها على النحو التالي : « ... وفي شتاء ١٩٧٠ كان لدولة صديقة دين علينا وكنت مكلفا ان أطرح معها تأجيل الدين وذهبت الى هذه الدولة على رأس وفد ورجوتهم أن يؤجلوا استحقاق الدين وهو ١٧ مليون دينار من ١٩٧٠ الى ١٩٧١ ولكنهم رفضوا ، وعام ١٩٧٥ جاءني سفير تلك الدولة الصديقة وطلب سلعة عراقية قيمتها أكثر من ٢٠٠ مليون دينار تدفع مؤجلا فوافقنا وفاء منا للصداقة » .

والملاحظ ان الرئيس صدام حسين لم يسم هذه الدولة بالاسم ، والتي هي الاتحاد السوفياتي ، ربما تمسكا بلياقات وربما لأنه لا يريد استعداء سامعيه على الاتحاد السوفياتي ، ذلك أنه عندما يسمع مواطن من رئيسه أن دولة صديقة لم تقف معه في لحظة ضيق فإن مشاعر غير ودية تنشأ في نفسه تجاه هذه الدولة . والشعب العراقي أكثر حساسية من غيره ازاء الذين يرفضون نجدته لأنه عندما يكون مقتدراً يسارع الى نجدة الآخرين . وتلك بعض صفاته كشعب لاتزال بعض قيم البداوة متأصلة فيه . كذلك يلاحظ أنه استعمل كلمة « جاءني » الأمر الذي يؤكد ما أشرنا اليه من أنه يدير شخصيا منذ قيام الثورة عملية العلاقات مع الاتحاد السوفياتي ، كذلك العلاقات مع فرنسا وأوروبا وافريقيا .

أما المناسبة الثانية فكانت خلال خطاب القاه مساء الأحد ٦ كانون الثاني ١٩٨٠ من الاذاعة والتلفزيون لمناسبة الذكرى التاسعة والخمسين لتأسيس الجيش العراقي ، وفي هذا الخطاب وردت الفقرات الآتية : « ان التدخل الخارجي في افغانستان ظاهرة خطيرة لا يجوز تبريرها وايجاد الذرائع لها . انها تصرف خاطىء وغير مبرر ومن شأنه أن يثير القلق لدى كل الشعوب المحبة للحرية والاستقلال والتي تناضل من أجل تأكيد سيادتها وارادتها الحرة . وإننا اذ نؤكد هذه المبادىء التي نؤمن بها ايماناً عميقا وحازما نحذر في الوقت نفسه من استغلال التدخل الأجنبي في افغانستان لتبرير تدخلات اجنبية اخرى في هذا الجزء أو ذاك من بلدان المنطقة . اننا نقف بكل قوة ضد أي محاولة تستهدف جعل المنطقة ساحة للتنافس بين القوى الكبرى من أجل تحقيق اطماعها وتنفيذ مخططاتها الاستراتيجية على حساب استقلال وسيادة وأمن بلدان المنطقة » .

ومثلما أنه لم يذكر الاتحاد السوفياتي بالإسم في حديثه عن واقعة الديون فإنه ايضاً لم يسم الاتحاد السوفياتي وهو يتحدث عن دوره في افغانستان مكتفياً بالقول « ان التدخل الخارجي في افغانستان ... » ، لكن تصنيفه على أنه « تصرف

خاطىء وغير مبرر » من الأمور التي لا يتحملها القادة السوفيات .
والى ذلك ان مثل هذا الكلام يقوله الرئيس صدام في مناسبة ذكرى تأسيس الجيش الذي يعتمد في جزء كبير من تسليحه على السلاح السوفياتي يعني الكثير .
وإذا كان الرئيس صدام لا يذكر الاتحاد السوفياتي بالأسم عندما يشير الى وقائع يلقي الكشف عنها ظلالا على سمعة الاتحاد السوفياتي (واقعة الديون) أو يقول رأيه في مواقف وأدوار سوفياتية (التدخل في افغانستان) فإن ذلك ليس معناه ان وسائل الاعلام العراقية أو بعض قيادات الحزب لا تسمي الاشياء بأسمائها . فالوثيقة التي قدمها الحزب الى « المؤتمر القومي الشعبي العربي » سمى الأمور بأسمائها وكانت ادانته للدور السوفياتي في افغانستان من النوع الذي يصعب على السوفيات تقبله ، وصحيفة « الثورة » الناطقة باسم الحزب قالت في عددها الصادر يوم ٣ كانون الثاني ١٩٨٠ كلاماً حول مسألة اخرى يصعب على السوفيات أيضاً تقبله ، وما قالته الصحيفة هو : « من البديهي أن نقول ان الاتحاد السوفياتي غير قادر وغير مهيأ لأن يستجيب لكل مستلزمات التنمية للعرب ، حتى للقادرين على الدفع النقدي وبالعملة الصعبة منهم » .
وهذه حقيقة لكن السوفيات يرفضونها انطلاقاً من مفهومهم للتنمية وهو مفهوم يرى أن التنمية اذا سارت في الطريق الماركسي فان الاتحاد السوفياتي قادر على أن يلبي احتياجاتها . لكن تجربة الرئيس كاسترو في هذا المضمار لا تبدو مشجعة .
وفي بعض الفترات التي سبقت تسلم صدام حسين المسؤولية الكاملة حاول السوفيات إقلاق العلاقة مع العراق عن طريق استعمال بلغاريا مركزاً للإقلاق . وارتضت بلغاريا مرغمة على ذلك علما بأن أي توتر في العلاقات بينها وبين العراق يكبدها خسائر في قطاعي التجارة والسياحة ، وخصوصا السياحة حيث ان اقبال العراقيين على شواطئها وبالذات « فارنا » كبير ويعود عليها بدخل من العملة الصعبة تعول عليه .
وبقيت العلاقة على شيء من التوتر الى أن حدثت جريمة قتل في بلغاريا نفذها بعض الشيوعيين العراقيين ضد طالب بعثي . وحدث ذلك بعدما كان صدام حسين تسلم المسؤولية الكاملة ، ووجدها فرصة لكي يضع العلاقات العراقية ـ البلغارية في مسارها الهادىء والمعقول . وفي البداية رد على الحادث الذي جرى باجراءات دبلوماسية قاسية . وسارعت بلغاريا الى ايفاد نائب رئيس وزرائها ثم أوفدت وزير الخارجية وبعد ذلك النائب الأول لرئيس الدولة ، لكن الرئيس صدام لم يقرر إزالة الجفاء في العلاقات الا بعد أن قام رئيس الدولة تيودور جيفكوف بزيارة الى بغداد يوم ٢٨ أيار ١٩٨٠ انتهت بصدور بيان مشترك يستمد روحيته من مبادىء قمة بغداد والاعلان القومي الذي طرحه الرئيس صدام يوم ٨ شباط ١٩٨٠ ، وبوضع اسس لعلاقات لا تهتز الى درجة أن جيفكوف وصف هذه العلاقات بأنها « افضل العلاقات القائمة بين الدول العربية وبلغاريا » .
ولقد كانت مناسبة تسلم صدام حسين المسؤولية الكاملة مناسبة جيدة لكي يظهر فيها السوفيات ترحيبهم به ويوفدون أحد المسؤولين الكبار في الكرملين الى بغداد للتعبير عن هذا الترحيب لكنهم لم يفعلوا ذلك . ومن جانبه لم يجد الرئيس صدام ما يوجب ايفاد أحد كبار المسؤولين في العراق الى موسكو للتشاور في حين

أنه على سبيل المثال أوفد نائبه عزت ابراهيم الى براغ أواخر ايار ١٩٨٠ وكان قام أحد القياديين وهو طارق عزيز بزيارة الى يوغسلافيا . وقد استقبل المسؤولان في كل من براغ وبلغراد بالاهتمام الذي من شأنه أن يجعل العلاقات بين العراق وكل من تشيكوسلوفاكيا ويوغسلافيا تزدهر خصوصاً ان المسؤولين في البلدين سجلوا علنا ارتياحهم الى قيادة الرئيس صدام .

وعلى رغم هذه الأجواء في العلاقات العراقية ـ السوفياتية والتي بدأت تظهر فاترة أو أقل حرارة مما يفترض أن تكون منذ أن تم اكتشاف التنظيم الشيوعي في القوات العراقية المسلحة والتي ازدادت فتورا بعد الاعدامات التي شملت اعضاء التنظيم وقول صدام حسين (النائب) في مؤتمر صحفي يوم ١٨ تموز ١٩٧٨ وكانت الاعدامات قد تمت وكثر الكلام حول توتر في العلاقات العراقية ـ السوفياتية « نحن لسنا البلد الذي عندما يزعل من الاتحاد السوفياتي يصبح أميركياً أو عندما يزعل من الولايات المتحدة يصبح سوفياتياً . نحن عندما يحدث ذلك نبقى عراقيين فقط » ... على رغم هذه الأجواء وما استتبع ذلك في اعقاب اتخاذ الموقف المتميز من الدور العسكري السوفياتي في افغانستان فان الذكرى الثامنة لتوقيع معاهدة الصداقة والتعاون بين العراق والاتحاد السوفياتي لم تمر من دون الاحتفال بها . ومساء الأحد ١٣ نيسان ١٩٨٠ كانت قاعة البكر في الكلية الطبية تشهد احتفالا رمزيا تمثل العراق فيه بعضو القيادة القومية نعيم حداد وجعفر قاسم حمودي عضو القيادة القطرية للحزب وعزيز شريف (غير بعثي) السكرتير العام للمجلس الوطني للسلم والتضامن في الجمهورية العراقية . أما الكلمة التي القيت في المناسبة فالقاها عبد الفتاح محمد أمين عضو القيادة القطرية لحزب البعث . ومعنى ذلك ان الاحتفال بدا كما لو أنه بين الحزب في العراق والدولة في الاتحاد السوفياتي .

وفي اليوم التالي نشرت صحيفة « الثورة » الناطقة باسم حزب البعث نبأ الاحتفال في حيز متواضع من الصفحة الأولى ومن دون أي تعليق الا اذا جاز لنا الافتراض بأن التعليق كان في النبأ الآخر الذي نشرته الصحيفة بالحجم نفسه وفي صفحتها الاولى ، وكان النبأ حول زيارة رسمية قام بها في صباح الذكرى الثامنة للمعاهدة الى نائب رئيس مجلس قيادة الثورة عزت ابراهيم وزير التجارة الخارجية الصيني لي تشايغ وقول الرجل الثاني في العراق (أي عزت ابراهيم) للزائر الصيني الرسمي « ان العلاقات بين العراق والصين تسير بشكل ايجابي ومن المهم تعميقها لتشمل مجالات جديدة تخدم نضال الأمة العربية » .

وتحديد موعد استقبال المسؤول العراقي للزائر الصيني الرسمي بحيث يتم يوم ذكرى المعاهدة العراقية ـ السوفياتية لا يمكن وضعه في خانة « العفويات » .

وعلى رغم ان الاحتفال بذكرى توقيع المعاهدة يقام سنوياً إلا أنه يفترض ان يكون للذكرى الثامنة وهج خاص لأنها الاولى بعدما تسلم صدام حسين المسؤولية الكاملة ، لكن الوهج الذي نشير اليه لم يحدث . فلا قيادة الكرملين أوفدت على سبيل المثال مسؤولا كبيراً في هذه الذكرى واقتصر التمثيل على السفير السوفياتي الذي كان الرئيس صدام حتى حلول الذكرى الثامنة وبعد حوالى تسعة أشهر من تسلمه المسؤولية الكاملة لم يستقبله ويشعره بأنه سفير متميز . ولا الرئيس صدام ارسل الى المحتفلين باقة ورد باسمه ، علما بأنه لا ينسى مناسبات التأسيس حتى

اذا كانت مناسبة صدور مجلة أو صحيفة .

وفي الوقت الذي كانت الترتيبات تعد في بغداد للاحتفال بالذكرى الثامنة للمعاهدة كان عبد الرحمن احمد الدوري الذي وقع عليه اختيار الرئيس صدام ليكون سفيرا للعراق في موسكو يستعد لتقديم أوراق اعتماده بعدما كانت السفارة تدار من دون سفير لمدة تسعة أشهر نتيجة شمول السفير السابق مرتضى سعيد عبد الباقي بالاحكام التي صدرت على المجموعة المتآمرة . وبدا ان الاختيار كان مدروسا حيث ان عبد الرحمن أحمد حزبي عريق وعسكري سابق .

ويوم ٢٨ نيسان ١٩٨٠ قدم السفير الجديد أوراقه الى فاسيلي كوزنتسوف النائب الأول لرئيس هيئة رئاسة مجلس السوفيات الاعلى مبلغا اياه تحيات الرئيس صدام حسين الى بريجنيف مشيراً الى « تطور علاقات الصداقة القائمة بين البلدين والتي ارست دعائمها معاهدة الصداقة والتعاون الثنائية التي تقوم على اسس المصالح والمنفعة المتبادلة والتكافؤ واحترام الاستقلال والسيادة وعدم التدخل في الشؤون الداخلية » .

وواضح ان السفير وهو يقر بوجود المعاهدة تعمد تذكير السوفيات بما تنص عليه المادة الاولى من المعاهدة بما يتعلق بـ « احترام الاستقلال والسيادة وعدم التدخل في الشؤون الداخلية » .

لكن كوزنتسوف تجاوز في رده هذه المسألة وتحدث عن علاقات الصداقة وكيف « ان الاتحاد السوفياتي يولي أهمية كبيرة لتطور العلاقات الشاملة والمثمرة مع العراق في مختلف المجالات وانه سيواصل نهج تطوير العلاقات الطيبة مع العراق » .
ويبقى ان حالة التوتر التي تسود العلاقات العراقية ـ الايرانية ، وكون العراق اقرب قطر عربي جغرافيا الى الاتحاد السوفياتي ، واستنادا الى العلاقة الجيدة التي للاتحاد السوفياتي بالأكراد من جهة ولقوة الشيوعيين في العراق من جهة أخرى وتأثير الاتحاد السوفياتي عليهم ... ان هذه الأمور مجتمعة تشكل حيثيات لعلاقة يفترض أن تكون في منتهى الجودة بين العراق والاتحاد السوفياتي . ولكن العلاقة ليست كذلك تماماً . وهي لن تكون كذلك ما دام الاتحاد السوفياتي في لحظات تغلب مشاعر القوة الكبرى عليه لا يتحمل لفت نظر لسياساته من جانب الاصدقاء الذين يتعاونون معه ، ومادام لا يتحمل سياسة متوازنة مفضلاً عليها اسلوب تعامله مع دول أوروبا الشرقية ، ومادام لا يؤمن بحق الآخرين (تجربة صدام حسين مثلاً في العراق) في ان يحققوا امانيهم في بناء قوة عربية قومية تمارس دورها باتزان بعيداً عن صراعات القوى الكبرى .

وقد يكون مفهوما أن يشعر الاتحاد السوفياتي بأن السياسة المتوازنة التي يعتمدها الرئيس صدام لا تبدو متوافقة مع التطلعات السوفياتية ومن أجل ذلك يبدي عدم ارتياحه لها ، لكن المحزن ان ينعكس ذلك الشعور على فصيل من فصائل الثورة الفلسطينية ونعني به « الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين » التي سجلت اعتراضات بنبرة قوية وغير مألوفة لأن العراق لا يميز بالأجنبي بين الاتحاد السوفياتي (الصديق) والولايات المتحدة (العدوة) وانه وقف ضد التدخل

السوفياتي في افغانستان في حين أن المفترض - من وجهة نظر الجبهة - تأييد هذا التدخل .

وهذه الاعتراضات ومنها قول الأمين العام للجبهة الدكتور جورج حبش خلال انعقاد قمة الصمود والتصدي في طرابلس منتصف نيسان ١٩٨٠ « ان الجبهة الشعبية لم تعد قادرة على الالتقاء مع الخط السياسي العراقي الراهن » وكان بذلك يسجل اعتراضه على الاعلان القومي الذي طرحه الرئيس صدام يوم ٨ شباط ١٩٨٠ ... هذه الاعتراضات ادت الى وقف التعامل بين العراق والجبهة بعد فترة طويلة من التعامل المتميز كانت فيه « الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين » هي الفصيل الأكثر رعاية من العراق على رغم توجهها الماركسي . وقبل ان تسجل الجبهة اعتراضاتها المشار اليها والتي اعتبرها العراق اعلاناً قطيعة كانت العلاقات بينها وبين سوريا سجلت مرحلة متقدمة من الازدهار في الوقت الذي كان الحذر هو القاسم المشترك في العلاقات العراقية - السورية .

وصادف أنه في الوقت الذي واصلت الجبهة الشعبية بعد اغلاق مكتبها في بغداد اعتراضاتها على المناخ الذي اشاعه الاعلان القومي ، كان الرئيس الشاذلي بن جديد أحد اقطاب جبهة الصمود والتصدي يقول للسفير العراقي لدى استقباله له يوم ٢٤ نيسان ١٩٨٠ لمناسبة انتهاء عمله في الجزائر - وتذيع الوكالات ذلك - كلاما خلاصته « ان للاعلان القومي الذي طرحه الرئيس صدام حسين دوراً في جمع وحدة العرب وعدم السماح للاجنبي بالتدخل في ما بينهم » .

وعندما اتخذت الجبهة الشعبية هذا الموقف كانت مطمئنة الى عمقها اليمني الجنوبي بل أنه ربما كان لهذا العمق من خلال قيادة عبد الفتاح اسماعيل بالذات وما يمثله بالنسبة الى الاتحاد السوفياتي ، اثر في هذا التحول من جانب الجبهة عن التوجهات العراقية . ولكن الذي حدث ان عبد الفتاح اسماعيل سقط فجأة وتسلم القيادة بدلا منه (وفي الوقت الذي كانت السلطات العراقية اغلقت تماماً مكتب الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين) علي ناصر محمد .

هنا لا بد من وقفة . فالرئيس صدام لم ينتظر على سبيل المثال أن يصله مبعوث من اليمن الجنوبي يشرح له لماذا « استقال » عبد الفتاح اسماعيل يوم ٢١ نيسان ١٩٨٠ وتعاملت وسائل الاعلام العراقية مع النبأ تعاملاً عادياً على رغم حدة العلاقات التي كانت سائدة بين العراق ويمن عبد الفتاح اسماعيل . وفي اليوم التالي بادر الرئيس صدام حسين وارسل الى علي ناصر محمد الذي تسلم منصب الأمين العام للجنة المركزية للحزب الاشتراكي ورئاسة هيئة مجلس الشعب الاعلى برقية تهنئة لا يمكن اعتبارها ذات طابع بروتوكولي . وفي البرقية قال الرئيس صدام « باسم شعب وحكومة الجمهورية العراقية وباسمنا شخصياً نعرب لكم عن تهانينا وتبريكاتنا متمنين لكم التوفيق من أجل تقدم ورفاه اليمن الديمقراطية الشعبية الشقيقة مع أطيب تحياتنا وتمنياتنا لكم بوافر الصحة والسعادة وللشعب العربي في اليمن الديمقراطية الشقيق العز والسؤدد » .

ولقد أوحت هذه البرقية بأن العراق مرتاح لإبعاد عبد الفتاح اسماعيل الذي جعل روابط بلاده بالاتحاد السوفياتي أقوى من روابطها بالعالم العربي والذي كان دائم الاندفاع من أجل ابقاء العلاقات العراقية - اليمنية متأزمة ، ومرتاح لقيادة علي ناصر محمد الذي لم يسجل في الماضي مواقف ضد العراق . وتشاء الصدف انه

قبل ايام من التغيير الذي قضى بابعاد عبد الفتاح اسماعيل كان اقطاب المعارضة اليمنية الجنوبية بدأوا حوارا مع القيادة العراقية استهدف مساندتها لنشاطهم السياسي ضد نظام الحكم في عدن . وقد امضى هؤلاء بضعة أيام في بغداد وفي زيارة معلنة . كما أن الرئيس صدام استقبلهم ونشرت الصحف صورة المقابلة وكان ذلك مظهرا من مظاهر استهجان العراق لقيادة عبد الفتاح اسماعيل . وتشاء الصدف ايضا انه في اليوم الذي كانت السلطات العراقية تقفل مكتب الجبهة الشعبية في بغداد (٢٤ نيسان ١٩٨٠) كان علي ناصر محمد يرد على برقية الرئيس صدام « متمنيا لشخصكم الصحة والسعادة وللشعب العراقي الشقيق كل التقدم والازدهار ولامتنا العربية النصر في نضالها ضد الامبريالية والصهيونية وعملائها » .

عدا القطيعة التي حدثت بين العراق والجبهة الشعبية ، فان العلاقات العراقية ـ الفلسطينية تبدو على جانب كبير من الجودة ، وإن كانت هنالك ملامح تتكون معالمها في الأفق وتشير الى ان الرئيس صدام حسين ميال الى تعديل اسلوب تعامل العراق مع التنظيمات الفلسطينية بحيث يكون هنالك تركيز على الشرعية الفلسطينية متمثلة بمنظمة التحرير ، وعلى جبهة التحرير العربية باعتبار ان حزب البعث هو القوة الأساسية في الجبهة وذلك انطلاقاً من تجربته . وتتصف العلاقات بين الرئيس صدام والسيد ياسر عرفات رئيس المنظمة بالود والدفء بعد ان تميزت في الماضي بالجفاء وعدم الثقة .

وبالنسبة الى المنظمة فإن حصة العراق من الدعم العربي لها والذي تقرر في قمة بغداد تحول بانتظام ومن دون أن يتكلف المسؤولون الماليون في المنظمة الاستنجاد برئيس المنظمة ياسر عرفات لكي يتصل بالرئيس صدام حسين من أجل أن يكون هنالك اسراع في التحويل . أما الاحتياجات العسكرية الطارئة فهذه لا تأخذ الوقت الطويل من المناقشة ولكن تلبيتها تتم وفق وضوح في الاستراتيجية العسكرية الفلسطينية .

ويوم ٢١ أيار ١٩٨٠ فاجأ الرئيس صدام حسين الفلسطينيين المقيمين في العراق بقرار صادر عن مجلس قيادة الثورة يخصص للفلسطيني المعين في إحدى دوائر الدولة أو القطاع الاشتراكي أو المختلط مائة دينار كحد أعلى شهرياً كمخصصات سكن . وقرر المجلس أيضاً منح الفلسطيني من غير حملة الشهادة الجامعية مخصصات لا تقل عن عشرين ديناراً ولا تزيد عن أربعين ديناراً شهرياً .

وقد جاء هذا القرار بعد قرارات كثيرة لمصلحة المواطن العراقي على الصعيد الاجتماعي وقبل قرارات كثيرة في الاتجاه نفسه ستصدر . ويبدو ان الرئيس صدام أخذ في الاعتبار مشاعر قد تنشأ عند الفلسطينيين العاملين في العراق عندما يرون ان المكاسب كلها لمصلحة المواطن العراقي فقط . ومن هنا جاء قراره الذي اشرنا اليه .

وفي كل خطاب يلقيه أو حديث يدلي به أو مؤتمر يدعو الى عقده أو يشارك فيه تكون القضية الفلسطينية محور كلام الرئيس صدام وتحركه . وهو ذهب أبعد من مؤسس البعث ميشال عفلق الذي قال لرئيس جمهورية موزمبيق سامورا ميشيل عندما استقبله في مكتبه في القيادة القومية ببغداد يوم ١٢ كانون الأول ١٩٧٩ « ان القضية الفلسطينية هي قضية العصر وقضية الثورة وهي معيار الثورية

في حزبنا » ... لقد ذهب الرئيس صدام أبعد من ذلك عندما قال أمام المؤتمر التاسع للاتحاد العام لنساء العراق يوم ١٢ آذار ١٩٨٠ « ان كل حجرة توضع في البناء على أرض العراق وكل عراقي يتدرب على السلاح وكل عالم يسعى للحصول على العلم لبناء قاعدة راسخة متينة وقوية ... فان الهدف المركزي أمامه وفي عقله وفي ضميره وفي منهجه هو تحرير فلسطين . إنه إذا تحررت فلسطين يتحرر الانسان العربي في كل مكان » .

وقبل ذلك واثناء انعقاد قمة بغداد بدا كثيرون متخوفين من انفجار الموقف العراقي - الفلسطيني لكثرة الأسباب الموجبة ومنها المطاردات وأعمال العنف المتبادلة التي حدثت في عواصم عربية ودولية . ولكن صدام حسين رفض حتى أن يفتح هذا الملف وبدا الجانبان العراقي والفلسطيني متكاتفين متضامنين داخل المؤتمر لإنجاحه بينما الأطراف التي انتظرت لحظة الانفجار وشجعت في شكل أو آخر عليها تتابع مستغربة هذا الود المستعاد .

كذلك فانه في كل خطاب يلقيه أو حديث يدلي به أو مؤتمر يدعو الى عقده أو يشارك فيه نلاحظ تركيزه على واجبه العربي . وتراوح عباراته التي ترد في هذه المناسبات بين القول « ان ثورة ١٧ تموز ليست للعراقيين وحدهم وإنما هي للعرب » وبين عبارته الشهيرة « مستعدون في العراق أن نضع رقابنا تحت أقدام العرب لكن لسنا مستعدين أن نسمح لواحد من أصابع اقدامنا أن يكون تحت اقدام الأجنبي » .

وهو لا يكتفي بالجانب المعنوي وإنما يضيف « يجب أن تكون مبادؤنا للعرب ومجهوداتنا ودماؤنا وثرواتنا للعرب جميعاً وللانسانية حيثما احتاجتنا في كل مكان في الأرض » .

بعد قمة بغداد احدى تصميمات صدام حسين التي أوقفت انهياراً كان على أهبة الحدوث صار يقال : العالم العربي قبل قمة بغداد والعالم العربي بعد قمة بغداد بمعنى ان هذه القمة شكلت فاصلاً زمنياً أساسياً بين مرحلتين .

ويبدو ان الرئيس صدام في ضوء هذه التجربة الناجحة من أجل لمّ الشمل العربي بكل تناقضاته حول موقف متناسق نسبياً ، وضع التصميم المتعلق بقمة عدم الانحياز التي ستنعقد في بغداد عام ١٩٨٢ بحيث يكون لعالم عدم الانحياز فاصل زمني مماثل وبحيث يقال عالم عدم الانحياز قبل قمة ١٩٨٢ وعالم عدم الانحياز بعد هذه القمة .

وفي مرحلة التصميم اثبت العراق التزامه بما اقترحه الرئيس صدام سياسياً واقتصادياً خلال انعقاد قمة هافانا . وإستناداً الى كلام ورد في صحيفة « الثورة » يوم ٢٢ ايار ١٩٨٠ فان العراق دفع خلال النصف الثاني من عام ١٩٧٩ مبلغ ربع مليار دولار كفروقات أسعار لمشتريات الدول النامية من النفط وقدم مئات الملايين من الدولارات كمساعدات لدول آسيوية وأفريقية وأميركية لاتينية اضافة لما سيترتب عليه من التزامات بمبالغ مماثلة لمساعدة الدول النامية خلال العام ١٩٨٠ . وقد اعتبرت الصحيفة تنفيذ هذه الالتزامات بإنها « اعباء يتحملها العراق » .

وإستناداً الى زيارات قام بها عدد من قادة دول عدم الانحياز الى العراق وزيارات لاحقة سيقوم بها آخرون ، وإلى المناقشات والحوارات التي تتم خلال هذه

الزيارات وعلى هامشها يمكن توقع النجاح لقمة عدم الانحياز بالتقاليد التي يراها الرئيس صدام .

وأهمية النجاح هنا لا تنحصر فقط في مجرد مد شرايين عالم عدم الانحياز ببعض الدم الذي يقويه ويجعله قادراً على الوقوف والصمود ، وإنما في أن ذلك سيعني وللمرة الأولى ولادة « المحاور الدولي » إذا جاز التصنيف ، وهو الدور الذي مارسه الماريشال تيتو لكنه تعثر لأنه كان مستنداً فقط الى الهالة التاريخية والشجاعة في التمرد على الاتحاد السوفياتي ، بينما صدام حسين مستند الى اساسيات من بينها انه في الموقع الاستراتيجي الأكثر حساسية وانه في ساحة المنطقة النفطية التي تتحرك من أجلها الاساطيل وحاملات الطائرات ، وأنه في الوضع الاقتصادي القوي وفي التوجه الاستقلالي البعيد عن ظواهر التمرد . فضلاً عن أنه صاحب رؤية واضحة لمسألة الطاقة التي يدور الصراع الدولي منذ بداية السبعينات في شأنها عبر عنها في المشروع الذي طرحه في قمة هافانا ونفذ ما يخص العراق من التزامات فيه ، والذي في حال موافقة قمة ١٩٨٢ على هذا المشروع سيصبح صدام حسين « المحاور الدولي » الذي نشير اليه إلا اذا التقت القوى الكبرى على إجهاض هذه المحاولة سلفاً .

وفي ذلك المشروع طالب صدام حسين بأن تبحث قضية الطاقة في إطار حوار الشمال والجنوب وفي إطار الأمم المتحدة وبصورة شمولية باعتبارها واحدة من القضايا الاقتصادية الكبيرة « وليست القضية الوحيدة » .

وفي ذلك المشروع أيضاً أوضح « ان مسألة الطاقة لا ينبغي أن ينظر اليها نظرة أحادية بقدر صلتها بالدول المصدرة وإنما ينبغي النظر اليها على أساس ما يتوجب أن تتحمله الدول الصناعية المستهلكة من تنظيم استهلاكها وتنويع مصادر الطاقة لتلبية احتياجاتها ، وأن تكون احتياجاتها محسوبة على أساس نظرة شمولية لحاجة الانسانية وليس على أساس تمتع الدول الصناعية بما ترغب به بغض النظر عن حاجة العالم الى الطاقة وما يلحق به من اضرار من الاستهلاك غير المنظم » .

وعندما طرح صدام حسين هذا المشروع واقترح في سياق الطرح فكرة انشاء الصندوق العالمي الطويل الأمد لمساعدة الأقطار النامية ضد آثار التضخم لم تكن فكرته الأخرى المتعلقة بتحريم استخدام الجيوش في فض المنازعات بين الدول قد طرحت بعد . ثم حدث بعد طرحها التفاف متزايد من جانب دول عدم الانحياز علماً بأن الفكرة وضعت في الأصل ضمن ميثاق متكامل لتنظيم العلاقات بين الدول العربية .

وهذا الالتفاف الذي نشير اليه بقدر ما إنه يبدو عنصر دعم للدور العراقي في القمة المقبلة لعدم الانحياز ، بالقدر نفسه يبدو موجباً من موجبات التحريض بالنسبة الى القوى الكبرى لاجهاض هذا الدور عملاً بالقاسم المشترك الذي يجمع هذه القوى وهو عدم خروج العراق أبعد من حدوده وعدم السماح له بممارسة دور خارج هذه الحدود . ولقد سبق أن أشرنا الى ذلك والى ان الرئيس صدام متنبه للأمر وينتظر الفرصة المناسبة التي تتيح له التسلل وتحقيق ما يريده .

والمسألة لا تخلو من الخطورة . والمسألة حذرة . ومن هنا فإن كل انجاز يسبق انعقاد قمة عدم الانحياز عام ١٩٨٢ يحمل في طياته أمرين معاً : أمر تألق صدام

حسين وأمر تزايد حجم المخاطر من جانب القوى الكبرى على طموحه في أن يصبح بعد تلك القمة ذلك المحاور الدولي ·

الفصل الرابع

التعايش الصعب ... وحتمية الحرب

" .. و العرب اليوم ، و ان كانوا قليلا ، فهم كثيرون بالاسلام ، عزيزون بالاجتماع . فكن قطبا و استدر الرحا بالعرب ، و اصلهم دونك نار فانك ان شخصت من هذه الارض انتقضت عليك العرب من اطرافها و اقطارها ، حتى يكون ما ندع وراءك من العورات اهم اليك مما بين يديك .

ان الاعاجم ان ينظروا اليك غدا يقولوا : هذا اصل العرب فاذا اقتطعتموه استرحتم ، فيكون ذلك اشد لكلبهم عليك و طمعهم فيك . فأما ما ذكرت من مسير القوم الى قتال المسلمين فان الله سبحانه هو اكره لمسيرهم منك ، هو أقدر على تغيير ما يكره . و أما ما ذكرت من عددهم ، فانا لم نكن نقاتل فيما مضى بالكثرة و انما كنا نقاتل بالنصر و المعونة " .

(الامام علي بن ابي طالب عليه السلام
و قد استشاره عمر بن الخطاب رضي الله عنه
في الشخوص لقتال الفرس بنفسه)

فجأة وجد الذين أصيبوا من جراء حادثة القنبلة التي القيت على الجامعة المستنصرية في بغداد ثم على الجنازة التي جرت بعد ذلك لتشييع ضحايا الحادثة الأولى ، انفسهم ينتقلون الى بيوت لا قدرة لهم في الظروف العادية على استملاكها وتأثيثها ، فهي بيوت فخمة وفي مواقع جيدة . وهؤلاء كانوا قبل ذلك يسكنون في منازل متواضعة وجاءت إصاباتهم بشظايا القنبلتين تشكل موجباً لهذه المكافأة .

وهذه البيوت الفخمة هي لبعض الايرانيين الذين كانوا يعيشون في العراق لسنوات طويلة ويتعاطون في معظمهم اعمال التجارة والذين تم إبعادهم في أعقاب الحادثتين اللتين نشير اليهما .

كيف وقعت الحادثتان ؟

قبل ظهر يوم الثلاثاء الأول من نيسان ١٩٨٠ كانت الجامعة المستنصرية التي تقع على مشارف العاصمة تغص بألوف الجامعيين والمسؤولين ، وبين هؤلاء ضيوف عرب وأجانب أتوا للمشاركة في « الندوة الاقتصادية العالمية » التي ينظمها الاتحاد الوطني لطلبة العراق بالتعاون مع رابطة الطلبة الاسيويين والتي سيفتتحها عضو مجلس قيادة الثورة ونائب رئيس الوزراء طارق عزيز .

وفي الوقت الذي كان المسؤول العراقي يصل الى مدخل الجامعة ويتبادل التحية مع بعض الذين كانوا في استقباله من قيادات الاتحاد الوطني لطلبة العراق إذا بقنبلة ترمى على طارق عزيز ما لبث رئيس الاتحاد بعدما شاهدها أن صرخ بانها قنبلة . واندفع طارق عزيز ومن حوله بعيداً ، وانبطح أرضاً في اللحظة التي انفجرت فيها القنبلة . ولو ان الرجل لم يبتعد ومارس ما تعلمه في فترة التدريب العسكري الذي يخضع له الحزبيون في العراق ، لكان أصابه ما أصاب مرافقه الخاص الذي قلعت القنبلة إحدى عينيه وما أصاب آخرين . واقتصرت اصابة طارق عزيز

على كسر في ذراعه اليسرى وعلى شظايا صغيرة اخترقت ثيابه .

وفي الوقت الذي تم إحضار نسخة أخرى من الخطاب المعد لافتتاح الندوة من مكتب طارق عزيز ليلقيه عضو مجلس قيادة الثورة حكمت ابراهيم كانت سيارات الاسعاف بدأت نقل عشرات المصابين الى المستشفى ، وكان رجال الأمن في لحظة غضب أجهزوا على الشاب الذي رمى بالقنبلة ثم اتبعها بقنبلة أخرى اصابت كثيرين . ثم تبين لهم وهم يتفحصون اوراقه الثبوتية ان اسمه سمير مير غلام وانه ايراني الاصل عراقي بالتجنس .

كان الرئيس صدام خارج بغداد عندما وقعت الحادثة . ومن المفارقات الغريبة انه كان في قضاء « الصويرة » الذي هو جزء من محافظة « واسط » . وهذا القضاء قريب من الحدود مع ايران ، وفي استطاعة الذي يتوجه الى « الصويرة » أن يرى بالعين المجردة قمم الجبال الايرانية . ويسكن في هذا القضاء عدد من الايرانيين المتجنسين ، وهو في الوقت نفسه منطقة ينشط فيها الشيوعيون .

من المفارقات الغريبة أيضاً أنه في الوقت ، بل في اللحظات نفسها التى ألقى فيها الشاب الايراني القنبلة على الحشد الجماهيري في الجامعة المستنصرية ، كان الرئيس صدام يلقي في جماهير « الصويرة » خطاباً إمتزجت فيه اللهجة الانذارية بحسن النية . وفي هذا الخطاب وردت الفقرات الآتية : « نقول للدول الكبرى التي تريد أن تعادي شعب العراق ونقول للدول المتوسطة أو الأصغر منها التي تريد أن تعادي شعب العراق ... نقول لهم باسمكم جميعاً إن شعب العراق لا يريد ان يعادي أي دولة الا إذا هي اشتهت معاداته والا إذا توهمت انه بإمكانها أن تنتهك سيادة بلدنا أو بإمكانها أن تذل أمتنا أو بإمكانها أن تنال من سيادة وشرف أمتنا أو من سيادة وشرف العراق . عند ذلك فللأمر حساب آخر . نحن بالأساس لا نرغب في معاداة أي دولة من دول العالم ولكن الذي يريد أن يعادينا أهلا وسهلاً به . إننا نقول لكل من يريد أن يعادي العراق والأمة العربية إننا سنكون أسنة على رؤوس الرماح باستمرار لمقاتلة المعتدي وسنكون شوكة في عيون المعتدين وسوف لن نلين في خدمة المبادىء... » .

وهذه اللهجة في الخطاب أوحت بأن زيارة الرئيس صدام الى « الصويرة » لا تبدو عفوية ولا تندرج فقط في إطار الجولات المتواصلة على المناطق والأحياء ، وانما استهدفت قول الكلام الذي قاله من أقرب المناطق المجاورة لإيران وفي المنطقة نفسها التي يتكاثر فيها الإيرانيون المتجنسون والتي تراهن إيران عليهم .

سارت الأمور بشكل طبيعي في الجامعة المستنصرية حيث أن افتتاح « الندوة الاقتصادية العالمية » قد تم . واذيع نبأ عن حادثة القنبلة بثته الاذاعة . وبعدما عاد الرئيس صدام من « الصويرة » وكان توجه الى هناك في الصباح الباكر ، طلب من مساعديه إرسال باقة ورد باسمه الى كل شخص أصيب في حادث القنبلة ثم توجه الى المستشفى وتفقد بنفسه المصابين . وصباح اليوم التالي (الاربعاء ٢ نيسان ١٩٨٠) توجه الى الجامعة المستنصرية ووقف في الباحة التي انفجرت فيها القنبلة . وكانت السماء تمطر فجيء له بشمسية حملها أحد المرافقين . وأمام ألوف

الطلاب الذين تجمعوا ألقى خطاباً بدا من نبرته ومن بعض كلماته انه خطاب التعهد بأخذ الثأر . وفي هذا الخطاب قال : « يوم أمس سالت قطرات من الدماء عزيزة من شابات وشباب المستنصرية تسبب بها عميل صغير اسمه سمير مير غلام . وهذا الغلام كان يتصور هو وأسياده ان بامكانهم أن يفعلوا شيئاً مهماً وكبيراً . لكننا نقول لهم ولكل الاجانب من أذناب الاستعمار الذين يعتقدون انه ممكن أن ينشوا من ثورتكم شيئاً فليحاولوا ، لإن الشعب العراقي أصبح جبلاً عالياً غير قادرين على أن يهزوه بقنابلهم أو محاولاتهم الأخرى ... » . وفي الخطاب اطلق القسم الشهير : « والله . والله . والله . إن الدماء الطاهرة التي سالت في الجامعة المستنصرية لن تذهب سدى ... » .

وفي الوقت الذي بدأ العراقيون يكثرون من التفسيرات لمضمون القسم الذي أطلقه الرئيس ، حدث التحدي الآخر بعد ثلاثة أيام (السبت ٥ نيسان ١٩٨٠) وخلال تشييع جنازة ضحايا حادثة الجامعة المستنصرية . ذلك انه بينما كان موكب الجنازة يمر أمام منطقة تقع فيها مدرسة ايرانية رميت قنبلة من المدرسة على الموكب فسقط عدد من القتلى والجرحى .

كان التحدي كبيراً جداً بالنسبة الى الرئيس صدام . وكان عليه في الدرجة الأولى إزالة الآثار النفسية التي أحدثتها القنبلتان في نفوس الناس وهي أن العاصمة مخترقة وأن القنبلتين ، قنبلة الجامعة المستنصرية وقنبلة الجنازة القيتا في وضح النهار ولم توضعا خلسة ليلاً لكي تنفجرا ولا يعرف من الذي وضعهما .

وكان التحدي كبيراً جداً لإن قنبلة الجامعة المستنصرية استهدفت طارق عزيز عضو مجلس قيادة الثورة من جهة والمسيحي من جهة أخرى .

واستطاع الرئيس صدام في مبادرة سريعة أن يزيل آثار القنبلتين . فهو بعدما زار الجامعة المستنصرية وخطب في الحشد الكبير فيها مردداً القسم الشهير « والله . والله . والله . ان الدماءَ الطاهرة التي سالت في الجامعة المستنصرية لن تذهب سدى » ، وبعدما كان زار جرحى القنبلة الأولى قام بزيارة المصابين في قنبلة الجنازة . وتحدث مع كل المصابين فرداً فرداً . ولم يتوقع أن تكون معنويات هؤلاء الذين كادوا يفقدون حياتهم عالية بالشكل الذي ظهر خلال الزيارة التفقدية . فقد سمع من كثيرين عبارة « نموت ويحيا صدام » وسمع من فتيات كثيرات أنهن لمجرد تماثلهن للشفاء سيعاودن النضال تحت قيادته . ووجد في بعض المصابين من الشباب العرب وبينهم شاب فلسطيني ما أثلج صدره . وطلب أن يبث التلفزيون العراقي شريطاً عن هذه الزيارة لمجرد ان رآه العراقيون التهبوا حماسة . وعندما لاحظ الرئيس صدام أن هنالك مشاهد لم يعرضها التلفزيون من زيارته التفقدية للجرحى وقيل له إن المسؤول المختص ارتأى عدم عرضها أصر على إعادة عرض الشريط بما فيه تلك المشاهد التي اقتطعها المسؤول المختص لإن الرئيس صدام ركع أمام احدى المصابات التي وضعوا لها فراشاً على الأرض لتعذر وجود سرير بسبب كثرة عدد المصابين . وهذه المصابة ولولت عندما شاهدت الرئيس وهدأت عندما ركع على ركبتيه أمامها وتحدث معها .

وإذا كان هذا الشريط التلفزيوني ألهب العراقيين حماسة فان رد فعله العربي

كان مهماً أيضاً ، ذلك ان المواطنبن في بعض الدول العربية التي عرضت لقطات من الشريط لاحظوا هذه القدرة في الرئيس صدام على تحويل حادثة مأساوية الى مناسبة حماسية عبأ فيها شعبه وجعله مستعداً لأي شيء ٠

ولقد صادف ان كانت بين المصابين طفلة في الثامنة من عمرها لاحظ متابعو الشريط التلفزيوني من خلال حديث الرئيس صدام معها أن الرئيس وصل الى المستشفى وتفقدها قبل أن يصل والداها ٠ وكان حديث الرئيس مع الطفلة مؤثراً الى درجة أن دموعها أبكت العراقيين ٠ أما كلامها حول أن بقع الدم غطت فستانها الجديد فكاد يبكي الرئيس صدام نفسه الذي قال لمساعديه أن يأتوا للطفلة بفستان جديد ٠ وفي اليوم التالي كان ألوف الأطفال يتمنون لو انهم كانوا في الجنازة ويزورهم الرئيس كما زار هذه الطفلة التي استقبلت بعد ذلك في القصر الجمهوري كبطلة ٠

وفي الوقت نفسه كانت هنالك اجراءات اتخذت على الفور لسفر من يتطلب علاجه السفر الى الخارج من بين المصابين ٠

بعد إزالة الآثار النفسية للقنبلتين وشحن نفوس العراقيين بحماسة لا مثيل لها بدأت اجراءات أهل الأمن تتخذ ومنها ترحيل أكثر من ثلاثين ألف ايراني يقيمون في العراق وجاءت حادثتا القنبلتين ومن قبلهما النشاط المتزايد لحزب الدعوة سبباً لفتح ملف التجنس ٠

وفي الوقت نفسه كان الرئيس صدام حريصاً على ألا تقلل حادثة قنبلة الجامعة المستنصرية وحادثة قنبلة الجنازة من وهج الذكرى الثالثة والثلاثين لتأسيس حزب البعث ٠ فهي الذكرى الأولى بعد تسلمه المسؤولية الكاملة ٠ ولكن الذين تابعوا على شاشة التلفزيون لقاءه في مبنى القيادة القومية لحرب البعث باعضاء القيادة (يوم ٧ نيسان ١٩٨٠) لاحظوا أنه ليس منشرحاً بالشكل الذي تفرضه أجواء المناسبة ، وبدا كما لو أنه في حالة تركيز على أمر ما ٠ ثم جاء قوله في مجلس الوزراء الذي ترأسه في اليوم التالي (الثلاثاء ٨ نيسان ١٩٨٠) ما يوضح بعض الشيء حالة التركيز ، ومما جعل عدداً كبيراً من السفارات العربية والأجنبية في بغداد تبعث بتقارير الى حكوماتها تربط بين الذي قاله الرئيس صدام في جلسة مجلس الوزراء وبين الخطوة الدبلوماسية التي أعقبت الحادثتين وتمثلت برسالة بعث بها وزير خارجية العراق الدكتور سعدون حمادي الى الأمين العام للأمم المتحدة الدكتور كورت فالدهايم يثير فيها موضوع الجزر العربية الثلاث (طنب الكبرى وطنب الصغرى وأبو موسى) المحتلة من ايران ويطالب بانسحاب القوات الايرانية فوراً من تلك الجزر ٠ وكان الربط بين الخطوة الدبلوماسية هذه وبين الكلام الذي قاله الرئيس صدام في مجلس الوزراء انتهى بتوقع قيام العراق بخطوة عسكرية كأن يبعث بقوات الى هذه الجزر تطرد القوات الايرانية وتحل محلها ، خصوصاً أن كلام الرئيس كان يوحي بذلك « إن شعبنا أصبح مهيئاً لان يدخل أي نوع من انواع المعارك دفاعاً عن شرفه وسيادته وشرف وسيادة وأمن الأمة العربية في أبعد نقطة من الوطن العربي ٠ إنكم في نظام مناضل ووسط شعب مناضل هو شعب المحن والرسالة المشرقة وليس هذا بجديد على شعبنا الذي يقف على طريق

التطور لإنه يمثل طبيعة دوره وموقعه الجغرافي ورسالته الجديدة في الحياة ٠ إن من يحاول أن يمد يده على بلدنا سنقطع يده دون تردد » ٠

ولكن ما أوحى جو التعبئة العام ثم كلام الرئيس صدام الذي أشرنا اليه والخطوة الدبلوماسية التي سبقته ، باحتمال حدوثه ، لم يحدث ٠ فقضية الجزر ليست قضية تخص العراق وحده ولا بد من قرار عربي في شأنها ، فضلاً عن أن الرئيس صدام كان طرح ميثاقاً لتنظيم العلاقات بين الدول العربية ٠ ومن شأن خطوة عراقية منفردة أن تحدث ارتباكاً عربياً في ما يتعلق بهذا الميثاق ٠ ثم إن الأمر ليس بهذه العجلة وليس بالضرورة ان يكتسب مثل هذا الدور القومي صفة ثأرية ضيقة ٠ وإلى ذلك هنالك قمة عدم الانحياز التي ستعقد عام ١٩٨٢ في بغداد ويتطلب انجاحها عدم اقحام الأزمة العراقية ـ الايرانية فيها ، وهذا ما أوضحته اتصالات لم يعلن شيء عنها تمت بين الرئيس صدام وعدد من قادة عدم الانحياز ٠ وإلى ذلك أيضاً إن أي عمل عسكري من جانب العراق يستهدف استعادة الجزر كان سيبدو من الاسباب الرئيسية للاساطيل الأجنبية التي تقترب من البوابات العربية لكي تقترب أكثر ومعنى ذلك أن ما يعترض عليه الرئيس صدام والذي بسببه وضع ميثاق ٨ شباط ١٩٨٠ يخالفه هو أيضاً وإن كانت اسباب المخالفة ذات طابع مناقض ٠

ولكن عدم حدوث الدور العسكري إزاء موضوع الجزر الثلاث لا يعني أنه ليس وارداً ولا يعني أنه لم يجر تشاور في شأنه ٠

جاءت حادثتا القنبلتين في وقت بدأ العراق يكتسب مع تسلم صدام حسين المسؤولية الكاملة دوراً بالغ الأهمية ٠ وقد كبر هذا الدور الذي بدأ بقمة بغداد بعد المشاركة الفعالة للرئيس صدام في قمة عدم الانحياز في هافانا وبعد الدور المتميز الذي مارسه في القمة العربية العاشرة في تونس وبعد الميثاق الذي طرحه والذي حظي باهتمام على الصعيدين العربي والافريقي والآسيوي ٠ كذلك جاءت الحادثتان بعدما باتت بغداد العاصمة التي تنعقد فيها المؤتمرات العربية الكثيرة وبعدما بدأت حلقات الاستقرار تتسع يوماً بعد آخر ٠

وجاءت الحادثتان بعدما كانت حلقات كثيرة من حزب الدعوة قد تم اكتشافها ، ومن هنا فان نظرة أهل الأمن الى الحادثتين تركزت على أن رمي الحشد الجماهيري في الجامعة المستنصرية ثم خلال الجنازة بالقنابل معناه أن هذا الحزب في وضع يائس ولو لم يكن كذلك لكان حرص على أن يفصل بين الرسميين والناس ٠ ومع اكتشاف الحلقات تم العثور على مخابىء للاسلحة كانت معدة للاستعمال في عمليات كثيرة لكن اعتقال العقل المدبر للحزب وهو آية الله محمد باقر الصدر أربك المجموعات الحزبية وجعلها تلجأ الى عمليات يائسة من نوع عملية الجامعة المستنصرية ثم عملية ألقاء قنبلة على جنازة حادثة الجامعة ٠

ولقد استغرق اكتشاف بعض الحلقات الرئيسية في حزب الدعوة وقتاً طويلاً ٠ وحتى حادثة كربلاء التي جرت قبل حادثة الجامعة المستنصرية بخمسة أشهر (٢٩ تشرين الثاني ١٩٧٩) وذهب ضحيتها قتيل و ١٦ جريحا كانت الحملة الأمنية لا تتم بالاسلوب وبالسرعة اللذين اعتمدا بعد تلك الحادثة ٠ لكن تقدير الأجهزة

الأمنية للحادثة جعلها تنشط ، ذلك ان الهدف من وراء العملية التي استهدفت موكباً دينياً خلال احتفالات عاشوراء كان اشعال نار الفتنة الطائفية في العراق . وقد جرت العملية بسرعة : فتح اثنان النار من رشاشيهما على المحتفلين بذكرى استشهاد الحسين وتمكنا من الهرب .

ولم يكن كشف حلقات الحزب بالأمر السهل على رغم حذاقة الأجهزة العراقية في هذا المضمار ذلك انه يعتمد التنظيم العمودي وليس الأفقي إذا جاز التعبير ، بمعنى ان أي عضو في الحزب لا يعرف إلا من هو فوق ومن هو تحت .

وحزب الدعوة تأسس في العراق بعد ثورة ١٩٥٨ وهو مثل تنظيم الاخوان المسلمين في مصر وغيرها من الدول العربية يحارب القومية العربية . وقبل أن يسقط الشاه بسنوات كان « حزب الدعوة » يحظى بدعم الامبراطور . وبعد قيام الثورة في ايران انتعش الحزب وأعاد تنظيم نفسه وانشأ الخلايا وحصل على كميات كبيرة من السلاح وبدأ شيئاً فشيئاً يخرج عن طبيعة نشاطه الديني وينشط في اتجاه ضرب الاستقرار الذي تعمقه الزيارات الميدانية التي يقوم بها الرئيس صدام للمواطنين حيث وجدوا ، وللاجراءات التي تصدر في استمرار وهدفها تحقيق عدالة اجتماعية في البلاد .

وفي الماضي كان افراد حزب الدعوة يستهدفون جماهير المواكب الحسينية ويرمون بين الحين والآخر قنابل تقلق لكنها لا تلحق الأذى والضرر . وجاءت حادثة الجامعة المستنصرية تشكل تطوراً أساسياً في نشاطهم حيث انهم بدأوا يتصدون للمسؤولين . وسواء أخذنا أو لم نأخذ بتحليل جماعة أهل الأمن من ان « حزب الدعوة » في مأزق ، الا أن معاودة التصدي (ونعني بذلك القاء القنبلة على الجنازة) تعني ان الحزب قرر التحدي وانه مستعد لكل الاحتمالات ومعنى ذلك ان افكار هذا الحزب لا تتطلب مواجهة أمنية فقط . فالذي رمى القنبلة على الحشد الجماهيري في الجامعة المستنصرية كان يأخذ في الاعتبار انه قد يتمكن من الهرب وقد يقتل ، وتقبله لاحتمال القتل يشكل بعداً بالغ الأهمية .

وقبل حادثة الجامعة المستنصرية ثم حادثة الجنازة كان هنالك اتجاه لتخفيف أحكام بالإعدام صدرت في حق بعض الذين أمكن اعتقالهم من قادة حزب الدعوة ، لكن الحادثتين جعلتا النظام يعيد النظر في ذلك وينفذ حكم الاعدام في هؤلاء ومن بينهم محمد باقر الصدر من دون أن يعلن عن ذلك . إلا ان نبأ التنفيذ كان انتشر بين الناس . ومحمد باقر الصدر هو الرجل الثاني في الحزب والثاني بعد آية الله العظمى ابو القاسم الخوئي في القيادة الروحية للطائفة الشيعية في العراق .

وحتى يوم ٨ نيسان ١٩٨٠ كانت لهجة الرئيس صدام حسين ازاء الذي حدث لهجة إنذارية تحذيرية ، لكنه بعد ذلك بدل بعض الشيء طبيعة اللهجة وتبدل تبعاً لذلك الاسلوب الذي تعالج به وسائل الاعلام العراقية الأزمة الناشئة مع ايران . بدأ الرئيس صدام يقول كلاماً لم يقله من قبل عن الإمام الخميني من نوع « هذا المومياء الخميني » واعتباره مثل كارتر وبيغن (خطاب في الموصل يوم ١٥ نيسان ١٩٨٠) ومن نوع « يتوهم الخميني الذي استضفتموه أربع عشرة سنة ان بامكانه أن يملك المضيف الذي ضيفه . يستطيع أن يملكه بالطيب وبالعلاقات الحسنة

وبالأخوة ، لكن لا يستطيع أن يمتد بعنصريته الى أية ذرة تراب ورمل من أرض الوطن . والخميني يعرف انه لا يستطيع أن يمر الى الخليج العربي الا على جثث الشهداء العراقيين » . وقد وردت هذه العبارات في كلمة القاها الرئيس صدام في آخر يوم (الخميس ٢٢ نيسان ١٩٨٠) من أيام « المهرجان القطري للشعر الشعبي » الذي نظمته وزارة الاعلام العراقية وحضر الرئيس صدام كل أيامه وصفق بحرارة لبعض الشعراء .

وهذا التبدل في لهجة الرئيس صدام ومهاجمة الامام الخميني (من دون أن يرفق الاسم بلقبه الديني) ونعته بالأوصاف التي أشرنا اليها جاءت بعدما بدأ الإمام الخميني يشارك شخصيا في الحملة على الرئيس صدام ويدعو الشعب العراقي الى الثورة عليه . وقد بلغت الحملة ذروتها يوم ١٧ نيسان عندما قال الامام الخميني في خطاب استغرق عشرين دقيقة « ان النظام العراقي الذي يهاجم ايران انما يهاجم القرآن والاسلام ، وان ايران ستأخذ العراق وستتقدم حتى بغداد » ويوم ٢٢ نيسان عندما اعلن بنفسه مقتل آية الله محمد باقر الصدر وشقيقته « بنت الهدى » واتهم النظام في العراق مخاطبا القوات العراقية « اتركوا الثكنات ولا تعانوا بعد الآن من هذا الموقف المخزي وتخلصوا من حكم صدام حسين كما تخلصنا نحن من حكم الشاه في ايران » . كذلك جاءت الحملة في اعقاب انباء ذات طابع تشويشي تذيعها ايران ومنها ان العراق استدعى قوات من الجيش المصري لكي يقاتل معه على الحدود مع ايران .

وقبل ذلك كان وزير الخارجية الايرانية صادق قطب زاده يبعث برسائل الى جميع الدول الاسلامية يطلب فيها مساعدة ايران في تأمين اطلاق باقر الصدر مشيراً الى « ان ايران اصبحت مقتنعة بأن الجهاد ضد نظام الحكم القائم في العراق جزء لا يتجزأ من النضال ضد الامبريالية » ، وكان سفير ايران في موسكو يتقدم بطلب رسمي الى السلطات السوفياتية لوقف تصدير الاسلحة الى العراق مشيرا الى أن رفض هذا الطلب قد يقضي على مكانة موسكو في ايران .

وصادف ان وزير خارجية العراق كان في تلك الفترة التي اتسع فيها نطاق التحرك الايراني وتزايدت التصريحات من الامام الخميني وغيره التي تدعو الشعب العراقي للثورة على نظامه ، في زيارة رسمية الى الدانمرك . وقد التف حوله الصحفيون يحاولون معرفة رد فعل حكومته ازاء هذا التحرك فاجابهم : « ان العراق أقوى من ايران عسكريا لكنني استبعد اندلاع حرب بيننا وبينهم ، والى ذلك انه ليس بامكان طهران تحديد من يتولى الحكم في بغداد وان للحكومة الايرانية ميولا تماثل نظام الشاه المخلوع في السيطرة والتدخل في شؤون الدول المجاورة » .

وخطاب الموصل الذي القاه الرئيس صدام طرح للمرة الاولى طبيعة المجابهة مع ايران بانها مجابهة بين عرب وفرس وبأن الإمام الخميني « شاه يلبس عمامة » وبأن الرئيس ابو الحسن بني صدر « حاقد على العروبة وحاقد على الاسلام الذي حملته رايات العرب ودافعت عنه حتى وصل الى ابعد نقطة في الأرض بما في ذلك أرض بني صدر التي يجلس عليها الآن » . وروى في الخطاب ان بعض قادة الثورة الفلسطينية أجابوه عندما سألهم ما الذي تحصل عليه الثورة من ايران « والله لم نقبض منهم ولا تومان (العملة الايرانية) ولا طلقة ولا بندقية ويقولون لنا في استمرار بأنهم قطعوا العلاقة مع اسرائيل » .

وفي خطاب الموصل أوضح الرئيس صدام « ان الشعوب الايرانية ستجدنا عونا لها في الحياة » اذا هي تخلصت من الامام الخميني والرئيس بني صدر مشيراً الى أنه « ليس شيئا سيئاً أن نتجنب السوء مع شعوب ايران ما لم يكن الاصطدام واجباً وطنياً وقومياً وعندما يكون الاصطدام واجباً وطنياً وقومياً سيخوضها بكل اشكالها . مسكين بني صدر لا يدري أن نصف اجدادنا ماتوا على ظهور الخيل » .

وفي خطاب الموصل رد على ما كان ذكره الرئيس بني صدر من أن العراق أرسل وسطاء الى ايران مشيرا الى ان وزير خارجية ايران السابق ابراهيم يزدي هو الذي طلب خلال انعقاد قمة هافانا زيارة الرئيس صدام وأنه خلال الاجتماع ابدى الوزير الايراني الرغبة في أن تكون العلاقات طبيعية بين ايران والعراق وان الرئيس صدام رد عليه بأن ذلك ممكن وان العراق يريد أيضاً هذه العلاقات شرط اعادة الجزر الثلاث الى أهلها واعادة الجزء الذي أخذته ايران من شط العرب بموجب اتفاق تم توقيعه تحت وطأة ظروف خاصة عام ١٩٧٥ ومراعاة الحقوق القومية لشعب عربستان العربي . وما لم يروه الرئيس صدام في هذا اللقاء بينه وبين يزدي بالتفصيل سمعته من شهود حضروا اللقاء . ويروي هؤلاء ان الرئيس صدام خاطب وزير الخارجية الايرانية على النحو الآتي : انني اتحدث معك حديثاً أخوياً وآمل أن تتفهم ما الذي سأقوله . لقد تصرفتم بعد الثورة كما لو أنكم قدمتم خدمة للعالم وللأمة العربية والعراق . وهذا غير منطقي . لقد قمتم بثورة كان يفترض فيكم أن تقوموا بها منذ عشرين سنة ولكنكم قمتم بالثورة متأخرين ربع قرن عن مصر ومتأخرين سنوات أقل عن ثورات أخرى عربية على رغم ان الظلم اللاحق بالشعب الايراني من جانب حكامه كان فادحاً جداً ، وكان يفترض بعد قيام الثورة ان تأتوا الى العراق والى الجزائر والى معظم الدول التي عندها تجارب ثورية وتشرحوا لقادتها أهداف ثورتكم لكي يتاح لهؤلاء معرفتكم والوقوف الى جانبكم ومساعدتكم . انكم ترتكبون أخطاء يومية ازاء من يفترض ان يكونوا حلفاء لكم ، ولذا إنني انصح بأن تتفاهموا مع الآخرين . إن من شأن ذلك أن يظهر لكم من هو الحليف ومن هو العدو . كذلك إنني أنصح كبح مشاعركم بأنكم جئتم بما لم يجيء به الأولون والآخرون .

ومع ان الرئيس صدام لم يرو ماذا كان رد فعل يزدي وبماذا وعد فإن التطورات التي تلاحقت بعد ذلك توضح الجواب ما فيه الكفاية . فقد تم ابعاد يزدي وتصاعدت حدة المجابهة مع العراق الى الحد الذي وصلت اليه .

على رغم هذه الأجواء الحادة فان اياً من العراق أو ايران لم يقطع علاقاته الدبلوماسية بالآخر . وعلى رغم ان الرئيس صدام استبعد فكرة الحرب الا اذا كانت « لاسباب وطنية وقومية » فإن جو الحرب كان سائداً على طرفي الحدود . وكانت التعليمات المعطاة الى القوات العراقية تلزمها بضبط النفس . وفي الوقت نفسه كانت هنالك تعبئة للعراقيين في اتجاه قومية المواجهة مع ايران وعروبتها . وقد شكل تحذيره الذي جاء في الكلمة التي القاها في « المهرجان القطري للشعر الشعبي » مساء ٢٢ نيسان الحد الاقصى في عملية التعبئة خصوصاً عندما عرض قدرات العراق العسكرية على النحو الآتي : « الجيش ليس فقط الذي يلبس الكاكي . الجيش يبدأ عندما تلد العراقية طفلها أو طفلتها على أرض وادي الرافدين . ونقول للطامعين كبارا وصغارا : اذا تصوروا ان بإمكانهم عندما

يتخلصون من نصف مليون مقاتل لابس كاكي تنفتح لهم أرض العراق ، فإنهم يخطئون . ان العراقيات ستلدن مليونا بعد مليون يقاتلون على أرض العراق . ونقول لهم أنه اذا عسرت بعض العراقيات فان نخل البصرة سوف يهتز وتتمخض عنه ولادات تقاتلهم . كم هو واهم بني صدر عندما يتصور ان جيش ايران يمكن ان يمشي في أرض العراق . والله ليس جيش ايران الذي لا يمكنه أن يفعل ذلك وانما جيش الاتحاد السوفياتي وجيش أميركا لا يستطيعان ... »

ويوم الاحد ٢٧ نيسان ١٩٨٠ اخذت المجابهة العراقية - الايرانية منحى جديداً باذاعة السلطات الايرانية نبأ عن مقتل الرئيس صدام حسين بينما هو حي يرزق . وجاءت اذاعة هذا النبأ في سياق الحرب الاعلامية الشرسة المتبادلة .

كيف جرى ذلك ؟

فجأة اعلن ناطق باسم رئاسة الجمهورية في طهران نقلا عن مصدر وثيق بالإمام آية الله الخميني (وكالة الصحافة الفرنسية انفردت دون غيرها من وكالات الانباء في اذاعة تصريح الناطق) أن انقلابا وقع حوالى الحادية عشرة والنصف قبل ظهر الأحد وأن الرئيس صدام حسين لقي مصرعه . واستند الناطق في ذلك الى مكالمة تلقاها من القائد العام لحرس الثورة داود وزائي في « قصر شيرين » على الحدود الذي أشار الى أن الانباء تأكدت في الأهواز . ولان النبأ منسوب الى ناطق باسم رئاسة الجمهورية فإن الاذاعات ومحطات التلفزيون العالمية تعاملت معه على أساس أنه خبر جدي فأبرزته وعلقت عليه ووعدت مستمعيها ومشاهديها بالمزيد من التفاصيل .

وعزز النبأ الاسلوب الذي اعتمده وزير خارجية ايران (آنذاك) صادق قطب زاده الذي كان في ذلك اليوم يزور دمشق . فقد قطع المسؤول الايراني (الذي كان شغل منصب مدير الاذاعة والتلفزيون وصاغ مئات الأخبار الرسمية وأذاعها قبل أن يصبح وزيراً للخارجية) مؤتمرا صحفيا عقده في العاصمة السورية في اعقاب انتهاء زيارته وقبل انتقاله الى بيروت في زيارة رسمية مماثلة وقال وهو في غاية الفرح مخاطباً الصحفيين « يسعدني أن انقل اليكم هذا النبأ العاجل الذي تلقيته والذي يفيد بأن انقلاباً عسكرياً وقع في العراق ... » ، وأضاف معلقاً « ... وليذهب صدام حسين ونظامه الى الجحيم » .

بعد انتشار النبأ عالمياً بدأت الانظار تتجه الى بغداد لمعرفة رد الفعل ، وقد بدا هنالك حرص على تحاشي اصدار النفي التقليدي بحيث لا يذاع ما معناه ان مصدراً مسؤولاً نفى وقوع الانقلاب ... الخ ، لان ذلك يخدم - ربما - ما ترمي اليه السلطات الايرانية . ومن أجل ذلك فقد جاء النفي من خلال اذاعة نبأ عن ان الرئيس صدام ومعه بعض المسؤولين العراقيين استقبلوا في مطار بغداد رئيس جمهورية سيشيل فرانس البرت رينيه الذي وصل في زيارة رسمية للعراق ، وازاء اصرار اذاعة طهران على ان الانقلاب وقع وأن صدام حسين اعتقل وان أحد عناصر « منظمة المجاهدين المسلمين في العراق » هو الذي اطلق النار على الرئيس خلال زيارة كان يقوم بها الى معسكر للجيش عممت « وكالة الانباء العراقية » تعليقا قالت فيه « إن الانقلاب لم يحدث والرئيس صدام حسين بكامل صحته وفي أوج عزيمته ، وان اعضاء عصابة المعممين في قم وطهران انما يسيرون في خيال كاذب وفي جنون يضعهم بلا منازع في عالم منفصل عن عالم البشر » .

وفي المساء كان العراقيون يشاهدون على شاشة التلفزيون رئيسهم يستقبل في المطار ضيفه الزائر رئيس جمهورية سيشيل ثم يقيم تكريماً له في القصر الجمهوري مأدبة عشاء دعي اليها السفراء العرب والافارقة وسفراء الدول الافريقية في بغداد الذين صافحوا الرئيسين وكانوا من بين الذين لم يكترثوا بنبأ الانقلاب لإنهم شاركوا قبل الظهر في استقبال رئيس سيشيل .

ومع ذلك استمرت اذاعة طهران حتى منتصف الليل تذيع نبأ الانقلاب من دون أن يهتم به احد .

وفي اليوم التالي بدا واضحاً أن ضيق العراقيين من النبأ الايراني حول حادثة الاغتيال كان في الدرجة الاولى لإن قطب زادة أبدى وهو في دمشق سعادته لإن انقلاباً عسكرياً وقع ضد صدام حسين . وقد عكس هذا الضيق تعليق نشرته صحيفة « الجمهورية » وجاء فيه « إن كل ذرة من ذرى الجولان التي عطرتها دماء العراقيين دفاعا عن دمشق وحمايتها من خطر السقوط تلقمك (المقصود هو قطب زادة) ألف حجر وحجر وتلقم اصدقاءك الخلص ممن يحملون زورا هوية العروبة وجعلوك تستطيع في اطلالة قاسيون أن تسعد شماتة بما أرضعك أياه كبيرك الذي علمك السحر ومن أوهام مقتل من تفديه ذرى قاسيون والجولان وفلسطين وكل أرض العرب لتستعيد قيمها العربية الاصيلة من جديد » .

أما صحيفة « الثورة » التي تنطق باسم الحزب فانها تجاوزت ذلك مكتفية بابداء دهشتها واستغرابها « لهذا التمادي الجنوني في تزوير الحقائق والاصطناع الفريد للاخبار والحوادث التي لا تمت الى الحقيقة بصلة » .

وعلى رغم ان الرئيس صدام درج على دعوة ضيوفه من حكام العالم الذين يزورون العراق الى مرافقته في جولات على المناطق والأحياء والأسواق ، إلا أن قيامه يوم الاثنين ٢٨ نيسان ١٩٨٠ (اليوم الثاني لاذاعة نبأ الانقلاب والاغتيال) بجولة حرة في العاصمة مصطحباً معه رئيس جمهورية سيشيل فرانس البرت رينيه (الشاهد الدولي على عدم صحة النبأ الايراني) كانت نوعا من التحدي للايرانيين، فالجولة تمت في اشد الفترات ازدحاماً واكتظاظاً بالناس وجاءت في اعقاب محادثات رسمية عقدت صباحاً في القصر الجمهوري . وقد زار الرئيسان بعض المحلات التجارية في شارع السعدون (الشارع التجاري الرئيسي في بغداد حيث توجد مكاتب شركات الطيران ودور السينما والمكتبات والمقاهي والمطاعم) وزارا ايضاً الكرادة الشرقية (وهو شارع تجاري من نوع آخر) . واطلع الرئيسان على طبيعة المعروضات ونوعيتها ومصادر تجهيز البضائع المعروضة فيها واستفسرا من أصحاب المحلات عن أحوالهم ، ثم انتقلا بعدما قدم لهما اصحاب المحلات هدايا رمزية لزيارة بعض الأحياء السكنية في العاصمة .

لكن على رغم ذلك كان لا بد من كلام يقوله الرئيس صدام حسين شخصياً في أمر ما اذاعته ايران وعلى أعلى المستويات حول انقلاب جرى ضده وانتهى بمقتله . ومن هنا فإنه بعد اجتماع مغلق جرى يوم الثلاثاء ٢٩ نيسان ١٩٨٠ وهو اليوم الثالث لاذاعة طهران النبأ الوهمي ، مع ضيفه رئيس جمهورية سيشيل، ترأس الرئيس صدام اجتماعا لمجلس الوزراء جاء المناسبة الجيدة ليقول الكلام الذي من الضروري ان يقوله . وفي هذا الاجتماع قال : « ان اقتدار الثورة يقلق الاعداء . وهي بمسيرتها الصاعدة تعزز قواها وتعمق ارتباطها بالشعب . ان رسوخ

ثورتنا يدفعنا الى المضي الى أمام لخدمة مبادئنا ، وان بلدنا لم يعد بمقدور أحد أن يهزه أو يزيح شعبنا عن مسيرته الواضحة ، نحن للعرب وللعراقيين على طول الخط . وتعاملنا الدولي قائم على اساس ذلك وفي ضوء المصالح المشتركة وخدمة المبادىء التي نؤمن بها . ان الحماية الحقيقية لأي نظام يوفرها الشعب ولا يمكن ان تكون الحماية الأجنبية قادرة على تأمين ذلك ... » .

جاء النبأ الايراني المختلق حول الانقلاب في العراق ومقتل الرئيس صدام حسين بعد يومين من العملية العسكرية الأميركية الفاشلة لتحرير الرهائن الاميركان المحتجزين في السفارة الاميركية في طهران منذ بضعة أشهر . ولقد ادى فشل العملية الى انتشار شعور بالنشوة في أوساط أهل النظام في ايران ، وهي عملية نظر اليها العراق باستخفاف . ولوحظ في هذا الشأن ان أول تعليق على العملية نشر يوم السبت ٢٦ نيسان ١٩٨٠ في صحيفة « العراق » وليس في الصحيفتين الرئيسيتين « الثورة » و « الجمهورية » ، فضلا عن ان الصحيفة هي الناطقة باسم المنظمات الكردية في العراق . واعتبر التعليق الذي نشرته الصحيفة « ان عملية انزال الطائرات الاميركية في ايران مسرحية وان البيانين الاميركي والايراني حول العملية يتضمنان صيغة متقاربة من حيث المعنى والمضمون وتسيطر عليهما حالة التضليل » .

ومن هنا فإن البيانات التي صدرت من طهران حول العملية العسكرية الأميركية الفاشلة باتت موضع شك من جانب وكالات الانباء والصحف العالمية ووجد القيمون على هذه الوسائل أنفسهم يدققون في أي معلومة أو بيان مصدره طهران وذلك بعدما وقعوا ضحية نبأ الانقلاب ومقتل الرئيس العراقي الذي تبين أنه مختلق ..

وازاء ذلك بدأت السلطات الايرانية تنتهج منهجاً جديداً وتذيع أنباء حول الانقلاب المختلق من نوع أن الرئيس صدام ليس حياً وان الذي يقوم بالزيارات ويستقبل المسؤولين ويعقد اجتماعات مجلس الوزراء هو شخص يشبه صدام حسين وأن الاعلان الرسمي عن مقتل صدام حسين لن يتم قبل اختيار من سيحل محله .

في هذه الاثناء كانت اجراءات ترحيل أكثر من ثلاثين ألف ايراني من الاراضي العراقية قد استكملت . وقد استثني من الترحيل الايرانيون المعارضون للإمام الخميني وابناء منطقة عربستان والعائلات الايرانية التي تحمل شهادة الجنسية العراقية ، وتم صرف مبالغ تراوح بين ٥٠٠ وألف دينار لكل عائلة كما سمح لها باستصحاب المبالغ الشخصية .

ونسبة الذين تم ترحيلهم تشكل عبئا على النظام في ايران من نوع العبء الذي وقع على نظام الشاه عام ١٩٧١ عندما قام العراق ونتيجة سوء العلاقات بترحيل بضعة ألوف من الايرانيين ، وقيل في حينه ان عددهم يتجاوز الاربعين الف ايراني

ورافقت ذلك حملات متبادلة . تعلن ايران ان ترحيل العائلات الايرانية عمل غير انساني فيرد العراق باذاعة اعترافات عبد الامير منصوري (الذي يقال انه الرجل الاول في حزب الدعوة) من الاذاعة والتلفزيون وفيها يقول « ان الامام الخميني ارسل الى مجموعته في العراق كميات ضخمة من المال والاسلحة والمتفجرات والسموم ... » . تشكك ايران في اسلامية النظام في العراق فيرد العراق باذاعة عشرات برقيات التأييد التي يتلقاها الرئيس صدام حسين من رجال الدين .

توحي التعليقات الاذاعية الايرانية الموجهة بأن أكراد العراق محايدون ازاء المجابهة العراقية ـ الايرانية فتبث اذاعة بغداد برقية من علماء « اربيل » في اقليم كردستان الى الرئيس صدام حسين يتعهدون فيها « بالدفاع عن الثورة العراقية ورئيسهم ضد الاعمال الوحشية التي يرتكبها عملاء نظام الحكم الايراني » ، (صادف انه في اليوم نفسه كان الشيخ عز الدين الحسيني الزعيم الديني للأكراد يوجه نداء الى الشعب الايراني « من أجل ان يوحد صفوفه ضد نظام الحكم القائم في ايران وان يشكل حكومة شعبية ») . تنشر الصحف الايرانية أنباء لا اساس لها من الصحة عن الرئيس صدام فتعيد الصحف العراقية وبتوجيه من الرئيس نشر هذه الانباء . تعلن اذاعة طهران ان حرس الحدود اجبروا طائرة هليكوبتر عراقية على الهبوط وأسروا طاقمها المؤلف من ثمانية اشخاص فترد الخارجية العراقية بأن الطائرة تابعة لوزارة الشباب وقد ضلت طريقها وتطلب اعادتها ... وهكذا .

ولكن الامر لم يقتصر على تبادل الحملات ، لان بعض مناطق الحدود شهدت مناوشات استخدمت فيها المدفعية . وبعد ذلك اصبحت السفارات والمراكز التجارية والثقافية العراقية هدفا لعمليات ايرانية وهي عمليات رد عليها العراق انما من دون ان يتبنى اي رد حدث .

وفي الفترة التي اعقبت النبأ المختلق عن الانقلاب ومقتل الرئيس صدام حسين لم تعد الصحف العراقية تستعمل كلمة ايران وإنما « الطغمة الفارسية » وبدأت هذه الصحف تنشر التحليلات التي تعزز طرح العراق للأزمة مع ايران على انه مواجهة بين قوميتين : قومية عربية وقومية فارسية . وكان أبرز ما نشر في هذا الاطار سلسلة مقالات في صحيفة « الثورة » كتبها طارق عزيز . واختيار طارق عزيز دون غيره ليكتب هذه السلسلة له معناه . فهو الذي استهدفته القنبلة في حادثة الجامعة المستنصرية وهو الذي يشكل مادة للاعلام الايراني على أساس أنه مسيحي . وفي هذه المقالات التي لمس فيها مواقف بعض القوى والانظمة العربية التي تؤيد الثورة الايرانية (سوريا وليبيا وبعض فصائل الثورة الفلسطينية) ، انتهى طارق عزيز الى « ان العراق الذي يضم مذاهب متعددة في اطار الاسلام واديانا عديدة وخصوصيات قومية معروفة في اطار الوطن ، وحدة متماسكة غير قابلة للتجزئة . وكل من يتوهم أنه قادر على النيل منه مدعو لأن يجرب اذا اشتهى أن يجرب » ..

نأتي الى طرح سؤال في منتهى الأهمية : هل انه من المستحيل توافر ارضية مشتركة تجعل تعايش عراق صدام حسين وايران آية الله الخميني ممكنا وتجعل امكانية التحالف مستقبلا واردة .

والى ذلك هل إن مثل هذا الصراع الدائر بين الطرفين لا تفيد فيه المساعي التوفيقية والوسطاء ؟

ومن أجل تبسيط الامور فاننا سنحاول الاجابة عن هذا السؤال بتشعباته الكثيرة من خلال تسجيل الملاحظات الآتية :

الملاحظة الأولى ـ قبل أن يتسلم صدام حسين المسؤولية الكاملة بحوالى خمسة أسابيع فتحت صحيفة « الثورة » الناطقة باسم حزب البعث ملف العلاقات العراقية ـ الايرانية . وهي فتحت الملف بالسؤال « لماذا تريد الاوساط الايرانية الحاكمة تخريب العلاقات مع العراق » وختمته بالانذار « لقد أعذر من أنذر » .

وفي معرض التساؤل كشفت الصحيفة النقاب عن مذكرة بعثت بها الحكومة العراقية في ١٣ شباط (فبراير) ١٩٧٩ الى الحكومة الايرانية المؤقتة التي تألفت برئاسة الدكتور بازركان في اعقاب نجاح الثورة الايرانية . وفي هذه المذكرة أوضح العراق حرصه على « إقامة أوثق الصلات الأخوية وعلاقات التعاون المثمر مع الشعوب والبلدان المجاورة للعراق على أساس احترام السيادة وعدم التدخل في الشؤون الداخلية واحترام التطلعات المشروعة للشعوب وفق المبادىء التي تختارها بارادتها الحرة » . وأوضح العراق ايضا بأن طبيعة العلاقات الدينية والتاريخية مع ايران « يجب أن تكون عنصر تقوية للعلاقات الايجابية في العصر الحديث بين العراق وايران وبقية الاقطار العربية » .

وعبرت المذكرة عن الإرتياح الشديد من جانب العراق « الى التصريحات التي اطلقت من قبل السيد اية الله الخميني الزعيم الديني البارز والشخصيات القيادية في الحركة الشعبية الايرانية حول العلاقات مع العرب والموقف من الكيان الصهيوني الغاصب » .

وختمت المذكرة بالقول « إننا نتطلع الى أن تقوم بين العراق وايران الجديدة علاقات وثيقة من التعاون المثمر بما يعزز الأواصر المشتركة ويخدم المصالح المتبادلة للبلدين ويعزز دعائم الحرية والسلام والاستقرار في هذه المنطقة » .

وفي معرض الانذار قالت الصحيفة « لقد حذرنا حكومة الشاه عام ١٩٦٩ ونصحناها ولكنها لم تهتم بتحذيراتنا وخاضت مغامرة معاداة العراق فدفعت الثمن الباهظ ، ثم رحلت وبقي العراق . واليوم ننبه ونحذر وننصح الحاكمين في ايران من مغبة المغامرة التي خاضها الشاه ضد العراق فان استمعوا الى النصيحة وجدوا لدينا الرغبة الصادقة والإستعداد المخلص لبناء علاقات قائمة على حسن الجوار والتعاون المثمر ، وإن لم يستمعوا الى النصيحة فلا لوم علينا اذن . ولكن لا بدّ لنا من ان نقول بأن من يلعب مثل هذه اللعبة لا بد أن يدفع الثمن غاليا ، لإن للثورة في العراق ذراعا أقوى وأطول مما يظنون ومما يصور لهم المنافقون ومن في قلوبهم مرض » .

ولم ترد ايران على المذكرة .

الملاحظة الثانية - وبدل أن تحقق المذكرة انفراجا في التأزم الذي يسود العلاقات العراقية - الايرانية فان الذي حدث هو العكس . وهذا متعلق بعدة اسباب يتصدرها أن الامام الخميني لا ينسى ان العراق أبعده عن أراضيه قبل أن يستقر به المقام في « نوفل لوشاتو » في فرنسا ويقود من هناك آخر مراحل عملية اسقاط الشاه .

ولإن العراق يأخذ في الاعتبار هذه المسألة فانه في معرض فتحه ملف العلاقات العراقية - الايرانية أوضح أمر إبعاد الامام الخميني . ويمكن تلخيص ما قاله في هذا الصدد على النحو الآتي :

« عندما كان الخلاف بين العراق وايران ناشبا كان العراق من اقصى شماله الى اقصى جنوبه مسرحا لكل انواع نشاط المعارضة الايرانية بكل فئاتها ومنها مجموعة الخميني . وقدم العراق لهم العون بكل اشكاله ووضع اذاعته تحت تصرفهم وكانت اذاعة بغداد تذيع برامج خاصة يعدها حزب البعث في الدروس الثورية المستنبطة من ثورات العراق (ثورة ١٤ تموز وثورة ٨ شباط وثورة ١٧ تموز) وفي أساليب الكفاح السري وتعلم الثوريين كيف يؤسسون الأوكار وكيف يصدرون

النشرات السرية وكيف يتوارون عن أنظار السلطة وكيف يناضلون ضدها بشتى الوسائل . وطيلة ست سنوات كان العراق بكل إمكاناته في خدمة المعارضة الايرانية ومنهم جماعة الخميني وترك لهم الخيار في كل ما يفعلونه ضمن اطار سيادة العراق وكان الخميني يتخذ من العراق مركزا للتوجيه والنشاط الفكري والسياسي والتنظيمي ويعامل من قبل الدولة في العراق باحترام .

بعد توقيع اتفاقية الجزائر بين العراق وايران أوقف العراق النشاطات المعادية لنظام الشاه على أساس مبدأ المقابلة بالمثل ، لكن الخميني استمر يواصل نشاطه ثم تزايد نشاطه في الربع الاخير من عام ١٩٧٨ الأمر الذي جعل الشاه يكثر من الشكوى ، وجعل السلطات العراقية حرصا منها على عدم انهيار العلاقات مع ايران أن توفد الى الامام الخميني أحد اعضاء مجلس قيادة الثورة ليطلب منه مراعاة الموقف .

رفض الامام الخميني التساهل وقال للمسؤول العراقي : « لا بد من مواصلة النشاط ضد نظام الشاه وإذا اعترضت الحكومة العراقية فانني سأغادر العراق » .

بعد أيام غادر الامام الخميني العراق باتجاه الكويت ولكن السلطات الكويتية منعته من الدخول وبقي في المنطقة الحدودية . واتصل رجاله بالسلطات العراقية طالبين السماح له بالعودة الى العراق ومن ثم مغادرته الى مكان آخر فوافقت السلطات العراقية على الفور .

وحدث انه في اللحظة التي كان الامام الخميني يقف في منطقة الحدود طلبت السفارة الايرانية باسم الشاه السماح للامام الخميني بالبقاء في العراق فرد المسؤولون العراقيون بالرفض .

وغادر الإمام الخميني العراق الى فرنسا . وهناك بلغ العراق أن الامام يفضل الاقامة في بلد عربي وبالتحديد الجزائر . وخلال انعقاد قمة بغداد تمنى صدام حسين على وزير خارجية الجزائر عبد العزيز بوتفليقة أن ينقل الى الرئيس هواري بو مدين رأي العراق بضرورة استضافة الامام الخميني في الجزائر على أساس أن اضطرار العراق لعدم السماح له بمزاولة النشاط السياسي المباشر والعلني لا يعني أن الرجل يجب ألا يحظى برعاية عربية .

والى ذلك إنه بعد اتفاقية الجزائر تم الاتفاق على تبادل الزيارات بين المسؤولين الايرانيين والعراقيين على كل المستويات وكان من المقرر أن يزور الشاه العراق . ومن بين الفقرات الاساسية في برنامج زيارته العتبات المقدسة في النجف وكربلاء .

وفوجىء المسؤولون العراقيون بإبلاغهم بأن الشاه لا يستطيع زيارة العراق والامام الخميني فيه . ورد هؤلاء بأن الامام الخميني رجل دين وسياسي ايراني التجأ الى العراق فأجاره ولا يمكن أن ينقض العراق هذه الاجارة . ثم عادت السلطات الايرانية لتتطلب أن يغادر الامام الخميني النجف الى مدينة اخرى في العراق اثناء زيارة الشاه . ورفض العراق هذه الشروط . ولم تتم الزيارة » .

تلك هي خلاصة ما تضمنه الملف العراقي حول ظروف اقامة الامام الخميني في العراق ثم إبعاده منه . واستنادا الى ما حواه هذا الملف فان العراق تعامل مع الامام الخميني بما يحفظ له مكانته ومقامه . ولكن الامام الخميني لا يفصح عن سبب غضبه . كل ما يذاع ويقال هو أن العراق تعاون مع الشاه ضد الامام الخميني .

ومعنى ذلك ان هنالك اسبابا دفينة ، أو أن هنالك اهدافا بعيدة المدى يسعى الامام الخميني بعدما نجح في اسقاط الشاه الى تحقيقها ، وهذه لا تكون عن طريق علاقات جيدة مع العراق .

الملاحظة الثالثة ـ عندما كان هنالك توتر في العلاقات الايرانية ـ العراقية تواجدت اطراف عربية كثيرة تبذل جهدا وتتوسط لكي يحل الوفاق محل التوتر . وهنالك على سبيل المثال الجهد الذي بذله الرئيس بومدين وأثمر اتفاقية كانت ضرورية .

وفي مرحلة من مراحل التأزم في العلاقات الايرانية ـ العراقية فكر الرئيس الجزائري الشاذلي بن جديد القيام بمسعى مماثل للمسعى الجيد الذي قام به سلفه الرئيس الراحل هواري بومدين . وفي المحاولة الاولى التي تكون عادة لجس النبض وجد أن الموقف الايراني لا يشجع فآثر عدم القيام بالمسعى . ثم عرف في وقت لاحق أن هنالك بصمات عربية علقت بالموقف الايراني .

والى ذلك إن الطرح المذهبي للامام الخميني لا يشجع كثيرا على أن تقوم هذه الأطراف بالسعي المطلوب لإنها متحفظة ضمنا على هذا الطرح . ومن جانبه فإن الامام الخميني لم يشجع على ان يفصح عن همومه وتطلعاته أمام أحد من الحكام العرب . وكان مستغربا انه بعد مرور سنة على قيام الثورة كان ما زال موصدا الباب أمام كل الحكام العرب .

الملاحظة الرابعة ـ من الواضح أن خللا اساسيا تعرض له السيناريو الذي رسمه الامام الخميني في ذهنه . فجعل الامور تسير في اتجاه معاكس وجعله بالتالي يزداد تصلبا ويترك الامور تتفاعل بشكل لا يفيد الثورة الايرانية في شيء .

كان في ذهنه أنه بعدما انتصر بسقوط الشاه فان هنالك انظمة كثيرة ستتهاوى وستسود الخمينية شيئا فشيئا . وكان في تقديره أن النظام في العراق سيسقط . وبنى تقديره على أساس أنه في الفترة التي عاش فيها في العراق فلان حالة من عدم الاستقرار كانت سائدة وان الجيش ضعيف يقابله جيش ايراني قوي بناه الشاه ويستطيع أن يوظفه في عملية اسقاط النظام في العراق . والى ذلك إن طبيعة المذهبية العراقية يمكن أن تعمل لمصلحة التغيير الذي يريده . وعندما يسقط النظام في العراق تسقط الكويت وامارات الخليج ويتهاوى العرش السعودي .

ولكن هذا السيناريو كان مبنيا على تخيلات وليس معلومات . فالامام الخميني متربع في النجف ويأتي اليه الرواة ينقلون اليه اخبارا على طريقة فلان عن فلان عن فلان ... الخ . وكانت كلها اخبار اقرب الى الاشاعات منها الى الحقيقة ، على عكس أخباره التي كانت تصل الى السلطات العراقية حقيقية .

وخلال ست سنوات كان هنالك في النظام العراقي عمل جدي استهدف نشر الاستقرار وتقوية الجيش وتخفيف حدة الظلم الاجتماعي الأمر الذي حقق التحاما حقيقيا بين المواطنين والنظام . بل ان الجيش الذي كان ضعيفا وغير مسلح ما فيه الكفاية بات عندما نجحت الثورة في ايران بقوة الجيش الايراني السابق . واذا جاز التشبيه فان الجيش الأيراني الان هو في قوة الجيش العراقي بعد ثلاث سنوات من قيام ثورة ١٧ تموز ١٩٦٨ .

والى ذلك ان الامام الخميني بنى تقديراته على أساس أن الشعور القومي أفلس

وأن مواجهة العراق بالدين لن يهزمها رد العراق بالقومية العربية . وبنى تقديراته ايضا على أن انهيارات كثيرة في العالم العربي ستحدث نتيجة الظلم الاجتماعي الكبير الذي يشكو منه المواطن في بعض الدول ، وأن مثل هذا الأمر سيعني تأمين عمق شعبي للثورة الايرانية في كل بلد عربي ، وفي الدول الاسلامية ايضا .

وحدث الخلل وبسرعة نتيجة أمرين . الأمر الأول هو طرح مسألة ولاية الفقيه التي تسبب طرحها في حلول الحذر محل الترحيب في الاوساط الرسمية والشعبية العربية والاسلامية . والثاني تمثل في تلك النظرة للعرب والعروبة والقومية العربية وهي نظرة مفزعة حرص بعض الآيات على عدم اخفائها . ثم هنالك الرفض لمواكبة العصر في وقت تبدو أزمة المواطن العربي والمسلم أزمة تخلف عن العصر .

الملاحظة الخامسة ـ لعبت اللغة دورا اساسيا في اهتزاز السيناريو الذي رسمه الامام الخميني في ذهنه . فهو ومعظم الايات يتحدثون بالفارسية والذي يعرف العربية فيهم يرفض التكلم فيها . ومعظم المسؤولين المدنيين والعسكريين في النظام الايراني لا يعرفون اللغة العربية . هنالك من يتكلم الالمانية ، وهنالك من يتكلم الفرنسية . وهنالك من يتكلم الانكليزية . وعندما يهاجم وزير الخارجية الايرانية العراق وهو في زيارة بلد عربي اخر باللغة الانكليزية فان ذلك ينعكس على مشاعر الناس الى درجة يصعب التمييز بين أن يكون هذا الوزير ايرانيا مسلما أو من دول الكومنولث . كذلك عندما يهاجم الرئيس بني صدر حكام الخليج ويتهمهم ويعلن ضرورة تصدير الثورة الايرانية ، وكل ذلك في أحاديث صحفية باللغة الفرنسية ، فإن ذلك ينعكس على مشاعر القارىء أو السامع الى درجة يصعب التمييز بين أن يكون هذا المتحدث هو رئيس إيران المسلمة أو أحد الحكام الأوروبيين .

وليس مبالغة القول انه بسبب اللغة فان الوهج الذي احدثته الثورة الايرانية في البداية في الدول العربية كان من نوع الوهج الذي لقيه ثوريون وقادة حركات ثورية عالمية مثل غيفارا أو هوشي منه أو كاسترو . ومعنى ذلك ان العمق العربي ليس اساسيا الى الدرجة التي افترض الامام الخميني حدوثها . واذا جاز التشبيه فان هذا العمق لم يتجاوز العمق الذي كان لعبد الناصر في ايران حيث وجدت قطاعات شعبية تتمنى ان يحدث في بلدها التغيير التي أحدثه عبد الناصر في مصر .

ولو ان الامام الخميني لم يطرح مسألة ولاية الفقيه ، وأعاد الجزر الثلاث العربية المحتلة وأطلق على الخليج تسمية « الخليج الاسلامي » بدل أن يبقى اسمه « الخليج الفارسي » وأمعن تغييرا في الوضع الاجتماعي الداخلي وحل مسألة الاقليات الايرانية وعطل الغامها بحيث لا تنفجر وهذب مسألة التطلع الى تكنولوجيا الغرب ومقتضيات العصر بدل ان يقرر الاستغناء عنها ، ولم يجعل المذهبية سلاحا للتغيير ... لو إنه فعل ذلك لكان أمكنه تأمين عمق شعبي عربي ، ولكانت نمت الخمينية ، ولما كان اصطدم بالعراق لان مثل هذه الامور كانت ستبدو في نظر النظام العراقي اضافات الى الثورة الاجتماعية والسياسية التي ينفذ مضامينها في العراق .

وحتى العمق الفلسطيني للثورة الايرانية لم يتحقق كما يجب . وبعد مرور سنة على قيام الثورة كان دعم هذه الثورة للمقاومة الفلسطينية دون ما هو

مطلوب ودون ما قدمته المقاومة للثوار الايرانيين الذين تدربوا في المخيمات والساحات الفلسطينية وعلى اسلحة دفعت ثمنها في الاصل الدول العربية ومنها العراق وهو إحدى الدول التي يقضي السيناريو الذي رسمه الامام الخميني في ذهنه بضرورة اسقاط الانظمة القائمة فيها . وفي خلال السنة الاولى للثورة الايرانية كانت ما حصلت عليه الثورة الفلسطينية منها (نشير هنا الى المعلن) هو مبنى السفارة الاسرائيلية الذي اصبح مقر مكتب لحركة فتح وربما بعض المساعدات المالية ، ولكن مسألة المال ليست مشكلة بالنسبة الى المقاومة الفلسطينية حيث أن كل الدول العربية تساعد وكذلك الدول الاسلامية والدول الاجنبية الصديقة . وفي هذا الصدد تجدر الاشارة الى كلام قاله ممثل حركة فتح في المملكة العربية السعودية رفيق النتشة يوم الاثنين ٩ حزيران ١٩٨٠ في الرياض في اعقاب عودته من مؤتمر عقدته الحركة في دمشق وتم اختياره خلال هذا المؤتمر عضوا في اللجنة المركزية لحركة فتح .

وقد قال النتشة في سياق مؤتمر صحفي « إن فتح تقدر الدعم الذي تقدمه لها المملكة العربية السعودية والذي يعتبر أكبر من أي دعم تقدمه جهة أخرى في العالم العربي والاسلامي » . ويبدو كما لو ان هذا الكلام (ومن المهم وضع خط أو خطين تحت كلمة « الاسلامي ») يقوله النتشة ليسمعه رفيقه هاني الحسن الذي يتحاشى أن يقول كلاما مماثلا وهو في طهران عن ايران وما تقدمه للثورة الفلسطينية .

وفي هذا الصدد ايضا تجدر الاشارة الى كلام قاله ياسر عرفات شخصيا خلال انعقاد قمة الصمود والتصدي في طرابلس (نيسان ١٩٨٠) وخلاصته إن اكبر صفقة سلاح في تاريخ المقاومة الفلسطينية دفع العراق الى المجر ثمنها بالكامل .

وعلى رغم أن ما حصلت عليه الثورة الفلسطينية من الثورة الايرانية متواضع جدا بنسبة ما تستطيع ايران وقياسا بما يجب أن تقدمه ، فان الايرانيين يتصرفون مع قيادة الثورة الفلسطينية وكأنما قدموا لها ما لم يقدمه أحد . وخلال انعقاد « المؤتمر الشعبي العربي » في بغداد لمناقشة الاعلان القومي الذي طرحه الرئيس صدام حسين يوم ٨ شباط ١٩٨٠ قال أحد قادة المقاومة هايل عبد الحميد (ابو الهول) الذي شارك في المؤتمر إن الجزر الثلاث المحتلة من ايران عربية . ففوجىء هاني الحسن وهو في طهران بغضب ايران على هذا الموقف البدهي من جانب احد القادة الفلسطينيين . وقد بذل « سفير فلسطين » في ايران مشقة في اطفاء الغضب بموقف ينسجم مع قناعاته القومية لكنه لا يرضي منطق الثورة الايرانية .

وفي بعض المراحل افترضت الثورة الفلسطينية أن الامام الخميني يمكن أن يضع في ايديها اوراقا يمكن أن تلعبها في تحركها الدبلوماسي الذي تزايد شأنه في الفترة التي اعقبت نجاح الثورة في ايران . ومن هذه الاوراق ورقة الرهائن الذين كان يمكن مقابل تسليمهم الاشتراط على الولايات المتحدة الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية ، أو الافراج عن عشرات المناضلين الذين تغص بهم السجون الاسرائيلية . ولم يحدث ذلك وبقيت ازمة الرهائن تنتقل من تعقيد الى آخر . كذلك لم يأخذ الامام الخميني بفكرة سادت بعض الوقت في اوساط الثورة الفلسطينية وخلاصتها أن يتم تسليم الجزر الثلاث المحتلة الى منظمة التحرير الفلسطينية وهي بدورها تعيدها الى اصحابها الشرعيين ، وبذلك يكون الامام

الخميني أعاد الجزر في سياق مخرج لائق وعزز في الوقت نفسه الثورة الفلسطينية .

الملاحظة السادسة ـ ان الامام الخميني لا يعيد الجزر لكي يظهر عجز العرب عن ذلك . ويبدو ضمنا كمن يقول لماذا اجزتم للشاه إحتلال الجزر بالقوة ولماذا تريدون استعادتها بالحسنى ؟

وعمليا إن الشاه احتل الجزر في ٣٠ تشرين الثاني ١٩٧١ تحت سمع العالم وبصره وفي وقت كانت شوكة العراق ضعيفة وبنياته العسكرية على شيء من الضمور . وعندما احتل الشاه الجزر كانت خريطة المعادلات السياسية في المنطقة العربية على غير ما هي عليه اليوم . باستثناء العراق وليبيا فان هدنة عربية غير معلنة كانت قائمة بين الشاه وبقية الانظمة العربية .

ولكن ثمة سؤال : ما دام الخميني يرفض اعادة الجزر فلماذا لا يوظفها توظيفا استراتيجيا ضد مصالح الغرب ؟

إن هذه الجزر تشرف على مضيق هرمز الذي يحمل تسمية استراتيجية هي « باب الخليج العربي » . وعندما احتل الشاه الجزر الثلاث فللتحكم بهذا المضيق الذي تمر به ناقلة نفط كل ١٢ دقيقة (هذه هي النسبة التي كانت عليها الحال عام الاحتلال) . والتحكم لمصلحة من ؟ انه لمصلحة الغرب ؟ ومعنى ذلك أن في أيدي ايران أن تمارس ضغطا كبيرا على الغرب ، ولكن مثل هذا الضغط لم يمارس في وقت تبدو الحاجة كبرى الى ممارسته .

وعمليا إن الجزر الثلاث وبالذات جزيرة (ابو موسى) كانت مواقع ايرانية يتسلل منها رجال السافاك الى كل مكان في المنطقة العربية . وعندما احتلها الشاه كانت حجته أمام الولايات المتحدة وبريطانيا أن عدم موافقته على احتلال الجزر الثلاث معناه ترك هذا الموقع البالغ الأهمية عرضة لعناصر ثورية عربية تدمر مصالح الغرب في المنطقة . ويفترض الان في الحكم الثوري الوطني الذي حل محل الشاه ان تمارس القوات الايرانية التي تحتل الجزر الدور الذي تخوف الشاه من أن تمارسه العناصر الثورية العربية .

ولكن شيئا من ذلك لم يحدث . وفي الوقت نفسه لا تعيد ايران الجزر الى اصحابها الشرعيين ولا يبدو أنها ستعيدها لأن الرئيس بني صدر بعدما بعث العراق برسالة الى فالدهايم (في اعقاب حادثة قنبلة الجامعة المستنصرية) يطلب منه العمل على اعادة الجزر الى اصحابها تابع من على جزيرة ابو موسى (أكبر الجزر الثلاث وهي أقرب الى امارة الشارقة منها الى ايران) مناورات عسكرية ايرانية بدت كما لو انها عرض عضلات وتحديا لما يسعى من أجله الرئيس صدام حسين .

واذا كانت ايران لا تعيد الجزر الى اصحابها الشرعيين فان الاصحاب هؤلاء لا يقفون الموقف الذي يجعل عودة الجزر ممكنة . إن معاهدة أمنية بين العراق ودولة الامارات العربية المتحدة من شأنها ان تقلب المقاييس . ولا ندري ما اذا كانت زيارة الشيخ صقر بن محمد القاسمي حاكم رأس الخيمة للعراق يوم ٢ حزيران ١٩٨٠ تدخل ضمن استراتيجية العراق لاستعادة الجزر . واذا كان الشيخ صقر صرح لمجرد وصوله « ان موقف العراق من احتلال ايران للجزر يستحق كل تقدير واكبار » فانه من المؤكد تشاور مع الرئيس صدام حسين عندما قابله في اليوم التالي في أمور مصيرية ليس واضحا متى يمكن تنفيذها وفي ظل أي ظروف .

كذلك ليس واضحا ما اذا كان موقف الشيخ صقر هو موقف دولة الامارات أم انه موقف ذاتي يخص رأس الخيمة وحدها .

وتجدر الاشارة الى ان قبائل القواسمة التي ينتسب اليها الشيخ صقر هي التي كانت تسيطر خلال القرن الثالث عشر في العقدين الاولين من القرن التاسع عشر على هذه الجزر وعلى الساحل العماني والساحل الايراني . وقبل أن يجبر الانكليز القواسمة في اعقاب حرب معهم استمرت سنوات على توقيع اتفاقيات للحماية أبرمت عام ١٨٢٠ ، كان هؤلاء اظهروا شجاعة وتضحيات لا مثيل لها .

واذا كان حكام منطقة الخليج لم يأتوا الى بغداد في فترة تزايد مطالبة بعض الايات بالبحرين والكويت والامارات ووضع استراتيجية مشتركة للمواجهة لاسباب وظروف موضوعية تخص كلا من هذه الدول والامارات ، فليس معنى ذلك أن الرئيس صدام انتظر استكمال هذه الشكليات ليتخذ المواقف التي يجب اتخاذها .

وفي تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٩ كنت مع الرئيس اجري معه مناقشة(هي المنشـورة في الفصل الاخير من هذا الكتاب) . وعلى هامش المناقشة سألته عما استهدفه من ارسال مبعوثين الى البحرين والكويت وما علاقة مهمة هؤلاء بالتصريحات المتلاحقة من جانب بعض ايات الله في ايران التي يعتبرون فيها بعض الاقطار العربية جزءا من ايران . وفي حينه أجاب : « أردنا أن نقول لاشقائنا في البحرين والكويت أن اي جهة خارجية تتصور أنها قادرة على أن تنال من السيادة العربية كشعب أو كأرض لن تتمكن من ذلك . وما دمنا موجودين في مكان نستطيع من خلاله أن نوصل طاقاتنا بالضد فاننا سنفعل ذلك . قد لا يكون الوقت مهيئا لوضع طاقة العراق مباشرة من حيث الجغرافيا بالضد من الكيان الصهيوني ، لكن من المؤكد ان امكاناته مهيئة لان توضع بالضد من اي جهة عندما تحاول أن تنتهك السيادة البحرانية أو الكويتية ارضا وشعبا ... بل وكل الخليج . نحن لا نسمح بأن تمسخ عروبة الخليج لا كأرض ولا كشعب ، وكانت مهمة المبعوثين أن ينقلوا هذا لاشقائنا ويقولوا لهم باننا موجودون وبامكانهم الاستعانة بنا بقدر ما يحتاجونه وبقدر ما يسمحون لنا » .

ولكن هذا الموقف من جانب العراق فضلا عن مواقف اخرى ، حمل بعض المسؤولين الايرانيين على أن يبالغوا في العناد . وفي الجولة التي قام بها وزير الخارجية صادق قطب زادة الى بعض الدول العربية سئل بالعربية وهو في الكويت يوم ٢٥ نيسان ١٩٨٠ عن موقف بلاده ازاء مطالبة العراق باعادة الجزر الثلاث فاجاب بالانكليزية وبما معناه ان العراق ايضا فارسي . وهذا الجواب جعل الخليجيين عموما يزدادون حذرا من الثورة الايرانية ووضع الانظمة العربية التي تناصر الثورة الايرانية في موقف لا تحسد عليه .

والى ذلك ان الرئيس صدام حسين عندما يقول الكلام الذي قاله وأشرنا اليه في الاسطر السابقة عن البحرين والكويت والخليج عموما ، فليس فقط بدافع الحمية القومية وضرورات النجدة العربية ، وإنما استنادا الى واقع استراتيجي لا يجوز التساهل فيه . ففي العراق تنتهي طرق الملاحة في الخليج العربي ومن العراق يبدأ الجسر البري الذي يربط آسيا بأوروبا . وعندما اعلن العراق عام ١٩٧١ بعدما احتل الشاه الجزر الثلاث وقوفه الى جانب دولة الامارات وقطعه العلاقات مع ايران

وبريطانيا فانه كان يأخذ في اعتباراته ايضا الواقع الاستراتيجي الذي اشرنا اليه . كذلك انه في سعيه لتطوير العلاقات مع الخليج المستقل يأخذ في اعتباراته ذلك الواقع الاستراتيجي . ومثل هذا التطوير ما كان ليبدو متأخرا ويلقى بعض التعثر لو أن بريطانيا خلال حكمها الطويل للعراق حالت عمدا دون اي تفاعلات بين العراقيين والعرب عموما وبين ابناء الخليج ، وفي الوقت نفسه شجعت على هجرة الايرانيين الى بعض دول الخليج لكي تصل الحال ذات يوم الى ما وصلت اليه .

الملاحظة السابعة ـ هنالك الكثير من الوقود العراقي الذي وضع في نار حالة التأزم العراقية ـ الايرانية وهنالك الكثير من التباهي من جانب العراقيين رافق عودة الامام الخميني منتصرا على نظام الشاه . هل هذا مرتبط بنظرة العراقيين الى المفهوم الثوري عندهم وباعتدادهم بحزبهم وبالنضال الذي خاضه هذا الحزب قبل ان يتسلم الحكم ويستقر في الحكم ؟ أم أن له جذورا وظروفا غير التي تطفو عادة على السطح ويمكن تلمس الابيض والاسود منها بسهولة ؟

ان العراقيين تباهوا مثلا بانهم ثاروا على الملكية قبل عشرين سنة من ثورة ايران على امبراطورية الشاه . وتباهوا ايضا بأنهم عندما ثاروا على الملكية لم يضعوا الملك وحاشيته في طائرة خاصة اقلته الى منتجعات يستجم فيها كما فعل الثوار الايرانيون مع الشاه ، وإنما جعلوهم يدفعون حياتهم ثمن ما ارتكبوه بحق الشعب .

والى ذلك ان العراقيين لم يتركوا مناسبة الا واشاروا فيها الى الهزائم التي مني الفرس فيها على ايدي العرب وبالذات الهزيمة التي اوقعها العرب المسلمون في جيش كبير الاباطرة كسرى انو شروان وكيف دمروا له امبراطوريته . بل ان العراقيين حولوا انتصارات العرب على الفرس الى فيلم سينمائي ضخم يحمل عنوان « القادسية » تلك المعركة الكبيرة التي جرت وسط العراق بين العرب والفرس في مطلع العصر الاسلامي وانتصر فيها العرب ، وركزوا في توجههم الاعلامي والنفسي على أن الايرانيين تحرروا مرتين في تاريخهم من ظلم الأباطرة وفي المرتين كان التحرر على ايدي العرب . المرة الاولى عندما هزم العرب المسلمون كسرى انو شروان . والمرة الثانية عندما هزم الامام الخميني بسلاح الدين الشاه محمد رضا بهلوي . وهذا السلاح كان للعرب الفضل الاول في رفع شأنه ونشره بين الامم ومنها الامة الفارسية .

والى ذلك ايضا ان العراقيين صوروا الامام الخميني على انه ناكر للجميل وانه لا يحفظ الود ، واذاعوا ما لا يحب الامام اذاعته والتذكير به ، ونعني بذلك واقعة المغادرة وواقعة توسط العراق لدى الجزائر لاستضافة الخميني .

والأهم من هذا كله ، الموقف الذي يتخذه العراق من عربستان والذي اذا جاز القول هو الرزمة الكبرى من الوقود الذي يرمي به العراق في نار حالة التأزم العراقية ـ الايرانية .

وعندما تناقش المسؤولين العراقيين في هذا كله يقولون : من الذي بدأ ؟ ويضيفون الى ذلك سؤالا : هل ننتظر الفتح الفارسي لكي نتصرف ؟

وعندما تناقش المسؤولين اياهم في أن العراق يتصدى للثورة الايرانية ، والرئيس السادات ايضا يتصدى ، وشتان بين الموقفين يقولون : كون السادات يتصدى لا يعني أن على صاحب العقيدة أن يتخذ الموقف الخاطىء . العراق

صاحب موقف عقائدي أما موقف السادات فتمليه ظروف شخصية .
وعندما تناقش المسؤولين في أمر تصديهم للإمام الخميني ولماذا يجب أن تتعارض ايديولوجية حزب البعث مع سعي الإمام الخميني لتطبيق النظام الأسلامي ، يجيبون : إن حزب البعث يستلهم جزءاً كبيراً من عقيدته من الرسالة الإسلامية ، وهو لم يلجأ الى هذا الاستلهام بعدما ظهر الإمام آية الله الخميني وإنما قالها مؤسس الحزب ميشال عفلق عام ١٩٤٢ في محاضرة بعنوان « ذكرى الرسول العربي » ويومها كان الخميني شخصاً مجهولاً ولم يكن هنالك تيار اسلامي جارف يفرض عليه أن يقول الذي قاله جاعلاً البعثي غير المسلم له حصة في الاسلام . أما التوجه المذهبي للإمام الخميني فإنه لن يقود الى وحدة المسلمين الا اذا تم ذلك بالفتح المستحيل ، وإنما الى تجزئتهم . وللمناسبة اننا لا نظن ان الامام الخميني يمكن ان يقبل بما طرحته حركة فتح حول الدولة الديمقراطية التي يتعايش فيها المسلم العربي والمسيحي العربي مع اليهودي .
وأما عربستان فان نظرتنا الى انها عربية ليست جديدة وتأييدنا لشعبها لم يبدأ بعد قيام الثورة في ايران وانما من قبل ، ونحن نساعد شعب عربستان من أجل الحصول على الحكم الذاتي ونحن نعتقد أنه لولا العمليات الشجاعة التي قام بها مناضلون من عربستان ضد حكم الشاه لما كان لذلك العرش ان يهتز ويتساقط بسرعة . وهؤلاء قاوموا عرش الشاه بمشاعر قومية ووطنية وليس بسلاح الدين . ولعل كثيرين داخل ايران وخارجها يعرفون ان اضراب العمال العرب في مصانع النفط وموانىء الشحن عن العمل عجل في نهاية حكم الشاه .

ويبقى ان هذه الملاحظات قد تكون طالت وتشعبت ولكن ما بين العراق وايران متشعب . فالتعايش الصعب بينهما ليس ناشئاً عن مزاج وليس فقط بسبب خلاف على حدود .

ولقد أوردنا في معظم الملاحظات السابقة الكثير من الحيثيات التي تجعلنا نطلق حكما مبرما أو شبه مبرم بأن التعايش صعب والحرب حتمية . وآثرنا ان نختم هذا الفصل بعبارة للإمام الخميني من شأن التعمق في مضمونها الافتراض بان الحرب حتمية بين هاتين الدولتين اللتين تجمعهما حدود يبلغ طولها ١٢٥٠ كيلومتراً من أصلها ٣٠٠ كيلومتر هي طول الحدود بين العراق والمنطقة الأكثر تفجراً وثروات في ايران وهي عربستان .
ولقد وردت العبارة في كتاب « الحكومة الاسلامية » الذي هو عبارة عن دروس فقهية ألقاها على طلاب علوم الدين في النجف الإمام الخميني عام ١٣٨٩ هجرية أي في الوقت الذي كان البعث قد تسلم الحكم في العراق وكان الإمام الخميني لاجئاً هناك يقود من النجف حربه على الشاه محمد رضا بهلوي .
في ذلك الكتاب يقول الخميني « هل يكفي ان نملك النجف ؟ » ثم استطرد : « ... ونحن لا نملكها أيضا »

وفي ذلك الكتاب دعا الى ان تكون اجتماعات الحج « فرصة ذهبية لخدمة المبدأ والعقيدة وعلينا ان نفيد من موسم الحج ونجني منه أطيب الثمار » .

و بعد سنة من قيام الثورة الايرانية فتح الإمام الخميني موضوع النجف معلناً مطالبته بنقل المرجعية الدينية والحوزة العلمية القائمة فيه منذ أوائل القرن

الثالث هجري .

وعندما طلبت الصحف العراقية من رجال الدين في النجف رأيهم في المطالبة تبين ان هؤلاء يعتبرون مطالبة الإمام الخميني بأنها أمر سياسي وانه ليس هنالك ما يبرر نقل المرجعية الدينية والحوزة العلمية من النجف الى مدينة قم . وكان آية الله العظمى ابو القاسم الخوئي حاسماً في الأمر عندما قال « ان المرجعية باقية في النجف الأشرف وستبقى دوماً فيها » .

وتجدر الاشارة الى ان النجف وكربلاء هما مركز العتبات المقدسة للطائفة الشيعية وفيهما مراقد ائمة الشيعة (الأمام علي في النجف والإمام الحسين في كربلاء) . وفي النجف التي تبعد حوالى سبعين كيلو مترا عن كربلاء يتلقى شيعة من بلدان كثيرة علوم الفقه من خلال حلقات تدريس تعقد في المساجد . ويتوجه الى المدينتين ابناء الطائفة الشيعية حيث وجدوا لزيارة الاضرحة والمساجد التي في داخلها تلك الاضرحة . ولهذه المساجد قباب من الذهب الذي يمكن ملاحظة لمعانه على بعد كيلومترات . وفي النجف قبور بعض أولياء الله الصالحين مثل ادم ونوح وهود وصالح .

وفي استمرار يحرص العلماء في النجف وكربلاء على ابقاء الدين في منأى عن التأثيرات السياسية وهذا ما جعل دعوة الإمام الخميني بنقل المرجعية والحوزة الدينية الى قم لا تحظى بقبول هؤلاء .

الفصل الخامس

نكهة عباسية في عصر التكنولوجيا

"احفظ محمدا صلى الله عليه و سلم في امته يحفظك الله و يحفظ عليك امورك .

"واشحن الثغور و اضبط الاطراف و امن السبل وسكن العامة و ادخل المرافق عليهم و ادفع المكاره عنهم و اعد الاموال و اخزنها و اياك و التبذير فان النوائب غير مأمونة و هي من شيم الزمان و اعد الكراع و الرجال و الجند ما استطعت .

"و اياك و تأخير عمل اليوم الى الغد فتتراكم عليك الامور و تضيع . وجد في احكام الامور النازلات لاوقاتها اولا و اجتهد و شمر فيها وأُعد رجالا بالليل لمعرفة ما يكون بالنهار و رجالا بالنهار لمعرفة ما يكون بالليل .

"و باشر الامور بنفسك ، و لا نفجر و لا تكسل و استعمل حسن الظن . و اسىء الظن بعمالك و كتابك و خذ نفسك بالنيقظ و تفقد من تتبت على بابك و سهل اذنك للناس و انظر في النزاع اليك ووكل بهم عينا غير نائمة و نفسا غير لاهية .

"يا بني لا تنم . فان اباك لم ينم منذ ولي الخلافة . و لا دخل عينه الغمض الا و قلبه مستيقظ.

هذه وصيتي اليك و الله خليفتي عليك".

(من وصية الخليفة المنصور الى ابنه المهدي . قالها له عندما شعر بالمرض و هو ذاهب على عادته الى الحجاز سنة ١٥٨ هـ)

في أقل من تسع سنوات أصبح للعراق جيش من النوع الذي تتوقف طويلا عند وضع التقديرات لحجمه وتسليحه ونوعية هذا التسليح المؤسسات الاستراتيجية الدولية التي تعنى بنشر تقارير سنوية عن ميزان القوى في الشرق الأوسط .

وبقدر ما ان تكوين الحزب أخذ الكثير من تفكير صدام حسين بالقدر نفسه أخذ أمر تكوين الجيش . وفي المسألتين كان هنالك حرص من جانبه على أن تسير قوة الحزب مع قوة الجيش في خط متواز وبحيث لا يأتي وقت تصبح قوة الحزب متقدمة على قوة الجيش أو العكس .

وهو من أجل ان يتفادى وقوع الجيش في اللعبة التقليدية التي يقع فيها معظم جيوش العالم الثالث فانه وضع معادلة تقضي بان من حق الضابط في الجيش العراقي ان يتعاطى العمل السياسي داخل الجيش ما دام بعثيا . أما غير البعثي الحزبي فلا مجال له لكي يتعاطى العمل السياسي . ذلك ان السماح له بتعاطي العمل السياسي معناه - ما دام ليس بعثيا حزبيا - أن ينشط في سبيل انتمائه السياسي ، بحيث أنه اذا كان شيوعيا فانه سيعمل داخل الجيش من أجل قلب الحكم لمصلحة الحزب الشيوعي واذا كان ذا اتجاه ديني سياسي فانه سيعمل داخل الجيش من أجل قلب الحكم لمصلحة « حزب الدعوة » على سبيل المثال أو أي تنظيمات سرية أو علنية ذات طابع متدين .

أما البعثي الحزبي فانه سيعمل من أجل تثبيت السلطة المدنية للحزب .

وعندما تم اكتشاف تنظيم شيوعي داخل الجيش العراقي عام ١٩٧٨ بدا الأمر بالغ الخطورة بالنسبة الى صدام حسين مبلور « نظرية العمل البعثية في القوات المسلحة » . وقد تعامل مع الأمر بالحد الأقصى من الحزم حيث انه تم اعدام افراد التنظيم وهم عبارة عن ضابط وعدد من ضباط الصف والجنود .

وفي اعقاب تنفيذ الاعدام في حق هؤلاء قاد الاتحاد السوفياتي بطريقة غير مباشرة حملة على العراق تصدى لها صدام حسين بنفسه . وفي مؤتمر صحفي عقده في بغداد يوم ١٨ تموز ١٩٧٨ أوضح أمر الاعدامات بالقول « ان الذين اعدموا لم يعدموا لصفتهم السياسية الشيوعية وانما لعملهم التخريبي ... » .

ورفض صدام حسين اعتبار الأمر الذي حدث « عملية تطهير » داخل الجيش كما أشار أحد سائليه وانما « صيغة محاسبة ناس انحرفوا عن المنهج وتجاوزوا القوانين العراقية التي تحظر العمل الحزبي التنظيمي داخل القوات المسلحة وتجعله مقتصرا على حزب البعث العربي الاشتراكي لوحده ... » .

وعلى رغم ان صدام حسين لم يسم السوفيات لكنه بدا في احدى العبارات التي وردت في اجوبته على الاسئلة التي وجهت اليه خلال المؤتمر الصحفي انه يعنيهم في شكل أو آخر « الذي يحاول ان يلعب بالجيش العراقي ينطلق من نوايا سيئة ومن نوايا غير شريفة ... » .

و « نظرية العمل البعثية » التي اشرنا اليها تأخذ في الاعتبار السجل الوطني الجيد للجيش العراقي منذ ان تأسس عام ١٩٢١ ، وكيف مارس بعض الادوار الثورية مع الثورة الوطنية المسلحة عام ١٩٤١ ضد الاستعمار البريطاني ، فضلاً عن رفضه التصدي للاحزاب والتظاهرات والحركات الشعبية ما دامت ذات توجه وطني ، ووقوفه جنباً الى جنب مع الجماهير في ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ التي اسقطت الملكية في العراق .

ومنذ ان أكد التقرير القطري الثامن (كانون الثاني ١٩٧٤) على « ضرورة تكثيف الجهود لبناء الجيش العقائدي على أسس ومبادىء وافكار حزب البعث وثقافته القومية والاشتراكية » وصدام حسين يواصل بلورة « نظرية العمل البعثية » في ضوء المتغيرات والتطورات وفي ضوء طبيعة التسلح . وفي اطار ذلك تم احلال عناصر بعثية شابة في مواقع قيادية وتم ابعاد عناصر لا يتناسب ولاؤها للعقيدة البعثية مع رغبة دفينة في المغامرة . ومنذ ثورة ١٧ ـ ٣٠ تموز ١٩٦٨ بدأ الأخذ بقاعدة تقوم على وضع ضباط بعثيين في المواقع التي تخلو القيادة فيها بانتهاء مدة الخدمة للضباط غير البعثيين واصبح كلما أحيل ضابط كبير الى التقاعد يحل محله ضابط بعثي يراعى في اختياره ان يكون كفوءا وأصلب بعثية . والى ذلك ان الكليات العسكرية لا تقبل سوى البعثيين ، ومعنى ذلك ان ضباط الثمانينات سيكونون بعثيين في مجملهم .

ومع ان بذرة البعث مزروعة داخل الجيش في العراق منذ الخمسينات الا أنه عندما تسلم الحزب السلطة المدنية تبين ان تلك البذرة لم تكن قد نمت بالشكل الجيد ثم جاءت الفترة التي أعقبت ثورة ١٧ ـ ٣٠ تموز تعزز ما فات . ومثلما يحدث في القطاع المدني تبشير بافكار حزب البعث ومبادئه ، يحدث في القطاع العسكري . وهنالك عناصر تابعة لما يسمى « التوجيه السياسي » تتولى داخل الجيش مهمة نشر مبادىء الحزب وتعميق مفهوم الدور السياسي للضابط العراقي . وفي استمرار هنالك ندوات تعقد ومناقشات في قضايا سياسية تتم داخل

الثكنات والقواعد الجوية وكلها تصب في اتجاه ما يعكسه الشعاران المألوفان داخل الجيش العراقي وهما « البعثي الجيد هو العسكري الجيد » و « العسكري الجيد هو بعثي كذلك ضمن اطار خدمة الوطن » .

ويشعر البعثيون العسكريون بان بينهم وبين صدام حسين رابطة من نوع متميز . فهو الذي نشط في سبيل الا يكون الجيش مجرد جيش محترف . وله في هذا الاطار تعبير يحفظه تماماً ضباط البعث « اننا نرفض فكرة الجيش المحترف كما يفهمها ويعمل عليها اليمينيون ونعتبر شعار عدم تدخل القوات المسلحة في السياسة شعارا خطيرا » . وصدام حسين أيضا هو الذي يرسم الأدوار الطموحة للجيش العراقي سواء على الصعيد القومي « ان جيش العراق هو جيش الأمة العربية الذي عليه ان يلبي النداء عندما تحدق الأخطار بالأمة » أو على الصعيد القطري « ان الجيش هو تاج الشعب وليس طبقة فوق الشعب » . وفي حفل تخرج « دورة ٧ نيسان » التي تضم نخبة من البعثيين في القوات المسلحة « ممن نالوا « شرف العضوية » (العبارة التي تستخدم عند الاشارة الى ان البعثي أصبح عضوا عاملا في الحزب) بدا كم ان الرئيس صدام حريص على ان يحضر بنفسه ذلك الحفل الحزبي ربما لان نيل عسكري عضوية الحزب أمر يعنيه كثيراً في المرحلة الراهنة . وربما لانه وجد في ذلك الحفل فرصة جيدة ليقول كلاماً يرد فيه على الامام الخميني الذي قال قبل ذلك بأسبوعين « ان النظام العراقي الذي يهاجم ايران انما يهاجم القرآن والاسلام » .

وبدا الرئيس صدام سعيدا وهو يحضر حفل تخرج « دورة ٧ نيسان » وهي الأولى منذ ان تسلم المسؤولية الكاملة . أما الكلام الذي اراد ان يقوله فهو « انتم بناة رنيسيون في البيت الذي نريد بناءه ولا تنسوا انكم جنود رسالة وعليكم مهمة أساسية في ان تكونوا الفصيل الأمامي في حمل الراية مثلما كان جيش المسلمين عندما وصل الى الصين واسبانيا . ان العروبة الجديدة الآن هي روح جديدة من الاسلام بالكامل وروح جديدة في كل مقاسات السماء ... وكل واحد يقف ضد العروبة الجديدة انما يقف ضد الاسلام قطعا مهما حاول أن يغطي نفسه » .

هنا تجدر الاشارة الى انه من خلال صيغة النبأ الذي نشرته الصحف الصادرة في اليوم التالي يتبين ان الرئيس صدام حضر ذلك الحفل بصفته الحزبية (نائب الأمين العام لحزب البعث العربي الاشتراكي أمين سر القطر) وليس بصفته كرئيس للجمهورية ورئيس لمجلس قيادة الثورة . وفي تلك الصيغة لم تقل الصحف ان « الرئيس القائد » صدام حسين حضر الحفل ... وانما ذكرت ان « الرفيق المناضل » حضر الحفل .

وهذه الصيغة ليست عفوية . وهي لإشعار البعثيين وغيرهم باولوية المنصب الحزبي على منصب رجل الدولة ورجل الثورة .

ولقد حدثت عام ١٩٧٦ ـ ١٩٧٧ نقلة نوعية بالنسبة الى الجيش العراقي باكتمال خطط تسليح بالغة الأهمية وبتسليم عناصر شابة وحزبية المواقع القيادية . وباكتمال هذه الخطط حلت مشاعر ثقة بالنفس وبالقدرة العسكرية محل المشاعر

المعاكسة بعض الشيء والتي سادت في فترات المواجهة مع نظام الشاه ، عندما وجد العسكري العراقي نفسه يواجه خصما سلحته الولايات المتحدة بأجود الأسلحة وأكثرها تقدما .

وعند مناقشة مسؤولين قياديين في أمر الجيش وهل انه في القوة التي تجعل الرئيس صدام حسين يكثر من الحديث بان الجيش العراقي « ليس للدفاع عن الحدود وانما الجيش العراقي مصمم لاغراض الأمة العربية » تسمعه يجيبون وبكثير من الثقة بالنفس ان الجيش العراقي أقوى من الجيش التركي ومن الجيش الايراني .

ولا يستند هؤلاء القياديون في كلامهم هذا فقط الى نوعية التسليح الجيدة التي تأمنت للجيش العرقي وانما الى الماضي القتالي للجيش . ويعقد هؤلاء مقارنة بين الجيش العراقي والجيش التركي والجيش الايرانى فيشيرون الى ان الجيش التركي لم يدخل منذ الحرب العالمية الأولى وحتى اليوم أي معارك باستثناء معركته في قبرص والتي لا يمكن اعتبارها معركة وانما حالة تدخل عسكرية . والجيش الايراني لم يدخل في العصر الحديث معركة على الاطلاق ولم يتسن لهذا الجيش ان يختبر قدراته القتالية . وعلى مدى سنوات طويلة فان المعارك التي خاضها الجيش الايراني كانت في اطار نزاعات داخلية . وحتى الجزر العربية الثلاث أبو موسى وطنب الكبرى وطنب الصغرى فان الجيش الايراني لم يحتلها بعد معركة .

أما الجيش العراقي فانه منذ عام ١٩٤١ وهو يعيش حالات قتالية . وفي ذلك العام خاض معركة حقيقية ضد الانكليز . ثم شارك عام ١٩٤٨ في المعارك ضد اليهود . وكانت المعارك التي دارت على مدى عشر سنين في المناطق الجبلية خلال التمرد الكردي من النوع القاسي . وقبل مشاركة الجيش العراقي في حرب ١٩٧٣ العربية - الاسرائيلية كان اثبت قدرات قتالية جيدة في الصدامات التي شهدتها الجبهة العراقية - الايرانية في سنوات ١٩٧٠ و ١٩٧١ و ١٩٧٢ وحتى ما قبل اتفاقية آذار ١٩٧٥ التي انتهت الى صيغة من التعايش الحذر . وفي كل هذه المعارك أو القسم الأكبر منها لم يقتصر القتال على العمليات النظامية وانما كانت هنالك حرب عصابات وفي مناطق متنوعة ، جبلية وسهلية .

والى ذلك ان سياسة تنويع مصادر السلاح اعتمدت بحيث لا يأتي نوع على حساب آخر ، وبعيداً عن التشهير الذي رافق عملية تنويع مصادر السلاح في مصر والتي نفذها الرئيس أنور السادات بأسلوب استهدف منه في الدرجة الأولى تدمير سمعة السلاح السوفياتي .

ولان رغبة العراق في تنويع مصادر السلاح تمت في اطار تقاليد تحفظ لكل صاحب حق حقه وتحافظ على سمعته فان حصول العراق على طائرات الميراج الفرنسية لم يأت على حساب الميغ السوفياتية . ومن هنا فان الجيش العراقي يبدو وحيداً في جمعه بين نوعين من السلاح هما السلاح السوفياتي والسلاح الفرنسي . واذا سارت خطط التسليح المستمرة بالاسلوب المعمول به منذ سنوات، عشر سنين أخرى فان قواته البرية ستكون معتمدة في الدرجة الأساسية على الدبابات السوفياتية في

حين ان قواته الجوية ستكون معتمدة في الدرجة الأساسية على المقاتلات وطائرات النقل والهليكوبتر الفرنسية . وهنالك تركيز منذ فترة طويلة على سلاح البحرية . وفي ضوء الخطط الموضوعة لتعزيز هذا السلاح والتي اكتمل بعضها سيصبح للعراق قوة بحرية أساسية . لكن يبقى الأهم من هذا كله سعي العراق لامتلاك الاسلحة التي تجعله يقترب بعض الشيء من مشارف القدرة الهجومية وليس الدفاعية فقط . بل ان مسألة السعي للحصول على السلاح النووي لم تعد سرأ . والذي يكسب هذا السعي نسبة كبرى من الجدية هو ان الرئيس صدام حسين يوالي التركيز على ان جيش العراق هو للدفاع عن الأمة العربية . ولان ساحة الأمة رحبة فانها تحتاج الى السلاح الأكثر تطوراً . ومن هنا يمكن فهم تركيز الرئيس صدام على طبيعة دور الجيش العراقي الذي يرعاه ويبنيه بالكثير من التنبه على أنه التهيئة النفسية التي تسبق وصول الجيش الى القدرات التي يشير اليها الرئيس صدام . بل قد يجوز فهم اكثاره من الاشارات الى الدور القومي الكبير للجيش العراقي على انه اطمئنان لسير عملية التسليح التي خطط لها في الطريق المرسوم لها بحيث انها شارفت مرحلة ما بعد السعي من أجل الحصول على ذلك السلاح .

ان الرئيس صدام حسين لا يمكن ان يكثر من الكلام في شأن الدور الكبير للجيش العراقي وعلى مستوى الأمة لو أنه كان فقط يستهدف رفع المعنويات . وهو قياساً بما أصبح عليه الجيش بعدما تسلم المسؤولية الكاملة يوم ١٧ تموز ١٩٧٩ وبين ما كان عليه هذا الجيش عندما قامت ثورة ١٧ ـ ٣٠ تموز يشعر وهو يكثر من الاشارات الى الدور القومي الكبير المرتقب للجيش العراقي بالحد الاقصى من الثقة بالنفس . واستناداً الى تقديرات مؤسسات الدراسات الاستراتيجية الغربية التي ترصد عمليات التسليح في العالم فان الجيش العراقي كان عندما تسلم صدام حسين المسؤولية الكاملة ناهز الربع مليون جندي وضابط ولديه ٢٥٠٠ دبابة ومثل هذا العدد ناقلات مدرعة وأكثر من ٧٠٠ طائرة مقاتلة وقاذفة .

وفي كل مرة سترتفع فيها نبرة الرئيس صدام وهو يتحدث عن الدور القومي الكبير للجيش العراقي سيكون معنى ذلك ان سرباً جديداً من الطائرات المتطورة وصل أو بعض أنواع السلاح المتطور ثقيلاً أو خفيفاً وصل الى الجيش في العراق من أحد المصدرين (الاتحاد السوفياتي وفرنسا) أو من الاثنين معاً . وهنا من المهم الأخذ في الاعتبار ان ميزان التسليح سيتأثر مستقبلا لمصلحة الطرف الذي سيكون مستعداً لتأمين الاحتياجات الأكثر تطوراً والاحتياجات النووية التي يسعى اليها العراق .

وثمة سؤال : كيف يمكن ان يتعايش سلاحان ، سلاح غربي وسلاح شرقي ، مع جيش واحد ؟ وهل ان مثل هذا الوضع لا يقود الى تناقض بين مدرستين في السلاح والتدريب ، وهل من الطبيعي تعايش الضابط الذي يتلقى تدريباً في الاتحاد السوفياتي مع الضابط الذي يتلقى تدريباً في فرنسا . ؟

وقد يكون الرد المنطقي على ذلك هو ان العقيدة البعثية التي يعتنقها معظم الضباط هي الكفيلة بتأميم التناقضات المحتملة النشوء بمعنى انه ما دام ولاء الضابط لعقيدته هو الاساس فان نظرته الى سلاحه ومدرسته العسكرية هي في حدود

ما يمكن ان يقدمه عبر هذا السلاح الى عقيدته . والى ذلك ان السلاح الأوروبي لا يشكل عنصر استفزاز للسلاح السوفياتي وهو يبدو محايداً قياساً بالسلاح الأميركي . وفي هذا الاطار يؤدي « التوجيه السياسي » الدور المطلوب . وعندما يكون الضابط مثقفاً سياسياً لا تعود مثل هذه المفارقات أساسية في مسلكيته وفي اسلوب تعامله مع السلاح الذي بين يديه .

ويمثل الاقتدار الاقتصادي عنصراً مهماً في خطط العراق من أجل ان يصبح الجيش هو الاقوى بين جيوش دول الشرق الأوسط . وبفضل هذا الاقتدار لا وجود لشكوى من نقص في الذخيرة ، وكذلك هنالك توجيهات مستمرة من أجل تذليل أي عقبات على الصعيد الاجتماعي تواجه العسكري العراقي . وفي الوقت نفسه هنالك تنبه من الرئيس صدام الى أمرين : الا يشعر الضابط البعثي بانه بالتميز المعطى له يجب ان يتصرف على أساس انه يمثل النخبة ، وألا ترافق البيروقراطية هذا الجهد الضخم لانشاء الجيش الأقوى . وفي هذا الاطار يمكن فهم قول الرئيس صدام في اول لقاء له بعسكريين بعد حوالى أسبوعين من تسلمه المسؤولية الكاملة (زيارة الى منتسبي الفوج الأول للواء الحرس الجمهوري قام بها يوم ٢٩ تموز ١٩٧٩) انه « لا بد ان تسود المفاتحة الثنائية أو المحدودة بالصراحة الكاملة بينكم كرفاق عقيدة ورفاق سلاح لخدمة العقيدة . ان القائد العربي المسلم في جيش الفتوحات الاسلامية لم يكن بينه وبين جنوده أية فاصلة بيروقراطية لا في الحياة ولا في الفهم ولا في اداء الواجب ، ذلك لان الراية والسيف كانا يتقدمان الجميع » .

والى ذلك ان وجود الجيش الآخر أو الجيش الرديف اذا جاز القول ونعني به « الجيش الشعبي » يقلل من هموم واهتمامات الجيش النظامي بالنسبة الى الجبهة الداخلية .

وانشاء « الجيش الشعبي » جاء في اطار نظرية حزب البعث في كيفية التصدي للمخاطر التي تواجه الأمة ، واسلوب التعبئة الذي تعتمده اسرائيل عند قيام حرب مفاجئة حيث يتم في ساعات التحاق بضعة ألوف من المدنيين بوحداتهم .

وقد أحاط صدام حسين منذ البداية فكرة انشاء « الجيش الشعبي » بالكثير من الاهتمام . ويخضع الحزبيون وغير الحزبيين الى تدريبات في منتهى القساوة وعلى أساس انه اذا اضطرت الظروف الجيش النظامي الى القيام بدور خارج الحدود فان « الجيش الشعبي » يستطيع ان يكفل حماية البلد . كذلك اذا اضطرت الظروف الاستعانة بقوات من « الجيش الشعبي » فانه سيجد في تصرفه وحدات مدربة تدريبا جيدا .

والذي يخضع لدورة في « الجيش الشعبي » لا يقتصر تدريبه على استعمال البنادق والرشاشات . فهنالك تدريب على الدروع وهنالك دورات تدريب على التصدي للطائرات العدوة . ويستطيع الجيش النظامي اذا هو احتاج فجأة الى عناصر تقود الدبابات ان يطلب ذلك من قيادة « الجيش الشعبي » ويلبي طلبه بالسرعة المطلوبة

ومنذ تأسيس هذا الجيش في مطلع عام ١٩٧٠ وهنالك عملية تطوير مستمرة له . وحتى قبل ان يتسلم صدام حسين المسؤولية الكاملة كانت التقارير التي ترفع له عن « الجيش الشعبي » موضع اهتمامه الكبير .

ويتولى قيادة « الجيش الشعبي » مناضل قديم في حزب البعث هو طه ياسين رمضان الذي اسند اليه الرئيس صدام بعد توليه المسؤولية الكاملة منصب النائب الأول لرئيس الوزراء . وقبل ان يعلن الرئيس صدام ميثاق ٨ شباط ١٩٨٠ بأربعة أيام كان طه ياسين رمضان يقول في مؤتمر صحفي عقده لمناسبة الذكرى العاشرة للجيش الذي يقوده ان عدد مقاتلي هذا الجيش المدربين على جميع انواع الأسلحة الحديثة بلغ ربع مليون مقاتل وان قوات المغاوير في هذا الجيش ارتفعت الى عشرات الألوف وبامكانها الوصول الى الأماكن المحددة لاهدافها بأقل من نصف ساعة .

وقد روعي في أمر « الجيش الشعبي » الا يكون التدريب معطلاً للانتاج ، ومن أجل ذلك فان التدريبات تتم بعد اوقات العمل . وعام ١٩٧٧ بدأ تدريب النساء ضمن تشكيلات « الجيش الشعبي » . وبعدما تسلم صدام حسين المسؤولية الكاملة بسبعة أشهر فتحت مدرسة الطيران العسكرية التي اقيمت في تكريت (مسقط رأس صدام حسين) ابوابها أمام النساء ، وقد التحقت بالمدرسة عدة فتيات بدأن التدريب على قيادة الطائرات .

ويأخذ النظام المعمول به في « الجيش الشعبي » في الاعتبار الحركة السريعة في المهمات التي يمكن ان يوكل بها اليه . والمجموعة هي أصغر وحدة قتالية في هذا الجيش وتتألف من ١٥ مقاتلاً كحد أدنى ولكل مجموعة آمرها ومعاونه . بعد ذلك تشكل كل أربع أو ست مجموعات قاعدة مقاتلة يصل عدد افرادها الى تسعين مقاتلاً ولكل قاعدة آمرها ومعاونه أيضاً . ويلي القاعدة في التنظيم الهرمي لتشكيلات « الجيش الشعبي » القاطع ، المؤلف من ست قواعد مقاتلة ، ثم المنطقة . ومجموعة المناطق تشكل القيادة العامة .

وقبل ان يعلن طه ياسين رمضان ان عدد مقاتلي « الجيش الشعبي » المدربين على جميع انواع الاسلحة الحديثة وصل الى ربع مليون ، كانت تمت تجربة استنفار ناجحة سيطرت بموجبها القوات المستنفرة على المدن والقرى ومفارق الطرق .

وفي بعض مراحل المواجهة اللبنانية ـ الاسرائيلية شاركت عناصر من « الجيش الشعبي » في عمليات في مناطق عدة من جنوب لبنان .

وتبقى الاشارة الى انه عندما يكون عدد القادرين على استعمال السلاح والقتال حوالي نصف مليون (جيش نظامي وجيش شعبي) بينما عدد سكان العراق لا يتجاوز ثلاثة عشر مليوناً ، فمعنى ذلك ان الرئيس صدام يستند الى مقومات أساسية عندما يتحدث بثقة عن الدور القومي الكبير للجيش العراقي .

ومع ان صدام حسين ليس في الأصل عسكرياً فان لديه القدرة لاشعار العسكريين ضباطاً وجنوداً بانه واحد منهم . وقبل ان يتسلم المسؤولية الكاملة كان لا يقوم بالزيارات التي أصبح يقوم بها بعدما تسلم وهذا مرده الى انه قبل ان يتسلم كان شريكاً في القيادة لكن عدم اسناد منصب عسكري اليه كان سبباً في ألا يقوم بالزيارات الميدانية والمفاجئة للوحدات العسكرية تاركاً ذلك للرئيس البكر .

وبعدما تسلم المسؤولية الكاملة ومنها منصب القائد العام للقوات المسلحة وجد الرئيس صدام حسين ان العلاقة الانسانية مسألة أساسية بين القائد والعسكريين .

وانطلاقاً من ذلك أصبح بين الحين والآخر يقوم بزيارات الى الوحدات . وتتم هذه الزيارات عادة في الصباح المبكر حيث يتناول طعام الفطور مع الضباط والجنود . وتكون الزيارة مناسبة للاستفسار عن المشاكل المعيشية والاجتماعية للعسكريين ووضع الحلول السريعة لها . لكنه وهو يطمئن هؤلاء الى ان مشاكلهم ستحل لا ينسى ان يذكرهم بواجبهم القومي . وفي احدى هذه الزيارات لخص للعسكريين هذا الواجب على النحو الآتي : « نحن ابناء محافظة واحدة كبيرة اسمها العراق وعندما نكون في الوظيفة نكون في خدمة الواجب الذي يعطى لنا وفي أي مكان منه . كما نحن أيضاً ابناء محافظة أكبر من العراق اسمها الوطن العربي ، وعندما يدعونا الواجب القومي يجب أن نؤديه وفي أي بقعة من هذا الوطن » .

واذا كانت طبيعة العلاقة بين الرئيس صدام حسين والعسكريين ليست واضحة لمعالم تماماً ويصعب اعطاء الأمثلة حولها نتيجة ان عالم الجيش ليس منفتحاً الى الدرجة التي يمكن الوقوف على ما يدور فيه وعلى العلاقة ذات الطابع الانساني بين القائد وهؤلاء العسكريين ، فان طبيعة العلاقة التي بين الرئيس صدام والمدنيين واضحة تماماً ويمكن تسجيل أمثلة كثيرة ووقائع أكثر في شأن هذه العلاقة .

وقبل تسجيل هذه الامثلة والوقائع يمكن الافتراض ان اسلوب تعامل الرئيس صدام مع العسكريين لن يختلف كثيراً عن اسلوب تعامله مع المدنيين خصوصاً ان المنطلق للاسلوب الذي نعنيه ، واحد ، وهو جعل العلاقة الانسانية وتقاليد الاجداد أساسية بين القائد والمواطن .

نأتي الآن الى الأمثلة والوقائع ...

في قلب جبل مطل على سهول نينوى بالقرب من مدينة الموصل يقوم دير يشبه دير سانت كاترين في صحراء سيناء ، وعلى مقربة من هذا الدير هنالك قرية صغيرة تضم ثلاثين عائلة مسيحية .

ويعيش داخل « دير متى » عدد من الرهبان يستقبلون بين الحين والآخر المسيحيين الذين يفدون لزيارة هذا الدير المقدس الذي يعود تأسيسه الى القرن الرابع الميلادي .

ويوم ١٨ نيسان (ابريل) وصل الى الدير زائر استثنائي وهو مسلم وليس مسيحياً . وعندما نزل هذا الزائر من طائرة الهليكوبتر التي اقلته لم يصدق رهبان الدير ان زائرهم هو صدام حسين رئيس دولة العراق .

تجول الرئيس صدام حسين داخل الدير وسأل عن صحة الرهبان المسنين واوصى بسفر اثنين منهم على نفقه الدولة الى الخارج لعلاج عيونهم . أما القرية الصغيرة التي قاسى اهلها كثيرا خلال فترة التمرد الكردي فان الرئيس صدام اوصى بمساعدة الدولة لكل عائلة من عائلاتها الثلاثين بمبلغ الفي دينار .

وكان يمكن ادراج هذه الزيارة في مسلسل الزيارات المفاجئة التي يقوم بها الرئيس صدام منذ ان تسلم المسؤولية الكاملة للمناطق القريبة والبعيدة والنائية ،

لولا أن « دير متى » مرتبط بأمر تاريخي مهم ، ذلك انه عانى كثيرا وتعرض للتدمير والنهب في الفترة التي كانت البلاد خاضعة للحكم الفارسي . وهذا الأمر كان محور الحديث الذي دار بين الرئيس صدام وبين رئيس الدير الراهب اسحاق ساس الذي بدا معتزا بنفسه وهو يستمع الى الرئيس صدام يتحدث عن دور المسيحيين العرب في نضالهم ضد الفرس . وغادر الدير بعدما وزع على رهبانه والعاملين فيه بعض الهدايا .

ومثلما انه لم يحدث في تاريخ هذا الدير ان زاره رئيس البلاد من قبل فانه لم يحدث في تاريخ قطاعات اخرى كثيرة من العراقيين ان وجدوا الرئيس فجأة يطرق بابهم أو يحل في ديارهم ومن دون ترتيبات مسبقة .

وذات يوم فوجيء الرعاة برجل طويل القامة يضع اليشمك على رأسه ويلقي عليهم التحية ، وعندما سألوه من تكون أجابهم : أنا صدام حسين جئت استفسر عنكم. انت الرئيس صدام اذن ، يا اهلا . ثم افترش الأرض ، وتباسط وإياهم الحديث وشرب من حليب اغنامهم واكل من خبزهم وزادهم . وعندما شكا له هؤلاء الرعاة من انهم بلا بنادق قدم لهم بنادق جديدة هدية منه . وهي هدية من الصعب ان ينساها الرعاة . وقبل ان ينهي زيارته لهم الح عليهم ان يقولوا ما اذا كانت لديهم طلبات من الدولة . وتقدم اليه احدهم يشكو حالة ابنه الاصم (وهو في العاشرة) والذي لا قدرة له على علاجه . فطلب الرئيس من مساعديه ان ينقل الابن الى بغداد للعلاج على ان يعيده لهم بعد ان يشفى باذن الله . وغادر الرئيس منطقة الرعاة وفي داخل سيارته ابن الراعي الذي ادخل المستشفى في بغداد للعلاج . أما المساعدون فانهم سجلوا مذكرة تتضمن توجيه الرئيس الى الدوائر المختصة بتهيئة الظروف الملائمة للرعاة لكي يساهموا في تنمية الثروة الحيوانية في البلاد جنباً الى جنب مع مؤسسات الدولة في هذا المجال .

تمت زيارة الرئيس صدام للرعاة في منطقة الكوت بعد ظهر يوم الاثنين ٢٤ اذار (مارس) ١٩٨٠ . وقبل الظهر كان الرئيس مرتديا بدلته الانيقة دائما يستقبل في القصر الجمهوري الطلبة الاوائل والهيئة التدريسية للمتوسطة الشرقية للبنين ويوزع عليهم الهدايا التقديرية ويسمع منهم كلاما عن مشاكلهم الدراسية ويتشاور معهم في الحلول ويقول لهم ما من شأنه ان يرفع فيهم روحهم المعنوية « ان الامة العربية التي يفكر في مصيرها اناس في الثالثة عشرة والرابعة عشرة والخامسة عشرة من العمر لا يمكن الا ان تكون بخير » .

وكثيرا ما ظهر الرئيس صدام على العراقيين في شخصيتين . شخصية ابن البلد الذي يشعر المواطن بانه قريب جدا منه وشخصية رجل الدولة الذي تفرض عليه الظروف الرسمية ان يتحرك في اطار البروتوكول وطقوسه الكثيرة . ويوم الاربعاء ١٦ نيسان ١٩٨٠ كان عند الظهر مرتديا اليشمك وسترة عادية يخطب في الجماهير عند زيارته لقضاء الحضر في محافظة نينوى ضمن جولته في المحافظة . وفي المساء كان بكامل اناقته وبالبدلة وربطة العنق يترأس في دار الضيافة في المحافظة وفد العراق الى المحادثات الرسمية مع ضيف البلاد رئيس جمهورية مالديف مأمون عبد القيوم .

وفي الصباح الباكر من يوم ٨ تشرين الاول ١٩٧٩ وكان مضى على تسلمه المسؤولية الكاملة شهران وبضعة ايام لاحظ وهو في سيارته عندما كان يمر في أحد شوارع بغداد فتى في عمر ابنه الثاني قصي (١٤ سنة) يقف على رصيف الشارع فاوقف السيارة بالقرب منه وسأله : الى اين انت ذاهب ؟ وأجاب الفتى انه في الطريق الى المدرسة ، وساله ما هي مدرستك فأجاب : إنها ثانوية العطيفية للبنين . وقال له : أصعد سأوصلك بسيارتي الى المدرسة .

وفي البداية لم يعرف الفتى انه في سيارة الرئيس صدام حسين . وفي داخل السيارة سأله الرئيس : هل انت بعثي ؟ وأجاب الفتى : نعم استاذ . كلنا بعثيون .

وقبل ان تصل السيارة الى المدرسة ببضعة امتار قال الفتى : من تكون يا استاذ ؟ وأجابه : أنا صدام حسين ، وسأزور المدرسة التي تدرس فيها .

شعر الفتى بانه يطير من الفرح وهو ينزل من السيارة ويراه الطلاب والمدرسون والمدرسات الذين التفوا حول الرئيس الذي فاجأهم بهذه الزيارة .

وقد وجه الرئيس اسئلة كثيرة وسمع اجابات عنها . ولم ينس قبل مغادرة المدرسة أن يطلب من مساعديه تسجيل مذكرة تقضي بتغيير اللون الاصفر لزجاج نوافذ غرف المدرسة لان هذا اللون يؤثر على الوضع النفسي للطالب .

وفي الصباح الباكر من يوم آخر دق الرئيس صدام باب احد المنازل وفتح الباب فتى سأله الرئيس : اين والدك ؟ فأجاب : انه نائم . وقال له : اذهب وابلغه ان الرئيس صدام يريد تناول فطور الصباح معنا . ولم يصدق الأب ما يقوله ابنه ، بينما توجه الرئيس الى صالون البيت ، وجلس . وعندما لاحظ ان صاحب البيت يستأذن في أن يغيب دقائق عرف الرئيس ان الرجل يريد تهيئة فطور استثنائي . وقال له : لن اتناول سوى الطعام الذي تتناوله . انني اريد ان اعرف ماذا تأكلون وهل ان كل شيء متوافر .

واحتار صاحب البيت ماذا يقول للرئيس ثم وجد نفسه يقول : اننا منذ مدة لا نأكل بيضا لانه غير متوافر في السوق ، وستلاحظ اننا لن نستطيع ان نطعمك سوى الخبز والزبدة والمربى والشاي .

وأخذ الرئيس علما بالأمر . وفي خلال ايام اصبح البيض متوافرا في الاسواق .

وقبل ان يتسلم المسؤولية الكاملة كان صدام حسين يقوم بمثل هذه الزيارات لكنه بعد التسلم صار يكثر منها . وكانت الزيارة الاولى بعدما تسلم المسؤولية الكاملة قام بها الى سوق الخضار في الكرادة وسوق الشواكة (وهو ايضا سوق للفاكهة والخضار) . ولقد زار السوقين متخفيا . وضع اليشمك العراقي (أي الكوفية المنقطة) على رأسه وبدأ يسأل عن الاسعار . ووقف أمام أحد المحلات وسأل صاحبه عن اسعار بعض السلع ووجد انها مرتفعة . وقال لصاحب المحل : انها غير الاسعار التي يذيع عنها التلفزيون . ورد صاحب المحل مستهزئا بالتسعيرة الرسمية التي يذيعها التلفزيون . ولمجرد ان انهى كلامه خلع الرئيس يشمكه وقال له : انا صدام حسين .

وفي لحظات هرب صاحب المحل بينما الرئيس صدام يطلب منه از يعود

وصاحب المحل المستهزىء بالتسعيرة الرسمية يطلب منه الأمان فيناله ثم يقسم بأنه سيحترم التسعيرة الرسمية بعد الآن .

أما الزيارة الثانية لاسواق الخضار فقد قام بها الرئيس صدام من دون تنكر . وكان ملفتا للنظر ان مادة النشرة الاخبارية للاذاعة والتلفزيون تضمنت يوم ١٠ تشرين الأول نبأ مفاده أن الرئيس صدام (وكان مضى على تسلمه المسؤولية الكاملة تسعة اسابيع) قام في السابعة صباحا بزيارة لاسواق الخضار في منطقة السيدية (احدى مناطق بغداد) واطلع خلال تجواله على طريقة عرض الخضار وبيعها للمواطنين .

وهو يتعمد ان تتم زياراته المفاجئة للمواطنين في الصباح الباكر لكي يرى الواقع على حقيقته . ومعظم الزيارات تكون للأحياء السكنية الشعبية . وعندما يزور اي منزل يسأل عن أحوال كبار السن اولا ويلبي تمنياتهم ثم يتباسط في الحديث مع الأطفال ويسأل الاولاد والبنات ماذا سيعملون عندما يتخرجون . وقبل ان يغادر المنزل يفتح الثلاجة ويرى ما في داخلها .

وفي ضوء هذه الزيارات يحدث ان قرارات كبرى على الصعيد الاجتماعي تتخذ ويحدث اغراق السوق بالسلع واستيراد لبعض السلع . والى ذلك انه من خلال هذه الزيارات حقق أمرين أساسيين : وقف بشكل مباشر وليس عبر الاحصاءات على احتياجات الناس وعلى احوالهم ، وهدم الحاجز الذي يفصل بين الرئيس والمرؤوس وعرف بشكل مباشر البشر الذين يقودهم ، فضلا عن انه جعل المسؤولين في دوائر الدولة يتهيبون وهم يرفعون اليه تقاريرهم عن الواقع الاجتماعي في البلد . وهو سبق له ان شجع برنامجا تلفزيونيا اسمه « ندوة الشهر » تلقى فيه الاسئلة على المسؤولين ويجب ان يوضح هؤلاء في ردودهم كل الاسئلة المثارة .

وفي السابق كانت زيارات الرئيس صدام للمنازل والمناطق تتم من دون الاعلان عنها ثم رفع الحجر عن اذاعتها وتصويرها وبدأ الناس يرونها على شاشة التلفزيون انما من دون صوت . وبعد ذلك اصبحت تذاع بالصوت والصورة . وعندما سألت الرئيس صدام ما الذي يجعله يقوم بهذه الزيارات أجاب : « لكي ارى بنفسي مشاكل الناس . انني في خلال لقاءاتي مع الناس اتعلم منهم » .

وزيارات الرئيس صدام المفاجئة للناس في بيوتهم ليست هي كل شيء ، اذ هناك زيارات الناس للرئيس في القصر وهنالك الهاتف الخاص بالمواطنين في مكتب الرئيس في القصر وهنالك الرسائل التي يبعث بها مواطنون الى الرئيس في القصر وهنالك ايضا اللقاء الاسبوعي في القصر ايضا والذي يحضره مئتا مواطن كحد اقصى يأتون في معظم الأحيان معترضين أو شاكين . وفي هذا اللقاء تجري مناقشات في غاية الأهمية ومن خلالها يقف الرئيس على حسن سير العمل في الدولة .

وقد تضمنت احدى الرسائل التي وصلت ذات يوم الى الرئيس طلبا من احدى المدرسات للقائه مشيرة الى ان موظفي القصر قالوا لها ان هنالك اكثر من مئتين قبلها وانهم سيتصلون بها لتحديد الموعد . واوضحت في رسالتها ان قضيتها لا تحتمل التأجيل . وازاء ذلك تم تحديد موعد استثنائي لها وجاءت الى القصر قبل ظهر يوم جمعة يرافقها زوجها . وعرضت مشكلتها وطلبت المساعدة وحصلت عليها .

كانت مشكلة هذه السيدة انها عاقر وانها تتألم عندما تأتي صباح كل يوم الى المدرسة لتدريس اولاد الآخرين وليس لها ولد بينهم . اما طلبها فكان العلاج في فرنسا على نفقة الدولة بعدما بلغها ان هنالك اطباء خبراء في امراض العقم .

وعندما كان صدام حسين يقود من خلال منصبه كنائب لرئيس مجلس قيادة الثورة طلب تخصيص هاتف في مكتبه لسماع الشكاوى واذيع بانه في امكان المواطنين الاتصال على رقم الهاتف وابلاغ الشكاوى للموظف المختص ، بل وحتى التحدث مع « السيد النائب » شخصيا . وكانت كل الشكاوى التي ترفع تحظى باهتمام صدام حسين . وعندما لاحظ ان هنالك عبارات في بعض الشكاوى من نوع « انه اذا لم يحصل الأمر الفلاني فانني (صاحب الشكوى) سأترك العراق » ، طلب صدام حسين من موظفي مكتبه رفض سماع اي شكوى يرافقها ذلك التهديد بترك الوطن . أما عدا ذلك فيمكن سماع اي شكوى والنظر فيها . وبعدما تسلم المسؤولية الكاملة استمر الهاتف الخاص بسماع شكاوى المواطنين يعمل لكنه انتقل من مبنى المجلس الوطني حيث كان مقر صدام حسين (النائب) الى القصر الجمهوري .

وادخل الرئيس صدام حسين تقليدا على جولاته التفقدية حيث بدأ يصطحب زوار العراق من الحكام في هذه الجولات . وبدا ملفتا للنظر ان برنامج الرئيس الشاذلي بن جديد في زيارته التي استغرقت يوماً واحداً اقتصرت على جولة من المحادثات وعلى زيارة لاحد منازل العراقيين . وعندما عرض تلفزيون بغداد لقطات من هذه الزيارة بدا الرئيسان يضحكان وهما يشاهدان في المطبخ كمية الأكل المخزون .

كذلك أدخل الرئيس صدام تقليداً تحول مع الوقت الى قاعدة ، ونعني بذلك الزيارات المستمرة لروضات الاطفال في الدرجة الأولى وللمدارس عموماً بعد ذلك . وقد يكون سبب هذا الاهتمام أنه عاش طفولته يتيماً ثم عاش الفترة الأكثر حساسية في مراحل العمل السري لتمكين حزب البعث من تسلم السلطة لا يرى أطفاله . قد يكون هذا هو السبب ، لكن من دون أن نسقط أمراً أساسياً يدور في ذهن صدام حسين وهو أنه يرى النقاء الكامل في جيل المستقبل الذي يشكل اطفال الروضات التي يزورها نواة هذا المستقبل . وتعكس بعض أقواله في الطفولة هذا المعنى . فهو القائل « ان ثروتنا القومية البشرية تبدأ بالطفل » وهو القائل « نحن نطمح الى أن نجعل من الطفل الصغير مركز إشعاع داخل العائلة التي تضم والديه وإخوته ، يشع ويتغير ايجابياً ولا يتغير سلبياً » ، وهو القائل ايضاً « إن الطفل في جانب من علاقته مع المعلم كقطعة المرمر البكر في يد النحات حيث يملك القدرة على إعطائها الشكل الجميل دون أن يتركها للزمن وتقلبات عوامل الطبيعة » .

ويحدث أحياناً ان يستقبل الرئيس صدام حسين في القصر الجمهوري أطفال بعض الروضات ومعهم مدرسوهم ومدرساتهم وتعطى تعليمات للصحف بالتعامل مع هذه المناسبة التعامل الذي يتم مع حدث سياسي بارز . بل ان العراقيين الذين كانوا يطالعون صحفهم الصادرة يوم الأحد ٢٧ نيسان ١٩٨٠ (وهو اليوم الذي عممت فيه ايران النبأ المختلق عن الانقلاب ومقتل صدام حسين لاحظوا أن النبأ الرئيسي في الصفحة الأولى كان حول أن الرئيس صدام استقبل في اليوم السابق (أي السبت ٢٦ نيسان) مجموعة من أطفال روضتي البراعم والرياحين وهيئتيهما التدريسيتين واستمع الى أناشيد من الأطفال وقدم لهم وللهيئة بعض الهدايا .

ويستقبل الرئيس صدام اسلوب النشر بكل ارتياح ، بل إنه يعتبر المناسبة التي تمت (مناسبة استقبال اطفال الروضات) من المناسبات البالغة الأهمية .

ونتيجة لهذا التقليد اصبح كل الوزراء واعضاء القيادة القومية للحزب وحتى القائد المؤسس للحزب الاستاذ ميشال عفلق يستقبلون في المناسبات الوطنية (ذكرى تأسيس الحزب وذكرى تأميم النفط على سبيل المثال) اطفال الروضات وتنشر الصور التذكارية التي تلتقط لهذه المناسبة في الصحف وتظهر على شاشة التلفزيون . وهذا التقليد جعل ميشال عفلق يخرج بعض الشيء عن تنظيره التقليدي ويقول للمرة الاولى كلاما فكريا مستقبليا في الاطفال مضيفا بذلك بعض اللمسات في مسألة « نظرية البعث في الطفل » التي سبق لصدام حسين ان حدد بعض معالمها من خلال اقوال له متعددة وهي ما اشرنا اليه في الاسطر السابقة .

اما الكلام الذي قاله ميشال عفلق فانه جاء خلال استقباله في مكتبه في القيادة القومية يوم ٢٨ نيسان ١٩٨٠ ولمناسبة الذكرى الثالثة والثلاثين لميلاد الحزب اطفال روضتي الجمهورية واليرموك وهيئتيهما التدريسيتين كلا على انفراد . وقد خاطب مؤسس الحزب زائريه قائلا : « ان بين البعث والاطفال رابطة قوية وعميقة لان الحزب يعمل للمستقبل وهذا يكمن في عوامل صموده وتفكيره دوما بمستقبل الامة العربية . وهذا لا يعني ان حزب البعث العربي الاشتراكي لا يستهلك نفسه للحاضر فقط في السياسة التقليدية المعروفة ولكنه يريد ان يبني للمستقبل ... للاطفال ... للاجيال .... للذين هم عماد الامة ومستقبلها الذي ينشده حزب البعث العربي الاشتراكي لانه مدرسة الاجيال العربية .. » .

ولقد كان ملفتا للنظر ان يحتفل الرئيس صدام صباح الاول من حزيران ١٩٨٠ بالذكرى الثامنة لتأميم النفط الذي يعتز بأنه أحد اهم انجازاته ، بطريقة لم يتوقعها احد . فهو لم يشأ ان يكون الاحتفال جماهيريا بهذه الذكرى التي تصادف للمرة الاولى بعد تسلمه المسؤولية الكاملة ، وانما دعا الى مكتبه في القصر الجمهوري مجموعة من الطلائع (المنظمة الحزبية للفتية والفتيات) وصلوا بالزي الرسمي لهم وهو عبارة عن بدلة مرقطة . واخذ في الاعتبار وعملا بقاعدة الثواب والعقاب ان تكون المجموعة من المتفوقين في دراستهم .

ولقد التف حوله هؤلاء وروى لهم كما يروي الوالد لابنه حكاية قبل النوم ، لماذا كان التأميم وكيف كانت احوال العراق قبل تأميم النفط وكيف اصبحت بعد التأميم . وبدأ الرئيس صدام حسين وهو يروي ذلك كمن يريد ان يقول ان التأميم كان من أجل جيل المستقبل الذي يمثله الطلائع .

ولقد تشعبت الحكاية التي رواها صدام حسين للفتية الصغار (أي مجموعة الطلائع) بحيث لم تقتصر على قصة نفط العراق وتأميمه وانما تطرقت الى أهمية الانضباط والدور الذي يلعبه ايمان الثوري بقضيته .

وهو عندما فعل ذلك فلكي يزرع ثقة عميقة في نفوس جيل الطلائع . ان هؤلاء سيكبرون وبعد ذلك ستتألف من بعضهم القيادات التي ستشارك في حكم البلاد . وعندما سيكبر هؤلاء سيتذكرون أن أهم درس سمعوه كان من الرئيس صدام .

ما الذي رواه الرئيس صدام ؟

تحدث اليهم كيف كانت شركات النفط تلعب بالعراق قبل التأميم وتقول ان السوق العالمية غير متحمسة لشراء هذا النفط وكل ذلك من اجل اخضاع العراق للقبول بالسعر الذي يجعل هذه الشركات تستفيد اكثر من اصحاب الثروة النفطية .

وقال لهم انه بعد التأميم اصبح لدى العراق مال كثير وبهذا المال بنت الدولة المدارس والمصانع والمعامل والمستشفيات . ومن هذا المال اشترت « الملابس الحلوة التي ترتدونها والتي كلفتنا ١٢ مليون دولار » ... وهو يقصد هنا الزي الذي يرتديه فتية وفتيات الطلائع .

وروى لهم كيف ان ميزانية الدولة قبل التأميم كانت في عجز وان البنوك كانت خاوية ، في حين اصبحت موارد العراق نتيجة التأميم بالمليارات .

وقال لهم انه قبل التأميم كان العراقيون يرون نار النفط من بعيد لانه غير مسموح سوى للانكليز ولبعض العراقيين بالاقتراب من منطقة الآبار والمنشآت . وقال كذلك انه عندما كان بعض العراقيين من شدة الفقر يقتربون من هذه المنشآت لالتقاط بعض العلب الفارغة يأكلون بقاياها « فان الانكليز كانوا يطردونهم مثلما يطردون الكلاب ....» .

وذكر لهم ان شركات النفط هي التي كانت تفرض تعيين رؤساء الوزارات وتستبدل الوزراء الذين لا ترتاح اليهم ، أما المتصرفون (اي المحافظون) فان أمر بقائهم رهن برضى شركات النفط التي كانت تشكل دولة داخل الدولة .

وعقد لهم مقارنة بين الفلاح العراقي بالامس الذي كان لا يعرف الورقة النقدية من فئة الخمسة دنانير وفلاح اليوم الذي تدخله الوف الدنانير ، وبين عامل البناء الذي كان يتوسط في الأمس من اجل ان يعمل بربع دينار وعامل اليوم الذي يبلغ الحد الادنى لراتبه أربعين دينارا غير ساعات العمل الاضافية والأمور الاخرى . وروى لهم انه تناول العشاء قبل ايام عند فلاح في ضواحي بغداد وعندما سأله عن احواله قال شاكرا حامدا ربه ان مورده السنوي من الخضار يصل الى ثمانية آلاف دينار واحيانا اكثر .

وفي محاولة لتبسيط اهمية التأميم قال لهم : « ان التأميم رسخ الأرض التي تقفون عليها . ولو لم يتم التأميم لبقيت أرضكم رخوة ، تغطس القدم مرة عليها وتعوم ... » .

ولان الصغار لهم لغتهم ونظرتهم ومفهومهم فان الرئيس صدام ذهب بعيدا في التبسيط فأوضح لهم أن اطفال العراقيين وصغارهم لم يكونوا في الماضي قادرين « على ان يرتدوا الثياب الجميلة التي ترتدونها » على رغم ان النفط نفطهم وكانوا ينظرون الى ابنة ملكة بريطانيا او ابنة ملكة هولندا بالصورة ترتديان الثياب الجميلة لان الدولتين مستوليتان على نفط العراق عبر الشركات .

وفي الاطار نفسه قال لهم ان عددا قليلا جدا من اطفال العراق في الماضي عرفوا اللعب الجميلة الموجودة الآن حتى عند اطفال اهل الريف ، وان التدفئة الموجودة الان في المدارس كانت غير موجودة في الماضي « في السابق عندما نذهب الى المدرسة لا تستطيع ايدينا ان تمسك القلم ولا نستطيع الكتابة وعندما يشفق علينا المعلم يطلب من واحد منا ان يأتي بالحطب من بيته ونشعل النار داخل صفيحة نفتح طرفها ونضعها في الصف » . أما التغذية المدرسية التي امكن تعميمها بفضل التأميم فلم تكن موجودة من قبل .

ولكي لا تقتصر الحكاية على التأميم فقط فان الرئيس صدام اوضح للفتية الصغار ظاهرة الجولات التي يقوم بها على المواطنين وكيف ان المحافظين والوزراء الان يتجولون اربعا وعشرين ساعة في القرى والمدارس بعدما كانت زيارة المتصرف (المحافظ حاليا) التي تتم مرة كل عشر سنين تعتبر حدثا مهما يغسل بسببها المواطنون الشارع وينتظرون وصوله ليس من اجل ان يدخل بيوتهم ويسأل عن احوالهم وانما من اجل رؤيته داخلا بيت احد الوجهاء لتناول الطعام على مائدته . وهذا هو كل شيء . كذلك اوضح كيف « كنا عندما يأتي الشرطي لا نستطيع ان نتكلم معه بينما تتحدثون الان مع رفيقكم صدام حسين » . ومن هذه النقطة انطلق يروي لهم اشياء من اجل ان يسمعها الكبار علهم يعيدون النظر في مسلكيتهم . روى كيف ان هاتف مكتبه المخصص للشكاوى أصبح وسيلة للحصول على ما هو اكثر من الحقوق وكيف ان هنالك من يتصل ليطلب سيارة وكيف ان هنالك من تتصل لتقول انها مريضة وتريد الاستشفاء في الخارج ، او التي تقول ان مرتبها لا يكفيها وتريد زيادة هذا الراتب .

وهو عندما شكا من ذلك امام الطلائع من الفتية والفتيات وهم موجودون في كل بيت عراقي فعلى امل ان يقول هؤلاء باعتزاز للأهل: حرام ان تشغلوا رئيس الدولة بهذه الامور . ارفعوا اليه الظلامات الكبرى .

وهو ايضا عندما شكا من ظاهرة الاندفاع نحو موكبه . خلال جولاته في المناطق وزياراته للمنازل والاحياء لتسليمه عرائض تتضمن طلبات مماثلة من السيارة الى المنزل الى العلاج في الخارج الى الشكوى من ظلم مسؤول ... فعلى امل ان يضغط هؤلاء على ذويهم من اجل وضع حد لانتشار هذه الظاهرة ، خصوصا ان الاندفاع احيانا نحو الموكب قد يحمل عناصر الحماية على اطلاق النار وهو أمر لا يريده ولا موجب له .

ولكي لا يقول هؤلاء ان الرئيس حدثنا في أمر ما يشكو منه لكنه لم يحدد لنا ما يجب ان نفعله فانه قال لهم : « اريدكم ان تقوموا مع آبائكم واخوانكم واقربائكم بدور التوعية وتقولوا لهم ان صدام حسين يحترمكم ويحبكم لكن الانضباط مطلوب ، كذلك اريدكم تبصير الناس بأن اسلوب العرائض الشخصية اسلوب خاطىء لان فيه افشالا للتجربة الديمقراطية التي نحرص عليها في صلتنا بشعبنا خصوصا ان ٩٨ بالمئة من طلبات المواطنين غير مشروعة » .

وقد انعكست زيارات الرئيس صدام لروضات الاطفال والمدارس على مسلكية الاطفال والطلبة بحيث اصبحت كل ام تهتم بثياب ابنها او ابنتها قبل ارسالهما الى الروضة على اساس ان رئيس البلاد قد يزور الروضة فجأة .

واذا واصل الرئيس صدام جولاته وزياراته هذه فانه في خلال سنوات قليلة يكون عرف اكثرية العراقيين ورأوه وجها لوجه وصافحوه .

ويصر الرئيس صدام على القيام بهذه الزيارات والجولات وسط اعتراضات مستمرة من المسؤولين عن الأمن الذين تسبب لهم هذه الزيارات والجولات ارتباكا في معظم الاحيان ، وهؤلاء لا يتحملون زيارة يقوم بها الرئيس لحي شعبي لا تدخله السيارات ولا يتحملون نزوله متنكرا لسوق الخضار المكتظ بالناس . كذلك لا يتحملون ان الرئيس لا يحدد لهم سلفا بيت اي مواطن سيزور لكي يتخذوا اجراءات امنية سلفا .

ولكن الرئيس صدام يرى ان مثل هذه الزيارات ستفقد معناها اذا كانت ستسبقها تجهيزات وتمشيطات وتمركز على السطوح وفي الزوايا .

وقد روى لي سعدون شاكر عضو مجلس قيادة الثورة ووزير الداخلية في لقاء معه خلال نيسان ١٩٨٠ انه فاتح الرئيس في المسألة الامنية وسرد امثلة عن زيارات الحكام للمواطنين في دول عدة وكيف ان الاحتياطات الأمنية ضرورية ، لكن الرئيس - وهذا ما لم يقله سعدون شاكر - دخل مرحلة الذوبان في الجماهير وبات من الصعب عليه التراجع عنها .

وافترض سعدون شاكر بمفهومه الامني انه يستطيع اقناع الرئيس صدام عندما يشرح له كيف تتم زيارات الحكام للمواطنين في الدول الاشتراكية الاوروبية وكيف انه قبل اسبوعين من الزيارة تكون اجهزة الامن تحرت وحققت وتدخلت حتى في مسائل المواد الغذائية داخل المنزل حيث سيتناول الحاكم القهوة او الشاي أو الطعام . ولكن شغف الرئيس صدام بان تتم الزيارات والجولات بالشكل الذي تتم فيه انتصر على المفهوم الأمني . وما لم يقله سعدون شاكر هو ان الاخذ بهذا المفهوم معناه نشوء عبء امني يقيد حركة الرئيس ويفقده لذة الاختلاط بالجماهير .

والى ذلك ان أهل الأمن العراقي يسقطون من الاعتبار ان الرئيس صدام وريث تقاليد مارسها في الماضي التليد بعض رموز التراث العربي والاسلامي وتشكل جزءا من قناعاته الفكرية ومن اسلوب العمل وادارة شؤون الدولة ، وهي تقاليد تصطدم بكل افرازات عصر التكنولوجيا بما في ذلك المسألة الامنية المعقدة .

ولقد افادت الجولات والزيارات واللقاءات والتعاطي المباشر مع المواطنين في بلورة قرارات كثيرة اصدرها مجلس قيادة الثورة بعد ذلك وفي صياغة توجيهات صدرت عن الرئيس صدام حسين الى المسؤولين . فعندما يقول الرئيس صدام في الاجتماع الذي عقده مجلس الوزراء يوم ٣١ تموز ١٩٧٩ ولم يكن مضى على تسلمه المسؤولية الكاملة اسبوعان « لا زالت الشكاوى لحد الآن تصلنا من الانسان الذي يريد ان يودع مبلغا في البنك أو الذي يريد ان يسحب مبلغا منه ، والانسان الذي يريد ان يسدد اجور الكهرباء والماء والانسان الذي يريد ان يدفع الضريبة ، والذين يريدون استخراج اجازة بناء أو كهرباء أو غير ذلك ، وهذه ظاهرة غير صحية وقد مضى على الثورة احد عشر عاما بل ونعتبرها ظاهرة مخجلة عندما يواجهنا شعبنا بها لانها لا تمثل حقيقتنا ولا تمثل حقيقة ما ننادي به . ولا تمثل كذلك حقيقة حزب البعث العربي الاشتراكي ... » ... ان الرئيس صدام عندما يقول ذلك فلا بد انه سمع الكثير من المواطنين الذين شكوا له وقرأ الكثير من الرسائل التي يشكو له فيها مرسلوها من الظواهر التي اشار اليها .

وعندما يقرر مجلس قيادة الثورة اعفاء ذوي الدخل المحدود بما فيهم ذوو الرواتب العالية من ضريبة الدخل ويصدر قراراً بهذا المعنى يوم ٥ كانون الثاني ١٩٨٠ بعد مضي حوالى ستة أشهر على تسلم صدام حسين المسؤولية الكاملة وبعد سلسلة من اللقاءات والزيارات والجولات ، فمعنى ذلك ان الرئيس لا بد لمس على الطبيعة ضرورة صدور مثل هذا القرار .

وعندما يقول قبل ذلك (٢٩ كانون الاول ١٩٧٩) في جلسة لمجلس الوزراء « اننا لا نريد للشعب ان يرى في الاشتراكية عبئاً وانما نريد أن يرى في الاشتراكية طريقاً للسعادة وسلاحاً للبناء والتعمير والتقدم بل وسلاحاً لمواجهة الخصوم

والاعداء بما في ذلك العدو الخارجي » ويقول أيضاً في الجلسة نفسها « انه يجب ان نفهم ان الاشتراكية هي في جانب من جوانبها الوسيلة التي تزيد من الانتاجية وتحسن من نوع الانتاج بما يتطور ويتلاءم مع الذوق وحاجة الانسان في ظل المجتمع الاشتراكي ودون ان ينسى عملية التطور العالمي » ... انه عندما يقول في هذه الجلسة الكلام الذي اشرنا اليه فلا بد ان يكون وقف على بعض حقائق من خلال الجولات والزيارات والاستفسارات ، ولا بد أن يكون سمع وهو يتباسط في الحديث مع المواطنين كلاماً لفت نظره في مسألة الاشتراكية ولمس مشاعر عفوية ازاء التطبيق الاشتراكي .

وعندما يوعز الرئيس صدام بعد ذلك (٢٨ نيسان ١٩٨٠) بمناقشة القوانين مع الشرائح الاجتماعية من الشعب وممثلي النقابات المختصة قبل رفعها الى رئاسة ديوان رئاسة الجمهورية ، ويتضمن التعميم الذي وزع في هذا الشأن على كافة الوزارات والجهات ذات العلاقة ، بانه سوف لا ينظر بالقوانين المقترحة ما لم تتضمن هذا الشرط « كنوع من تقاليد ثورتنا في بناء علاقات ديمقراطية شمولية وعميقة مع الشعب العراقي لاغنائه وتعميق وعيه بالنقاش واغناء وتعميق وعي اجهزة الدولة من خلال ملاحظات الشعب » ... انه عندما يوعز بذلك ، فلانه خلال جولاته وزياراته ولقاءاته المباشرة بالمواطنين وجد ان هنالك هوة ساحقة بين القرار الذي يصدر وبين موقف المواطن من هذا القرار وذلك سببه انعدام التشاور والمناقشة مع الشرائح التي يصدر القرار لأجلها .

وعندما يصدر مجلس قيادة الثورة يوم الأربعاء ٢٣ نيسان ١٩٨٠ قرارين لحماية الاحداث استهدف الأول منع الاحداث من صبغ الأحذية أو بيع السجائر واستهدف الثاني تشديد العقوبة على كل صاحب حانة يسمح لفتى لم يبلغ الثامنة عشرة بدخول الحانة لاي سبب ... فلان الرئيس صدام وقف في تجواله على بشاعة هذه الظاهرة التي تزداد انتشاراً والتي لا تتفق مع قوله « نحن نطمح الى ان نجعل من الطفل الصغير مركز اشعاع داخل العائلة التي تضم والديه واخوته يشع ويتغير ايجابياً ولا يتغير سلبياً » ، فضلاً عن ان هذه الظاهرة لا تبدو طبيعية في بلد تقوده ثورة ويتجاوز دخله القومي من النفط فقط ثلاثين مليار دولار سنوياً في حين ان عدد سكانه حوالى اربعة عشر مليون نسمة ويقدم المساعدات لعدد من الدول النامية . وقد يكون الرئيس صدام في لقاءاته المباشرة بالمواطنين سمع مثل هذا الكلام وأقر صوابيته وتصرف بعد ذلك من موقع صانع القرار بما هو ضروري .

والى ذلك انه عندما ينجح صدام حسين في محو الأمية بنسبة كبيرة بينما ظاهرة ماسحي الاحذية لا تزال موجودة ، فان الأمر يشكل انتكاسة معنوية له . ولا بد انه في قرارة نفسه يرى أن مكان الطفل الذي لم يبلغ العاشرة من عمره ويجلس على الارصفة ينتظر من يريد مسح حذائه ، يجب أن يكون المدرسة وليس الرصيف .

وهذا الاسلوب الذي اعتمده الرئيس صدام في الوقوف بنفسه على مشاعر المواطن واحتياجاته وشكواه أفاد في جعل الجهاز الاداري الذي يشكو من بيروقراطية متوارثة يتبدل بعض الشيء . وهو ضمناً استهدف من لقاءاته التفقدية وزياراته المفاجئة للمواطنين في المنازل والاسواق تحريك الذين يديرون هذا الجهاز . ولقد حركهم . وعندما تصبح ديناميكية الجهاز الاداري في مستوى

ديناميكية الرئيس صدام فان الصورة تتبدل في اتجاه الاشراق .

وعلى مدى عشر سنين وبيروقراطية الجهاز الاداري تشكل هماً بالنسبة الى صدام حسين . وعندما كان شريكاً في قيادة الدولة والحزب أخذ أمر هذا الجهاز من وقته الكثير . وهو في اللقاءات والزيارات وتنشيط الحوار مع المواطنين طبق ما كان يرى أن يطبقه الوزراء والاداريون عملاً بتوجيهات كثيرة سابقة كان أهمها ما صدر في ضوء المناقشات التي شهدتها ندوة عقدت في ايلول ١٩٧٦ لدراسة ومناقشة ورقة عمل حول العوامل المؤثرة في انخفاض الانتاجية . وفي تلك الندوة أكد صدام حسين على العامل الانساني والسلوكي وأهمية التغيير والتطوير المبرمج واعتماد صيغ الادارة الديمقراطية الشعبية وذلك من خلال الحوار والمناقشات وتفاعل وامتزاج الآراء والمشاركة الشعبية عند وضع الخطط .

والذي حدث انه نزل الى الشارع قبل ان ينزل الوزراء والاداريون ووقف على الحقيقة من المواطن وليس من التقارير التي ترفع اليه . ولقد أفاد ذلك كثيراً لان المسؤول العراقي بدأ يتصرف بأسلوب جديد مع المواطن وبدأ يتعامل مع القضايا والمسائل المتصلة بحياة الناس بأسلوب بعيد بعض الشيء عن البيروقراطية .

وفي الخطاب الذي ألقاه الرئيس صدام صباح السادس من تشرين الثاني ١٩٧٩ في مدينة بعقوبة (محافظة ديالي ٦٠ كيلو متراً شرق بغداد) التي كان في زيارة لها ضمن زياراته للمناطق ولقاءاته بالمواطنين رد الرئيس صدام على الذين قد يعتبرون لقاءاته وزياراته واسلوب حواره المتعدد القنوات مع المواطن نوعاً من طلب التأييد بالقول « انه ليس ضعفاً أن يطلب الثوار تجديد العهد والثقة من الشعب لان الشعب هو مصدر القوة الرئيسي ، انما الضعف الحقيقي والبعد الحقيقي عن الشعب يكون عندما يتحول الثائر الى حاكم يحكم من خلف المكاتب ويتصرف بعقلية الحاكم التقليدي وليس بعقلية الثائر المؤمن بتجديد المبادىء » .

في المقابل هناك الجانب الآخر من شخصية الرئيس صدام ، ونعني بذلك الجانب الذي يندرج تحت بند الثواب والعقاب . وهو لخص هذا البند في مناسبتين . المناسبة الأولى قبل ان يتسلم المسؤولية الكاملة وكان ذلك في سياق لقاء مع بعض القيادات الحزبية تحدث فيه صدام حسين حول العمل في منطقة الحكم الذاتي (المنطقة الكردية) . وفي هذا اللقاء قال : « تأكدوا ايها الرفاق ان قلوبنا ترتجف من جراء أبسط مظهر من مظاهر العنف عندما لا يكون مبرراً . ولكننا في الوقت نفسه نمتلك قلباً يتحمل قطع رؤوس الذين يخونون وطنهم ويتآمرون على شعبهم مهما كان عددهم . ان علينا ان نتصرف وفق المبادىء والضرورات وليس بمعزل عن المبادىء والضرورات وبما هو زائد عنها » . والمناسبة الثانية كانت بعدما تسلم المسؤولية الكاملة ببضعة اسابيع وخلال استقباله مسؤولي امانة العاصمة يوم ٤ تشرين الثاني ١٩٧٩ . وفي هذا اللقاء قال : « اننا نعطي الحقوق والواجبات على حد السيف أي أن الحقوق عدالة لا بد ان تُعطى للمواطن مثل حد السيف والواجبات عدالة لا بد ان ينفذها المواطن مثل حد السيف » .

وفي ضوء مزج قول الرئيس صدام في المناسبتين اللتين اشرنا اليهما مع انقضاء الشهر الخامس على تسلمه المسؤولية الكاملة جرى تنفيذ حكم باعدام اربعة عراقيين ادينوا من قبل محكمة ثورية بالاتصال ببعض الشركات الاجنبية وأخذ

الرشاوى منها وتقديم معلومات سرية لها . وكان ملفتاً للنظر نشر الصحف العراقية الصادرة يوم الاثنين ١٧ كانون الأول ١٩٧٩ للنبأ بشكل بارز وفي الصفحة الأولى . وكان ملفتاً للنظر ايضاً ان اثنين من الذين اعدموا كانا يشغلان موقعاً أساسياً في وزارة الري (احدهما وكيل الوزارة والثاني رئيس مهندسين في الوزارة) . أما الآخران فليسا موظفين رسميين (احدهما صاحب مكتب للاستشارات الزراعية والآخر رجل اعمال) . كذلك تضمن الحكم الصادر عن المحكمة الثورية السجن مدى الحياة لأحد المحامين ولرئيس الدائرة القانونية في الجهاز المركزي للاحصاء .

والذي جعل الرئيس صدام لا يتساهل في حادثة الرشوة ويتفرد عن غيره من قادة العالم الثالث الذي تكاد الرشوة فيه تصبح السمة الأكثر تميزاً ، بالموافقة على تنفيذ الاعدام بحق مرتشين هو ان وكيل الوزارة بحكم موقعه الوظيفي كان يحظى برعاية خاصة من القيادة وعلى هذا الاساس فلا مبرر له ولاي موظف لكي يرتشي ما دامت الدولة تحقق لكل مواطن حياة مثالية . وعندما حاولت أن أعرف من أحد المسؤولين القياديين ما اذا كانت نوعية الدولة الاجنبية التي قدمت الرشوة هي السبب في جعل الحكم على الاشخاص الأربعة يصل الى حد الاعدام وتنفيذه أعطى التفسير الآتي : « لا أظن ان للدولة الأجنبية أي تأثير في اتخاذ القرار ، ولكن مسألة النزاهة عند الموظفين في الدولة تصل بالنسبة الى الحزب والرئيس صدام الى مرتبة القداسة . ونحن في القيادة نرى انه لا موجب لقبول الرشوة . فنحن في ظل حكم ثوري ولسنا في العهد الملكي حيث كانت هنالك مبررات كثيرة للرشوة لان دخل الموظف لا يكفيه ومن أجل ذلك لا يشعر بأن حياته مضمونة ، فضلاً عن انه لا يعرف متى يطرد من وظيفته . نحن الآن نعيش في ظل ظروف مختلفة حيث الاحتياجات مؤمنة للمواطن وبشكل سخي . فاذا كان المواطن يحتاج لمنزل فان الدولة تسعى لتأمينه له . واذا كان مريضاً فان الدولة تتعهد بعلاجه في المستشفيات واذا تطلب الأمر نرسله الى ارقى المستشفيات في أوروبا .

والدولة تفعل ذلك حتى مع الموظف الصغير . وعندما تلغي الدولة كل مبررات الرشوة ويبقى هنالك مرتشون تصبح المسألة خيانة عظمى للوطن . والى ذلك ان هنالك صلاحيات اعطيت للوزراء ولرؤساء المؤسسات تجيز لهم التعامل بالملايين . واذا لم يكن المسؤول محصناً فمعنى ذلك انه من السهل اختراقه . والاختراق هنا لا يعود مسألة ضعف خلقي وانما خيانة للوطن » .

ولو ان الذين ادينوا واعدموا كانوا من الحزب لكانت المسألة أكثر تأثيراً في نفس الرئيس صدام . لكن هؤلاء لم يكونوا بعثيين .

ولم يحدث من قبل ان صدر حكم من هذا النوع ، لكن الرئيس صدام قد يكون أخذ في الاعتبار ان الحزم من البداية من شأنه ان يقطع الطريق على ظاهرة قبول الرشاوى التي ترافق عادة عملية التنمية ، وخصوصاً عندما تكون العملية هذه على الاتساع والانتشار القائم في العراق . وبعد اعتبار الرشوة والاتصال بشركات أجنبية جريمة تستحق الاعدام لن يكون من السهل على هذه الشركات اختراق المسؤولين فضلاً عن أن هؤلاء سيتريثون قبل ان يستسلموا لحالة الضعف التي تنشأ عن تقديم الرشاوى .

وفي اطار الثواب والعقاب نلاحظ ان الرئيس صدام استوقفته بعدما تسلم المسؤولية الكاملة ببضعة أشهر رسالة من موظفة في مديرية التقاعد العامة تشكو له

طبيباً تسبب في وفاة والدها فأوعز بالاهتمام بالأمر وتشكيل لجنة تحقيق. وعندما رفعت اللجنة اليه نتيجة التحقيق تؤكد اهمال الطبيب أمر بسحب شهادة تخرجه واعتبارها لاغية وحجزه لمدة ستة أشهر ومنعه من السفر خارج العراق وعدم تزويده بالوثائق الدراسية، وفي الوقت نفسه أمر بتكريم زميل له لانه أخلص في عمله، وعندما نشرت الصحف الخبر يوم ١٢ شباط ١٩٨٠ وأوردت اسم الطبيب الذي نال العقاب واسم زميله الذي حظي بالتكريم فلكي لا تتواصل المساواة بين المهمل والمخلص ولكي تتكرس شيئا فشيئا قاعدة الثواب والعقاب.

وعندما كرم الرئيس صدام حسين أحد الفنيين في صحيفة «الثورة» بدأ العاملون في الاقسّام الفنية في المؤسسات الصحفية يتسابقون في سبيل الحصول على تكريم الرئيس وقد حصل بعضهم عليه.

ومن قبل ان يتسلم المسؤولية الكاملة ومسألة التراث تستحوذ على مشاعر صدام حسين ووجدانه. ومن هنا كان اهتمامه بانتاج فيلم سينمائي ضخم عن معركة القادسية وبطلها القعقاع. ومن هنا أيضاً كان قرار مجلس قيادة الثورة يوم ٢٩ كانون الثاني ١٩٨٠ القاضي بانشاء جوائز واوسمة ذهبية تسمى جوائز الدولة التقديرية تحمل اسماء اقطاب التراث العربي والاسلامي. وهذه الجوائز والأوسمة هي جائزة ووسام الحسن بن الهيثم للعلوم والتكنولوجيا وجائزة ووسام ابن خلدون للعلوم الاجتماعية والاقتصادية وجائزة ووسام ابن رشد للفلسفة والمنطق وجائزة ووسام الجاحظ للغات والآداب وجائزة الواسطي للفنون الجميلة وجائزة ووسام خالد بن الوليد للعلوم العسكرية. وعندما تصبح هذه الجوائز والأوسمة من الرقي بمكان كبير - وهي ستكون كذلك - سيسقط مع الوقت هاجس بعض العرب ازاء الجوائز الدولية. وقد يجوز القول بان هنالك حاجة الى جائزة نوبل عربية أو على مستوى العالم الثالث وان ذلك مطلوب من الرئيس صدام قبل غيره.

وهو شديد التعلق بالتراث وبابطال عرب ومسلمين اضاءوا مجتمعاتهم. وعندما يذكر اسماء علي بن أبي طالب والحسين بن علي وابو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وخالد بن الوليد وآخرين تشعر انه يصلي في محراب. وفي خاطره دائماً القادة العظام في التاريخ العربي والإسلامي الذين ناموا مع الرعية وأكلوا من اكلهم. وفي خاطره أيضاً الذين بنوا وشيدوا ووزنوا الكتب بالذهب وحملوا السيف والقلم معاً فكانوا بارزين في ساحة القتال متألقين في دنيا المعرفة ونشرها. وعندما يكتب طارق حمد العبد الله أمين السر العام لمجلس قيادة الثورة ورئيس ديوان رئاسة الجمهورية مقالاً يوم ٤ نيسان ١٩٨٠ في صحيفة «الجمهورية» بعنوان «قائدنا والمآثر الخالدة في عدالة عمر ومبدئية علي وشجاعة خالد» فلانه من أقرب الناس الى صدام حسين وبالتالي اعرفهم بما يجول في خاطره وفي وجدانه.

ولم يحدث ان قال شعراء العراق قصائد في احد كما قالوا في صدام حسين، واستطاع هؤلاء ان يأخذوا الوهج من بعض كتاب البعث ومنظريه السياسيين. كذلك لم يحدث ان حرص حاكم على ان يتابع مهرجاناً شعرياً على مدى خمسة ايام استغرقها المهرجان كما فعل صدام حسين الذي تابع «المهرجان القطري للشعر الشعبي» الذى نظمته وزارة الثقافة والاعلام خلال نيسان ١٩٨٠. وفي الوقت الذي

يكون بعض خصومه ينشطون في الخارج كتابات على الجدران ضده يكون الشعراء في الداخل يشيدون بفروسيته ويتصور بعضهم انه المتنبي في حضرة سيف الدولة .

وهو بدا كأنه شاعر من اولئك الشعراء عندما خاطبهم في اليوم الأخير من المهرجان بلغتهم « ... لكن شعب العراق يؤكد لكل الحاقدين والطامعين انه سيف وشرف ونخلة وغصن زيتون » . وفي هذه العبارة رموز للشجاعة والشرف والعنفوان والسلام .

وبقدر ما هو متشدد عند الضرورة فانه مرن ايضاً عند الضرورة . وعندما يكون هنالك مواطن عراقي طرفاً الى جانب الدولة في مسألة ما فان تشدده يصل الى الحد الذي يجعل المواطن المشار اليه يشعر ان قضيته وقضية صدام حسين ومن قبلهما قضية العراق واحدة . ولعل في الازمة التي نشأت بين العراق وبلغاريا ما يعكس ذلك .

كانت الازمة نشأت نتيجة اقدام بعض الشيوعيين العراقيين المقيمين في صوفيا والذين ينشطون سياسياً بحرية هناك على اغتيال طالب عراقي بعثي . وحمل الرئيس صدام السلطات البلغارية بعض المسؤولية ، ونشأت نتيجة لذلك ازمة في العلاقات بادرت بلغاريا الى التحرك لتسويتها بما يرتاح اليه العراق مخافة ان تؤثر الأزمة على مصالحها الاقتصادية . وقبل ان يقوم الرئيس البلغاري تيودور جيفكوف بزيارة رسمية الى العراق بدأت يوم ٢٨ أيار ١٩٨٠ لم يدر في خلد احد ان الرئيس صدام حريص كل هذا الحرص على مشاعر والدي الطالب الذي قتله الشيوعيون العراقيون في صوفيا ، ثم جاءت الزيارة لتؤكد هذا الحرص . فالرئيس اصطحب ضيفه الرئيس جيفكوف الى زيارة محافظة بابل ليس فقط لان فيها متحف نبوخذ نصر والآثار التاريخية العظيمة التي تمثل جانباً من حضارة وادي الرافدين وانما لان مدينة الحلة تقع في هذه المحافظة . وفيها تسكن أسرة الطالب . وفي اطار تقاليد اصبحت معروفة بالنسبة الى الرئيس صدام وتتمثل في زياراته للمناطق ولبيوت المواطنين فانه زار وبرفقته ضيفه الرئيس البلغاري اسرة الطالب وكانت مناسبة لتقديم العزاء لوالده ووالدته . وبالمزاج العراقي فان الأمر يبدو في غاية الأهمية .

ومن المؤكد انه لو كان الطالب القتيل من محافظة أخرى غير محافظة بابل لكان الرئيس صدام اختار تلك المحافظة ودعا ضيفه الى زيارتها برفقته . كذلك من المؤكد ان مثل هذه الخطوة لقيت تقديراً من الرئيس البلغاري الضيف الذي يحترم القائد الحريص على مشاعر شعبه ، خصوصاً ان الخطوة لم تتحول الى مادة تنشر في الصحف أو تذاع وانما في اطار الخصوصية .

وثمة واقعة أخرى تبدو بالمزاج العراقي على جانب من الأهمية هي الأخرى . فقد كان من المقرر ان يقوم وزير الخارجية العراقي الدكتور سعدون حمادي بزيارة رسمية الى بريطانيا تبدأ يوم ٦ حزيران ١٩٨٠ . وقد اعدت الترتيبات لهذه الزيارة قبل موعدها بفترة طويلة ونشطت السفارة البريطانية في بغداد من أجل انجاحها لسببين : الأول هو انها المرة الأولى منذ ربع قرن التي تتم فيها مثل هذه الزيارة . والثاني هو ان العلاقات العراقية ـ البريطانية على كثير من الجفاء وهذا جعل مصالح بريطانيا الاقتصادية في العراق في مستوى متدن للغاية .

وقبل حلول موعد الزيارة ببضعة أيام بدأت وسائل الاعلام البريطانية حملات على العراق وربطت في شكل أو آخر بين العراق وحادثة احتلال تعرضت لها السفارة الايرانية في لندن على رغم انه ليس هنالك ما يثبت وجود ارتباط ۰

وراقب العراق هذه الحملة وكيف انها تتصاعد بينما المفترض تهيئة اجواء طيبة من جانب بريطانيا للزيارة ۰ ولانه لا يفصل بين الحكومة وبين وسائل الاعلام فانه قبل ثمان واربعين ساعة من موعد القيام بالزيارة الغاها ببيان من ثلاث وثلاثين كلمة ۰ وفي قاموس البروتوكول والتعامل بين الدول هنالك فرق كبير بين تأجيل زيارة والغاء زيارة ۰ والالغاء من طرف واحد يستهدف في معظم الاحيان تسجيل احتجاج بالغ القساوة ۰ وعندما تكون الدولة مثل بريطانيا فإن الالغاء من جانب العراق يشكل نوعاً من الاهانة لها ۰

أما لماذا هذا الالغاء على جانب كبير من الأهمية بالمزاج العراقي فلأن كثيرين جداً من العراقيين عندما يسمعون أو يقرأون ان حكومتهم ألغت زيارة رسمية كان سيقوم بها وزير الخارجية الى بريطانيا سيتذكرون كيف انهم كانوا في الماضي يقفون طوابير للحصول على بقايا معلبات الانكليز ۰ هذا مع الأخذ في الاعتبار ان الاعلان عن الغاء الزيارة تم يوم الذكرى الثامنة لتأميم النفط وهي الخطوة الأخيرة والحاسمة في سلسلة خطوات استهدفت اخراج الانكليز بكل مظاهرهم من العراق ۰

لم تتم الزيارة التي كانت بريطانيا تأمل منها الكثير على صعيد وضع صيغة جديدة في العلاقات مع العراق * ۰ وبدلاً من ان يتوجه وزير الخارجية العراقية الى لندن يوم ٦ حزيران ١٩٨٠ فانه قام بعد خمسة ايام بزيارة الى باريس واعلن بعد لقاء مع الرئيس فاليري جيسكار ديستان ان الرئيس الفرنسي سيقوم بزيارة رسمية الى العراق في خريف ١٩٨٠ ۰ وبالمزاج العراقي أيضاً وأيضاً يبدو ذلك مهماً على أساس ان رئيس فرنسا هو الذي سيزور العراق قبل ان يزور الرئيس العراقي فرنسا علماً بانه سبق لصدام حسين يوم كان نائباً للرئيس ان قام بزيارة رسمية الى فرنسا ۰

وقبل ان يستقبل الرئيس جيسكار ديستان وزير الخارجية العراقية سبق له ان استقبل في اواخر نيسان ١٩٨٠ عضو مجلس قيادة الثورة ووزير النفط العراقي تايه عبد الكريم على رغم انه لم يأتِ خصيصاً الى باريس كمبعوث شخصي من الرئيس صدام وانما كان يترأس في العاصمة الفرنسية وفد العراق في اجتماعات الدورة الرابعة العراقية ـ الفرنسية المشتركة للتعاون في مجالات التربية والتعليم والنفط والمعادن والصناعة والزراعة والري ۰ وبالمزاج العراقي بدا ذلك مهماً حيث ان الاستقبال حدث في الفترة التي كانت تفاعلات النبأ الايراني المختلق عن المؤامرة واغتيال صدام حسين مستمرة ، فضلاً عن انه جاء كرد بالمثل على ذلك الاستقبال

---

* على رغم هذه الأجواء فان سلطات الأمن العراقية ضربت محاولة من قبل ثلاثة مسلحين لاحتلال السفارة البريطانية في بغداد واحتجاز بعض الرهائن ۰ وقد جرت المحاولة يوم الخميس ١٩ حزيران ١٩٨٠ ، ويوم الأحد ٢٢ حزيران كان الرئيس صدام يتسلم رسالة شكر من رئيسة وزراء بريطانيا مارغريت تاتشر على ذلك ۰

المتميز الذي لقيه أول سفير لفرنسا في بغداد بعدما تسلم صدام حسين المسؤولية الكاملة ، وهو بيار روكلاف ، عندما قدم اوراق اعتماده الى الرئيس صدام يوم ٢٣ نيسان ١٩٨٠ . فقد عاملت وسائل الاعلام العراقية وربما بتوجيه من الرئيس صدام هذه المناسبة التقليدية معاملة استثنائية . فالصورة التي تنشرها الصحافة المحلية في مثل هذه المناسبات هي التي تمثل الرئيس يتسلم اوراق الاعتماد من السفير يحيط بهما وزير الخارجية ومسؤول البروتوكول . لكن الصور التي نشرتها الصحافة العراقية في اليوم التالي كانت تمثل الرئيس جالساً على طرف الكنبة العريضة في مكتبه وعلى الطرف الآخر جلس السفير الفرنسي الجديد . والى ذلك ان الرئيس صدام وجد في تسلم اوراق الاعتماد مناسبة يحدد فيها طبيعة العلاقات العراقية ـ الفرنسية من جهة ، وكيف يفترض بسفراء بقية الدول الأخرى لدى العراق ان يتصرفوا . وقد نشرت الصحف الكلمة في العنوان الرئيسي لها في صفحاتها الأولى مع الصورة المشار اليها . وفي كلمته قال الرئيس صدام مخاطباً السفير « اننا واثقون بان مهمتك لن تكون صعبة لانك في بلد ينظر بارتياح كبير الى تطور العلاقة مع فرنسا على اساس من التكافؤ وبما يخدم مصلحة شعبي البلدين والانسانية جمعاء . نأمل ان تعمل بجد من أجل بلدك وسوف نكون مسرورين عندما تكون في غاية الاخلاص لبلدك ، ولكن عليك ان تتذكر دائماً ان العراقيين كذلك يعملون في غاية الإخلاص لبلدهم . أن أي تصور لمصلحة فرنسا ولكي يتحقق مطلوب له طرف ثان هو العراق ولا بد من أن ترى مصلحة العراق متواجدة مع مصلحة فرنسا في العمل المشترك . ان العراق سيفعل هذا من جانبه وبهذا يعطي المعنى الصحيح للصداقة بين دول العالم ومنها فرنسا » .

وكدليل على ان تقديم اوراق اعتماد سفير فرنسا احيط بالتميز هو انه بعد ذلك بحوالى شهر تسلم الرئيس صدام اوراق اعتماد سفيري المانيا الغربية وكوريا الشمالية فلم تتعامل الصحافة العراقية مع المناسبة التعامل نفسه الذي حدث مع مناسبة تقديم سفير فرنسا اوراق اعتماده . فالصورتان اللتان نشرتا كانتا تمثل كل سفير يقدم أوراقه الى الرئيس (أي الصورة التقليدية) يحيط بهما رئيس ديوان الرئاسة ووزير الخارجية ورئيس دائرة المراسم في الديوان .

وللمناسبة انه قد يجوز الافتراض ان السفيرين استقبلا في يوم واحد على أساس تشابه ظروف بلديهما حيث كلا البلدين مقسوم بلدين بلد غربي وبلد شيوعي . والمقسوم بلده انسان تعيس مهما بلغ حجم ازدهاره وتقدمه . وكأنما الرئيس صدام كان يعبر عن مشاعر دفينة ازاء البلد المقسوم عندما قال مخاطباً السفير الالماني « علينا ان نتذكر اننا جزء من الانسانية وسعادتنا من سعادتها » .

واذا جاز القول فان اسلوب صدام حسين في ادارة الحكم وفي التعامل مع العالم يندرج تحت بند لخص مضامينه في خطاب القاه عصر ١٥ نيسان ١٩٨٠ في الموصل وشكل هذا الخطاب خطوة متقدمة جداً على صعيد الصراع مع الامام الخميني . وفي ذلك الخطاب قال الرئيس صدام : « عندما تقرأون تاريخ العراق تجدونه إما بالمنارة أو ينسحق تدوسه سنابك الخيل . ولو نرجع الى تاريخه ، نجده دائماً أما في موقع متميز في الحضارة متميز في الدور التاريخي متميز ضمن الأمة العربية ، او يسحق من قبل الطغاة ، لان العراق به خواص شعب . اينما تذهب تجده شعب رسالة

وشعب قضية وشعب مبادىء ... شعب الذرى وليس شعب السفوح أو الوديان » .

وواضح من هذا التحديد ان صدام حسين يرى ان دوره هو اعادة العراق الى ان يكون المنارة . والمنارة هنا ليس بمعنى الاشعاع وحسب وانما بمعنى ان يكون صاحب راية متقدمة على بقية الرايات .

ومن أجل أن يعيد العراق منارة وضع بعد ثورة ١٧ - ٣٠ تموز ١٩٦٨ مباشرة الخارطة السياسية والاجتماعية للعراق أمامه وبدأ في اطار نظرة قائمة على التخطيط مهمة شاقة . فالعراق سلسلة عريضة من الحالات القابلة للتفجر وهو ايضاً مجموعة من الاشكالات والمشاكل ذات الطابع الاجتماعي . ومن دون تعطيل الغام التفجر وحل الاشكالات والمشاكل لن يكون هنالك دور ولن يكون هنالك اشعاع .

ومثل هذه المهمة شبه المستحيلة تحتاج الى شخصية قيادية قادرة على الابتكار وشجاعة ولا تضعف وتحتار امام الازمات المفاجئة مهما بلغ حجم تعقيدها .

واستناداً الى الواقع الاقتصادي للعراق عند قيام الثورة لا يمكن لحلم المنارة ان يأخذ طريقه الى التكوين . فمن دون الاستقلال الاقتصادي يصعب البدء في ثورات اجتماعية على أكثر من صعيد . ومن دون السيطرة على الثروة الناشئة عن النفط والتي تجنيها الشركات ولا يبقى للعراق سوى القليل القليل ، لا يمكن مواجهة الحالات المتفجرة . ومن هنا جاء قرار تأميم النفط .

وقبل التأميم كانت شركات النفط تدعي ان النفط العراقي غير مرغوب في الاسواق وتبعاً لذلك كانت العائدات قليلة . وواضح ان الهوية الثورية للحكم هي السبب في هذا التلاعب .

ولقد روى لي الرئيس صدام ظروف التأميم خلال مناقشة طويلة معه حول تجربته (الفصل الأخير من هذا الكتاب) وكيف ان الفنيين كانوا ضد التأميم .

وفي الذكرى الثامنة للتأميم التي صادفت بعد عشرة أشهر من تسلمه المسؤولية الكاملة اضاف ان بعض الحركات السياسية في العراق نصحت بتأميم نصف الحصص وان بعض الفنيين شرحوا في اجتماعات داخل القصر الجمهوري بالارقام ان عائد العراق من النفط سيكون أقل بعد التأميم ، ولكن صدام حسين لم يقتنع بذلك كله واتخذ قراره « كل الحصص للعراقيين ولا حصة للأجانب » . ولعل انتصاره في التأميم على رغم الشرح الذي شرحه الفنيون هو الذي بلور في فكره وصية من سلسلة وصايا عممت على القيادات المتقدمة في الحزب وهي الوصايا التي لا تنشر عادة ، قال فيها « عليكم الا تتصرفوا في المسائل الاقتصادية والفنية الرئيسية بدون ان تستشيروا الفنيين . ولكن اياكم ان تتركوا للفنيين مهمة قيادة الاقتصاد الوطني . لا تتيحوا لهم المجال لأخذ الدور القيادي وانما يجب ان يكونوا دائماً تحت توجيه وقيادة العقل القيادي الثوري الذي لا تتحدد قدراته ومعرفته بالاختصاص التقني فقط . ان الكثير من الفنيين بما في ذلك بعض البعثيين يجد نفسه في كثير من الاحيان منساقاً لمعالجة القضية المطروحة عليه من زاوية فنية ، وينسى ان يحكم الربط بين المعالجة الفنية وبين فكر الثورة الذي هو طريق بناء المجتمع الجديد ، وكل زاوية من زوايا حركة الدولة والثورة ... » .

وبالاولويات ،يمكن القول ان فكرة التأميم نشأت عند صدام حسين من خلال تكوينه الايديولوجي . لكن انتظار وزير المالية بعد الثورة تسلم القسط من شركات

النفط لكي تدفع الرواتب للموظفين كان يشكل هزيمة لذلك التكوين الايديولوجي . ومن هنا حدث نوع من المزج بين الحس الوطني ووطأة الحاجة قادا الى اتخاذ قرار ما كان ليتم لو ان صدام حسين كان سيأخذ بارقام الفنيين الذين يرون ان اختصاصهم التقني أكثر صوابية من اختصاصه الوطني والثوري .

وفي البداية كان التأميم نوعاً من المخاطرة . فميزانية الدولة في ذلك الوقت كانت ٣٢٠ مليون دينار والمصارف خالية والوضع الاقتصادي سيء . وهنالك عجز في حدود ٧٥ مليون دينار . وكانت شركات النفط البريطانية والأميركية والفرنسية والهولندية وهي تتصلب في المفاوضات التي بدأت معها تراهن على ان الحكم سيتراجع أمام الوضع الاقتصادي السيء . ولكن صدام حسين ادار بالتقنية الثورية الايام الثلاثة الأخيرة التي سبقت اعلان التأميم واستطاع ان يشيع وسط قيادة الحزب الأمل ، خصوصاً بعدما كان بعض الاعضاء باتوا شبه مقتنعين بوجهة نظر الفنيين الذين نصحوا بعدم التأميم .

ولإن هم شركات النفط لم يكن بناء قاعدة وصناعة نفطية متطورة تساعد على نمو العراق فان ذلك أدى عملاً بشعار « أكبر انتاج بأقل كلفة » الى بقاء حقول نفطية كثيرة من دون استكشاف أو تطوير أو استثمار فضلاً عن ان العراق بقي منتجاً للنفط الخام دون وجود أي صناعة نفطية . ومن أجل ذلك فان هنالك خططاً كانت جاهزة في الفترة التي سبقت اعلان قرار التأميم وضعت قيد التنفيذ لمجرد اعلان القرار . وقد استهدفت هذه الخطط والبرامج المتشعبة منها اقامة صناعة نفطية تستطيع مع الوقت تأمين الموارد اللازمة لتمويل خطط البناء وتعمير البلد . وتجدر الاشارة هنا الى ان المبلغ الذي انفقته المؤسسة العامة للمشاريع النفطية على بناء المنشآت النفطية في الفترة بين ١٩٦٤ و ١٩٦٩ لم يتجاوز ثمانية ملايين دينار في حين ان المبالغ التي تم انفاقها على المشاريع النفطية في الفترة بين ١٩٦٩ و ١٩٧٨ وصلت الى حوالى ٥٠٠ مليون دينار من اصلها ٤٦٢ مليوناً انفقت بعد اعلان قرار التأميم مباشرة وحتى نهاية ١٩٧٨ . وقبل شهر من تسلم صدام حسين، الذي خاض معركة التأميم بالتقنية الثورية وحقق فيها فوزاً ضخما ، المسؤولية الكاملة كانت كلفة العمل الذي تنفذه المؤسسة وصلت الى ألف مليون دينار . وكان هنالك تنفيذ دقيق لبرامج تقضي بتطوير حقول نفطية جديدة . وخلال عام ١٩٨٢ سيكون تم انجاز مشروعي غاز الشمال والجنوب ومصفى الشمال بطاقة تبلغ ٧ ملايين ونصف المليون طن من النفط الخام سنوياً .

وفي الفترة بين اعلان قرار التأميم في الأول من حزيران ١٩٧٢ واعلان الرئيس أحمد حسن البكر في الأولى والدقيقة الخامسة والعشرين من فجر الأول من آذار ١٩٧٣ تحقيق الانتصار الكامل على شركات النفط عاش العراق ظروفا مالية بالغة التعقيد قللت من اثارها التوعية القائمة على انه لا بد من تحمل كل النتائج لانجاح مثل هذه الخطوة الكبرى . ثم جاء الاعلان يشيع شيئاً من الانفراج حيث انه تضمن ما يفيد ان الشركات دفعت مبالغ متراكمة قيمتها ١٤١ مليون جنيه استرليني وزيادة الانتاج في شركة نفط البصرة والتنازل عن امتيازها في شركة نفط الموصل ومن دون تعويض .

ومنذ التأميم وضع صدام حسين سياسة مخططة ومبرمجة للنفط تقوم على اساس ان يكون النفط العراقي ملكاً للعراق من البئر الى الميناء ثم اضيفت

الناقلات التي اشترى العراق بعضها لغرض التسويق بنفسه والاستغناء حتى عن ناقلات الغير ، وعلى اساس ان يتم التعامل مع جهات كثيرة ، وعلى اساس افضليات بحيث يباع النفط من الاصدقاء أولاً ثم من المحايدين ثم من الآخرين . وفي هذا الصدد تجدر الاشارة الى ان العراق يتعامل مع خمس وخمسين جهة تشتري نفطه مباشرة ومن دون ان يكون هنالك مجال للعمولات .

كذلك تقوم السياسة المخططة المبرمجة على اساس تحقيق الاستفادة القصوى من النفط ما دام سلعة تحظى بالاقبال الدولي على ان توظف العائدات في المجالات التي لا تجعل الاقتصاد العراقي يتأثر في حال نضوب النفط أو استغناء العالم عن النفط كمصدر للطاقة وتحوله الى مصادر أخرى . وتأتي الزراعة في طليعة المجالات التي نشير اليها حيث تبلغ مساحة الاراضي الموضوعة تحت الاستزراع للزراعات الصيفية والشتوية لكامل السنة حوالى مئة مليون متر مربع .

ومن خلال نظرة سريعة على الخطط الاستثمارية ونسبة مساهمة موارد النفط في هذه الخطط يتبين لنا انه لولا التأميم لما كان لهذه الخطط ان تكون بالحجم التي هي عليه .

قبل التأميم كانت الخطة الاستثمارية للعام ١٩٧٠ تبلغ ١١٦٫٣٥٠ مليون دينار تساهم موارد النفط فيها بمبلغ ٩٧٫٢٩١ مليون دينار (الدينار حوالى ٣ دولارات) . وفي العام ١٩٧١ بلغ حجم الخطة ٢٠٢ مليون دينار ساهمت موارد النفط فيها بمبلغ ١٧٠٫٦٩٧ مليون دينار . وفي عام التأميم (١٩٧٢) بلغ حجم الخطة ١٢٤٫٥ مليون دينار ساهمت موارد النفط فيها بمبلغ ١٠٩٫٢٧٣ مليون دينار . وفي عام الانتصار الكامل على شركات النفط (١٩٧٣) بلغ حجم الخطة ٣١٠ ملايين دينار وكانت مساهمة موارد النفط بمبلغ ٤١١٫٦١٧ مليون دينار أي ان المساهمة تجاوزت المبالغ المقدرة لتنفيذ الخطة .

بعد ذلك ارتفع حجم الخطط بنسبة كبيرة نتيجة ان العائدات بفضل التأميم أصبحت ضخمة . فالخطة للعام ١٩٧٤ كانت ١١٦٩ مليون دينار ساهمت عائدات النفط بمبلغ ٦٠٠٫٨٣٣ مليون دينار (أي حوالي النصف) . والخطة للعام ١٩٧٥ كانت ١٠٧٦ مليون دينار ساهمت عائدات النفط فيها بمبلغ ١٠٠١٫٠٦٤ مليون دينار . وفي العام ١٩٧٦ كانت الخطة ١٤٩٣ مليون دينار ساهمت عائدات النفط فيها بمبلغ ١٢٥٨ مليون دينار .

وعندما تصل الخطة للعام ١٩٨٠ الى ٥٢٤٠ مليون دينار فمعنى ذلك ان صادرات النفط زادت بحيث يمكن لعائداته المساهمة في هكذا خطة استثمارية ضخمة .

ولولا التأميم والعائدات الضخمة من النفط التي استتبعت ذلك القرار لما كان في استطاعة العراق ان يقدم المساعدات والقروض الى بعض دول العالم الثالث وهي بمئات الملايين من الدنانير ولما كان من السهل عليه ان يتعهد بالتزامات المساعدة تجاه بعض الدول العربية ويفي بهذه الالتزامات. بل انه لولا العائدات النفطية الضخمة الناشئة عن التأميم لما كان للعراق ان يتعهد خلال انعقاد قمة بغداد بحل المشاكل المالية لمصر ومساعدتها باكثر من خمسة مليارات دولار سنويا ولعشر سنين مقابل ألا يواصل الرئيس السادات تنفيذ مخطط الصلح مع اسرائيل . ولكن العراق كان في هذا العرض مستندا الى دخله القومي الضخم الذي يصل مردود النفط فيه الى ثلاثين مليار دولار سنويا ، فضلا عن استعداده للتضحية ببعض ما تتضمنه خطط التنمية

على صعيد الزراعة والخدمات ومشاريع الري والكهرباء والمدارس والمستشفيات وغيرها ، والذي يعني عمليا تعطيل حركة الاندفاع في اتجاه اختصار المعوقات من اجل جعل العراق دولة عصرية أو شبه عصرية كيوغسلافيا او رومانيا على سبيل المثال بالنسبة الى الاتحاد السوفياتي ، وفي غضون خمس عشرة سنة كما يخطط لذلك الرئيس صدام .

والى ذلك انه لولا هذه الاستقلالية الكاملة في مسألة النفط واسلوب التسويق الذي حقق عائدات ضخمة لما كان للرئيس صدام ان يمارس الدور الاقتصادي الدولي المتمثل بمشروع تأسيس صندوق عالمي تساهم فيه دول الاوبك والدول الصناعية لتعويض الدول النامية عن الزيادات التي تطرأ على اسعار النفط وحمايتها من التضخم النقدي الذي تصدره الدول الصناعية الى الدول النامية وبما يحقق التوازن العادل بين الزيادات السنوية لاسعار النفط وعامل التضخم المنقول الى دول العالم الثالث ـ ومنها الدول النفطية ـ من الدول الصناعية .

وعلى الصعيد المحلي انه لولا التأميم لما كان استطاع العراق ان يسدد بعض القروض وينتقل بعد ذلك الى ان يصبح دائنا وليس مدينا ، ولما استطاع ان يرسم سياسة اقتصادية لخصها صدام حسين قبل حوالى سنة من تسلمه المسؤولية الكاملة في مؤتمر صحفي على النحو الآتي: «تتركز سياستنا الاقتصادية في منهجها ليس على أساس حساب الاحتياجات ضمن القطر العراقي وعلى أساس حساب المقتضيات وظروف القطر العراقي فحسب ، وإنما على أساس حساب الاحتياجات المتوقعة للشعب العربي وللوطن العربي .. » .

وهناك انجاز يعتز صدام حسين به اعتزازه بالتأميم ماكان ليحقق الخطوات المتقدمة التي حققها لولا التأميم . ونعني بهذا الانجاز عملية محو الأمية . اما علاقة التأميم بها فهي انه نتيجة للعائدات امكن الانفاق ومن دون تقتير على هذه العملية .

واضافة الى ان صدام حسين استند الى دور « العراق منارة » الذي يحلم به ، وهو يضع مسألة محو الأمية في أولويات المهمات الاجتماعية بعد قيام ثورة ١٧ ـ ٣٠ تموز ١٩٦٨ ، فانه لا ينسى كيف ان كادت تحول بينه وهو لا يزال دون العاشرة من عمره وبين العلم . ولولا اشرنا اليها في الفصل الاول (وهو الفصل الذي عرضنا فيه سيرة صدام حسين من الطفولة الى دوره في تنفيذ الثورة) لكان صدام حسين نتيجة تلك واحدا من فلاحي العراق وليس القائد الذي يقود الدولة والحزب .

ولعله من المفيد الاشارة الى طبيعة تلك الطقوس والتقاليد بما يخص تعليم النساء قبل القاء الضوء على حملة محو الأمية التي حظيت بتقدير دولي كما سيتبين لنا ، والتي بفضلها اصبحت نسبة الأمية بين النساء قليلة ، فضلا عن ان اقبال المرأة على تعلم الكتابة والقراءة شكل حافزاً للرجال الأميين لكي يلتحقوا بمعاهد محو الأمية .

ان المجتمع العراقي بطبيعته مجتمع محافظ . وفي المجتمعات تترسخ الطقوس والتقاليد على الرغم من اساءتها البعيدة المدى والمؤكدة للمواطن .

وكمجتمع محافظ فان المرأة كانت هي التي تدفع الجزء الاكبر من الثمن أما الرجل فانه كان في استمرار اسير تلك الطقوس والتقاليد .

وقبل حوالي مئة سنة حدثت محاولات كثيرة لكسر حدة الطقوس والتقاليد وذلك من خلال اقدام بعض الاباء على تعليم بناتهن ولكن تلك المحاولات لم تنجح وتكسرت على صخرة جاهلية منطق تلك الفترة التي يوضحها بشكل جيد كتاب مخطوط الفه عام ١٨٩٧ فقيه بغدادي معروف هو الشيخ نعمان بن ابي الثناء الالوسي وعنوانه «الاصابة في منع النساء من الكتابة» . وقد جاء في هذا الكتاب (موجود حتى الآن كمخطوطة في مكتبة الاوقاف في بغداد) الاتي :
« ... فأما تعليم النساء القراءة والكتابة فأعوذ بالله اذ لا ارى شيئا أضر منه بهن . فانهن لما كن مجبولات على الغدر كان حصولهن على هذه الملكة من اعظم وسائل الشر والفساد . وأما الكتابة فأول ما تقدر المرأة على تأليف كلام بها ، فانه يكون رسالة الى زيد ورقعة الى عمرو وبيتا من الشعر الى عزب وشيئا آخر الى رجل آخر . فمثل النساء والكتابة كمثل شرير سفيه تهدي اليه سيفا ، أو سكير تعطيه زجاجة خمر. فاللبيب من الرجال هو من ترك زوجته في حالة من الجهل والعمى فهو اصلح لهن وانفع » .

وفي العهود التي سبقت ثورة ١٧ ـ ٣٠ تموز ١٩٦٨ حدث نوع من التنبه لظاهرة انتشار الامية وقامت عدة محاولات لمحو الامية من بينها ان معهدا علميا غير رسمي افتتح صفوفا مسائية للكبار في مدارس بغداد وبعض المحافظات الاخرى ولم تحقق هذه المحاولات النتيجة المرجوة لانها كانت عشوائية ولا اثر للتخطيط العلمي فيها . كما ان المعهد المشار اليه اغلق ابوابه بعدما تبين ان المواطنين الراغبين في تعلم القراءة والكتابة لا يتحملون اقساطه وثمن الكتب والدفاتر والادوات المدرسية . ومن جانبها فان الحكومات لم تعط مشكلة الامية الاهتمام اللازم ونتيجة لذلك ارتفعت نسبة الامية بشكل كبير .

بعد قيام ثورة ١٧ ـ ٣٠ تموز ١٩٦٨ وضعت مشكلة الامية في خانة الاولويات وتدرج العلاج على النحو الآتي : تضمن الدستور نصا يلزم بمحو الامية . وضعت استراتيجية لهذا الغرض ترى ان محو الامية مسؤولية وطنية . فرض اجبارية التعليم ، مثل اجبارية التدريب العسكري . تخصيص ميزانية لتنفيذ هذه الإستراتيجية . التشاور مع الخبراء العرب والاجانب في أمر محو الامية وعقد ندوات ومؤتمرات يتم في ضوئها وضع البرامج الفعالة لمحو الامية .

كل هذا وصدام حسين يتابع الأمر بكل الاهتمام من خلال احد مكاتبه المتخصصة في المجلس الوطني ويطلب من هذه المكاتب اعطاء استراتيجية محو الامية كل الاهتمام الذي يساعد على الاسراع في اختصار عدد الاميين .

وقد انتهت المؤتمرات والندوات والمشاورات مع الخبراء العرب والاجانب الى ثلاثة بدائل . الاول يقوم على اساس محو الامية في ثلاث سنوات . ويوصي الثاني بالتمهل ويحدد خمس سنوات لمحو الامية . اما البديل الثالث فانه اوصى بحملة لمحو الامية ذات نفس طويل وهي ٥ سنوات للذكور و ٧ سنوات للاناث .

وعندما عرضت البدائل على صدام حسين طلب الاخذ بالبديل الاول لانه اسرع . ومن أجل اعطاء الامر ضمانات التنفيذ والنجاح فانه تم انشاء مجلس اعلى لمحو الامية . وبدأت لهذا الغرض عملية تصنيف للأميين وعددهم وأماكن تواجدهم . كذلك تم تخصيص ميزانية تلبي احتياجات الحملة . وقبل ان تنطلق الحملة في الاول من كانون الاول ١٩٧٨ كانت اكتملت الاحصاءات وتم استكمال

قانون يحدد الامي بانه بين ١٤ سنة و ٤٥ سنة ولا يعرف القراءة والكتابة والحساب البسيط .

وبدأ حوالي ٦٢ ألف مدرس ومدرسة حملة في منتهى الأهمية لمحو الامية وانضم اليهم بعض « الرواد » وهم من المتطوعين الذين ابدوا استعدادا للمشاركة في حملة محو الأمية في المناطق البدوية النائية والجبلية . وعندما بدأت الحملة كان عدد الذين سجلوا اسماءهم تجاوز المليون وربع المليون امي وامية توزعوا على دورات عادية ومكثفة وهو ما جعل المسؤولين يعدلون بعض الشيء في الخطة التي وضعت على اساس انضمام ٧٥٠ ألفا الى مراكز محو الأمية في مختلف انحاء البلاد كدفعة اولى . وهذا الاقبال كان سببه جدية الحملة من جهة ورغبة المواطن في ان يتعلم من دون ان نسقط من الحساب أهمية ما نص عليه القانون الالزامي لمحو الامية من عقوبات على الأميين الذين لا يلتحقون بدورات محو الامية . وهذه العقوبات هي : « عدم تعيينهم بأي عمل وعدم منحهم العلاوات والترفيعات والزيادات ، وعدم منحهم القروض المصرفية والتسهيلات الائتمانية الزراعية والصناعية ، والعقارية ، وعدم منحهم الاجازات لمزاولة المهن أو الحرف او عدم منحهم وكالات مؤسسات ومصالح القطاع الاشتراكي أو عدم تجديدها » .

والى ذلك ان احدى مواد القانون نصت على ان « يعاقب الامي الذي لم يلتحق بصفوف محو الأمية رغم تبليغه ومحاولة اقناعه بالحبس مدة لا تزيد على اسبوع أو بغرامة لا تزيد عن عشرة دنانير أو بكلتيهما ، وتكون العقوبة الحبس فقط لمدة لا تزيد على الاسبوع عند تكرار المخالفة » . كذلك نصت مادة اخرى على انه « يعاقب بالحبس مدة لا تزيد على يومين أو بغرامة لا تزيد على دينارين كل منتظم في صفوف محو الأمية وتكررت غياباته ثلاث مرات في الشهر دون عذر مشروع وتكون العقوبة بالحبس فقط لمدة لا تزيد على يومين اذا تكررت هذه المخالفة » .

ومن أجل اعطاء الحملة أهمية على الصعيد القومي فان يوم انطلاقها سمي « يوم المعرفة » يحتفل به كما الاحتفالات التي تجري بالمناسبات الوطنية ، وتدعى الى المشاركة في « يوم المعرفة » وفود عربية واجنبية فضلا على ان هنالك مهرجانات ومعارض تقام وكل ذلك بهدف رفع نسبة الحماسة في نفوس الاميين الراغبين في ان يصبحوا متعلمين .

ومع نهاية السنة الثانية من بدء الحملة أمكن تنظيف ١٢ محافظة من الأمية أما المحافظات الست الباقية فان التقديرات كانت تشير الى ان سنة واحدة تكفي لتنظيفها من الأمية .

ومرة أخرى ، انه لولا التأميم لما كان في الامكان تنظيم حملة لمحو الأمية كلفت ملايين الدنانير .

ولقد لفتت الحملة انظار منظمة اليونيسكو التي منحت خلال احتفالاتها باليوم العالمي لمحو الأمية في باريس خلال ايلول ١٩٧٩ جائزة «كروبسكايا» لحملة محو الأمية في العراق . وفي حيثيات قرار منح الجائزة « ان العراق استغل بطريقة ملحوظة جميع طاقات البلد في تعزيز حملة واسعة لمكافحة الأمية بين جميع أفراد الشعب ، وأقام بنيات دينامية اساسية ، واستخدم وسائل تعليمية ومواد ملائمة لحاجات الفئات المعنية من الشعب ، وسهل الربط بين التعليم النظامي المدرسي

والتعليم غير النظامي وقدم للمجتمع الدولي مثالا عن الارادة السياسية المصممة في حقل التعليم » .

لقد شاء صدام حسين لحملة محو الأمية ان تكون حالة طوارىء ، بمعنى انه اعتبر الامية هي الخطر الاجتماعي الكبير الذي من الضروري مواجهته كما يواجه أي عدو ، وعندما تسارع مئات السيدات اللواتي كتبت عليهن الظروف أن يحرمن من نعمة العلم بسبب التقاليد التي لخصها الشيخ الالوسي(وسبق ان اشرنا اليها) الى مراكز محو الأمية وبعضهن يحمل على صدره طفل رضيع ، فهذا معناه ان ثورة اجتماعية حقيقية بدأت . كذلك عندما يسارع فلاحون وعمال حرمهم الفقر والظروف الاجتماعية القاسية من نعمة العلم الى مراكز محو الأمية والانتظام في دورات ، فهذا معناه ان رقعة الوعي ستزداد اتساعا .

ولكي لا تتحول المسألة الكردية الى وسيلة استنزاف للمكاسب التي تنجم عن تأميم النفط فان صدام حسين اضافها ايضا الى خانة الاولويات بعدما تم الانتصار الكامل على شركات النفط .

والمسألة الكردية من نوع المسائل التي يمكن ان تستمر مشتعلة عشرات السنين أو التي يمكن حلها بقرار شجاع . تستمر مشتعلة اذا كان الحاكم تقليديا وغير مسلح برؤية ايديولوجية ومستعدا بحجة عدم التفريط بوحدة الحكم والوطن الى التجاوب مع تحريضات خارجية مشبوهة وابقاء المسألة مشتعلة . وتنتهي اذا كان الحاكم ينظر الى الامور بواقعية ، واذا كان مستندا في نظرته الى ايديولوجية تتيح له الحركة المسؤولة .

وعندما وضع صدام حسين المسألة الكردية في خانة الأولويات فعلى اساس ان بقاءها قابلة للانفجار معناه الا تكون هنالك تنمية وان يتم بناء الجيش من اجل حرب محلية وليس من أجل دور قومي ومعناه ان تطول الحرب الى ان يقتنع الطرف المتمرد ويرمي سلاحه مهزوما ، ومعناه ايضا ان الجيش قد لا يرتضي حربا طويلة ويقرر انزال ضربة حاسمة بالطرف المتمرد تحقق به انتصارا عسكريا لكن هذا الانتصار هو في النهاية على ابناء الشعب الواحد ، ولذا فهو انتصار بالمعنى السلبي . ومعناه ايضا انه اذا كان حزب البعث لا قدرة ايديولوجية عنده لحل مسألة اقلية من اقليات العراق ويترك أمر ايجاد الحل الى القدرات العسكرية فكيف سيوحد اذن اقطارا قريبة وبعيدة .

وفي ضوء هذه القناعات قرر صدام حسين ان يأخذ على عاتقه حل المسألة الكردية مستندا الى ملامح ايديولوجية للبعث بالنسبة الى الاقليات بدأت تتكون في ذهنه . ومن هنا كان البيان الذي صدر في الحادي عشر من آذار ١٩٧٠ متضمنا مبادىء الحل السلمي للمسألة الكردية بما في ذلك منح الحكم الذاتي للأكراد في اطار سيادة الدولة الواحدة وفي اطار وحدة التراب الوطني ، على أن يطبق الحكم الذاتي بعد أربع سنوات .

هنا يحتاج الأمر الى وقفة نبسط فيها هذه الايديولوجية قبل الانتقال الى عرض الاسلوب الذي اعتمده صدام حسين في ايجاد الحل ، ثم طرحه ، وبعد ذلك الأخذ به .

ان الشرط الذي وضعه حزب البعث للانتماء الى الأمة العربية والذي نص عليه دستور الحزب في مبادئه العامة هو : « العربي هو من كانت لغته العربية ، وعاش

في الارض العربية ، أو تطلع الى الحياة فيها ، وآمن بانتسابه الى الأمة العربية » .
والغرض من هذا التحديد هو افساح المجال أمام تعميق امتزاج الاقليات والاقوام الصغيرة في الأمة العربية . لكن الاكراد اقلية ذات ثقل سكاني ولا ينطبق عليها من مضمون التحديد سوى انها تعيش في الارض العربية .

ازاء ذلك كان لا بد من تعديل في النظرة الى وضع الاكراد خصوصا ان هؤلاء شديدو الحرص على قوميتهم وعاداتهم ولغتهم وثقافتهم . والتعديل المطلوب هو في قبول خصوصية هذه القومية المحلية وحل أي تعارض بينها وبين القومية العربية من دون ان يعني ذلك اعتبارها ـ هي وبقية القوميات ذات العدد السكاني الصغير ـ قومية غريبة كالقومية الفارسية أو القومية الهندية ، ومن دون ان ينظر الى نزوع هذه القوميات نحو التطور الثقافي والاجتماعي الذي يتناقض مع نزوع الأمة العربية نحو الوحدة والحرية والاشتراكية .

وكان يمكن حزب البعث ان يحل المسألة لو أن صدام حسين وافق على ما طرحه البرزاني عليه في اعقاب صدور بيان الحادي عشر من آذار ١٩٧٠ وهو أنه مقابل الاقرار بان يكون حزب البعث هو القائد المطلق التصرف بالعرب في العراق على ان يكون هو (أي البرزاني) القائد المطلق التصرف باكراد العراق مع استعداده لاستبعاد أي فئة أخرى من النشاط السياسي بما في ذلك الحزب الشيوعي .

ولكن صدام حسين رفض مثل هذا العرض على رغم ان حزب البعث في تلك الفترة كان يحتاج اليه من أجل تثبيت سلطته الثورية . كذلك رفض صيغة مماثلة عرضها الحزب الشيوعي المتحالف مع البرزاني باقتسام الايديولوجية بحيث تكون للبعث قيادة العرب وتعطى للشيوعيين قيادة الاكراد .

كذلك كان يمكن حل المسألة لو ان انتشار البعث في صفوف الاكراد اخذ مداه البعيد ، لكن هذا الانتشار كان ضعيفا (بين الذين وصلوا الى مراكز قيادية في البعث من الاكراد هنالك علي صالح السعدي وكريم الشيخلي وسعاد اديب الذي كان نائبا لرئيس المجلس التنفيذي) يقابله انتشار واسع للشيوعيين الذين نشطوا في تصوير الصفة العربية لحزب البعث على أنها صفة عرقية .

وثمة ظاهرة ملفتة للنظر وهي انه على رغم القوة التي للشيوعيين في صفوف الاكراد فان شعبيتهم كانت باهتة ، ولعل تدين الكردي وتعصبه للاسلام هما السبب في ذلك .

ولكن صدام حسين على رغم كل شيء واصل وضع تصميماته للحكم الذاتي بالنسبة الى المنطقة الشمالية وواصل البرزاني عملية التمرد وسط رفض من قوى كردية كثيرة لها ، بعدما وجدت هذه القوى في بيان الحادي عشر من آذار ١٩٧٠ ما من شأنه ان يحقق استقرارا تحتاجه المنطقة الشمالية . وقد صيغت هذه التصميمات بشكل مشروع عرض عام ١٩٧٤ على الجانب الكردي فوافقت عليه كل القوى الكردية باستثناء ممثل البرزاني . وكان الرفض معناه العصيان والقتال . ثم بدأ اتباعه الذين كانوا يسكنون في بغداد ويعمل عدد منهم في الدولة يغادرون العاصمة الى المنطقة الشمالية .

وافترضت الأجهزة الأمنية بعد التقارير التي رفعتها الى صدام حسين حول ان هؤلاء الذين يتركون منازلهم ووظائفهم في بغداد انما يلتحقون بتمرد البرزاني ان قرارات مواجهة من جانب الدولة ستصدر ، لكن شيئا من ذلك لم يحدث . وحتى

عندما أوفد البرزاني نجله ادريس الى بغداد لمقابلة صدام حسين كان الموقف يتطلب المواجهة لكن المواجهة لم تحدث . فقد اعلن ادريس باسم والده رفض المشروع ورد عليه صدام حسين بان المشروع وضع لكي يبدأ تنفيذه في اليوم المحدد للتنفيذ وهو الحادي عشر من آذار ١٩٧٤ ، واضاف : « انا اعرف انك ستخرج من هنا وتذهب لتعلن العصيان ، لكنكم ستندمون لان حساباتكم مغلوطة » .

وفي هذه الاثناء تبلغ صدام حسين بان الوزراء الاكراد غادروا بغداد بسياراتهم الرسمية في اتجاه «كلاله» في الشمال . وافترضت الاجهزة الامنية بعدما وصلت مظاهر العصيان الى حد التحاق الوزراء الاكراد بالتمرد الذي يقوده البرزاني ان صدام حسين سيطلب اعتقال هؤلاء واعادتهم الى بغداد ، لكن تعليماته قضت بالتالي : بلغوا كل مخافر الجيش بان تؤدي لهم التحية الرسمية كوزراء الى ان يصلوا الى هناك ... » .

وكان هدف صدام حسين من ذلك ان يشعر الاكراد بان موقف الدولة سليم وانها نفذت كل التزاماتها . ويوم الحادي عشر من آذار ١٩٧٤ كان مشروع الحكم الذاتي قد سن كقانون اذيع واعلن بموجبه تشكيل مجلس تشريعي (اي برلمان) ومجلس تنفيذي (أي حكومة) . واعطي الرافضون مهلة اسبوعين للقبول أو عدم القبول . وبعد انتهاء الثانية الأخيرة من آخر يوم في المهلة بدأ الجيش تنفيذ أوامر تطهير مناطق التمرد .

ومن قبل ان يبدأ تطبيق الحكم الذاتي كان هنالك حرص من جانب صدام حسين على أن يأخذ الاسلوب النفسي في المعالجة مداه الى جانب الحسم العسكري . ونعني بذلك نمو ثقة من قبل الاكراد به واسقاط الحاجز النفسي بين الاكراد وحزب البعث وهو حاجز تمكن جماعة البرزاني من جهة والشيوعيون من جهة أخرى أن يعمقوه في نفوس الأكراد .

ومن خلال الممارسة ثم من خلال اشرافه على اللجنة العليا لشؤون الشمال حقق خطوات متقدمة على صعيد كسر الحاجز النفسي الى ان اصبحت شعبيته قوية بين الأكراد قبل ان يتسلم المسؤولية الكاملة .

والى ذلك ان هنالك بعض الروابط التي لم تفتعل افتعالا ، بين صدام حسين والاكراد وهي في نظر الذين لم يتورطوا في تمرد البرزاني لها دلالاتها . من هذه الروابط ان شقيق صدام حسين يحمل اسما كرديا ونعني به برزان الذي يشغل موقعا امنيا دقيقا . ومن هذه الروابط ايضا ان المرافق الأمني الخاص لصدام حسين منذ قيام الثورة وحتى بعد تسلم المسؤولية كاملة هو صباح ميرزا . وصباح شاب كردي . وعندما يكون الشخص الذي يرافق رئيسا من نوعية صدام حسين كرديا فهذا يشكل في نظر الكردي العادي نوعا من الثقة الكبرى .

وحتى بعد تسلمه المسؤولية واطمئنانه الى ان الحكم الذاتي يسير بالشكل الطبيعي يواصل الرئيس صدام زرع المزيد من الثقة بين عرب العراق واكراده ، مع الاخذ في الاعتبار ان القوى الخارجية المعادية لن توقف محاولاتها لضرب هذا الحل المثالي للمسألة الكردية ومن هنا جاءت توضيحاته ذات يوم لبعض القيادات الحزبية وقبل ان يتسلم المسؤولية الكاملة « لا تتوهموا بان الثورة المضادة التي اخمدت لا يمكن ان تظهر ثانية . انني اقول ذلك للتاريخ كي لا تقعوا في تصورات خاطئة وتصابوا بالغرور ، ان العوامل الدولية التي اوجدت هذا الخنجر مازالت

قائمة وبامكانها ان توجد ثانية . والامر الذي يمنع حدوث هذا الاحتمال هو العامل الذاتي ، اي ان تسد الثغرات في تصورات البعثيين وفي سلوكهم عند معالجة قضايا هذه المنطقة الحساسة التي ستبقى تستخدم كاحدى الوسائل الرئيسية للردة في المستقبل . فالصهيونية والدول الكبرى المعادية ستبقى تخطط لاستغلال القضية الكردية باتجاه مضاد للثورة ... كل منها في الزمن وللاهداف المحلية أو الدولية التي تختارها ... وعندما تتوافق اهدافها الاستراتيجية مع الظروف والامكانات المحلية » .

وفي اطار زرع الثقة تأتي زياراته بين الحين والآخر للمنطقة الشمالية وهداياه الشخصية التي يوزعها على بعض العائلات الكردية وهي في معظمها أجهزة تلفزيون . كذلك تأتي توجيهاته بين الحين والآخر من أجل تسهيل عودة الذين في الخارج حتى ولو اقتضى الأمر اعتماد صيغ ترغيبية غير ثورية من نوع الصيغة التي تضمنها قرار اصدره مجلس قيادة الثورة يوم ٢٤ كانون الاول ١٩٧٩ أي بعد خمسة أشهر وبضعة أيام على تسلم صدام حسين المسؤولية الكاملة وسمح بموجبه للاكراد المتواجدين في الخارج والراغبين في العودة بادخال سيارة لكل واحد منهم تعفى من الضرائب والعمولة المحددة للشركة العامة العراقية للسيارات ، وادخال الاثاث الضروري لهم وبحدود خمسة آلاف دينار (حوالى ١٧ ألف دولار) واعفاء هذا الاثاث من الرسوم الجمركية وعمولة القطاع الاشتراكي التجاري . بل ان السفارات العراقية في اوروبا اعطيت تعليمات لتسهيل تسفير هؤلاء ، واعطيت مكاتب شركة الطيران العراقية توجيهات بالتساهل في مسألة شحن حاجيات الاكراد العائدين .

وفي اطار زرع الثقة ايضا تأتي توجيهات الرئيس صدام بان يكون الاهتمام الاجتماعي من جانب الدولة بالشمال مثل اهتمامها بأي منطقة أخرى .

وفي الاطار نفسه وهذا هو الاهم جاء تحديد موقف البعث من مسألة الاقليات وهو موقف استند الى ملامح الايديولوجية التي اشرنا الى ان صدام حسين عالج في ضوئها المسألة الكردية ثم جاء تطبيق الحكم الذاتي يؤكد صوابية تلك الملامح . وقد اعلن الحزب موقفه ازاء الاقليات القومية في الوطن العربي خلال المؤتمر القومي الحادي عشر وهو حدد هذا الموقف متأخرا أكثر من ثلاثين سنة لانه لم يكن عند قيامه قادراً على ان يعطي الاجابات مرة واحدة على كل القضايا السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية في الحياة العربية ، فضلا عن ان مشكلة الاقليات كانت قبل ان تأخذ قضية الاكراد بعدها التفجري من المشاكل الباردة .

وتبقى الاشارة في موضوع المسألة الكردية الى انه عندما يطرح صدام حسين مع بدء السنة الثانية لقيام الثورة حلولا لهذه المسألة فمعنى ذلك أنه في الفترة التي سبقت قيام الثورة لم يكن يخطط فقط لتسلم الحزب السلطة وانما ايضا يهيء نفسه لمواجهة مشاكل عالقة وتحتاج الى حلول حاسمة .

ويقودنا الحديث حول مسألة الاقلية الكردية الى الاشارة الى الاقليات الكلدانية والاشورية والسريانية ، وهي ايضا اقليات نشط فيها الحزب الشيوعي وهدفه القاء ظلال على قومية حزب البعث وعروبته . وقبل قيام الثورة استقطب الشيوعيون عناصر كثيرة من هذه الاقليات لكن الامر تبدل بعد قيام الثورة . وقد نشط البعث في سبيل كسب هذه الاقليات وساعد في ذلك تفسير الحزب للتاريخ العربي الذي

يرى ان الكلدان والاشوريين والسريان هم في الاصل اقوام من الجزيرة العربية وينتمون حضاريا الى الأمة العربية ٠

ولكن على رغم هذا التفسير فان الاقليات هذه من الاكراد الى الكلدان الى الاشوريين والسريان مازالت اقلية داخل الحزب مثلما هي اقلية خارج الحزب وهو أمر طبيعي لكنه قابل للتبدل في ضوء بعض الصيغ التي يمكن ان تفرزها تطورات فكرية واجتماعية . والى جانب ذلك فهنالك داخل هذه الاقليات عناصر معادية للبعث لكن معاداتها قابلة هي الاخرى للتبدل تبعا للاسلوب الذي يعتمده الرئيس صدام حسين في توحيد مواقف غير البعثيين على بعض الجوامع المشتركة . ومثل هذه المعاداة موجودة اصلا بين ابناء القومية الواحدة ، ومعنى ذلك انها معاداة سياسية وليست ذات مفهوم عرقي ٠

ومن المؤكد انه لولا الموقف الذي خرج به المؤتمر الحادي عشر للحزب لكانت الاقليات العراقية في وضع حائر ، لكن تحديد المؤتمر لنظرة الحزب من الاقليات جعل الحيرة أقل حدة ، فضلا عن أنه بفضل هذا التحديد أمكن العراق أن يقول رأيا في أزمة اقلية تفجرت فجأة في الجزائر عندما بدأ البربر يطالبون بكيانية ما ، وهو رأي ورد في صحيفة « الثورة » الصادرة في ٣٠ نيسان ١٩٨٠ ويدين المحاولة التي قام بها البربر مع الاشارة ضمنا الى ان الحل لمشكلة البربر هو في الأخذ بالنظرة البعثية ٠

ومثلما ان قرار تأميم النفط ثم طرح حل للقضية الكردية واسلوب التعامل مع هذا الطرح ، هما من نوع القرارات التي تبدو غير اعتيادية ، فان قرار غير اعتيادي آخر كان لا يمكن اتخاذه الا اذا كان الرأي الحاسم في القرار رأي من يشكل دور « العراق منارة » هاجسا بالنسبة اليه ٠ وهذا القرار كان يتعلق بدور العراق في حرب ٦ تشرين الأول ١٩٧٣ ، خصوصاً أنه عندما قامت الحرب كانت ظروف العراق في غاية التعقيد . فهنالك تمرد كردي في المنطقة الشمالية وهنالك تهديد مباشر من ايران ٠ وفي الشمال كان حوالى سبعين ألف مسلح ينتظرون اشارة من البرزاني للسيطرة على مناطق مهمة في الشمال ٠ وعلى الحدود مع ايران كانت هنالك صدامات متفرقة بين القوات العراقية والقوات الايرانية ، وكان الشاه محمد رضا بهلوي يتحين الفرصة المناسبة للانقضاض على الحكم في العراق عن طريق عناصر جندها داخل العراق ٠ والى ذلك فان العلاقات مع سوريا كانت في غاية التوتر وكان الخلاف العراقي ـ السوري في تلك الفترة عميقاً جدا على صعيد الحزب وعلى الصعيد السياسي ، فضلا عن ان العراق فوجىء بالحرب ولم يجر التشاور معه من قبل لكي يجهز نفسه ويحدد حجم ونوع مشاركته ، خصوصا ان المسافة بين تواجد القوات العراقية وارض المعركة تتجاوز الألف كيلو متر ، وان الجيش العراقي كان في ذلك الوقت يفتقر بشكل خاص الى ناقلات الدبابات ٠

ولم تأخذ مناقشة القيادة للأمر كثيرا واتخذ قرار بالمشاركة على رغم ما لهذا القرار من مخاطر نتيجة للتمرد الكردي من جهة وللموقف الملتهب مع ايران من جهة أخرى ٠ وقد حسم صدام حسين أمر المشاركة عندما اعلن خلال المناقشة انه لا جدال في مسألة المشاركة لان دور العراق القومي وعروبة العراق تفرضان عليه ذلك أيا كانت الظروف . وقد أوضح لاعضاء القيادة الذين دعاهم الى الاجتماع ما

معناه : هذه فرصة تاريخية لكي نطور الحرب . نحن نعرف ان هذه محاولة تحريكية لكننا غير قادرين على تطوير المحاولة التحريكية الا من خلال المشاركة فيها . والى ذلك انه لا يمكن ان يكون لنا صوت قوي في مواجهة التسوية اذا لم نقاتل ولم تسفك دماء عراقية على ارض المعركة .

وهذا الموقف من جانب صدام حسين نشأ نتيجة ان الحرب بدأت بالفعل . وهو قبل ان تبدأ بستة أشهر كان يرى الا يشترك العراق في أي حرب تسخين على اساس ان مثل هذه الحرب ستكون جزءا من مؤامرة هدفها فرض التسوية . وقد ظهرت افكاره هذه في سلسلة من المقالات بعنوان « المنطقة ماذا والى اين » نشرت في صحيفة « الثورة » وكانت محاولة لاستقراء ما قد يحدث في المنطقة .

وفي اعقاب قيام الحرب جاء تصوره حول امكانية تطوير الحرب من حرب تحريكية الى حرب تحرير . وعلى رغم ان ذلك لم يحدث الا ان صدام حسين بقمة بغداد التي سبق ان أوضحنا ظروفها سعى من أجل ارباك أهداف حرب التحريك . ولقد حدث هذا الارباك بالفعل .

وفي الوقت الذي كان صدام حسين يعلن انه لاجدال في مسألة المشاركة في حرب تشرين الاول ١٩٧٣ كان نوع التصرف قد تبلور في ذهنه . وفي هذا الصدد حدث الآتي : تم اعداد بيان يتضمن استعداد العراق لحل مشاكله مع ايران ودعوة ايران الى الموافقة على ذلك واعادة العلاقات الدبلوماسية معها .

وفي الوقت الذي كانت اذاعة بغداد تبث هذا البيان كان تم تحديد نوع المشاركة في الحرب على الجبهة السورية . وخلال الليل تم الاتصال بالرئيس حافظ الاسد وابلاغه بأن الطائرات العراقية في الطريق اليه . وفي اليوم الثاني بدأت بعض القطاعات العسكرية تتحرك في اتجاه الجبهة السورية .

اما بالنسبة الى الجبهة المصرية فان الامر كان يختلف ، ذلك أنه كانت هنالك ترتيبات تم الاتفاق في شأنها عام ١٩٧٢ مع الرئيس انور السادات وبموجبها ساهم العراق بمبلغ سبعة ملايين دولار لشراء بعض المعدات العسكرية للجيش المصري ورابطت بضع طائرات هوكر هنتر عراقية في القواعد المصرية . وعندما قامت الحرب كان لهذه الطائرات دور اساسي حيث انها تتميز بالقدرة على التحليق المنخفض متفادية الرادار ، وعلى القصف بدقة . وكان الطيارون العراقيون هم الذين - اذا جاز التعبير - قصوا شريط افتتاح الحرب المصرية - الاسرائيلية .

ولكن الحرب التي افترض صدام حسين أنه من الممكن تحويلها من حرب تحريك الى حرب تحرير توقفت فجأة على الجبهة المصرية بقبول الرئيس انور السادات قرار مجلس الأمن الرقم ٣٣٨ فاعلن العراق في بيان انه مع استمرار المعركة . وتم ايفاد مبعوث الى دمشق لابلاغ الرئيس حافظ الاسد بذلك وابداء الاستعداد بأنه اذا واصل الحرب فان الجيش العراقي بكامله سيحارب الى جانب الجيش السوري ، اما اذا كان سيوافق على القرار ٣٣٨ فان القطعات والطائرات التي شاركت في الحرب ستعود الى العراق . وقد عادت بالفعل لان سوريا أوقفت الحرب في وقت لاحق .

ومنذ ان أوقفت مصر ثم سوريا الحرب وصدام حسين يخطط لصيغة عمل عربي من شأن الأخذ بها جعل مسالة التسوية أمراً مستحيلا أو على الاقل وضع اطرافها

في حالة دائمة من الارتباك . ثم جاءت الصيغة التي سبق ان أوضحنا ظروفها والمتمثلة بقمة بغداد ، وهي صيغة كانت شديدة الوطأة على قياديي الحزب لانهم وجدوا انفسهم فجأة ينتقلون من اسلوب في التعامل الى اسلوب آخر ، اي من رفض المؤتمرات العربية كوسيلة لمعالجة القضايا المصيرية للأمة الى اعادة النظر في هذا الرفض ودعوة الملوك والرؤساء العرب الى عقد قمة في بغداد .

وبعدما كان عدد من القياديين حائرين ازاء هذا الانتقال من اسلوب الى آخر ، انطلقوا في ضوء توضيح استراتيجي من جانب رفيقهم المتميز صدام حسين للعمل من أجل انجاح القمة ثم لانجاح الميثاق الذي طرحه الرئيس صدام يوم الثامن من شباط ١٩٨٠ لتنظيم العلاقة بين الدول العربية . وكلاهما جاء في اطار تطلع الرئيس صدام الى ان يعود « العراق منارة » . وفي الاطار نفسه جاء قرار القيادة العراقية بالالتزام بتغطية كل الالتزامات المالية التي تقررت لمصر في قمة بغداد بعدما ابدت بعض الدول العربية ترددا في اتخاذ موقف حاسم مما فعله الرئيس السادات ، على رغم ان طموح صدام حسين في ان يعود « العراق منارة » كان سيتأثر على الصعيد الداخلي لان هذه الالتزامات كانت ستأتي على حساب خطط التنمية . ولكنه كان في قرارة نفسه وهو يوصي بأهمية اتخاذ القرار (أي قرار التزام العراق بتغطية الالتزامات المالية لمصر) يرى أنه من الممكن تعويض بعض التعثر في مسألة التنمية لكن سقوط مصر العربية أمر لا يمكن تعويضه .

وفي اطار استعادة « العراق منارة » تحدث في استمرار بعض التطويرات لمسألة مشاركة غير البعثيين في القرار وفي السلطة ، وتحدث ايضاً بعض التطويرات ازاء النظرة الى الاشتراكية والتطبيق الاشتراكي .

وقد جاءت الاشارة الى مسألة المشاركة في مؤتمر صحفي عقده يوم ١٩ آب ١٩٨٠ عضو مجلس قيادة الثورة نائب رئيس الوزراء طارق عزيز وأعلن فيه سلسلة من القرارات في اتجاه تحقيق انفراجات سياسية ، ومن بينها ان القيادة السياسية « تدرس حالياً مسألة اجراء انتخابات عامة » ، وانه سيتم اطلاق جميع السجناء السياسيين في العراق وعددهم ٧٢٥ بينهم أكثر من ٤٠٠ سجين بقضايا تتعلق باحداث المنطقة الشمالية و ٣٠٠ سجين ينتمون الى اتجاهات سياسية اخرى بينهم ٢٤ شيوعياً . ومن بين القرارات التي اعلن عنها أيضاً طارق عزيز قرار يقضي بدعوة الحزب الشيوعي العراقي خارج العراق الى حوار مع « الجبهة الوطنية القومية والتقدمية » التي يشكل البعث القوة الأساسية فيها مشيراً الى انه « لم يصدر عن الجبهة قرار باخراج الحزب الشيوعي منها » .

وقد جاء الاعلان عن هذه القرارات بعد مرور شهر على تسلم صدام حسين المسؤولية الكاملة ، وفي وقت بدا كما لو ان الرئيس صدام يريد ان يزيل به آثار المؤامرة التي شاركت فيها بعض القيادات البعثية . ولم يخفِ طارق عزيز ان هذه القرارات تستهدف « احداث انفراج سياسي على الصعيد الداخلي » لكنه أكد على « ان القرار لا يرتبط بتوجيهات جديدة بل يتعلق بالامتداد الطبيعي للمرحلة السابقة » .

وقد بدأ على الفور الافراج عن المعتقلين السياسيين . ومن مفارقات القدر أنه لم يبق في السجون آنذاك سوى بضعة بعثيين هم الذين ادينوا بالتآمر . كذلك بدأ على الفور التحضير في مسودة قانون للبرلمان العائد بعدما كان ألغي مع قيام ثورة

تموز ١٩٥٨ والذي اتفق على تسميته « المجلس الوطني » بدلاً من التسمية المألوفة « المجلس النيابي » أو « مجلس الشعب » أو « مجلس النواب » . وفي الوقت نفسه بدأ التحضير في مسودة قانون لبرلمان الأكراد الذي اختيرت له تسمية « المجلس التشريعي لمنطقة كردستان للحكم الذاتي » .

وفي كانون الأول ١٩٧٩ اذيعت المسودتان وتبعت ذلك مناقشات طويلة وعلى جميع المستويات . وقد تابع العراقيون على صفحات الصحف وعبر شاشة التلفزيون مناقشات اشاعت اجواء لم تكن مألوفة على صعيد حرية الرأي .

وفي حين طرح بعض البعثيين هواجسهم من عودة الحياة البرلمانية فان الرئيس صدام طلب ان تأخذ المناقشات مداها البعيد جداً . وأما الهواجس فسببها ان عودة البرلمان قد تعني عودة بعض الظواهر التي اختفت على مدى عشرين سنة ومنها ظاهرة العشائرية التي كانت سمة العمل البرلماني في الخمسينات .

واستناداً الى الاختصاصات التي حددتها مسودة القانون للمجلس الوطني يتبين ان هذا البرلمان لن يكون مثل البرلمانات التقليدية ، الا انه في الوقت نفسه ليس نوعاً من انواع الزخرفة السياسية التي يريدها الرئيس صدام لعهده . فهو سيكون شريكاً في القرارات والتشريعات التي كانت وقفاً على مجلس قيادة الثورة ، أي على حزب البعث فقط . وتوضح ذلك الاختصاصات التي حددتها مسودة القانون ومن بينها اقتراح مشروعات القوانين وتشريع القوانين وفقاً لاحكام الدستور واقرار الميزانية العامة وخطط التنمية القومية واقرار المعاهدات والاتفاقات الدولية وفقاً لاحكام الدستور ومناقشة سياسة الدولة العامة الداخلية والخارجية ودعوة أي عضو من اعضاء مجلس الوزراء للاستيضاح أو الاستفسار منه واستجوابه وفقاً لاحكام النظام الداخلي للمجلس .

وهذه الصلاحيات رحبة جداً . فليس أمراً عادياً ان يكون في استطاعة المجلس الوطني مساءلة وزير يكون في الوقت نفسه عضو مجلس قيادة ثورة وهو أمر لم يكن جائزاً من قبل . كذلك ليس أمراً عادياً ان يلتئم المجلس الوطني ويناقش سياسات داخلية وخارجية ويقول رأياً فيها أو يتصدى لها . وهنا تجدر الاشارة الى ان مسودة القانون أعطت عضو المجلس الوطني حصانة حيث أن احداً لن يسأله عما « يبديه من آراء وما يورده من وقائع اثناء ممارسته عمله في المجلس ، كما لا يمكن ملاحقة أي عضو من اعضاء المجلس أو القاء القبض عليه من أجل جريمة اثناء دورات الانعقاد بدون اذن من المجلس الا في حالة التلبس بجناية » .

وقد تنبهت مسودة المشروع الى احتمال حدوث حالات قفز وتسلل سياسية ، ومن هنا جاءت الشروط التي يجب توافرها في المرشح للمجلس ومنها أن يؤمن بمبادىء وأهداف ثورة ١٧ ـ ٣٠ تموز ١٩٦٨ وأن يكون أنهى الخدمة العسكرية أو أعفي منها ، ولم يخضع لاجراءات التأميم أو تنطبق عليه قوانين الاصلاح الزراعي ، و « غير محكوم عليه بجريمة من الجرائم الماسة بأمن الدولة الداخلية أو الخارجية بعد ثورة ١٧ ـ ٣٠ تموز ١٩٦٨ أو الجرائم المخلة بالثقة العامة أو الجرائم الماسة بالاقتصاد الوطني والثقة المالية للدولة أو الجرائم الواقعة على أموالها أو الجرائم المخلة بالاخلاق والآداب العامة » . ومن الشروط أيضاً ان يحسن المرشح القراءة والكتابة ، وهذا سببه ان عدداً من أعضاء آخر برلمان عراقي قبل ثورة عام

١٩٥٨ كانوا لا يعرفون القراءة والكتابة ويبصمون بابهام اليد على مذكرات وصيغ مشاريع .

ولقد أوجدت صيغة مسودة المشروع لمجرد اذاعتها حالة من الحماسة في نفوس كثيرين يتطلعون الى ممارسة أي دور سياسي . أما بالنسبة للبعثيين فانها جعلتهم يتنبهون الى ان الرئيس صدام اجاز لغيرهم أمر العمل السياسي من خلال مؤسسة ذات سلطات وان عليهم في ضوء ذلك الا يعتبروا بان الساحة ما زالت حكراً عليهم ، وان في ايديهم أمر تطوير علاقتهم بالناس . واذا جاز القول فان فكرة المجلس الوطني كانت تنبيهاً أو شبه تنبيه من الرئيس صدام حسين الى رفاقه المليون في العراق بان هنالك عملية اختبار لمدى علاقة الشعب بهم أو بغيرهم .

وتم تحديد يوم الجمعة ٢٠ حزيران ١٩٨٠ موعداً لاجراء عملية الانتخاب . ولكي لا تحدث حالات ابتزاز لاصوات الناس أو تسير حملات الدعاية والترويج للمرشحين في إتجاه يتعارض مع اصول تفرضها تقاليد البعث في الحكم فان الدولة أخذت على عاتقها حملة الترويج فنشرت صور المرشحين مع نبذة عن كل مرشح . واخذت على عاتقها أيضاً أمر توصيل الناخبين الى مراكز الاقتراع واعادتهم الى منازلهم . وعندما بلغ الرئيس صدام ان بعض اعضاء حزب البعث في احدى المناطق خالفوا توجيهات القيادة حول الدعاية الانتخابية التي تشدد على عدم التفريق بين المرشح البعثي أياً كان وضعه في الحزب أو الدولة وبين المرشح المستقل ، طلب معاقبة هؤلاء حزبياً ونشر اسماءهم ونوع العقوبة التي انزلت بهم . وقد نشرت الصحف الاسماء ونوع العقوبة الذي يعتبر قاسياً بمفهوم الثواب والعقاب في الحزب . فقد تم فصل بعض هؤلاء وحجز أحدهم وتخفيض الدرجة الحزبية لآخرين .

وقبل يومين من موعد اجراء الانتخابات كان الرئيس صدام يخاطب البعثيين قبل غيرهم عندما قال في كلمة ألقاها خلال زيارة لمدينة الرمادي (محافظة الانبار) قام بها يوم ١٨ حزيران ١٩٨٠ « نحن نعتبر كل المرشحين لعضوية المجلس الوطني هم أبناء الثورة وابناء الحزب سواء كان المرشح حزبياً أو غير منتم الى الحزب » .

ويوم الانتخابات وكان ما يزال يواصل زيارته لمحافظة « الأنبار » تفقد الرئيس صدام سير الانتخابات في المراكز الانتخابية في بعض قرى المحافظة وكان حريصا على أن يسأل الناخبين لماذا اختاروا مرشحا على آخر وما الذي يريدونه من المرشح في حال فوزه .

وبعدما انتهت الانتخابات طلب من رئاسة ديوان رئاسة الجمهورية اصدار بيان يشيد بالوعي الذي مارسه المواطن في أول انتخابات يشهدها العراق بعدما غابت الحياة البرلمانية عشرين سنة ، وأول انتخابات في تاريخ العراق تعطى فيها المرأة حق الانتخاب والترشيح .

وابتداء من يوم السبت ٢١ حزيران ١٩٨٠ ولدت مؤسسة تشريعية في العراق هي المجلس الوطني ، قال الرئيس صدام مخاطبا اعضاءه وهو يفتتح الجلسة الاولى للمجلس مساء الاثنين ٣٠ تموز ١٩٨٠ « ... وبالقدر الذي يتعلق بمسؤولية قيادة الحزب والثورة فانني اعلن أمامكم بأننا قد قررنا بمسؤولية عميقة وبعقل مستقر أن نوفر كل معاني واجواء الممارسة الديمقراطية لاعضاء المجلس الوطني وأن نرعاه بكل

معاني الرعاية الثورية المسؤولة دون أن نكون اوصياء عليه ... » . وهذه المؤسسة (اي المجلس الوطني) قوامها ٢٥٠ عراقيا وعراقية هم من اصل ٨٤٠ رشحوا انفسهم على ٥٦ منطقة انتخابية تضم ٨٠٣ مراكز للاقتراع . وهذا البرلمان (الذي يترأسه نعيم حداد أحد القياديين المتقدمين في الحزب والذي يسمح له موقعه الحزبي بأن يباسط الرئيس صدام في هموم المجلس ، وذلك امر في غاية الاهمية لان رئيسا آخر للمجلس ليست له هذه الصفة القيادية لن يكون من السهل عليه أمر المباسطة) ... لن يكون برلمان البعث بالمفهوم المنظم وانما برلمان البعث بالمفهوم الذي حدده الرئيس صدام في جلسات المناقشة معه والمثبتة في الفصل الاخير من هذا الكتاب . والمفهوم المشار اليه هو « اعتقد ان الاغلبية الساحقة من العراقيين الان بعثية . المنظم وغير المنظم ... » .

واستنادا الى كلام قاله الرئيس صدام يوم ٣٠ تشرين الاول ١٩٧٩ خلال اجتماع في بغداد لمناقشة مشروع قانون المجلس الوطني وقانون المجلس التشريعي لمنطقة كردستان للحكم الذاتي يمكن القول ان صيغة المجلسين لن تكون ثابتة بالشكل الذي انتهت اليه « ان البعض يقول احيانا اننا سندخل بذلك مرحلة الديمقراطية ، وهذا خطأ كبير ، لان هذه الصيغة هي الاخرى ستتطور وسنجد انفسنا بعد عشر سنوات امام صيغة اخرى في التعبير عن الديمقراطية غير الصيغة التي ستقر » .

وفي كلامه اعتبر صيغة المجلس الوطني حلقة في سلسلة وليست نهاية المطاف في التعبير « ان الحزب كان يعبر عن الديمقراطية بصيغ اخرى كالانتخابات الحرة التي تجري بين صفوف العمال والفلاحين والطلبة والنساء وفي كل التنظيمات النقابية والمهنية وهي جميعا ممارسات ديمقراطية حقيقية . والتفاعل الجماهيري بين القيادات الميدانية وبين الشعب يوميا ابتداء من الندوات المفتوحة والى كل الصيغ الاخرى المعروفة والتي هي ممارسات ديمقراطية ، ولكن بقانون المجلس الوطني سنمارس الديمقراطية باطار جديد وصيغ جديدة تعبر عن منهج الثورة ومبادئها » .

وفي كلامه حرص على أن يقول امرا في منتهى الاهمية وهو ان الانتخابات لم تفرضها ظروف استثنائية ضاغطة « ان قانون المجلس الوطني لو جاء في ظروف صعبة يعيشها الحزب او تعيشها الدولة لقيل ان هذه محاولة لالهاء الجماهير وتنفيسا عن خاطر الشعب ولكن القانون يأتي والحزب في مرحلة صحية .. » وانما جاءت في اطار كونها « حالة اقتدار مبدئي تعبر عن فهم الحزب للحياة » .

واذا كان الشق الاول من مسألة « تحقيق الانفراجات السياسية » قد تحقق وجرت الانتخابات واصبح للعراق برلمان من نوع مألوف ليس فيه سمات البرلمانات التي كانت سائدة قبل ثورة ١٩٥٨ ، فان الشق الآخر من المسألة لم يتحقق لان الحزب الشيوعي العراقي خارج العراق لم يستجب للدعوة الى الحوار مع « الجبهة الوطنية القومية والتقدمية » على رغم ان عبارة طارق عزيز « انه لم يصدر عن الجبهة قرار باخراج الحزب الشيوعي منها » كانت نوعا من فتح المصراع الاخر من الباب لتسهيل العودة ، على اساس ان الدعوة الى الحوار في حد ذاتها تشكل فتح المصراع الاول .

وخلال لقاء مع الرئيس صدام مساء ٢٩ ايلول ١٩٧٩ سألته عن الظروف التي جعلته يقرر قيام برلمان ويقرر دعوة الشيوعيين الى العودة والحوار ، وعما اذا

كانت المؤامرة من جانب بعض قيادات حزب البعث هي السبب أجاب عن الأمرين على النحو التالي :

حول مسألة الانتخابات قال : « صحيح ان كل حالة تحصل لا ينبغي ان تهمل من قبل الثوريين ، ولكن الثوري يتحول الى لا ثوري عندما يكون موقعه قائما على أساس ردود الفعل ، لان معنى ذلك انه سيكون من دون استراتيجية ومن دون خلفية مبدئية تفرض عليه استراتيجية مستمرة . وليس معقولا أن يضع حزب البعث هذه القضايا الكبيرة لان المؤامرة حدثت . والمتآمرون في حالة ردة ، والصيغ التي نتحدث عنها في حالة ثورة ، ولذا لا يمكن ان نتصور انها وضعت بعدالمؤامرة. ان المجلس الوطني معلن عنه من زمان ، وكان بعض المتآمرين ممن كلفوا بتهيئة المجلس الوطني وممن عطلوا ظهوره » .

وحول مسألة الشيوعية قال : « هناك رسالة وجهت لهم من قبل القيادة القطرية منذ فترة دعتهم فيها الى حوار لاعادة وضع العلاقات في اطار مقبول للطرفين فأرسلوا رسالة فسرتها القيادة بأنها لا تعبر عن الموقف المطلوب ، اي انها تقريبا لم تجب بشكل صريح وجريء ومباشر على مبادرة القيادة . وهذه حالة قديمة . أما الآن فليس لدينا شيء جديد . وفي اي وقت يعودون الى خيمة الثورة ويكونون مستعدين للتعامل تحتها سندخل في حوار معهم ، أما بغير هذه الصيغة فلا . ان الثورة ماضية في طريقها ، فهي لم يخلقها الحزب الشيوعي العراقي ولن تموت عندما لا يكون الحزب الشيوعي تحت خيمتها . ان الثورة مستمرة وفي اي وقت يرغب الحزب الشيوعي العراقي أن يعود تحت خيمة الثورة فإن القيادة ستدرس هذا وتقرر الموقف المناسب » .

وعندما لا يعلق الرئيس صدام الاهمية الكبرى على عودة الشيوعيين فلانهم لم يعودوا كما كانت الحال في السابق يشكلون القوة السياسية البارزة والفعالة ، فضلا عن ان مواصلتهم الخلاف معه جعل جزءا من جماهيرهم يلتف حول تنظيم ماركسي يلتقي مع خط حزب البعث واسمه « التنظيم الوطني » .

والى ذلك ان اقامة معظم القيادات الشيوعية الرافضة دعوة الرئيس صدام الى الحوار في دول اوروبا الشرقية تلقي يوما بعد آخر ظلالا على استقلالية هؤلاء ، وبالمزاج العراقي - بما في ذلك مزاج العراقي الماركسي الذي يعيش في بلاده - يعني هذا الامر الكثير .

وعندما لا يغلق الرئيس صدام الباب امام عودة الشيوعيين ويقول : « ... وفي اي وقت يرغب الحزب الشيوعي العراقي ان يعود تحت خيمة الثورة فان القيادة ستدرس هذا وتقرر الموقف المناسب » فلانه يريد تثبيت الاستقرار في العراق وبشكل لا يعود هنالك اضطراب سياسي أو اجتماعي .

واذا امكنه تحقيق ذلك فهذا معناه ان فترة الثمانينات ستكون الفترة الوحيدة الى حد التي يسود فيها الاستقرار العراق في تاريخه الحديث ، ذلك انه منذ ان اصبح الحكم في ايدي العراقيين لم تستقر فيه حكومة اكثر من سنتين أو ثلاث سنوات . وحتى في العهد الملكي الذي يفترض البعض انه كان عهدا مستقرا نسبيا كانت الحكومات تتبدل في استمرار . وكان يحدث احيانا ان حكومات لا تستمر اكثر من ثلاثة اشهر على رغم ان رجال السياسة في العهد الملكي ينتمون الى طبقة واحدة . وفي حين ان هؤلاء كانوا مقتنعين بنظامهم وضرورة استمراره ، الا انهم

لم يتفقوا على ان تستمر الحكومة في الحكم اربع سنوات على الاقل كما هي الحال في الانظمة الليبرالية . وحتى الحكومات التي الفها نوري السعيد الرجل الاقوى في تلك المرحلة لم يكتب لها ان تعيش طويلا .

وقبل ذلك شهد العراق في العشرينات ثورة ضد الانكليز وهي الثورة التي اجبرت الاستعمار البريطاني على اقامة ما سمي بالحكم الوطني ، بعدما كان الحاكم العسكري العام الانكليزي يحكم مباشرة على طريقة حكم الهند والمستعمرات الآسيوية والافريقية في مرحلة الاستعمار . كذلك انها الثورة التي اجبرت الانكليز على تنصيب ملك عربي على العراق ثم منح الاستقلال ودخول عصبة الامم . واهمية مثل هذه الثورة انها تصدت لاحتلال عسكري من قبل الانكليز الذين قاتلوا العثمانيين وطردوهم من العراق ، ثم اوجدت الكيان . وفي الثلاثينات عاش العراق حالات كثيرة من الاضطراب . وقبل ان يقوم حسني الزعيم في سوريا بالانقلاب العسكري كان سبقه في العراق بكر صدقي بحوالى ثلاث عشرة سنة .

ولو كانت هنالك قيادات وطنية شجاعة في الاربعينات لكانت اسقطت الملكية واعلنت الجمهورية ، ولكن شيئا من ذلك لم يحدث على رغم الاضطرابات التي سادت في تلك الفترة واشتدت عام ١٩٤٨ الى درجة ان العراق عاش بعض الوقت من دون سلطة عملية .

وعندما حدثت انتفاضة ١٩٥٢ لجأ الحكم الملكي الى رئيس اركان الجيش الفريق نور الدين محمود وعينه رئيساً للوزراء . وتلك كانت سابقة لأن الحكم الملكي كان في استمرار حريصاً على الطابع المدني للحكم .

وفي العام ١٩٥٦ قاد حزب البعث تظاهرات ضخمة ضد العدوان الثلاثي في مصر ثم قامت ثورة ١٩٥٨ التي حفلت في سنتها الثانية باضطرابات دموية بين القوميين والشيوعيين والبعثيين . وبعد قيام ثورة رمضان ١٩٦٣ شهد العراق المزيد من الاضطرابات والصراعات الدموية وامتلأت المعتقلات بالسجناء السياسيين . ثم عاد العراق يعيش دوامة تغيير الحكومات قبل ان تحدث وفاة غامضة لرئيس الجمهورية عبد السلام عارف ويحل محله وبشكل مستغرب شقيقه عبد الرحمن الذي نشأ عن المجيء به المزيد من الاضطرابات . ثم قامت ثورة ١٧ تموز ١٩٦٨ وحفلت في البداية بالمزيد من مظاهر الاضطراب (ابعاد عبد الرزاق النايف ثم اخراج بعض القيادات البعثية العسكرية مثل حردان التكريتي وصالح مهدي عماش) .

وبعد ذلك جاءت مواجهة الجيش العراقي للتمرد الكردي الذي قاده الملا مصطفى البرزاني والذي سقط فيه من الجانبين بين قتيل وجريح حوالى ستين الف شخص .

وفي الوقت نفسه حدثت صراعات ساخنة ودموية بين حزب البعث ومعارضيه من القوى السياسية الاخرى ومن بعض قيادات الحزب ايضا .

وابتداء من العام ١٩٧٥ دخل العراق في مرحلة من الاستقرار بعد خمسين سنة من اللااستقرار ومن الاضطرابات الدموية . فالحرب الكردية انتهت الى حل مثالي للمنطقة الشمالية . وسلطة حزب البعث تكرست . والقوى السياسية المعارضة تقليديا اختارت التعاون مع الحزب . ولم يبق خارج اطار التعاون سوى القيادات

الشيوعية المقيمة في بعض عواصم اوروبا الشرقية .
ولولا المؤامرة التي قامت بها بعض القيادات البعثية ثم بعض حوادث التفجير لكان الاستقرار واصل الانتشار في العراق من دون أي تعثر ولكانت ظاهرة الدموية المعروفة عن العراق توقفت عند حد . ولكن الرئيس صدام بالجولات التي يقوم بها على المناطق وبالزيارات المفاجئة التي يقوم بها للمواطنين وبالانفراجات السياسية التي ادخلها منذ ان تسلم المسؤولية الكاملة يزيل آثار نصف قرن من اللااستقرار وهي مهمة ليست سهلة لان هنالك دائما من يسعى الى ضربها . وهو عندما قال خلال جولته في محافظة « الانبار » يوم ١٨ حزيران ١٩٨٠ « لن نعدكم بانه سوف لا تنفجر قنبلة أو تطلق رصاصة في ارض العراق .. » انما كان يدرك كم ان ضيق الغير من استقرار العراق كبير ، خصوصا اذا ربطنا بين هذا الاستقرار وبين قول الرئيس صدام في ٢٠ تموز ١٩٨٠ وكان يواصل جولاته في المحافظة خلال زيارته لاحدى القطعات العسكرية « اردنا ان نوصل الثلاثة عشر مليون ونصف (اي عدد سكان العراق حتى العام ١٩٨٠) الى وزن يعادل اكثر من اربعين مليونا . والان وصلنا الى هذا وثقتنا بالنفس كبيرة بان ميزاننا يميل لصالحنا بالقدرة والفعالية وبالحرب والبناء ، وأملنا ان يستمر هذا بنفس الهمة وأكثر لكي ننتزع الفرصة التاريخية للدور التاريخي الذي كان اجدادنا يمثلونه في خدمة الأمة العربية والانسانية » .
أما ما هو ذلك الدور ؟ فهو دور « العراق منارة » . وهو دور لن يقف في طريقه سوى دخول العراق من جديد في دوامة عدم الاستقرار وعودة الظاهرة الدموية .
وحول هذه الظاهرة ناقشت عددا من القياديين في العراق . وهنا اسجل خلاصة لهذه المناقشات على النحو الآتي :
« للقطر العراقي في اطار الوطن العربي خصائص متميزة من المفيد عدم اغفالها عند التعرض لتجربته الراهنة . لقد شهد العراق عبر تاريخه الطويل الذي يمتد الى الاف السنين ازدهارا وقوة . نشأت فيه دول وامبراطوريات قوية ومزدهرة وفي الوقت نفسه شهد حالات انسحاق لا مثيل لها من قبل الاعداء ومن الطبيعة .
واذا عدنا الى تاريخ العراق منذ قيام الدول العراقية القديمة البابلية والاشورية والكلدانية ، وعبر المرحلة الاسلامية ، يتبين لنا ان العراق لم يعش حالة عادية ولا نجد فيه دولة من الطراز العادي المستقر المرتاح وانما نجد اما امبراطورية قوية ذات مسؤوليات كبرى وتواجه تحديات خطيرة على الصعيد العسكري والسياسي والحضاري ، أو نجد العراق مسحوقا تحت سنابك الخيول الاجنبية ونجد ثقافته مسحوقة وشعبه مضطهدا .
ولهذا الارث التاريخي نتائج على تكوين الشخصية العراقية التي تتميز بطبيعتها الحادة ، والتي ترد بالقوة على التحدي . ان هذه الشخصية تستسلم وتخضع لفترة طويلة لكنها عندما ترد فانها ترد مباشرة وبقوة ، ومن الطبيعي ان يتسم مثل هذا الرد بالعنف .
ونحن كبعثيين نشأنا في تربة هذا الوطن ونحمل سمات ارضه وشعبه . وفي العصر الحديث مع تكوين الحزب كانت هنالك تحديات صعبة واجهناها . فلم يتح لنا يوم للعمل وسط ظروف من الحرية والليبرالية كما هي الحال على سبيل المثال بالنسبة الى الظروف التي عاشها البعثيون في لبنان حيث ان في استطاعتهم

العمل بالعلنية وعقد المهرجانات والندوات واصدار صحيفة ، من دون ان يتعرضوا للاعتقال والتعذيب ..

ان البعثيين في العراق لم تتح لهم ابدا فرصة كالتي اتيحت للبعثي في لبنان. فالارهاب في العهد الملكي كان قاسيا ، واي نشاط سياسي أو ثقافي ممنوع ، وابناء الحزب يلتقون سرا داخل الأوكار ، وعندما يعتقل الواحد منهم فانه يتعرض لابشع انواع التعذيب . ولم تتبدل الحال مع سقوط الحكم الملكي وقيام ثورة ١٩٥٨ . وعاش الحزب اربع سنوات ونصف السنة في المواجهة لحكم عبد الكريم قاسم والشيوعيين في ظل التحدي والتوتر . وهذا ولّد في نفسه مشاعر تميل الى العنف.

وعندما تسلم حزب البعث السلطة في الثامن من شباط ١٩٦٣ واجه تحديات عنيفة من قبل الشيوعيين والقوى الرجعية ومن البرزاني المتمرد في اعالي الجبال . وفي الثامن عشر من تشرين الاول ١٩٦٣ اسقطت تجربة الحزب بعمل عنيف ومتوتر ومليء بالعداء والكراهية للحزب . وطوال سنوات حكم عبد السلام عارف ثم عبد الرحمن عارف والحزب يتعرض من وسائل اعلام هذا الحكم الى حملات بشعة .

تلك هي الظروف التي عاشها الحزب قبل أن يقوم بثورة ١٩٦٨ وهي تقوم على السجن والحرمان والاعدامات والتعذيب والتشهير والمطاردات .

وعلى رغم التوترات التي حدثت في العراق منذ ثورة ١٩٦٨ وحتى تسلم صدام حسين المسؤولية الكاملة ، فان هذه المرحلة هي اكثر المراحل تسامحا وديمقراطية وعقلانية في التصرف .

والى ذلك ان العراق يعيش على الجناح الشرقي للأمة العربية ويواجه تحديات اكبر بكثير من التحديات التي تواجهها اقطار عربية اخرى . ان المشكلة القومية في العراق لا تزال حادة وساخنة بحكم مجاورته للفرس وللاتراك وقربه من القوميات الاخرى في الشرق . ومثل هذا الوضع لا تعيشه مصر ولا معظم الاقطار الاخرى التي تجاور اقواما من غير العرب لان تلك الاقوام لا تشكل قوة حضارية أو عسكرية أو سياسية ، كتلك القوة التي لجيران العراق ، فضلا عن أن اتصال ارض العراق بارض الاقوام المجاورة له يخلق جوا من التحفز المستمر وهذا ينعكس على المزاج العام للشعب وعلى تصرف الثورة ايضا ازاء بعض القضايا . فهنالك خشية مشروعة ودائمة على استقلال العراق . وهنالك خشية مشروعة ودائمة ايضا على عروبة العراق . وهنالك تنبه مشروع ودائم على الكيان العربي للعراق .

وعلى رغم ان الرئيس صدام حسين عاش ظروفا بالغة الصعوبة قبل ان يتسلم السلطة في الثلاثين من تموز ١٩٦٨ الا ان لديه قدرة متميزة على التحمل والصبر . وبفضل هذه القدرة نضجت تجربة الحزب اكثر . والنضوج قاد الى المزيد من الاستقرار السياسي . ومن خلال هذا الاستقرار ستتبدل الصورة المتوترة الشائعة عن العراق وتجربته الثورية » .

ولكن هؤلاء القياديين الذين ناقشت معهم ظاهرة الدموية وسجلت في الاسطر السابقة خلاصة لهذه المناقشات لا يتحركون الا ومسدساتهم على وسطهم ، وهذا ناشيء عن شعورهم بأنهم مستهدفون . وعندما اصطحبني وزير الثقافة والاعلام لطيف نصيف جاسم وهو احد الذين ناضلوا الى جانب صدام حسين في الفترة التي سبقت تسلم الحزب السلطة ، الى منزل رفيقه سعدون شاكر حيث عقدنا جلسة حدثني فيها

الاثنان عن ظروف متصلة بفترة النضال السري لصدام حسين وباسلوب تعامله مع رفاقه داخل السجن ثم بعدما تسلم الحزب السلطة ثم بعدما تسلم المسؤولية الكاملة، لاحظت ان لطيف نصيف جاسم سحب مسدسه من وسطه ووضعه جانبا قبل ان يقود السيارة الى منزل سعدون شاكر.

وقلت له : انك تشغل حاليا منصب وزير اعلام ولست في موقع امني لكي يلازمك مسدسا دائما.

وأجاب بلهجة فلاحية (دورة الحزبي المتألق نشأ في فترة اشرافه على الفلاحين الذين اصبحوا قوة اساسية داخل الحزب) ان هناك مثلا متداولا بين ابناء الريف في العراق يقول (احفظ مسدسك دوم يفيدك يوم ..).

ولقد تذكرت هذا المثل عندما تحدثت وكالات الانباء عن محاولة جرت امام مبنى وزارة الاعلام في بغداد خلال شهر نيسان ١٩٨٠ لاغتيال لطيف نصيف جاسم بقنبلة وكيف ان الوزير الذي لم تصبه القنبلة طارد الشاب الذي اطلق النار في الشوارع المحيطة بمبنى الوزارة وبيده مسدسه الى أن أمسك به. ثم تبين أن هذا الشاب ينتمي الى حزب «الدعوة» الذي نظم محاولة اغتيال طارق عزيز في الجامعة المستنصرية الذي كنت قبل ذلك بأيام اسأله عن ظاهرة حمل السلاح من قبل القياديين في العراق ويقول : «نحن اعتدنا على هذا الأمر، القياديون في العراق هم ثوار ساهموا في العمل الثوري منذ سنوات. والعمل الثوري في العراق كان مقترنا بحمل السلاح. لقد اعتدنا على ذلك وما زلنا مستمرين على هذه العادة».

ويبقى في اطار السعي لاستعادة «العراق منارة» أمر التطوير المستمر الذي يحدثه الرئيس صدام حسين للاشتراكية والتطبيق الاشتراكي وهو تطوير يقوم على اساس ان الانفراج الاجتماعي من شأنه أن يساعد على ازدهار الحياة السياسية. ومن هنا تشجيع قطاع السياحة على الاكثار من بناء الفنادق الدولية والمطاعم المتنوعة ودور السينما والمسرح. ومن هنا ايضا جاءت اشارة الرئيس صدام باعطاء تسهيلات للقطاع الخاص في مجال الاستيراد والتجارة في الميادين التي لا يمكن للقطاع الاشتراكي توفيرها.

وفي ضوء ذلك تم تخصيص مبلغ ثلاثة مليارات و ٩٧١ مليونا و ٦٦٩ الف دينار للمنهاج الاستيرادي للعام ١٩٨٠.

وعندما يقوم الرئيس صدام يوم الثلاثاء ١٧ حزيران ١٩٨٠ (اي بعد اقل من سنة على تسلمه المسؤولية الكاملة) بجولة على عدد من معامل النشاط الخاص وتنشر الصحافة ويذيع التلفزيون ذلك، فهذا معناه ان هنالك ملامح تطوير في الخط الاشتراكي لمصلحة تنشيط القطاع الخاص.

كذلك عندما يزور الرئيس صدام بعد ذلك بأربعة أيام عددا من المراكز السياحية في بحيرة الثرثار ويتناقش مع العاملين في هذه المراكز في الوسائل التي من شأنها تنشيط حركة السياحة فيها. فهذا معناه ان هنالك ملامح تطوير في الخط الاشتراكي لمصلحة الانفراج الاجتماعي.

وكل هذه التطويرات تتم في جو من الاستقلالية الكاملة حيث ان العراق ليس في حاجة الى الاستثمارات الاجنبية بصيغة استخدام رؤوس الاموال داخل اراضيه

بشكل من الاشكال لكي تجني الاطراف المستثمرة ربحا محسوبا على رأس المال ، وانما العلاقة بين العراق وعموم دول العالم والشركات هي علاقة مقاولة .

واذا سارت الامور بالشكل المخطط لها فان القطاع الخاص سيزداد انتعاشا وسيصبح العراق صاحب تجربة في موضوع تعايش القطاع العام مع القطاع الخاص من دون ان تكون هنالك ضمنا ثارات من قطاع على آخر .

والى ذلك هنالك اهتمامات لدى الرئيس صدام في أمور يبدو حرصه عليها مستغربا كقائد ثوري ، لكنها تدخل ايضا في اطار استعادة دور « العراق منارة » . من هذه الاهتمامات على سبيل المثال أن لا تقطع نخلة وأن يزرع كل مواطن عراقي نخلة أمام داره بحيث عندما يحل العام ٢٠٠٠ الذي سيكون فيه لكل مواطن مسكنه يكون نخيل العراق ازداد بعدما بدا في السبعينات انه مرشح للانقراض أمام هجمة عمرانية لا تأخذ في الاعتبار هذا التراث الاصيل . من الاهتمامات ايضا بعث أمجاد الاثار واحياء اثار بابل ، وتكثيف صيانة بعض الاثار ومواصلة البحث عن الاثار وانقاذ الاثار التي يمكن ان تغمرها مياه السدود التي يتم بناؤها في اطار عملية التنمية والاستصلاح الزراعي .

والاهم من ذلك كله ان الرئيس صدام الذي اقدم على قرارات كبرى سار فيها الى النهاية على رغم المخاطر التي انطوت عليها ، لا يتحمل ان تكون بعض آثار العراق مسروقة. انه لا يتحمل على سبيل المثال أن تبقى مكتبة الملك اشور بانيبال التي اخرجت من العراق في اواخر القرن التاسع عشر موجودة في المتحف البريطاني ، وليست مثلا في مكتبة خاصة تبنى لهذا الغرض في بغداد أو غيرها وتحمل اسم ذلك الملك الذي حكم العراق قبل ٢٥٠٠ سنة . ولا يتحمل ان تكون النسخة الاصلية لبوابة عشتار في قصر الملك نبوخذ نصر في بابل محفوظة في برلين الشرقية بينما العراق يعرض نسخة منقولة عن النسخة الاصيلة . وأن يكون الثور الاشوري قبلة انظار المتفرجين الذي يزورون المتحف البريطاني بينما مكانه الطبيعي احد متاحف العراق وأن تكون لوحة الملك حمورابي الحجرية قابعة في متحف اللوفر بعيدة عن ارضها وشعبها . وقد تكون هنالك عشرات اللوحات والتماثيل الموضوعة في قصور رئاسات الجمهورية في دول كثيرة من العالم جاءت من العراق بينما على جدران القصر الجمهوري لوحات لا قيمة لها وبعضها عبارة عن ملصقات من النوع الذي تنتجه مصانع الاثاث في أوروبا .

ومعظم هذه الاثار سرق ونهب خلال الحكمين العثماني والبريطاني وفي الفترة التي بدأت شركات النفط الاجنبية تنقب في اراضي العراق .

وعندما يكثر الرئيس صدام من الكلام حول حضارة العراق ويشغله دور « العراق منارة » بينما بعض آثار العراق موجودة في متاحف العالم وليس في المتاحف العراقية ، فهذا يعني انه في صدد السعي لاستعادة الآثار . واذا كان اسلوب الاستعادة بالحسنى استنادا الى التوصية التي اصدرتها الجمعية العامة عام ١٩٧٥ (والتي جاء فيها ان التحف والعائدات الاثرية يجب اعادتها الى بلدان المنشأ) لن يجدي فان لدى الرئيس صدام بدائل كثيرة منها اسلوبه في الرد على حادثة مقتل الطالب البعثي في صوفيا على ايدي شيوعيين عراقيين . وقد سبق ان اشرنا الى ان هذه الحادثة لم تسو الا بعدما زار الرئيس البلغاري العراق .

والذي يجعلنا نفترض ان الرئيس صدام لن يوقف السعي من اجل استعادة

اثار العراق المسروقة هو ان اعتزازه بالماضي العراقي كبير . وهو لا يشكو عقدة التاريخ. ومثلما انه فخور ببعض مراحل وابطال التاريخ العربي ، وبشيء من التميز الامام الحسين الذي تحاط مشاريع تجميل مقامه في كربلاء بما يتجاوز الاهتمام التقليدي ، فانه شديد الاعتزاز برموز التاريخ الغابر أمثال نبوخذ نصر . وليس ببعيد الاحتمال ان يقرأ العراقيون ويسمعوا ذات يوم ان الرئيس صدام كان على رأس اركان الدولة في استقبال التراث المستعاد ، من تماثيل ولوحات ومخطوطات وكتب . كذلك ليس ببعيد الاحتمال أن يقرأ العراقيون ويسمعوا ذات يوم ان الرئيس صدام انشأ وزارة جديدة اسمها « وزارة الاثار » . ففي العراق عشرة آلاف موقع اثري تشكل الرعاية لها والاهتمام بها مساهمة كبرى في استعادة دور « العراق منارة » .

ويبقى انه لولا الالتزامات الكثيرة التي يدفعها العراق لعدد من الدول النامية فضلا عن التزاماته العربية . ولولا المشاكل الساخنة والقابلة للانفجار التي تحدث فجأة وتشغل صدام حسين كالصلح المصري ـ الاسرائيلي والتبعثر المتواصل للقوى العربية والوهن المتزايد في عالم عدم الانحياز ،لكان السعي من اجل استعادة دور « العراق منارة » لن يأخذ كل هذا الوقت وكل هذا الجهد .

... ولكن الصيغ التي يبتكرها صدام حسين من اجل مواجهة هذه المشاكل من صيغة قمة بغداد الى صيغة الاعلان القومي الى صيغ كثيرة تطرح مع نشوء تعقيدات جديدة في الوضع ، هي في حد ذاتها مساهمات في بلورة ذلك الدور .

الفصل السادس



المبايعة

"ان المزايا التي ميزك الله بها و التي جعلت منك القائد الشجاع و المناضل الملهم و مكنتك من اخصاب فكر الحزب و مبادئه من حيث جعلها حقائق ملموسة في الحياة هي نفسها المزايا التي تحتاج اليها ثورة الامة في ظرفها العصيب الحالي ، ظرف الولادة الجديدة واثبات الهوية و العطاء الحضارى..."

(ميشال عفلق في البرقية التي بعث بها الى صدام حسبن يوم ١٧ تموز ١٩٧٩)

قد يجوز القول أن صيغة الحكم منذ ان تسلم حزب البعث السلطة كاملة في العراق يوم الثلاثين من تموز ١٩٦٨ وحتى السابع عشر من تموز ١٩٧٩ بقيت على مستوى القمة في منأى عن التوتر لإن صدام حسين لم يكن في موقع الرجل الثاني كما تشير الى ذلك مناصبه وإنما كان في موقع الشريك في الحكم . فما دامت الثورة قامت بتعاون العسكريين والمدنيين فانها يجب أن تبقى .

وفي الفترة التي سبقت قيام الثورة شدد كثيرا وبموافقة احمد حسن البكر على ضرورة مشاركة الجهاز المدني للحزب جنبا الى جنب مع العسكريين وأن يشارك بفعالية ، وبذلك لا يصبح الحزب رهن ارادة العسكريين مهما بلغت نسبة ولائهم لعقيدتهم . ومن هنا كان تواجده في الدبابة الاولى التي اقتحمت القصر الجمهوري ليلة الثورة ومعه بعض اعضاء القيادة القطرية للحزب .

وعندما حسم صدام حسين أمر عبد الرزاق النايف (الذي بقي ثلاثة عشر يوما مساهما من دون رأسمال في السلطة الثورية التي قامت يوم السابع عشر من تموز ١٩٦٨) بواسطة حوالى عشرين من الاعضاء المدنيين في الحزب فان ذلك كان من اجل تعزيز دور مشاركة الجهاز المدني للحزب في عملية تثبيت السلطة الثورية .

وهو في الخطاب الاول له يوم ١٧ تموز ١٩٧٩ بعدما تسلم المسؤولية الكاملة أوضح انه لم يكن رجلا ثانيا على مدى أحد عشر عاما وإنما احد قائدين لقيادة واحدة « لم يحدث في التاريخ القديم ومنه تاريخ امتنا على اشراقه في التاريخ المعاصر ، أن يكون في السلطة ، ولإحد عشر عاما ، قائدان ضمن قيادة واحدة بخواصها المعروفة لكم من دون أن يؤدي ذلك الى خلل خطير في المسيرة من الناحية الخلقية أو الناحية العملية ... » .

وبتسلم صدام حسين المسؤولية الكاملة لم تعد الصيغة السابقة امرا يرد في سياق المعادلة التي قضت بأن تكون القيادة الواحدة بقائدين : قائد عسكري وقائد

مدني . هنالك قائد واحد ومسؤولون كثيرون اسعدت اليهم المسؤوليات وفق مواقعهم الحزبية . والقائد الواحد هو صدام حسين الذي يشغل المناصب الآتية : رئيس مجلس قيادة الثورة وأمين سر القيادة القطرية ونائب الامين العام للقيادة القومية ورئيس الجمهورية والقائد العام للقوات المسلحة ورئيس الوزراء .

وعلى رغم ان هنالك نائب رئيس جمهورية هو طه محيي الدين معروف الا أن الرجل لا ينوب عن الرئيس صدام حسين لان السلطة الاولى هي لمجلس قيادة الثورة ، ونائب رئيس هذا المجلس هو عزت ابراهيم الذي هو ايضا نائب أمين سر القيادة القطرية .

وتعيين طه محيي الدين معروف نائبا لرئيس الجمهورية جاء تنفيذا لقانون الحكم الذاتي للمنطقة الشمالية الذي بدأ تطبيقه عام ١٩٧٤ والذي يقضي بتعيين نائب كردي لرئيس الجمهورية .

وقبل ذلك كانت الظروف التي رافقت تثبيت صيغة نائب رئيس مجلس قيادة الثورة قضت عام ١٩٧٠ بتعيين اثنين من عسكريي البعث نائبين لرئيس الجمهورية وهما حردان التكريتي وصالح مهدي عماش مع تضمين الدستور نصا على أن نائب رئيس مجلس قيادة الثورة (اي صدام حسين) هو الذي يحل محل رئيس المجلس ورئيس الجمهورية في كافة اختصاصاته . ثم اعفي التكريتي ومن بعده عماش ولم يعد هنالك وجود لمنصب نائب رئيس الجمهورية الى أن جاء حل المسألة الكردية الذي قضى بتعيين طه محيي الدين معروف نائبا لرئيس الجمهورية .

وتجدر الاشارة هنا الى ان الاعلان عن ان صدام حسين هو نائب رئيس مجلس قيادة الثورة تم في تشرين الثاني ١٩٦٩ متأخرا اكثر من سنة لانه كان يرى عدم تسلم اي مسؤولية في الدولة ويكفيه أن الحزب أنجز الثورة . وهو استمر على هذه القناعة حتى العام ١٩٧٤ ثم استقر رأيه على تحمل المسؤولية وان كان في فترة التردد يمارس دوره بكامل المسؤولية ، ومن المؤكد أن لنجاحه في معالجة المسألة الكردية دورا في استقرار الرأي .

وبسبب تأخر الاعلان عن منصب نائب رئيس مجلس قيادة الثورة اكثر من سنة فان اسناد منصب رئيس الوزراء الى حردان التكريتي وصالح مهدي عماش بعد ٣٠ تموز ١٩٦٨ عكس انطباعا لدى البعض بأن الاثنين قبل صدام حسين من حيث الاقدمية ، ثم توضحت الامور بالاعلان رسميا عن منصب نائب رئيس مجلس قيادة الثورة وبأن اعضاء القيادة القطرية للحزب هم اعضاء في المجلس الذي تحول نتيجة لذلك الى مؤسسة حزبية .

لقد أشرنا الى ان الرئيس صدام حسين اعتمد صيغة جديدة لم تكن مطروقة في الفترة الماضية ، فما هي هذه الصيغة وما هي مسبباتها ؟

بموجب الصيغة هنالك نائب لرئيس مجلس قيادة الثورة هو عزت ابراهيم وهو الثاني في القيادة الحزبية حيث أنه نائب امين سر القيادة القطرية . أما على الصعيد التنفيذي فانه بموجب الصيغة تم تعيين طه ياسين رمضان نائبا اول لرئيس الوزراء وتعيين نعيم حداد وطارق عزيز وسعدون غيدان وعدنان خير الله

نوابا لرئيس الوزراء . وفي حين اسندت الى إثنين من هؤلاء النواب مناصب وزارية (سعدون غيدان للنقل والمواصلات وعدنان خير الله للدفاع ونائب القائد العام للقوات المسلحة) فان للنائبين الآخرين مسؤولية الاشراف على قطاعات في الدولة .

وقد أخذ الرئيس صدام في الاعتبار وهو يوزع المسؤوليات بالشكل الذي وزعت فيه أن تكون مشاركة القيادة اكثر اتساعا فضلا عن أن مثل هذا التوسع يوفر عليه الانغماس في بعض التفاصيل .

وبين هؤلاء النواب ثلاثة هم اضافة إلى أنهم أعضاء في القيادة القطرية (أي قيادة الحزب في العراق) أعضاء في القيادة القومية (أي القيادة على مستوى الوطن العربي) . والثلاثة هم طه ياسين رمضان ونعيم حداد وطارق عزيز . كما أن عزت ابراهيم هو ايضا عضو في القيادة القومية التي اصبحت تضم احد عشر عضوا بعدما تخلى الرئيس البكر عن كامل مسؤولياته في الدولة والحزب .

والأعضاء الآخرون في القيادة القومية هم الامين العام ميشال عفلق ونائب الأمين العام صدام حسين والامين العام المساعد شبلي العيسمي (سوري) وعلي غنام (سعودي) وعبد المجيد الرافعي (لبناني) وقاسم سلام (يمني) وبدر الدين مدثر (سوداني) .

ولعضو القيادة القومية نوع من التميز . فهو في البروتوكول يتقدم على عضو مجلس قيادة الثورة الذي هو أعلى سلطة في العراق .

وقبل المؤتمر الحادي عشر للحزب (خريف ١٩٧٩) كان الرئيس احمد حسن البكر من حيث البروتوكول الثالث على رغم كونه رئيس الدولة يتقدم عليه ميشال عفلق الأمين العام للحزب وشبلي العيسمي الامين العام المساعد . وهما تقدما عليه لأنه كان عضواً في القيادة القطرية فقط .

ويقيم اعضاء القيادة القومية في مبنى فخم شعرت عندما امضيت فيه بعض الوقت خلال زيارتين أن هنالك حرصا على أن تكون مكاتب اعضاء القيادة القومية على نسبة كبيرة من التميز . وعندما استوضحت بعض الاعضاء العراقيين في القيادة القومية اسباب هذا الحرص أجابوا : « نحن نربط ربطا عمليا بين المؤسسة وبين الامكانات التي توضع تحت تصرفها . فعندما تكون القيادة القومية هي اعلى مؤسسة في الحزب فلا بد من أن توضع تحت تصرفها وسائل متقدمة لكي تتمكن من أداء مهماتها . ومن الوسائل الاساسية في العصر الحديث مقر العمل . وعندما يكون المقر راقيا ومتطورا فإن ذلك يوفر امكانات افضل للعمل من المقر العادي أو المتخلف . والى ذلك نحن نعتقد أن للمظاهر المرتبطة بالمضمون أهمية معنوية بالنسبة الى المناضل والمواطن . فعندما تكون القيادة القومية هي اعلى هيئة في الحزب فلا بد من ان يكون مقرها متميزا وأن يفهم المواطن ذلك » .

وليس بالضرورة أن يتواجد اعضاء القيادة القومية في مقر قياداتهم فالمسألة ليست وظيفة . كذلك ليس بالضرورة ان تتمثل كل الاقطار العربية في القيادة القومية ومن هنا قد يحدث أن هنالك ثلاثة اعضاء من قطر بينما ليس هنالك من

يمثل قطرا ما . وهذا سببه أن انتخاب عضو القيادة القومية لا يتم على اساس الاقطار وإنما على اساس شخصي ، مع مراعاة أن تتمثل منظمات الحزب الكبرى في القيادة القومية .

والتعامل مع عضو القيادة القومية لا يكون بصفته يمثل الحزب في دولة ما وإنما على أساس أنه عضو في قيادة مسؤولة عن الحزب في الوطن العربي .

وهنالك تمسك بالأصول التي يفرضها البروتوكول البعثي . ويظهر ذلك التمسك عندما تكون هنالك مناسبات ما وتعرض هذه المناسبات في تلفزيون بغداد وتنشر في الصحف العراقية . فاذا حدث أن الأمين العام ميشال عفلق استقبل ذات يوم وفدا او شخصية ، وأن نائب الأمين العام صدام حسين استقبل في اليوم نفسه وفدا او شخصية او زار منطقة فان التلفزيون يعرض اولا النشاط الذي قام به عفلق ثم يعرض بعد ذلك النشاط الذي قام به صدام حسين من دون أن تعترض ذلك صيغة صدام حسين كرئيس لمجلس قيادة الثورة ورئيس الجمهورية . أما الصحف فانها في مثل هذه الحالة تضع صورة الاستقبال الذي تم مع عفلق في يمين الصفحة وتضع في يسار الصفحة الحدث المتعلق بصدام حسين . وعلى سبيل المثال فان « مانشيت » الصفحة الاولى من صحيفة « الثورة » التي تنطق باسم الحزب للعدد الصادر يوم الخميس ١٢ كانون الاول ١٩٧٩ كان « الرفيق ميشال عفلق : فلسطين قضية العصر » وهي عبارة وردت في كلمة للأمين العام للحزب عند استقباله في مكتبه بمبنى القيادة القومية رئيس موزمبيق سامورا ميشيل . وعلى يسار الصفحة وليس بشكل رئيسي صورة لصدام حسين يستقبل رئيس موزمبيق . وعلى سبيل المثال ايضا فان الصحيفة نفسها نشرت في عددها الصادر يوم ٢٩ نيسان ١٩٨٠ صورة بارزة على أعلى يمين الصفحة تمثل الامين العام ميشال عفلق يستقبل اطفال روضتي « الجمهورية » و « اليرموك » وهيئتيهما التدريسيتين . وفي يسار الصفحة نشرت صورة للرئيس صدام حسين وحوله اعضاء وفد العراق يقابلهم في الجانب الاخر وفد جمهورية سيشيل برئاسة رئيس الجمهورية فرانس البرت رينيه الذي كان في ذلك الوقت يقوم بزيارة رسمية الى العراق .

وعلى سبيل المثال ايضا وايضا فان صحيفة « الثورة » نشرت في عددها الصادر يوم ٢٩ ايار ١٩٨٠ عنوانين رئيسيين في صفحتها الاولى . الأول حول استقبال الامين العام ميشال عفلق لوفد يمثل جبهة التحرير العربية والثاني حول استقبال الرئيس صدام للرئيس البلغاري تيودور جيفكوف . وعندما بدا أن العنوان التقليدي للصفحة الاولى كان حول الرئيس صدام وضيفه البلغاري فان الصحيفة ميزت العنوان المتعلق باستقبال عفلق لوفد جبهة التحرير وطبعته باللون الأخضر بهدف لفت النظر وحفظ اللياقات التي يفرضها بروتوكول البعث ، علما بأن صورة عفلق والوفد الزائر وضعت على يمين الصفحة وبحجم صورة الرئيس صدام يستقبل ضيفه الرئيس البلغاري التي وضعت على يسار الصفحة .

ويقودنا الكلام حول ظاهرة التمسك بحرفية البروتوكول البعثي الى الحديث حول تنظيم الحزب داخل العراق والمؤسسات الحزبية المتفرعة عنه واسلوب تعامل صدام حسين مع رفاقه في الحزب .

القيادة القطرية هي اعلى هيئة قيادية في الحزب . وبعد حسم المؤامرة التي

قام بها بعض قياديي الحزب باعدام هؤلاء ، بات عدد اعضاء القيادة خمسة عشر عضوا .

بعد القيادة القطرية تأتي قيادة الفرع التي هي قيادة المحافظة (قيادة فرع بغداد مثلا) . وينقسم الفرع الى شُعب (والشُعب هي المناطق الكبيرة) . وتتكون الشعبة من فرق (والفرق هي قيادات الأحياء) . وتنقسم الفرق ـ ولكل فرقة قيادة ـ الى خلايا اعضاء ، والى ذلك هنالك منظمات الأنصار ، ومنظمات المؤيدين. ولكن ليس بالضرورة أن يكون التنظيم المعمول به في العراق هو السائد بالنسبة الى فروع الحزب خارج العراق على أساس ان لكل فرع خصوصية معينة يمكن أن يأخذ بها هذا الفرع بعد الحصول على موافقة القيادة القومية للحزب .

وتتكون القيادة القطرية عبر الانتخابات . منظمات تنتخب قيادة الفرقة اي قيادة الحي . وقيادات تنتخب قيادة الشعبة . وقيادات الشعب تنتخب ضمن مؤتمر قيادة الفرع . والمؤتمر القطري يتكون من قيادات الفروع ومندوبي الشعب وهو الذي ينتخب القيادة القطرية . وللقيادة القطرية بين مؤتمرين سلطات تنظيمية واسعة ، بحيث انها اذا ارتأت ضرورة حل قيادات فروع وتعيين غيرها واجراء تغييرات في الهيكل التنظيمي فانها تستطيع .

والصعود من مرتبة الى اخرى محكوم بنظام ، بمعنى انه ليس في استطاعة شخص انتمى الى الحزب حديثا ان يصبح عضو قيادة قطرية . كذلك لا بد لكي يصبح عضو قيادة فرقة أن يكون مضى عليه كعضو عامل فترة من الزمن . والأمر نفسه بالنسبة الى عضو قيادة الشعبة وعضو قيادة الفرع .

وفي المؤتمر القومي الحادي عشر (خريف ١٩٧٩) تم تعديل في النظام الداخلي يقضي بألا ينتخب للقيادة الأعلى من لم يسبق له أن أنتخب للقيادة الأدنى ، وبأنه يشترط لمن ينتخب عضوا في القيادة القطرية ان تكون مضت عليه كعضو عامل عشر سنين . والحكمة من هذا التعديل هو أن من لا يكون مقبولا وهو في وسطه لا يجوز أن يكون عضوا في القيادات العليا ، فضلا عن ان ذلك يعزز المؤسسة الحزبية .

ومن أجل تخريج نوعية جيدة من الحزبيين عن غير طريق الممارسة النضالية المباشر انشئت مدرسة الإعداد الحزبي وهي إذا جاز القول معهد تدريبي يتوزع المنضمون اليه على مستويين . وتلقى في هذا المعهد على المنضمين اليه محاضرات فكرية وسياسية واقتصادية كذلك يتحدث فيه المحاضرون ومعظمهم من القيادات المتقدمة في الحزب حول تجربة البعث .

والى ذلك هنالك دروس ومناقشات واطروحات . وهنالك دورة لمدة شهر لاعضاء قيادات الفروع والشُعب . أما الدورات العادية فانها تستغرق اربعة اشهر وتضم الدورة بين مئة وخمسين ومئتي حزبي .

وقد بدأت مدرسة الاعداد الحزبي صغيرة ثم كبرت . وهنالك رغبة في تطويرها وانشاء فروع لها في المحافظات . فقد تجاوز عدد الحزبيين بما في ذلك الانصار والمؤيدون المليون . ومثل هذا العدد في نظر القيادة يوجب تعميم المدارس الحزبية ويوجب إعتماد التفرغ بالنسبة الى بعض القياديين من أجل التدريس .

وبالاضافة الى مدرسة الاعداد الحزبي هنالك المكاتب المتخصصة . هنالك المكتب العسكري . وهنالك مكتب العمال المسؤول عن تنظيم العمل وكسبهم في صفوف

الحزب وتأهيلهم وتدريبهم فكريا وسياسيا الى أن يصبحوا جزءا من منظمة الحزب اضافة الى مهمته الاخرى وهي قيادة الاتحاد العام لنقابات العمال ومنظماته بطريقة غير مباشرة . وهنالك مكتب الفلاحين ومكتب الطلبة ومكتب المهنيين .

ولكن المكتب الاكثر أهمية بين هذه المكاتب هو مكتب الثقافة والاعلام الذي يتولى الاشراف على مدرسة الاعداد الحزبي واصدار الصحف الداخلية للحزب (هناك صحيفتان داخليتان للحزب واحدة عبارة عن مجلة للاعضاء اسمها « الثورة العربية » وهي ايديولوجية ثقافية ، والأخرى عبارة عن نشرة اخبارية سياسية تحليلية) .

وحتى بعد تسلمه المسؤولية الكاملة فان الرئيس صدام حسين استمر المسؤول عن هذا المكتب الذي تأتي من ضمن مهماته ، مهمة الاشراف على القطاع الرسمي في ميدان الثقافة والاعلام ، وعلى النشاط الاعلامي للحزب والدولة . وفي المكتب ممثلون عن مختلف القطاعات الاعلامية .

وتتولى قيادة الحزب تعيين المسؤولين عن هذه المكاتب وتختار الأعضاء المناسبين للعمل فيها . وعموما ان مستوى هؤلاء الحزبي يكون رفيعا جدا .

وكان تنظيم الحزب قبل أن يتسلم السلطة ثم بعدما تسلم السلطة الهاجس الاساسي لصدام حسين ، ويتباهى القياديون الحزبيون في العراق بأنه لولا تنظيم صدام حسين للحزب لكان الحزب تمزق ولما كان على القوة التي هو عليها بعد عشر سنين من تسلم السلطة . ولقد علقت في ذهن صدام حسين على ما يبدو عبارات وردت في نشرة داخلية للحزب في دمشق في تشرين الاول ١٩٥٢ (اي في الوقت الذي كان في الخامسة عشرة من العمر) وطبق مضمونها بشكل دقيق . والعبارة هي : « إن ناحية التنظيم بأهمية الناحية العقائدية ولا تنفصل عنها » .

وعملية النقد والنقد الذاتي جزء من مقومات التنظيم وهي السر في نجاح الحياة الداخلية لحزب البعث مثلما أن غيابها عن حزب عريق مثل الحزب الشيوعي يشكل السر في إهتزازات متلاحقة تعرض لها الحزب . ونتيجة للنقد والنقد الذاتي في اطار الحياة الداخلية لحزب البعث فان القاعدة خذلت قيادات كثيرة في حين أن الحزب الشيوعي مثلا مستمر منذ ثلاثين سنة بقيادة واحدة .

وتبدو عملية النقد الذاتي كما لو أنها حالة اعتراف بذنب أو ارتكاب خطأ . وفي فلسفة البعث إن ذلك يحقق للحزبي راحة نفسية . وعندما نعرف أن نقد الذات يتم خلال إجتماع حزبي اسبوعي يمكن تصور حجم الراحة النفسية الناشئة عن الاعتراف بالخطأ . وهنالك اجتماعات كثيرة حدثت ووقف فيها اعضاء حزبيون وقالوا إنهم اتخذوا مواقف لا تتناسب مع توجههم الحزبي وانهم يعدوا بعدم تكرار ذلك .

كذلك يحدث في اجتماعات كثيرة أن يقف عضو في الحزب ويوجه النقد الى رفيق له ، وعلى بقية الرفاق أن يناقشوا الأمر ويرفعوا به توصيات الى الاعلى .

والى ذلك إن تعميق مفهوم النقد والنقد الذاتي جعل اسلوب كتابة التقارير من جانب البعض بحق البعض الآخر لا يعود معتمدا .

ومنذ أن تسلم حزب البعث السلطة وصدام حسين يركز في الاجتماعات الحزبية على مسألة تقاليد الحزب وعلى العلاقة بين اعضاء الحزب . ومن اقواله في هذا الصدد : « إن أهم رصيد يجب ان تحافظوا عليه هو العلاقة الرفاقية النضالية فيما

بينكم كما كنتم في مرحلة النضال السلبي مع احترام صيغ الدولة على ان لا يكون احترام صيغ الدولة ذا طابع مظهري مفتعل وعلى حساب الحزب » و « إحرصوا على ان لا يقول التاريخ عنكم بأن الضرورات النضالية في العمل السري هي وحدها التي كانت تحكم علاقات الحب الرفاقي بينكم وعندما انتهى العمل السري وضروراته انتهت علاقات المحبة الرفاقية » و « إن علاقات المحبة الرفاقية يجب أن تبقى حتى في الصيغ وفي المرحلة التي أنتم فيها الآن والتي تبدون فيها اقوياء لانها هي طريق القوة وهي طريق المنعة وهي تجعلكم تتقدمون الى أمام ولكن عندما تنسونها وأنتم أقوياء فإنكم تضعفون » و « نريدكم ايها الرفاق وانتم تقودون السلطة ان تستعينوا بتقاليد الحزب كيما تكون عرفا ثابتا في عملكم اليومي وتكون هي تقاليد الدولة المتطورة حسب الحاجة العملية لاستخدامها » و « إن ثمة فرقا نوعيا كبيرا بين الدولة وبنائها السياسي والتنظيمي رغم ان الدولة هي دولة الحزب ، واذا ما انعدم الفرق بين سلطة الدولة وبين الحزب فعندها سيغدو الحزب حزب السلطة بدلا من ان تبقى السلطة سلطة الحزب وستنتهي خصوصيتنا كمناضلين مؤثرين في واقع المجتمع بقصد التغيير نوعيا الى امام ، أو انها تضعف الى حد كبير فيتحول الحزب الى جهاز تقليدي من أجهزة الدولة ، فلا تعود الدولة كيانا يحركه ويقوده ضمير وعقل الحزب للتطور الى أمام » .

وبالاضافة الى التركيز على التقاليد فان صدام حسين كان في استمرار خلال الاجتماعات القيادية التي يوزع مضمونها على فروع الحزب يقرن الوصايا بالتحليل وهي وصايا ساهمت في المزيد من تثبيت الناحية الفكرية عند البعثيين . من هذه الوصايا على سبيل المثال لا الحصر « ايها الرفاق . قاتلوا بشجاعة وبشرف . وعندما تعدون أوفوا بوعدكم بشرف . وعندما تقدمون الخدمة لشعبكم قدموها بتجرد وبلا غرور » و « تذكروا إن الثوري عندما يتجرد من القيم الاخلاقية لا يستطيع أن يكسب الولاء الصميمي للشعب مهما كانت اعماله ومنجزاته الاخرى حيوية وكبيرة » و « البعثي الجيد هو ذلك الذي يركض جيدا في ساحة مفتوحة ، بل انه الذي يحسن الجري وسط الالغام ، وإن « تجهيزاتكم الهندسية» لرفع الالغام كي تمضوا الى امام هي ثقافتكم . فأنتم تكونون ضباط هندسة اكفاء في رفع الالغام عندما تهتدون بمبادىء حزبكم وتكونون مثقفين . والثقافة ليست قراءة الكتب فحسب وإنما التفاعل مع الشعب والتعرف على مشاكله ... » .

واذا جاز القول فان صدام حسين خفف بعض الشيء من ثقل التعابير العقائدية للبعث . ويمكن ملاحظة ذلك من خلال كتاباته وبعض الشعارات التي تحويها هذه الكتابات من نوع « لا تصابوا بالغرور لانكم ستصابون بالدوار » و « للقلم والبندقية فوهة واحدة » و « إن المقاتل الذي يحمل بندقية من نوع ويتمنطق بحزام ذخيرة من نوع اخر لا بد أن يهزم لان البندقية لا تأكل الا عتادها كما يقول المثل الريفي عندنا » و « الثقافة مشجب كبير لكل الاسلحة » و « لا خير في امة تأكل أكثر مما تنتج وتحصد اقل مما تزرع » و « اذا لم تكن قادرا على اغتنام الزمن كفرصة فعليك تعطيل اغتنامه من قبل الخصم كفرصة » .

ومثل هذا النوع من الاسلوب بدا كم إنه ضروري لحزب يريد استقطاب

الجماهير حوله . وبما أن هذه الجماهير تجمع بين المثقف والعادي فانه من المهم مخاطبة النوعين وليس نوع النخبة . أي بمعنى آخر إن صدام حسين اعتمد التبسيط في فكر البعث بحيث يستطيع الفلاح والمثقف ثقافة بسيطة أن يستوعب هذا الفكر في شكل أو آخر ، في حين ان الاسلوب الذي كان سائدا من قبل كان من النوع الذي لا يلقى الاستيعاب الكافي الا في صفوف النخبة .

والى ذلك إن صدام حسين استنبط مفردات خاصة به في القاموس السياسي للبعث ، فهو صاحب كلمة « المفاتيح » بمعنى القوانين العامة و « عقل المقر » بمعنى قيادة الحزب و « السياج الخارجي » بمعنى حدود الثورة و « الباب الداخلي » بمعنى قلب الثورة . كذلك هو صاحب كلمات من نوع « المنبت الميداني » و « الفرز العمودي » و « الاستحالة الروحية» . ويكفي أن يلاحظ القارىء مثل هذه الكلمات في كتابات ما ليعرف أن كاتبها هو صدام حسين حتى ولو لم تكن هنالك اشارة الى ذلك . وعند الاجتماع بصدام حسين من الضروري وضع النفس في موضع المستعد لسماع تعابير غير مألوفة وتشبيهات متميزة . وفي سياق مناقشة معه حلل فيها الواقع العربي سمعته يقول : « لكي نأخذ قدرتنا في الركض للأشواط المطلوبة ونحن نستعد للتسخين ونركض بالسرعة التي تستجيب لذلك وبأقصى ما يمكن من طاقة الى أبعد نقطة في الجهد نتوصل لها ، نجد أمامنا عائقاً يحد من الحركة ويؤدي الى التوقف ، فيتساوى الجميع في ذلك . وهذا يمكن تشبيهه بحركة الخيول عندما تكون في ساحة ضيقة فيتساوى فيها الأصيل وغير الأصيل لان المسافة قصيرة ، بل ربما حتى الاستعارة بالتشبيه تبدو للوهلة الأولى أو من خلال بعض المظاهر أن الخيول غير الأصيلة هي أكثر ركضاً من الخيول الأصيلة ... » .

ولقد أضاف صدام حسين الكثير الى مفهوم حزب البعث ونظرته الى المسألة الاشتراكية « إن الاشتراكية في حساباتنا وكما نتصور لا تتوازن رقعتها في السعة وفق الحسابات والظروف والعوامل المادية المتهيئة لإغراض التطبيق فحسب وإنما يجب أن تتوازن مع عامل اساسي كذلك ، هو مقدار النضج الاجتماعي والمستوى الفكري الذي وصل اليه شعبنا في فهم وأداء المسؤولية في العمل الجماعي الاشتراكي لادارة مؤسسات الملكية الاشتراكية . وبدون أن تتوازن الخطوة التي نخطوها في تطبيق الاشتراكية في « الساحة » وزمن تحققها مع هذا العامل فإننا نرتكب خطأ كبيراً ونكون معرضين الى مخاطر الردة تحت غطاء شعار « التعقل » لمواجهة اليسار المتطرف ... » .

كذلك إنه رسم تحديدات لنظرة البعثي الى الانسان وحدد في الوقت نفسه مواصفة غير مطروقة للبعثي نفسه . ونلاحظ ذلك من خلال كلام له في لقاءات مع عدد محدود من قيادات الحزب وقبل فترة طويلة من تسلمه المسؤولية الكاملة في الحزب والدولة « إن الانسان ضمن الأهداف المركزية هو قيمة عليا من بين القيم العليا الكبيرة الأخرى ، لذا ينبغي إحترام الإنسان إذ يحدث أحياناً أن يستهان به . وعلى العموم فإن الأقل وعيا ودرجة في الحزب تصبح احتمالات استهانتهم بالاخرين متوقعة أكثر من الأعلى موقعاً والأكثر وعياً . إن التعبير عن الاخلاص بصيغ أكثر دقة هو من سمات البعثي ، لذا فإن البعثي في تنافسه مع إبن الشعب لا يتنافس وإياه على الاخلاص بمفهومه العام وتعبيراته العامة . باعتبار أنه بعد فترة من الزمن ، ربما لم نصلها الان وقد نصلها بعد خمس سنوات مثلاً ، لن يكون

هنالك كثير من المواطنين أعداء طبقيون للثورة وأعداء رجعيون بالأفكار لها ، وكذلك سيتقلص الاعداء السياسيون ايضاً ويصبحون غير ذوي شأن وبذلك تتوفر الظروف المناسبة لكي يكون الشعب متساوياً في الإخلاص العام وفي أسس الإخلاص العام مع البعثيين . أما البعثي فإنه يتقدم على المواطن المخلص في قدرة التعبير عن الإخلاص بدقة أكثر ... »

وهو في هذا الكلام يحاول ان يكبح جماح البعثي في النظرة الى أنه متميز عن غيره ، ولإنه كذلك فإنه أكثر أحقية من غيره . ولم ينبه صدام حسين الى ذلك استباقاً الى أمور قد تحدث وإنما في ضوء حالات حدثت . وهو الى ذلك يحذر من مخاطر « الكفاءة البعثية » في وجه « الكفاءة التقنية » . وفي الأسطر الآتية وهي عبارة عن كلام له نلاحظ ذلك بكثير من الوضوح « يقتضي أن نسعى ويسعى رفاقنا الى تطوير أنفسهم من الناحية العلمية ومن ناحية الامكانيات لكي يتنافسوا مع المجتمع الذي هو منا ويتنافسوا مع المواطن الذي هو ابن الثورة ايضاً بإطار ووفق أسس مشروعة وأن نسقط التنافس غير المشروع المتأتي من خلال موقعين غير متساويين في الفرص ، إذ تسنح الفرصة للبعثي لمجرد صفته الحزبية بينما تحجب عن المواطن . لذلك فإن المطلوب هو أن يصبح المقياس الجديد أن ينتزع البعثي فرصته إنتزاعاً من خلال مؤهلاته المتفوقة في الكفاءة وفي الأداء الدقيق ، في تفاصيل العمل اليومي ، تعبيراً عن الإخلاص لنهج الثورة وواجبات العمل في خدمة الوطن والشعب . وليس من خلال منحه الفرصة بالتمييز عن المواطنين دون مراعاة الكفاءة وحسن الاداء . فعندما تكون هناك فرصة ، والطريق اليها ذو شقين ، أحدهما مليء بالعوائق والعراقيل ، والآخر مستقيم وممهد ، ويكون نصيب البعثي الطريق المستقيم الممهد، بينما يكون نصيب ابن الشعب الطريق الآخر ، فسيتقدم البعثي للوصول لتلك الفرصة ، بينما يتأخر المواطن . وعندها فان البعثي لا يتقدم في الوصول الى موقع ما كتعبير عن قدرته الذاتية « الفنية الثورية » في التعبير الأقوى والأدق عن اخلاصه للثورة والحزب ، وإنما يتقدم لانه بعثي فحسب ، مع تساوي الاخلاص في الشروط العامة بينه وبين المواطن ، وعدم وجود أرجحية في الشروط الخاصة « الفنية والثورية » لصالحه » .

أما ما الذي يمكن أن يسببه ذلك للمواطن فيوضحه صدام حسين للبعثيين على النحو الآتي :

« حالة من هذا النوع توجد انفصاما نفسيا في علاقة الشعب مع الحزب والثورة وقيادتهما . لإن ابن الشعب عندما يرى انه مخلص للثورة ومحب للحزب ومحب لقيادة الحزب ، وملتزم بنهج الثورة ، ويرى أن قدرته في التعبير عن منهجية الثورة اعلى من قدرة البعثي الذي تقدم عليه ، ومع كل ذلك تمنح الفرصة للبعثي يتقدم عليه ، وذلك لكونه بعثيا وحسب ، وليس لكونه أقدر منه ، من الناحية الثورية والفنية ، في التعبير عن الاخلاص بمنهجية ووتيرة اعلى وأدق ... فان صورة من هذا النوع ستحز في نفس أبناء الشعب ، وستبعدهم عن ثورتهم وحزبهم . والموقع الآخر الذي نخسر منه ، إذا ما استمرت هذه الحالة ، هو أن ابن الشعب ، عندما يصطدم بهذه الحقيقة ويرى أنها جاثمة على صدره فسيجد نفسه منساقا لان يقف ضد الثورة ، وينزلق الى الخندق المقابل ، حيث يكمن اعداء الشعب والثورة ،

وهو في الاساس ، ليس ضد الثورة ، ولكنه ، ضد التعبير غير الاصيل عنها ، من خلال الأشخاص الذين يراهم ، والذين يعبرون تعبيرا سيئا عن مسيرتها ، والذين لا يشكلون نموذجا اصيلا لها ... » .

وعندما يقول ذلك صدام حسين فلانه يتطلع الى ان تكون تجربة البعث في العراق مثالية « ولا تنحصر في تأثيراتها الايجابية في الوطن العربي ، وإنما نريد أن تكون لها ابعاد انسانية تصل الى ابعد رقعة في العالم » . ومن المؤكد أنه لن تكون لهذه التجربة ابعاد أو « يستفيد من خصوصيتها » الآخرون، اذا كانت « الكفاءة البعثية » هي فقط سمة الدخول الى مكان والحصول على كل المتطلبات وليست « الكفاءة التقنية » .

ويلفت النظر أن صدام حسين لم يترك مناسبة الا وحذر البعثيين من الغرور ، ويلفت النظر ايضا تحذيره من « الطبقية البعثية » ايضا وذلك من خلال قوله امام عدد محدود من القيادات « هل يجوز ألا يشعر المرء بانه « مرتفع » الا عندما يكون الذين حوله وديانا ، أم ينبغي أن نتعود أن نكون قمما حينما يكون من حولنا كل الرفاق قمما ؟ فالأرض المستوية بين الوديان ليست ارتفاعا وانما الارتفاع الحقيقي هو المستوى فوق الارض المستوية » .

وفي مرحلة من مراحل تطور الحزب كان بعض البعثيين يتصورون انه لا يمكن لتجربة ثورية ان تقوم في الوطن العربي الا اذا كانت بعثية . لكن صدام حسين أدخل تطويرا على هذه النظرة بحيث ان البعث في العراق بات ينظر بالكثير من التقدير الى اية تجربة ثورية عربية تسعى الى التغيير في اتجاه قومي وتعمل بجدية لمقاومة النفوذ الاجنبي ، إنما المهم أن تحافظ هذه التجربة على استقلاليتها وتبقي المنافذ مقفلة في وجه مداخلات القوى الكبرى .

في ضوء ذلك كله وفي ضوء تثبيت تعبئة الجماهير في اتجاه المحافظة على الثورة وقدرتها على القيام بهذا الدور التي تفوق قدرة الأجهزة . وفي ضوء بلورة نظرية « المرونة الثورية » ونظرية البعث في مسألة الاقليات ... وهي كلها إنجازات على الصعيد الايديولوجي محسوبة لصدام حسين ، جاءت برقية الامين العام للحزب الاستاذ ميشال عفلق اليه يوم السابع من تموز ١٩٧٩ لمناسبة تسلمه المسؤولية الكاملة التي قال فيها « إن المزايا التي ميزك الله بها والتي جعلت منك القائد الشجاع والمناضل الملهم ومكنتك من اخصاب فكر الحزب ومبادئه ، من حيث جعلها حقائق ملموسة في الحياة هي نفسها المزايا التي تحتاج اليها ثورة الأمة في ظرفها العصيب الحالي ظرف الولادة الجديدة واثبات الهوية والعطاء الحضاري . إنني اذ اهنئك على الثقة التي اولاها اياك الحزب وجماهير الشعب أهنىء الامة بك وأدعو لك بالتوفيق والنجاح في خدمة الامة ورسالتها » .

وبرقية ميشال عفلق هذه ليست برقية أملتها ظروف اضطرارية أو انها من نوع البرقيات التي ترافق عمليات التغيير في معظم دول العالم الثالث ، كذلك إنها لم تأت لتدعم الوضع الحزبي لصدام حسين او لتحسم جدلا في شأن زعامته لانه في الأصل قوي ولانه هو شخصيا حسم أمر الجدل بعدما كان رصد حدوثه لدى بعض القيادات البعثية التي تآمرت . وإنما جاءت البرقية في الوقت الذي اعتبره مؤسس الحزب مناسبا لكي يعلن اذا جاز القول نوعا من « المبايعة الفكرية » (بمعنى التزكية والمباركة والتأييد) عبر عنها ميشال عفلق بطريقته في اختصار

القول الذي يحدد القصد . ومن هنا فان « المبايعة الفكرية » تنحصر في اعتبار ان صدام حسين « أخصب فكر الحزب ومبادئه من حيث جعلها حقائق ملموسة في الحياة » .

ومن قبل هذه المبايعة كان ميشال عفلق يكثر من التركيز على الحزب في العراق وليس على الشخص . فهو بعد الزيارة الاولى التي قام بها الى العراق عام ١٩٦٩ قال بعد احاديث ولقاءات مع الحزبيين« إن حزبنا في العراق اصبحت له جذور عميقة في هذه الارض ومع هذا الشعب وليس من قوة تستطيع ان تقتلع هذه الجذور بعد الآن » . وقال ايضا « في ايام الشباب كنا نتطلع الى العراق وكان جيلنا يسمي العراق بروسيا العرب » .

وفي الحادي والعشرين من حزيران ١٩٧٤ قال في خطاب القاه في بغداد : « حزبنا في العراق تميز دوما بالدأب بالتشبث بالارادة القوية بفهمه الجدي العميق لمسؤولياته القومية . فرغم كل الفترات المظلمة التي مرت بالحزب وبالقطر وبرغم النكسات لم يحدث انقطاع ولم يحدث توقف . وكان هناك دوما من ينبري لحمل المسؤولية . وقد يخسر الحزب اعدادا ولكن لا يلبث أن يسترجع وزنه الشعبي ويتكاثر لان الشعور بالمسؤولية كان دوما حافزا في هذا الحزب » .

وفي الخطاب نفسه قال عفلق « من الصعب جدا ألا أكون عاطفيا ازاء حزب البعث في العراق لإنني أحببت هذا الحزب منذ خطواته الاولى . قدّرت فيه مزايا نضالية وأخلاقية قلما وجدتها في فروع أخرى أو اقطار اخرى وكنت وأنا الذي تربطني برفاقي في سوريا روابط النضال اعتبر بان حزبي في العراق . إن الحزب في الدرجة الاولى هو في العراق لذلك تستطيعون أن تقدروا فرحي وأنا قد بلغت هذه السن عندما أرى وألمس هذا التقدم الذي يحققه الحزب في العراق . إن الحزب في العراق يشعرني بتعويض عن كل الاتعاب والالام التي مر بها المناضلون في هذا الحزب » .

وفي الخطاب ايضا قال « ان الجدية التي لمستها والتي تجسدت في البعثيين العراقيين لم اجد لها مثيلا في فروع الحزب الاخرى » و « إن في القطر العراقي مزايا تميز شخصية الانسان العربي . ومزايا اذا احسن توجيهها فانها تستطيع ان تعمل الاعمال الكبيرة والاعمال الخارقة احيانا » و « يجب ان يصبح الحزب مساويا للمواطنين العراقيين بكامل عددهم » .

وفي مناسبة أخرى يوم الرابع والعشرين من حزيران ١٩٧٤ قال عفلق « إن تجربة حزب البعث في العراق لن تفوقها تجربة » مشيرا الى انه قال لصدام حسين « إن فكرة الحزب من الاساس فكرة متوترة تتطلب مستوى متوترا من الثورية » .

تلك بعض نماذج الكلام الذي يركز فيه ميشال عفلق على الحزب في العراق . وهنا تبدو الاشارة الى ان بعض العبارات تشكل جزءا من خلفية رفض القيادة السورية ان يكون ميشال عفلق محور اعادة توحيد الحزب .

والى ذلك ان نسبة الحماسة لدى ميشال عفلق ازاء الحزب في العراق ارتفعت كثيراً بعدما تسلم صدام حسين المسؤولية عما كانت عليه في السابق . وهو بعدما اصدر يوم الثامن من تشرين الاول ١٩٧٩ في أعقاب اجتماع عقدته القيادة القومية تعميما وزع على منظمات الحزب ومكاتبه داخل الوطن العربي وخارجه ويتضمن انتخاب صدام حسين بالاجماع من قبل القيادة نائبا للأمين العام للقيادة القومية ،

بدا كما لو أنه يحسم كقائد تاريخي للحزب أمر القيادة المستقبلية للحزب . ومثل هذا الحسم وهو حي ويمارس مهماته أمر في منتهى الأهمية . وفي الرسالة التي تلاها بنفسه مساء يوم الاحد السادس من نيسان ١٩٨٠ لمناسبة الذكرى الثالثة والثلاثين لتأسيس حزب البعث بدت نسبة الحماسة كم هي كبيرة وبدا في هذه الرسالة كما لو أنه يحدد حيثيات تهيئة صدام حسين لقيادة الحزب على مستوى الوطن العربي . وفي هذه الرسالة قال « أنتم ايها البعثيون على أرض هذه التجربة الثورية الأمينة الذين استوعبتم دروس مسيرتكم القومية وتقدمتم في الوعي وفي النضال فتجنبتم الأخطاء المدمرة وارتفعتم الى مستوى المهمة التاريخية فلم يكن عملكم سياسيا تقليديا ولا مبدئيا مجردا ولم تكن معالجتكم لقضايا الأمة معالجة ظرفية آنية . كما أنها لم تغرق في محيط الأحلام اللاأمرئية للمستقبل . أنتم الذين حملتم الأمانة بصدق وأخلصتم لتراثكم وكنتم اوفياء لمسيرة الحزب النضالية الطويلة وجعلتم من المبدئية والأخلاقية والرصانة والجدية ، وهي السمات البعثية الاصيلة ، منهج عمل وحياة ، وعنوان شخصية بطولية فذة . أنتم الذين رعيتم الفكر ووضعتم الثقافة في مكانها سلاحا في المعركة ، وترجمتم المعاناة الى ضوابط موضوعية ثورية . أنتم الذين وضعتم العراق العظيم على طريق قيادة الانبعاث للامة فأعدتم له دوره التاريخي في الحياة العربية . أنتم ايها الرفاق مفاجأة البعث لنفسه ومفاجأة الأمة لذاتها » .

وبدا ميشال عفلق وهو يخاطب البعثيين في العراق أنه يوجه الكلام الى صدام حسين شخصيا . وهو أدرى من غيره بأنه لولا صدام حسين لما كان الحزب بالقوة التي تجعل القائد التاريخي يقول في هذه المرحلة من حياته الكلام الذي قاله ويعلن ما يمكن اعتباره مبايعة فكرية وقيادية من جيل الى جيل .

وفي الفترة بين تسلم صدام حسين المسؤولية الكاملة وتوجيه ميشال عفلق « برقية المبايعة » اليه ثم توقيعه على تعميم بأن نائبه في القيادة العربية للحزب (وتكرارا إن « نائبه » تبدو نتيجة ظروف السن بمعنى خليفته) هو صدام حسين ، وبين تحديده الحيثيات التي لاحظناها في رسالته لمناسبة الذكرى الثالثة والثلاثين لتأسيس الحزب أدرت مع الاستاذ ميشال عفلق حوارا استغرق بضع جلسات . وفي هذه الجلسات (بدأت في كانون الاول ١٩٧٩ وانتهت في نيسان ١٩٨٠) وضعت بالنسبة الى تجربة البعث في العراق ثلاثة استفسارات وتمنيت عليه ان يتحدث حولها .

وأسجل هنا الاستفسارات المشار اليها ثم رد عفلق عليها .

الاستفسار الاول ـ ما هي ظروف معرفتك بصدام حسين منذ أن أصبح بعثياً الى لحظة قولك أنه أخصب فكر الحزب ؟ .

ولقد ظهرت في قولك هذا وفي اشارتك الى صفات تجسدت فيه كما لو انك تبايعه فكريا . على ماذا بنيت هذا الأمر ؟ .

الاستفسار الثاني ـ كيف تنظر كقائد تاريخي للحزب الى الاسلوب الذي يدير فيه قائد شاب من نوع صدام حسين الصراع الفكري والسياسي ؟

الاستفسار الثالث ـ تتحدث عن تجربة البعث في العراق بحماسة لم نألفها فيك من ذي قبل الى حد قولك في حزيران ١٩٧٤ « اعتبر بأن حزبي هو في العراق . إن الحزب في الدرجة الاولى هو في العراق » .

هل معنى ذلك ان المواصفات التي تريدها في البعث كحزب وفي البعثي كحزبي لم تتوافر الا في العراق ، وأنه مطلوب من الآخرين اعتبار تجربة البعث في العراق أنها النموذج الذي يجب أن يحتذى به ؟

تلك هي الاستفسارات الثلاثة ، مع الاشارة الى ان جلسات الحوار مع الاستاذ ميشال عفلق تناولت مسائل أخرى . وفي الاسطر التالية رده على هذه الاستفسارات :

« عرفت الرفيق صدام بعد ثورة رمضان ١٩٦٣ . عرفته وسمعته لاول مرة يتكلم في مؤتمر قطري في بغداد . وكانت مفاجأة بالنسبة لي أن اسمع افكاراً ونظرات نافذة وعميقة في نقد تصرفات القيادة القطرية في ذلك الحين ، وفي نفس الوقت اعطاء صورة عما يجب أن يكون عليه حكم الحزب .

والانطباع الأول والاساسي الذي تركته في نفسي هذه المعرفة هو الاتزان وهدوء الاعصاب وسيطرة العقل ووضوح الفكر . نموذج نادر غير مألوف في العمل الثوري ، على الأقل في وسطنا العربي ، لان الانفعال والتسرع والعاطفية كانت هي السمات الغالبة على المناضلين الثوريين .

ولم يمضِ شهر او شهران على هذا اللقاء وعلى هذه المعرفة حتى أصيب الحزب في العراق بالنكسة المعروفة في ١٨ تشرين والتي أدت الى سقوط الحكم والى مآس كثيرة .

لذلك كان من الطبيعي جدا ان يتجه تفكيرنا بعد هذه النكسة الى المناضل الذي كان اسبق من غيره الى رؤية الأخطاء في القيادة السابقة وان نوكل اليه عملاً قيادياً في فترة العمل السري بعد ردة تشرين . ولو أنه ولأسباب وجيهة ، فضل أن يعتذر لفترة من الزمن . ولكن بعد مدة كان هو الشخص القيادي الذي صنع الصمود واعادة البناء على أسس جديدة وإعادة التنظيم في نظرة تجمع بين العقلانية والشجاعة والإقدام .

ولا يفوتني أن أذكر بأن ذلك كان بالتعاون مع الرفيق الكبير أحمد حسن البكر الذي كانت معرفتي به توثقت كثيرا من بعد ١٤ رمضان . وكانت ثمة فرص عديدة للقاء والحديث بيني وبينه .

صدام حسين إبن الحزب . دخل الحزب في سن الحداثة ولم يعرف جوا غير جو الحزب . وثقافته ايضا كانت في الدرجة الاولى من تراث الحزب الفكري .

ولكن هذه الظروف الموضوعية لا تفسر الا بعض الجوانب ، إذ يبقى في شخص القائد او الشخص المؤهل للقيادة ، جوانب لا يمكن للتحليل أن ينفذ اليها . هذه الجوانب العميقة والغامضة والتي هي نتيجة ظروف وعوامل عديدة متشابكة متداخلة فيها عامل الوراثة وفيها الوسط الاجتماعي وفيها التربية العائلية وفيها مصادفات عديدة تميز الشخص الذي تظهر فيه في ما بعد الصفات القيادية البارزة .

أنا شخصيا طوال عهدي في الحزب كنت أفرح وأشعر بالسعادة كلما آنست في شباب الحزب علائم النبوغ في ناحية من النواحي ولكن استطيع القول بأن معرفتي بالرفيق صدام التي توثقت بعد ثورة ١٧ تموز أوجدت عندي قناعة بأن الحزب قد أنجب شخصا قياديا لاول مرة تتوافر فيه معظم الشروط التي كان الحزب يفتقر اليها وينتظر من يجسدها .

من الناحية الشخصية أكن للرفيق صدام محبة غير عادية ناتجة عن :
أولا ـ هذا الاستبشار بدوره القيادي الكبير .
ثانيا ـ اكتشاف سجاياه الخلقية نتيجة المعرفة والتعامل . وهذا يشكل عندي نقطة مهمة للغاية . أن يكون العمل الثوري مقترنا بالصدق والأخلاقية الأصيلة .
لذلك عندي إطمئنان كبير لمستقبل الحزب ولمستقبل الأمة ما دامت هذه الشروط الاساسية قد توافرت للحزب في قطر بأهمية العراق ودوره في الوطن العربي . وهذه فرصة ثمينة للثورة العربية .
إن قناعتي عميقة بأن الجدية التي تجسدت في البعثيين العراقيين لم تتجسد في فروع الحزب الأخرى . وهذا لا يعني بأن التجربة في العراق ليس فيها نقص وليست فيها أخطاء . وقد تكون أحيانا أخطاء غير بسيطة ، أو نواقص غير بسيطة . ولكن حكمي الأول يبقى صحيحا وقناعتي الاولى لا تتبدل بأن المنطلق الجدي لحزب البعث هو تجربة البعث في العراق .
فكرة النموذج لا أرفضها ولكنني لا أتبناها بشكل حرفي وضيق لانني اعتبر ان التعدد او التنوع في التجارب الثورية في الوطن العربي له فوائده وضروراته وفيه اغناء للثورة العربية وهو يساعد على أن يأتي المستقبل العربي ناضجا ومتوازنا وذا ابعاد انسانية . فالنموذج لا يعني الفرض ولا يعني الاستئثار والاحتكار ، وإنما يعني أن ظروفا مواتية وشروطاً ممتازة توافرت لتجربة فحققت سبقا واعطت نتائج ايجابية تصب في مجرى الثورة العربية الواسع ويمكن أن تلهم المناضلين العرب في شتى ساحات النضال ويمكن أن يستفاد منها وحتى خارج الوطن العربي على الصعيد العالمي . وهي مرتبطة بمقدار ما يمثل حزب البعث في حركة الثورة العربية من قدرة على القيادة الطليعية لهذه الثورة وقدرة على تحقيق أهدافها .
هذا فهمي للنموذج وأحذر دوما من الانغلاق والاكتفاء الذاتي وأدعو الى التفاعل مع كل فكر ونضال ثوري في الساحة العربية ، وحتى على الصعيد العالمي ، وأن نوازن بين حدين : الثقة بالنفس وبأننا نبني تجربة اساسية في حركة ثورية عربية قامت منذ نشأتها على اساس الاضطلاع بمهمة انقلاب عربي شامل وعميق في الحياة العربية الحديثة ، والنظرة الواقعية العملية التي تقضي بأن نتذكر دوما بأننا نعمل في مجتمع متخلف وفي وطن مجزأ وفي وجه أعداء خطرين وشرسين يحتلون أجزاء من ارضنا ويهددونا في استمرار ويقيمون العراقيل في طريق نهضتنا . فلا غنى لنا عن أن نعالج تخلفنا بالانفتاح والرؤية الواضحة والنقد الذاتي والتعلم من تجاربنا وتجارب الآخرين وان نعالج واقع التجزئة بمزيد من الانفتاح على جماهيرنا العربية وعلى الفئات الوطنية والثورية التي تختلف عنا ولكننا نلتقي معها في أمور قومية اساسية .
هذه الموازنة في رأيي هي المطلوبة دوما .
هناك اشياء في التاريخ تخضع لعوامل قدرة وحسابات الافراد تفرض نفسها فرضا . أنا لم اعتبر الحزب في العراق حزبي الاصيل والاساسي عن هوى شخصي او مجرد اختيار ظرفي . هذه حقيقة موضوعية . وبحكم حياتي في الحزب ومعاناتي لمسيرة الحزب منذ البداية ادركت هذه الحقيقة الموضوعية قبل غيري ربما لان ظروف العراق وظروف الحزب في العراق وظروف الوطن العربي بكامله

والمشرق العربي بصورة خاصة اوصلت كلها الى هذا الواقع الواضح كل الوضوح لان حزب البعث هو هذا الذي تكوّن ونما ونضج في العراق .

حزب له تاريخ . وحزب له قوانين عضوية للنمو . قوانين الكائن الحي . لا يدعي هذا الانتماء للبعث ادعاءا بل تفاعل مع افكار البعث منذ بداية نشأته . ولا أنكر بأن شيئا كثيرا من خصوصية ظروف العراق انعكست على الحزب . ولكن هذا شيء طبيعي شأنه شأن كل الثورات في العالم عندما تتواضع في مكان لا بد أن تحمل آثار البيئة .

والوحدة العربية هي العلاج لكل سلبيات الثورة لانها عندما تتحقق تعطي الصورة الصادقة للامة العربية في طور انبعاثها الجديد فتتغلب على سلبيات الخصوصيات القطرية وتحيل هذه الخصوصيات الى عوامل ايجابية نافعة .

والثورة العربية مطالبة بأن تعرف هذه الحقيقة في استمرار وان الجزء مهما يحاول فانه لا يستطيع ان يجسد حقيقة الكل .

قلت ان الحزب في العراق بجدية انتمائه وبارادة الاستمرار ومتابعة الطريق وبدفعه الثمن لهذه الجدية ولارادة الاستمرار هذه من دمه وأرواح مناضليه على مدى أكثر من ربع قرن ، تميز عن فروع الحزب الاخرى وتقدمها ، وأصبح هو الاصل الذي يمد الفروع وهو المركز والقاعدة . وهذه حقيقة ثابتة ولا يمكن تبديلها .

ان المواطن العربي يرى الاشياء بنتائجها ومن بعيد . المهم رؤية الامور من داخل الحركة وكيف ان فرعا من فروع الحزب تمكن من أن يحتل هذه المكانة .

كان المفروض أن ينطبق ذلك على سوريا حيث نشأ الحزب لكن الظروف الموضوعية غير التمنيات الذاتية . وهذا خير كبير من العراق ومن حزب البعث لان العراق يستطيع أن يسترجع سوريا .

وأنا عندما قلت ان حزبي هنا في العراق لم يكن ذلك رايا عابرا . منذ الستينات وأنا اعتبر ان حزبي هنا .

العراق هو القاعدة . قاعدة الانطلاق . سوريا مهمة جدا ولكن قربها من ساحة المعركة مع العدو الصهيوني الى جانب ظروف اخرى غير مجهولة منذ الانفصال جعلها ضعيفة المقاومة وغير قادرة أن تحقق البنيان القوي الصلب .

التآمر على سوريا من الامبريالية والصهيونية وخاصة الصهيونية قديم وثقيل الوطأة . ولقد وجد المتآمرون فرصتهم في الانفصال . وبعد الانفصال لم تستطع سوريا ان تسترد زمام قيادتها لنفسها ومصيرها . إنها تراوح مكانها .

ولقد استطاع الحزب في العراق ان يحول البعد الجغرافي النسبي للعراق عن ساحة المعركة المصيرية الى قوة بناء وتهيئة صلبة واعداد للمعركة . اعداد المجتمع في الدرجة الاولى ، وفي الدرجة الثانية القوات المسلحة التي هي تعبير عن قوة المجتمع وسلامة تكوينه .

والمجتمع العراقي في ظل تجربة الحزب وعلى رغم كل شيء وكل ما يمكن أن يقال وعلى رغم العثرات نتيجة المؤامرات هو مجتمع معافى وفي طور عطاء ونهضة واقبال الى الرقي والتقدم . انه ينضح بالعافية » .

لقد وقفنا في الصفحات السابقة من هذا الفصل وفي صفحات اخرى من الفصل الاول على ما فعله صدام حسين للبعث قبل ان يتسلم المسؤولية الكاملة في الحزب

والدولة وقبل ان يعلن القائد التاريخي للبعث ميشال عفلق مبايعته على النحو الذي اشرنا اليه وعالجناه في ضوء استقرائنا لافكار قيادات البعث .

ويبقى ان نشير الى ما سيفعله صدام حسين للبعث في المرحلة التي تبدو تختلف جذريا وموضوعيا عن المراحل التي سبقتها . وقد يكون في الامكان تلمس ما سيفعله من خلال قراءة متأنية لعبارات وردت في كلام له امام عدد محدود من القيادات الحزبية في أعقاب تسلمه المسؤولية الكاملة . وهذه العبارات هي :

« عندما يكون خصومنا الان ثلاث جهات أو اربعا فلا نتوقع ان يصبحوا جهتين ، لكن الشيء الذي نتوقعه ونعمل عليه أن جمهورنا يكثر . فعندما يكون جمهور الحزب في الوطن العربي الآن نصف مليون فلا بد أن نعمل ليصبح ٢٠ مليونا وان يصبح ٤٠ مليونا ... وهكذا صعودا في الرقم الى اعلى » .

« لا أظن أنه يوجد حزب في الكون كله تعرض او سوف يتعرض الى مشاكل وضغوط وصعوبات ومحن مثل حزب البعث العربي الاشتراكي ابدا ، وهذا ليس ادعاء . فلو أخذنا اي حزب ، بما في ذلك الحزب الشيوعي السوفياتي ، وتعرفنا على وضعه وما وصل اليه قبل وبعد ثورة « اكتوبر » ثم نأخذ وضع حزبنا ، ونأخذ وضع الأحزاب الليبرالية في اوروبا ودورها في مرحلة صعود البورجوازية على انقاض أنظمة الارستقراطية الاقطاعية . ونأخذ الاحزاب في بلدان العالم الثالث ... فسوف نجد ان من بين اصعب الحالات التي واجهتها الأحزاب الأخرى ، حالة انفصال الأمة بشطرين أو ثلاثة . كوريا وكوريا ، وفيتنام وفيتنام ، المانيا والمانيا ... الخ . أما أن تتحول الأمة الى ٢٢ جزءا فلا توجد امة في الكون كله قد تجزأت على هذه الصورة . لقد جزؤوا الأمة الى ٢٢ جزءا ، وما زالوا يجدون « الحاجة » قائمة الى مزيد من التجزئة ، وهذا أحد المؤشرات على حيوية الامة ومكوناتها الذاتية في التعامل مع التطور » .

« ومن هنا نرى كم هو بائس وضع اي تنظيم يدعي الثورية من دون أن يبنى بناء ثوريا في الأساس . فالسلطة لا يمكن أن تبني اي حزب بناء ثوريا اطلاقا . السلطة تنقص من مفاهيم الحزب الثوري أكثر مما تعطي لخلق البناء الثوري . ما لم تنبثق عن ارادة الحزب الثوري ومفاهيمه ، وتخضع له ... فالسلطة لا يمكن ان تعطي تقاليد للعمل الثوري ، وإنما يجب ان نقتبس من العمل الثوري . ومن هنا نرى صعوبات اي بناء سياسي يأتي في ظل السلطة دون أن يسبقها ، وتكون من خلقه ، بدلا من ان يكون من صنعها . ان البناء الذي يكون من صنع السلطة لا يطهر النفوس ولا يستطيع وضعها في الحد الادنى في الاطار الصحيح الا في الحالة التي ذكرناها » .

والى هذا الكلام هنالك كلام آخر للرئيس صدام حسين ورد في سياق جلسات المناقشة معه في الفصل الثامن والاخير من الكتاب .

... وفي الكلامين يشيع الرئيس صدام انطباعا بانه مثلما أنه لم ينس الحزب عندما بدأ يمارس الدور القيادي في الحكم مع الرئيس احمد حسن البكر في اعقاب ثورة ١٩٦٨ فانه لن ينسى الحزب بعدما تسلم المسؤولية الكاملة في الحزب والدولة وبعدما بويع من القيادة التاريخية ليتسلم القيادة العربية للبعث مستقبلا .

... ولأنه لم ينسَ فقد استمر قويا واستمر الحزب أقوى .

الفصل السابع

أبو عُدَيّ

"ساناضل لاكون راية بين الرايات مهما تميزت و سيفا بين السيوف و ليس السيف الوحيد ...".

(صدام حسين خلال جلسة
مع القيادات الحزبية)

يحدث أحياناً عندما يكون الرئيس صدام مضطراً لملازمة مكتبه في القصر الجمهوري حتى وقت متأخر من الليل أن تأتي الى هذا المكتب طفلة في الخامسة من العمر فيترك الرئيس مكتبه ليستقبل هذا الزائر الاستثنائي بالأحضان . وعندما يحاول الرئيس إختصار المحادثة مع هذه الطفلة لكي يعود الى مكتبه واوراقه يفاجأ بأن الطفلة تطلب منه أن يقص عليها حكاية أو يرسم لها على الورق سيارة أو دراجة أو طائراً أو قطة . ويعد الرئيس الطفلة بأنه سيقص عليها أحلى القصص ويرسم لها أحلى الصور شرط أن تنتظره نصف ساعة لكي ينجز عملاً مهماً .

وتجلس الطفلة في أحد أركان الغرفة ويتابع هو قراءة أوراق في الملفات الكثيرة الموضوعة فوق مكتبه ، ثم يوقع على بعضها ، بينما الطفلة تسأله كل بضع ثوان إذا كان انتهى العمل لإنها تريد أن تسمع القصة .

ويحدث احياناً أن يغرق الرئيس في اوراقه فتغفو الطفلة فيطلب الرئيس نقلها الى كنبة وتغطيتها وبعد أن ينجز عمله يحملها بين يديه إلى غرفتها في المنزل القريب من المكتب . كذلك يحدث في بعض الأحيان أن ينجز الرئيس عمله فيضع الطفلة على كتفيه ويسير في إتجاه المنزل ويروي لها القصة وهي في سريرها .

وهذه الطفلة هي « حلا » صغرى كريمات الرئيس صدام . ولقد شاهدت ذات ليلة وصول « موكبها » إلى مكتب الرئيس وكنت في تلك الليلة أستكمل مناقشة مطولة مع الرئيس حول تجربته الغنية . وفي تلك الليلة كانت المناقشة تتطلب وقتاً طويلاً ، ومن أجل ذلك فإن الرئيس أشار بعودة طفلته الى المنزل لكي تنام . ثم جاءت سيدة خاطبت الطفلة بغير اللغة العربية وردت الطفلة باللغة نفسها . ثم عرفت ان السيدة ارمنية عراقية وهي مربية الطفلة . ومن أجل ذلك ففي بيت الرئيس من سيتكلم اللغة الأرمنية أو يردد بعض كلماتها .

ويحدث أحياناً أيضاً أن يرن هاتف الرئيس في مكتبه الرسمي وهو غارق في مشاغل الدولة وتطلب المتحدثة برقة ابنة الثالثة عشرة أن يعطيها والدها الرئيس في العصر ساعة لإنها تحتاج اليه . وعندما يستفسر الرئيس عن السبب ولا تفصح عنه ابنته الكبرى « رغد » سوى أنها تحتاج إليه يعدها بأنه سيخصص لها الساعة التي تطلبها ثم يمر على المنزل فيجدها في إنتظاره . ويتبين ان الصبية الصغيرة تريد أن يشتري لها والدها فستاناً جديداً . هو يرافقها وهو يشارك في اختياره . وتريد أن تسير امام المحلات إلى جانب والدها .

ويصطحب الوالد الرئيس ابنته وعندما تقف سيارته أمام أحد المحلات يلتف المواطنون حوله . وتحصل الابنة على الفستان لكنها لا تحظى بما حلمت به وهي أن تسير في الشارع الى جانب والدها وتنتقل من محل الى آخر لإختيار الفستان .

ويحدث احيانا ان « رنا » الطفلة الثانية للرئيس وهي في الثامنة من العمر تشعر بالضيق لان والدها اصطحب اختها واشترى لها فستانا ، فيطيّب الرئيس خاطرها ويطلب منها إحضار كيس من السيارة تجد الإبنة في داخله فستاناً جميلاً اشتراه لها عندما ذهب ليشتري الفستان لإختها .

أما « عدي » الإبن الأكبر للرئيس فلم تعد له هموم الصغار . فهو في السادسة عشرة وهو يقترب من طول ابيه ذي القوام الفارع وهو بدأ التدريب العسكري الذي يخضع له في معسكر الفتوة .

وأما « قصي » الإبن الثاني للرئيس فإنه أيضاً لم تعد له هموم الصغار . فهو يقترب من الخامسة عشرة وقد دخل عالمه الخاص به .

وفي فترة المناقشات التي أجريتها مع الرئيس صدام تمنيت عليه أن يأذن لي بأن أزور بيته زيارة كاتب يريد أن يكتب وأتحدث مع أولاده حديث من يريد تسجيل صورة حية عن أسرة رجل يفضل أن تبقى حياته الأسرية بعيدة عن الضوء الى درجة اللغز .

ولقد أمضيت ساعتين في بيت الرئيس ومع أولاده أسمع الإبن الأكبر يقول كيف انه كفؤ في الفيزياء والكيمياء ومن أجل ذلك فإنه يعد نفسه بعد أن يدخل الجامعة لكي يتخصص في مجال الذرة خصوصاً ان العراق يحتاج الى علماء في هذا المجال بعد أن يدخل النادي النووي .

وسمعته يقول أيضاً أنه وهو في هذه السن الفتية يخضع لتدريبات عسكرية قاسية نسبياً وأن هنالك مدربين يتولون هذه المهمة في معسكر فتوة لكل مدارس العراق .

وسمعته يقول « كل عراقي يجب أن يكون مدرباً وجاهزاً » وأنه بعثي منذ أن كان في الثانية عشرة من العمر وأنه عضو في المنظمة القيادية في المدرسة ، وأنه يواصل القراءة عن البعث وعندما تستوقفه بعض المسائل يستفسر من والده ويوضح الوالد تلك المسائل .

وسمعته يقول إن والدهم زرع فيهم وهم صغار عدم التمييز وإنهم عاديون وليسوا أولاد مسؤول كبير . وعودهم أيضاً أن يكونوا صادقين .

وسمعته يقول أنه وإخوته في المدارس لا يتمتعون بأي تمييز وأن والدهم يوقع على دفاتر المدرسة ويسألهم عن مشاكلهم، وأنه لا يتحمل تقصيراً من جانبهم.

ويخطط الإبن الثاني للرئيس منذ الآن لكي يكون ضابطاً في القوات المسلحة.

ويدرس الابنان شأنهما شأن كل طلبة مدرستهم (كلية بغداد) الانكليزية الى جانب اللغة العربية. وحديثاً أصبحت الفرنسية لغة ثالثة يتعلمونها.

أما ابنتا الرئيس اللتان تدرسان في مدرسة الكرخ المختلطة فإنهما تتمنيان التخصص في المجال الطبي عندما تدخلان الجامعة.

وعند السابعة من صباح كل يوم (باستثناء ايام الاجازات) تكون زوجة الرئيس التي لا تزال تعمل في حقل التعليم وأولادها الاربعة على اهبة الاستعداد للتوجه كل الى مدرسته وتبقى الابنة الصغرى مع مربيتها الأرمنية. وأما الرئيس فإنه يسبق الجميع إما الى المكتب القريب من المنزل وإما في جولة من جولاته على المناطق والمواطنين والأسواق التي يفضل ان يقوم بها في الصباح المبكر.

وفي العادة إن بعد ظهر الخميس ويوم الجمعة يشكلان فترة الإجازة بالنسبة الى اسرة الرئيس. وتقضي الاسرة ساعات معه في جولات على المزارع في الريف، وفي أيام الحر يسبح الرئيس مع ابنائه، أو يشركهم في رحلة صيد. والصيد إحدى هواياته وإن كان أمسى لا يمارسها مثل الماضي.

ولا يعلق الرئيس كثيراً على مسألة الاحتفال بعيد ميلاده ربما لإنه في طفولته ثم في الفترات الأخرى اللاحقة لم يحتفل له أحد بمثل هذه المناسبة. إن الاحتفال بعيد ميلاد الشخص ليس من تقاليد الفلاحين في العراق، وصدام حسين منهم. ولكن ذلك لا يعني أنه لا يشارك في إطفاء الشموع عندما يقرر الأبناء وبالذات البنت الكبرى الإحتفال بعيد ميلاد والدها.

وبعد قيام ثورة ١٩٦٨ ببضعة أشهر أوكل صدام حسين الى سعدون شاكر أمر انشاء نادٍ سمي « نادي الصيد » المعروف في بغداد بأنه النادي الذي تلتقي فيه معظم قيادات حزب البعث. وعندما أوصى بانشاء هذا النادي (لا يزال حتى الآن الرئيس الفخري له) فلكي تعيش القيادات البعثية حالة اجتماعية خصوصاً أن هؤلاء في فترة النضال السري التي سبقت تسلم الحزب السلطة عام ١٩٦٨ كانت لا تعرف طعم هذه الحياة وكانت تعيش في الأوكار متخفية عن أنظار السلطات. ولكي يحمل هذه القيادات على الظهور عائلياً وليس فردياً في النادي فإنه بدأ يأتي الى النادي ويمضي فيه بعض الوقت ومعه زوجته. وكان ذلك سبباً في أن قيادات ومسؤولي الحزب والدولة حذوا حذوه، وهو أمر على شيء من الأهمية لإن معظم القياديين هم من الريف حيث التقاليد الاجتماعية حادة بعض الشيء خصوصاً على صعيد ظهور الزوج والزوجة معاً في أماكن عامة.

وفي إستمرار كان يوصي بتطوير النادي بحيث لا يكون فقط مكاناً للأكل والشرب وإنما تمارس فيه الرياضات على أنواعها مع تشجيع خاص للفروسية.

ولكي لا يعطي إنطباعاً بأن « نادي الصيد » هو نادي النخبة وأنه ارستقراطي، فإنه بدأ يظهر في النوادي الأخرى في بغداد وهي كثيرة مثل « نادي المنصور » و « نادي العلوية » و « نادي الهندية ».

وبالإضافة إلى تشجيعه الحياة العائلية بين البعثيين وكسر حواجز التقاليد

المحافظة على صعيد ظهور الزوج والزوجة معاً في مكان عام بعدما كان هؤلاء ينفرون من الحياة الاجتماعية ويرون أنها متعارضة مع النضال ، فإن له الفضل في أن البعثيين بدأوا يحرصون على الأناقة في الملبس . وقد بدأ بنفسه ثم لحق به الآخرون ، ثم أصبح لا يتحمل منظر بعثي غير مهندم أو غير حالق ذقنه ومسرح شعره وواضع ربطة في عنقه . وهو في ذلك يعطي كل مرحلة نوعية العيش فيها .

وفي استمرار يستبد به الحنين الى اليشمك العراقي والى البدلة العربية التي يرتديها الفلاحون وهي القمباز وفوقه الجاكيت فضلاً عن الكوفية والعقال . كذلك يستبد به الحنين الى العباءة العراقية فيلف بها جسمه ويغطي بها البدلة الانيقة وربطة العنق التي تبدو دائماً أنيقة .

ويوحي شكل صدام حسين بأنه مثل الفتى الأول في أفلام السينما أو مثل أحد الفرسان الاشاوس في قبائل العرب .

وهو أيضاً لا يتحمل عدم الانضباط ولا يتساهل في أمر التلاعب بالمواعيد أو الاستخفاف بها .

وقد بدأ التدخين مبكراً . وعندما لاحظ أن أولاد عمه اقسموا أنهم لن يدخنوا بعد اليوم ثم يعاودون التدخين استاء من هذا الضعف أمام السيجارة فقرر أن يوقف التدخين . وكان ذلك عام ١٩٥٤ واستمر لا يدخن عشر سنين . ثم عاد الى التدخين إنما بقرار بينه وبين نفسه وهو ألا يكون أسير السيجارة .

وقبل ثورة ١٩٦٨ توقف عن التدخين لكنه بعد الثورة بدأ يدخن الغليون . وخلال زيارة قام بها الى الجزائر عام ١٩٧٦ قدم اليه الرئيس هواري بومدين سيجاراً كوبياً . ومنذ ذلك الوقت وهو يدخن السيجار .

وعلى رغم ان مكتبه داخل مبنى القصر الجمهوري ليس بعيداً عن منزله فإن هنالك غرفة ملحقة بالمكتب ينام فيها الرئيس صدام بين الحين والآخر . وهنالك عدد من القياديين وضعت لهم أسرة ملحقة بمكاتبهم .

ويبدو الرئيس صدام على شيء من الزهد في أمور الدنيا وهاجسه دائماً « ماذا سيقول الناس عني بعد مئة سنة » . وهذا الهاجس هو الذي يفقده اللذة في أمور الحاضر . ويأتي له مساعدوه ببعض الافلام مسجلة بطريقة « الفيديو » لكنه نادراً ما يشاهد هذه الأفلام .

وهو صاحب وجه إذا ابتسم يشيع امام جلسائه شعورا بالإرتياح . أما اذا حل العبوس محل الابتسامة فإن تقاسيم الوجه تعكس قساوة بالغة الحدة .

وعلى غير عادة معظم العراقيين فإن الرئيس صدام لا يشرب الشاي كثيراً لإن شرب الشاي كان ممنوعاً داخل السجن ولا يريد أن يضع عنفوانه بين أيدي سجانيه من أجل كأس من الشاي ، مثلما فعل بالنسبة الى السيجارة حيث كان لا يتحمل منظر المسجون الذي يتلقف السيجارة من تحت الباب متحملاً أي اساءة توجه الى كرامته . ولكنه شغوف بفنجان القهوة العربية المرة وبالحليب البارد .

وبعدما تسلم المسؤولية الكاملة بنوا له دارة داخل القصر الجمهوري لكي يسكنها لكنهم بالغوا على ما يبدو بعض الشيء ومن أجل ذلك رفض الانتقال إليها وبقي في دارة صغيرة شعرت بعدما أمضيت فيها ساعتين أن هنالك ضرورة قصوى لاستبدالها .

وتبقى الساعات التي يقضيها داخل بيت الشعر في الريف هي ساعات متعة

حقيقية بالنسبة اليه .

وتحاول زوجة الرئيس إضفاء بعض التغيير على طبيعة عمل زوجها كأن تشركه في الإهتمام ببعض المزروعات في الحديقة وفي قطف بعض الثمار والورد وتشذيب أغصان الشجر .

وهو عندما يزور الأسر الفلاحية يحرص على أن تكون زوجته وولداه وبناته معه لإظهار الزيارة على أنها من أسرة الى أسرة .

وفي إحدى زياراته لإحد المراكز السياحية حدث مرة الآتي : كانت الابنة الصغرى تنام بين ساعدي والدتها وانقطع زر احد اكمام فستان ابنته الكبرى . ولكي لا توقظ الأم طفلتها فإنه أمسك بالإبرة والخيط على مرأى من مساعديه ورجال الأمن الخاص به وثبت الزر في الكم .

وهو شديد التعلق بالأسرة . ومع أنه ليس ضد تحديد النسل فإنه يرى ضرورة تنظيم العائلة بالشكل الذي يجعل الأب والأم قادرين على تربية الطفل بالشكل الجيد . وهو للمناسبة مع أن يزداد عدد سكان العراق . وفي أحد الاجتماعات مع عدد محدود من القيادات الحزبية أشار الى أن زيادة عدد سكان العراق وهي بنسبة ٣,٢ في المائة تبدو زيادة منطقية . وأوضح وجهة نظره على النحو الآتي : « إننا كسياسيين قوميين نرى أن الزيادة في عدد السكان العراقيين يجب أن تتوازن ليس فقط مع اعتبارات القطر وإنما مع نسبة الزيادة المحسوبة المتصورة في الوطن العربي كذلك ، ومع التطورات السياسية والاقتصادية المتصورة والمحتملة في علاقة الأقطار العربية مع بعضها على المديين المنظور والبعيد . فالقطر العراقي ذو امكانيات اقتصادية كبيرة ، وهو يقع في الطرف الشرقي من الوطن العربي وتحده دولتان اجنبيتان (يقصد تركيا وايران) أكثر منه سكاناً مما يقتضي أن يكون الثقل السكاني فيه كافياً للدفاع الذاتي عن النفس وعن مصالح الأمة العربية من وفي هذا المكان* » .

وعندما أوضح صدام حسين مسألة العدد السكاني لم يكن وصل عدد العرب الذين يعيشون في العراق الى مليون بينهم أكثر من نصف مليون مصري لهم مقاهيهم وشوارعهم وتشكل حالة الاطمئنان التي يعيشونها جاذباً للعشرات الذين يفدون الى بغداد من القاهرة بين الحين والآخر . وعلى رغم الاختناقات التموينية التي تحدث أحياناً فإن هنالك قراراً سياسياً بأن يعامل هؤلاء في منأى عن المشاعر الناشئة عن ان نظام الرئيس السادات عقد صلحاً مع اسرائيل . أما الأسر الفلاحية المصرية فإنها بدأت تمنح نهر دجلة نوعاً من الولاء وهي التي لا تمنح ولاءها لغير نهر النيل .

وفي ضوء نجاح تجربة زرع الأسر الفلاحية المصرية في أرض العراق بدأت محاولة زرع أخرى مع أسر فلاحية من المغرب .

---

* يبلغ عدد سكان العراق ١٣ مليوناً ونصف المليون نسمة بينهم ثلاثة ملايين في بغداد وحدها وهي نسبة غير موجودة تقريباً في العالم . وتبلغ مساحة العراق ٤٣٨,٤٦٦ كيلو متر مربع . أما ايران فعدد سكانها حوالى ٣٤ مليون نسمة ومساحتها ١.٦٤٥,٠٠٠ كيلو متر مربع-ويبلغ عدد سكان تركيا ٤٢ مليون نسمة ومساحتها ٧٨٠,٥٧٦ كيلو متر مربع .

وعلى رغم إنهماك الرئيس صدام في قضايا الحزب والدولة فإنه يستفسر بين الحين والآخر عن هذه التجربة وما زال على تفاؤله بأنها ستنجح .

هنا تجدر الاشارة الى واقعة حدثت في منتصف ليلة من نيسان ١٩٨٠ ، فبعدما غادر الرئيس صدام مكتبه قاد سيارته في اتجاه الشارع الرئيسي للقصر الجمهوري . ثم توقف أمام عمال يجرون تصليحات في الشارع وسألهم عن أحوالهم ثم انتقل الى منزله . وهؤلاء العمال مصريون وقد زارهم الرئيس صدام بعدما لاحظ أنهم يعملون ليلاً منذ فترة ، وأوصى مساعديه بتقديم هدايا تشجيعية لهم .

وقبل تموز ١٩٧٨ لم يكن العراقيون يعرفون شيئاً عن صدام حسين كرب اسرة وكيف يتعامل مع أولاده ومتى وكيف تزوج وأشياء أخرى تندرج تحت بند المسائل الشخصية التي كان صدام حسين يفضل عدم تحويلها الى مسائل عامة . وكان الذين يعرفون صدام حسين كرب أسرة هم بعض رفاقه في الحزب وفي الدولة . وفي تموز ١٩٧٨ صدرت مجلة « المرأة » التي تصدر عن « الاتحاد العام لنساء العراق » بغلاف عليه صورة ملونة لصدام حسين واشارة الى ان المجلة تقدم موضوعاً معه من داخل منزله . وقد حوت الصفحات التي خصصت للموضوع مجموعة من الصور العائلية التي تمثل صدام حسين مع زوجته واولاده . كذلك حوت بعض الآراء لصدام حسين في الحياة العائلية ومنها « إن كل شيء يجب أن يقوم على التفاهم بين افراد الاسرة وفهمهم جميعاً للواجب » و « الشيء المهم في العلاقات الزوجية هو أن يتجنب الرجل إشعار المرأة بأنها مغلوبة على أمرها لإنها امرأة وهو رجل فإذا شعرت بذلك انتهت حياتهما كأسرة » و « أنا كأب لا أفرق بين ابنائي ، بل إنني في مرحلة طفولتهم أحببت البنات ابتداء من رغد وليس لدي أي تصور عن تربيتهن يختلف عما قلته بالنسبة لهم جميعاً ، وإذا ما وجد تصور لدى بعض العوائل بأن البنت عالة فنحن لا ننظر لها على هذا الأساس وإننا لا نفرق في النظرة الأبوية بين البنت والإبن » و « داخل العائلة يجب أن تكون العلاقة مبنية على الإحترام . فالكبير يحترم الصغير . والتنازل عن بعض الخصوصيات ليس تنازلاً إنما هو ضروري في سبيل الإنسجام العام » .

وفي هذه الآراء بدا صدام حسين كمن يعكس أهم الظواهر الاجتماعية العراقية ، وبدا كمن يريد القول لكل أسرة عراقية : هكذا أنا أتصرف مع أسرتي وأولادي وأتمنى أن تتصرفوا مثلي .

ومن خلال الموضوع الذي نشرته المجلة عرف العراقيون كيف تزوج صدام حسين . وهو روى الأمر على النحو الآتي : « قصتنا كقصص الكثيرين من الذين يمرون بحياة مثل حياتنا . في العادة يتجه تفكير البنت أو الولد الى أقرب الناس اليهم . بدأ تفكيري عندما كنت في الرابعة أو الخامسة من العمر حين كانت أمي تقول لي : عندك ابنة خال أعطاك إياها جدك ، ولم أكن قد رأيتها آنذاك . إرتكزنا على ذلك الوعد ، وظل ينمو في تفكيري ، وحين هربت من العراق في أعقاب محاولة اغتيال عبد الكريم قاسم وصدور الحكم بالإعدام عليّ أبديت رغبتي في خطبتها . وبمجرد أن عرف الأهل برغبتي أرسلوا إلي خبراً بالموافقة وأعلنت الخطبة وأنا في القاهرة وهي في بغداد ، ولم يتم الزواج حتى قيام ثورة ١٤ رمضان وعودتي الى بغداد .... » .

وبعدما تسلم صدام حسين المسؤولية الكاملة يوم ١٧ تموز ١٩٧٩ أصبح جائزاً

الإفتراض أن الموضوع الذي نشرته مجلة « المرأة » في تموز ١٩٧٨ مع « السيد النائب » كان تقديماً في الاطار العائلي والإجتماعي له قبل أن يصبح « « السيد الرئيس » أو « الرئيس القائد » ، ذلك أنه من حق العراقيين أن يعرفوا الجانب الشخصي من الرجل الذي سيقودهم .

وصدام حسين من مواليد ٢٨ نيسان ١٩٣٧ . وإسم صدام ليس مألوفاً كثيراً بمعنى أنه ليس من الاسماء الشائعة في العراق ، لكن الإسم أصبح شائعاً بعد ذلك . وإذا جاز التحديد فإن كلمة صدام تعني المقاتل المتصدي . وفي هذا الاطار تجدر الاشارة الى أن صدام حسين من نوع الرجال الشغوفين بتحديات الخصوم ، ولكن التحديات عنده تأتي في سياق حسابات مدروسة .

وهو في قرارة نفسه إنسان متدين . ويحدث بين الحين والآخر أن تصدر عنه اهتمامات تدينية أشعرني وأنا أسأله حولها كم إنها تعني بالنسبة اليه الكثير . من هذه الاهتمامات على سبيل المثال لا الحصر طبع المصحف الشريف طبعة فاخرة وتوزيعه على المسلمين غير العرب في العالم وبناء عدد من المساجد في بعض دول افريقيا واسيا وأميركا الجنوبية واوروبا .

وعندما سألته في سياق مناقشات معه عما إذا كانت هذه الاهتمامات من جانبه هي بداية توجه ديني أو انها نتيجة شعور بالحاجة النفسية الى الدين أجاب : « تقول هل هي بداية توجه ديني ؟ لا ... وإنما تأكيد للتوجه البعثي . نحن لم نشعر أن هنالك إفتراقاً بين روح الدين وروح البعث . وبإستمرار فإن حزبنا - والفضل يعود إلى الذين سبقونا في وضع منهج البعث - يرى أن البعث هو حالة إستلهام روح الأمة بصيغ جديدة تتجدد مع الحياة ملبية طموح الأمة على هذا الطريق . أليس القرآن الكريم هو واحد من أقدس مقدسات الأمة وحمله أبطال الأمة الى أبعد نقطة في الأرض وأريقت دماء طاهرة كانت تعبر بكل معاني الإخلاص والتضحية عن كل حرف ورد في القرآن . إنه لأمر طبيعي أن نهتم بالقرآن لإنه يمثل كل ذلك وينبع من إهتمامنا بدين الأمة ودين الإنسانية بل هو دين الإنسانية بزعامة الأمة » .

وفي ضوء الجولات والزيارات تبين للرئيس صدام أن هنالك ظلامات اجتماعية فكان « قانون الرعاية الاجتماعية » لتأمين الضمانات الاجتماعية في حالتي العجز والشيخوخة الذي أصدره مجلس قيادة الثورة قبل أيام من حلول الذكرى الأولى لتسلم صدام حسين المسؤولية الكاملة في الحزب والدولة . وينص القانون على انشاء « دور الدولة » لرعاية الاطفال والصغار والاحداث الذين يعانون من حالات التفكك الأسري والإنفاق عليهم وتعليمهم .

وعلى رغم أن التجاوز غير مألوف فإنه كثيراً ما استقبل على هامش التسلسل حزبيين من غير المستويات المتقدمة وفهم منهم أشياء كثيرة .

وهو ينظر الى البعثي قبل ثورة ١٩٦٨ على أنه عملة صعبة - إذا جاز الوصف - ويبدي حرصاً عليه ويرى أنه بهذه النوعية من البعثيين أمكن الحزب أن يقوم بثورتين هما ثورة شباط ١٩٦٣ وثورة تموز ١٩٦٨ .

وكثيراً ما كان يفاجىء بعض رفاق نضاله أيام المرحلة القاسية بزيارات الى منازلهم تتم من دون ترتيبات . وفي هذه الزيارات يسأل عن همومهم ومشاكلهم ويساعد على حلها .

وفي مناقشاته مع رفاقه لا يبدو متعصباً ويميل الى سماع كل الآراء قبل أن يقول رأيه الذي يرفقه دائماً بالتحليل والشواهد .

وفي علاقاته مع الآخرين لا يسقط الجانب الصميمي . ويبدي المزيد من مشاعر التقدير للذين من قبله .

والى ذلك إنه قبل ان تبدأ الصحف تنشر قصائد عنه ويبث التلفزيون القصائد حية كان يطلب إرسال القصائد اليه للاطلاع عليها أولاً ثم لا يفرج عنها . ثم بدأ يسمح بنشر القصائد وإذاعتها .

ولديه قدرة مذهلة على مواجهة احتمال حدوث أي تصدع في الحزب وهو يتحرك قبل أن تتسع دائرة علامات الاستفهام التي تنشأ عن وقوع أمر مفاجىء ضد الحزب . فهو على سبيل المثال عند حدوث مؤامرة ١٩٧٣ التي قام بها ناظم كزار طلب إصدار برقية الى كل مخافر الحدود والى كل قطعات الجيش وقوات الشرطة وقوات الأمن ومنظمات الحزب بالقاء القبض على ناظم كزار . وحدث أن بعض الفلاحين هم الذين القوا القبض عليه وسلموه الى قوات الأمن التي وصلت الى المنطقة التي اعتقل فيها بطائرات الهليكوبتر . وحوكم اقطاب المؤامرة أمام محكمة برئاسة عزت ابراهيم (نائب رئيس مجلس قيادة الثورة الآن) . وبعد تنفيذ حكم الاعدام بهم وقبل أن تتكاثر علامات الإستفهام عقد صدام حسين سلسلة من الندوات والإجتماعات واستقبل البعثيين الذين أتوا من خارج العراق قلقين ، وأزال المخاوف التي نشأت في نفوس كثيرين من إحتمال أن تنعكس آثار المؤامرة على وحدة الحزب .

وصدام حسين من النوع الذي لا يتحمل أن يدفع غيره ثمن أمر أقدم عليه حتى وإن كانت الظروف صعبة . وفي هذا الصدد روى لي سعدون شاكر واقعة جرت في فترة السجن . فبعدما تقرر أن يهرب من السجن تعاون مع رفاقه المعتقلين على قص شباك القاعة الكبرى المسجونين فيها وابقاء قضبان الحديد شبه معلقة كي لا يتنبه السجانون الى ذلك . وقد تم قص الحديد بواسطة منشار حملته زوجة صدام حسين خلال زياراتها له . وبعد أكثر من شهر على انتهاء عملية قص قضبان الشباك أبلغ صدام حسين رفاقه عدم موافقة الحزب على الهروب الجماعي . ثم حدث نوع من الانفراج السياسي مع مجيء حكومة عبد الرحمن البزاز وتم الافراج بكفالة عن بعض المعتقلين البعثيين . وعندما قلّ عددهم وأصبح حوالي خمسة عشر شخصاً وكثر في المقابل عدد المعتقلين الشيوعيين نقل البعثيون من القاعة الكبرى الى غرفة ووضع الشيوعيون في القاعة التي تتسع لثمانين شخصاً .

وكان صدام حسين بين الذين بقوا في السجن . ثم حدث أن أحد الشيوعيين - كعادة السجناء في الوقوف دائماً على الشباك - رمى بكل ثقل يديه على قضبان حديد الشباك التي سبق أن قصها البعثيون فوقعت القضبان خارج القاعة . ولاحظت ادارة السجن ذلك وافترضت أن الشيوعيين قصوا القضبان من أجل الهروب وبدأت عمليات تعذيب لهم . وعندما بلغ صدام حسين وهو في غرفة أخرى ذلك طلب مقابلة آمر السجن وقال له إن الشيوعيين غير مسؤولين عن قص قضبان حديد الشباك وأنه هو الذي فعل ذلك على أساس أنه كانت هنالك خطة للهرب لكنها تأجلت بقرار من قيادة الحزب . وإزاء ذلك أوقف آمر السجن تعذيب الشيوعيين . أما صدام حسين فإنه عاد الى غرفته بعدما رأى آمر السجن أنه ما

الذي يستطيع أن يفعله مع شخص تشكل التهم الموجهة اليه عقوبة الاعدام .
ومن الذكريات التي رواها لي سعدون شاكر عن صدام حسين أنه كان شديد الحرص على رفع معنويات البعثيين المعتقلين بحيث لا يتصرفوا مع إدارة السجن تصرف السجين العادي وإنما السجين السياسي صاحب القضية وبذلك تهابهم هذه الإدارة. ومن هذا المنطلق جاء رده مرة خلال التحقيق معه على سؤال عن وظيفته : « وظيفتي مناضل في حزب البعث العربي الاشتراكي » . وبعد ذلك أصبح الجميع عندما يوجه اليهم سؤال يرددون العبارة نفسها .
وحتى الآن ما زال الرئيس صدام عندما تكون هنالك مأدبة ما آخر من يأكل . ويفسر ذلك سعدون شاكر بأن هذه العادة قد يكون الرئيس صدام اكتسبها خلال فترة السجن حيث أنه كان لا يأكل إلا بعد أن يأكل كل رفاقه المعتقلين معه .
ويشير سعدون شاكر أيضاً الى أن صدام حسين كان قبل الإعتقال أعد دراسة تعلم البعثيين كيفية مواجهة التحقيق معهم وأن المعتقلين - وهو كان منهم - استفادوا من مضمون هذه الدراسة حيث ان عزيمتهم استمرت قوية . ويقول إن هذه الدراسة التي هي بخط الرئيس صدام ما زالت موجودة حتى الآن .
ويتذكر سعدون شاكر كيف أن قدرة صدام حسين على بناء علاقة شخصية جيدة جعلت بعض السجانين يؤدون التحية له في السجن ويبدون الاستعداد لتهريبه اذا كان يريد .
ومن الذكريات التي رواها لي سعدون شاكر عن فترة ما بعد هرب صدام حسين من السجن أنه أدار مهمات حزبية بالغة الخطورة من غرفة ليس فيها سوى حصيرة وفراش ، وأنه كان يجلس فوق الحصيرة ويكتب لعدم وجود مكتب في الغرفة ، ثم تنسخ الكتابات وتوزع على الحزبيين . وعندما طال سعر رأسه كثيراً وكان من غير المناسب أمنياً التوجه إلى حلاق انتقل إلى منزل أهل سعدون شاكر حيث لف له سعدون إحدى ساقيه بالخشب وربطها قبل ان يتوجه الى أحد الحلاقين ويطلب منه المجيء معه نقص شعر أحد اقربائه لإن ساقه مكسورة ولا يستطيع المشي .
ويتذكر سعدون شاكر كيف أنه في العام ١٩٦٧ أنتشر وباء الكوليرا في بغداد وظهرت أعراض على صدام حسين ظنها بعض رفاقه انها اعراض الكوليرا ، ولذا تمت الاستعانة بوالدة زوجة أحد البعثيين التي حقنت صدام حسين ابرة على سبيل التحسب .
وحتى العام ١٩٧١ كانت قصة هرب صدام حسين من السجن موضع تفسيرات وتخمينات كثيرة في صفوف البعثيين . ولولا أن صدام حسين أصيب ب « الديسك » واضطره ذلك للنوم على الخشب بضعة أيام لما كان ربما روى بعض الظروف التي أحاطت بهربه وبعض الوقائع التي رافقت الهرب . وفي الفصل الأول من هذا الكتاب اشرنا الى الكثير من الظروف والوقائع . وما رواه سعدون شاكر يشكل اضافات مهمة لإن العلاقة التي كانت بينهما في فترة الإستعداد لتسلم الحزب السلطة ثم بعد التسلم تبدو من النوع الاستثنائي . وعندما اعترض بعض البعثيين عام ١٩٧١ لإنه تم تعيين سعدون شاكر مباشرة عضواً في قيادة فرع بغداد تعمد صدام حسين كشف دور تاريخي قام به الرجل ، وقال : الرفيق سعدون هو الذي هربني من السجن .
ومثل هذا الدور لا يحتمل المناقشة . فلولا أن صدام حسين هرب من السجن لما كان الحزب نظم نفسه وقوي الى درجة القدرة على تسلم السلطة .

وهو يضيق ذرعاً بمناقشة الأمور المسلم بها . وقد حدث على سبيل المثال في بداية الثورة وعند مناقشة المواد التي يتألف منها الدستور المؤقت ، أن اقترح بعض القياديين أن ينص على أن يكون الاسم الرسمي للعراق « الجمهورية العربية العراقية » واقترح آخرون أن تضاف الى هذه التسمية صفة « الديمقراطية » و « الشعبية » وحسم الأمر عندما قال ما معناه هل هناك شك في عروبة العراق وهل هناك نزاع حول العروبة وهل ان البعث بعد كل هذا النضال يحتاج الى هذه الشكليات وبقي الاسم « الجمهورية العراقية » .

ويشعر الرئيس صدام بضعف ازاء فقراء العرب . وهو على سبيل المثال يعتز بشموخ السوداني وكبرياء الموريتاني . وفي قمة الرباط عام ١٩٧٤ كان الرئيس الموريتاني السابق مختار ولد داده موضع تقدير من جانبه لإنه خلال اجتماع للملوك والرؤساء من أجل تحديد المساعدات لبعض الدول العربية قال الرئيس ولد داده ما معناه إن بلاده قاست على مدى سنوات كثيراً بسبب الجفاف وكان يحتاج الى مساعدات عربية لمواجهة آثار الجفاف لكنه لم يعد محتاجاً « لأن الأمطار نزلت والحمدلله » . وقد هز هذا الكلام مشاعر صدام حسين فقاد حملة لجمع مساعدات لموريتانيا شبه المعدمة وصلت الى حوالي خمسة عشر مليون دولار . وكان السبب في ذلك كبرياء ولد داده .

وعندما قام الرئيس الموريتاني الجديد المقدم محمد خونه ولد هيداله بزيارة رسمية للعراق يوم الثامن عشر من ايار ١٩٨٠ لقي من الرئيس استقبالا متميزاً . وشكل ضعف الرئيس صدام ازاء فقراء العرب سببا في ان زيارة الرئيس ولد هيداله حققت نجاحاً كبيراً . وقبل ان يغادر بغداد حرص الرئيس الموريتاني على ان يرد على مشاعر الاستقبال المتميز فأعلن أنه « تجسيداً من الجمهورية الاسلامية الموريتانية لمبادىء الاعلان القومي الذي طرحه الرئيس صدام حسين يوم الثامن من شباط ١٩٨٠ وتأكيداً لاستقلالها اتخذت الاجراءات الكفيلة بطرد آخر العناصر الاجنبية العسكرية المتواجدة على ترابها الوطني » . وعندما تكون موريتانيا فقيرة ومن شأن التواجد الأجنبي ان يحل لها بعض المتاعب الاقتصادية ، ولكنها مع ذلك تتخذ الموقف الذي اتخذه الرئيس الموريتاني ، فهذا يعني بالنسبة الى الرئيس صدام الكثير .

ولا يتحمل الرئيس صدام الخطأ حتى من المحيطين به والقريبين . وفي هذا الأمر له قول معروف « إن أقرب الناس إليّ أبعدهم عني في ارتكاب الخطأ » . كذلك إنه كان ومازال يصل قبل الموظفين الى مكتبه ويكون آخر المغادرين ، وهو لا ينادي مساعديه بالأسم وانما يرفق اللقب الحزبي « مع الأسم « الرفيق فلان » أو « الصفة التعليمية « دكتور فلان » أو « استاذ فلان » » .

وكثيراً ما يتعمد تذكير المسؤولين بمسألة تبدو في نظره أساسية ويعبر عنها بالقول « نريد أن يشعر المواطن أنه يعيش في بلد فيه عدالة وليس فيه وساطة » .

والتشديد عنده محسوب ومدروس ، وله في هذا الصدد عبارة ترددها القيادات الشعبية وهي « ... ولا تحاول أن تلف الحزام على الشعب من الرأس الى القدمين فتتركه بلا حركة وتطلب اليه ألا يتألم ولا يتمرد » .

وهو ضد الوقوع تحت وطأة المذهبية الجامدة ، وضد التمييز بين عراقي وآخر على اساس طبقي ، وقبل ان يتسلم المسؤولية الكاملة بفترة طويلة فاجأ لجنة من

المهندسين أوكل اليها وضع مشروع سكني بالقول ما معناه بعدما أطلع على المشروع : انتم تدخلتم بالسياسة واعتمدتم قاعدة التمييز عندما وضعتم نوعين من الشقق على اساس الوضع الاجتماعي للمواطن وليس على أساس حجم العائلة . وتم تنفيذ المشروع في ضوء المفهوم الذي حدده .

وقد لا يكون الرئيس صدام شعر بحالة حزن كتلك الحالة التي نشأت عن اضطراره لأن يوضح في الخطاب الذي اذاع فيه الاعلان القومي يوم الثامن من شباط ١٩٨٠ أن كونه من مواليد تكريت لا يعني « أن التكارتة يحكمون العراق » ، فالمسألة في نظره ليست مسألة حكم وانما مسألة دور ، كذلك الدور الذي مارسه ابو جعفر المنصور - مع فارق الزمن وفارق مقومات العصر - صاحب القول المأثور « استدم النعمة بالشكر والقدرة بالعفو والطاعة بالتآلف والنصر بالتواضع . ولا تنس مع نصيبك من الدنيا نصيبك من رحمة الله » .

... وأبو جعفر هو الذي شيد دولة العباسيين وعاش من بعده خمس وثلاثون خليفة يحتمون بالنظام الذي أوجده .

بينما أبو عدي هو الذي يشيد الآن دولة البعثيين وقد قطع اشواطاً بعيدة في هذا الشأن .

ان التاريخ يعيد نفسه ... ليست مقولة أتت في فراغ .

الفصل الثامن

حوار حول التجربة

هذا الحوار مع الرئيس صدام حسين جرى على مراحل استغرقت سبع عشر ساعة. و قد تمت المرحلة الاولى بعد اسابيع من تسلمه المسؤولية الكاملة في الحزب و الدولة. ثم تتابعت جلسات الحوار.

فؤاد مطر : كيف أصبحت بعثياً بينما ظروفك الإجتماعية القاسية في طفولتك ثم في شبابك من النوع الذي تستهويه العقيدة الماركسية · وهل لو أنك قرأت الماركسية قبل أن تقرأ أفكار البعث ومبادئه لكان خيارك للعمل التنظيمي هو الخيار الماركسي ·

الرئيس صدام حسين : في القياسات التقليدية إنّ الماركسية تستهوي المسحوقين ، ولكن في قياسات الأمة العربية تختلف المسألة ، وأمس كان لي لقاء مع رئيس تنزانيا جوليوس نيريري وكنا نتناقش حول مشاكل العالم ومنها المشاكل الاقتصادية ، وعرضت وجهة نظرنا التي سبق أن عرضناها في قمة هافانا لدول عدم الانحياز وقلنا له إننا قد لا نستطيع أن نحل لا مشكلة تنزانيا ولا مشاكل دول العالم الثالث ، لكننا نريد أن نكون نموذجا يساهم في هز الضمير العالمي بما يحركه لتصحيح المواقف والتفكير المنحرف في علاقات الشعوب بين المستغلين والمستغلَين ، فعلق الرئيس التنزاني بقوله إنه لأمر فريد أن يظهر هذا الرأي من أناس ليسوا فقراء ، ومن دولة لا تريد أن تستفيد من الموضوع وإنما تعطي فقط · فقلت له : قد يبدو هذا مستغرباً لكننا عندما نعود الى تاريخنا العربي ، سواء تاريخ الأنبياء والمرسلين أو تاريخ الزعماء والقادة العرب ، سنرى أن كل الدعوات الاشتراكية على الأغلب يتزعمها أناس هم بالقياسات التقليدية ليسوا من طبقات مسحوقة ، إذن فان المنهج الاشتراكي في التاريخ العربي لم يظهر دائما من بين الناس الفقراء ، وإنما غالباً ما يكون قادة هذا المنهج من أناس ليسوا من الشرائح المسحوقة على رغم أنهم قادة الفقراء · وهذه العبارة تعبر عن حقيقة ضمير الأمة العربية ، لأن حقيقة ضميرها كما هو تاريخها · فالأمة العربية لم تمر بالطبقية التي مرت بها بعض الأمم · صحيح أنه كان هنالك تفاوت إجتماعي ، ولكن المسألة الطبقية في الأكثر كانت بين العرب وبين غير العرب أكثر مما هي موجودة عند العرب في عهد الجاهلية ·

كان لي صديق شيوعي في مرحلة الدراسة المتوسطة توفي إلى رحمة الله ، وكان يقرأ علينا البيانات وكنا نهزأ منه ، ولا نشعر بأية صلة تشدنا إلى ما يقرأ . والعنصر الاساسي في هذا البعد هو كوننا كنا نعرف أن أساس هذه النظرية إنما وجد في الخارج . افكارها وضعت من قبل أجنبي وليس من قبل عربي . ثم إن مشاكل الأمة ليست بمشاكل اجتماعية فحسب وإنما هي مشاكل التجزئة والنضال ضد الكيان الصهيوني إضافة الى المشاكل الاجتماعية والتفاوت الطبقي .

والى ذلك ، إنه كان في ريف العراق ، في الشمال والجنوب بعض الفلاحين وابناؤهم الذين يشعرون بالمهانة في علاقتهم بالنظام الاقطاعي في العراق آنذاك . أما مناطق الوسط في الريف العراقي وأنا منها فلم توجد فيها مثل هذه الحالة ، أي أن الطبقية الاقطاعية في الشمال والجنوب كانت لها سطوة إجتماعية ، إضافة الى سلاحها الاقتصادي ، لكن في الوسط لم تكن لها سطوة ، لذلك فنحن في منطقتنا لم نشعر بالمهانة الإجتماعية على رغم أني إبن فلاح . لقد كان أكبر إقطاعي بيننا هو إبن خالة السيد الرئيس أحمد حسن البكر ، وهو من أعمامنا . وكان إذا غضب منه أقاربه يضربونه مثلما هو يضربهم إذا غضب منهم ويعتدون عليه أكثر مما يعتدي عليهم أمامنا . أي انه لم يكن ذلك الإقطاعي الذي يجعل الانسان يشعر بالانسحاق أو المذلة .

إن سلطة الاقطاع التي غزت مناطق كثيرة لم تصل الى منطقتنا ومن أجل ذلك فإننا لم نعش حياة الإنسحاق والمذلة ، وبقيت رؤوسنا مرفوعة ، وكرامتنا محفوظة بصورة عامة .

وإلى ذلك إن خالي كان قومياً ، وكان ضابطا في الجيش العراقي ، وسجن لمدة خمس سنوات بعد ثورة رشيد عالي الكيلاني . وكنت عندما أسأل والدتي عنه تجيبني باستمرار بأنه في السجن . ثم إن خالي كان يتحدث في البيت بروح قومية ، لذلك لم يكن تفكيري يعزل المنهج الإجتماعي عن النظرة والتفكير القوميين.وهكذا كانت مشاكل الأمة تعيش في ضميري ، ولذلك كان الحزب يعيش في داخلي عندما إنتسبت اليه .

فؤاد مطر : أنت كثوري ، ضد الماركسية ، فلماذا ؟ وهل لديك شكوك في المسألة الوطنية عند الماركسيين العرب ؟

الرئيس صدام حسين : أعتقد ان كل الحضارات الانسانية التي ظهرت منذ بدء التاريخ لم يكن ظهورها منعزلا عن تأثيرات الحضارات الاخرى التي عاشت في مرحلتها أو التي سبقتها ، وإن كل النظريات الثورية التي ظهرت في العالم لم يكن ظهورها منعزلا كذلك عن التأثيرات الانسانية لتجارب العالم ، لإنها لا بد أن تتأثر من هنا أو هناك بغيرها من التيارات . ولكي تكون النظرية الثورية ، أي نظرية ثورية ، إنسانية ، ينبغي أن تكون شبابيكها وأبوابها مفتوحة كي تستقبل الهواء الطلق وتتفاعل معه . وأكثر مفكر من بين مفكري العالم قرأت له هو لينين وكنت اشعر بالارتياح لما اقرأه له ، لانه كان يعالج أمور الحياة بروحية حية . ثم قرأت

لماوتسي تونغ . إنني لست ضد الماركسية . وأنا من الذين يقولون بضرورة التفاعل مع الفكر الانساني ولكن بروحية وبشخصية وبعقلية تفترض الأخذ والعطاء ، وليس الاخذ من موقع استصغار امكانات الامة في العطاء . فأنا أرى أن الأمة قادرة على أن تعطي للماركسية ، وأن تجعلها تصحو على نفسها وتدرك أنها في كل المسائل لم تعد قادرة على استيعاب حركة الحياة الجديدة . بالاضافة الى هذه الثقة بالأمة وهذا الاستقراء لامكاناتها فانني دائما ضد النقل وضد الحركة الآلية مثلما أنا ضد الانعزال والتقوقع .

لا يستهويني الطريق المطروق لا في التعبير ولا في النهج ، لذلك أنا احترم الماركسيين المتأثرين بالفكر الماركسي ، لكنني لا احترم الشيوعيين الذين يجعلون الصلة بينهم وبين النظرية الماركسية جسرا للعلاقة التبعية مع أي دولة في العالم . هؤلاء لا أحترمهم ولا أستطيع أن أحترمهم . ففي تفكيري وفي منهجي أفرق بين الاتحاد السوفياتي وأميركا ولا اضعهما على قدم المساواة في النظرة لاسباب أوضحها الحزب في أكثر من مناسبة بالكامل ، ولكن في التبعية لا أفرق بين من يتبع أميركا وبين من يتبع الاتحاد السوفياتي . وهذه مسألة لا نجامل فيها ولا نخفيها ، بل هي نظرية حزبنا . أنا اعتقد أن الناس الذين يجعلون من الصلة الماركسية منهجا يعطي التبعية السياسية أو التنظيمية لأي دولة في العالم خارج الوطن العربي ، إنما هم أناس مخطئون ، ولهذا أفرق بين الشيوعيين العرب وبين الشيوعيين الأفارقة والآسيويين على سبيل المثال . في أفريقيا لا أوجه أي لوم أو أي نقد لمن يتبنى الماركسية ، وقد أدخل معه في نقاش حول كيفية التبني الصحيح . وعندما لا تتوافر للافارقة والآسيويين تقاليد الأمة العربية وتاريخها وتراثها الفكري لماذا لا يتبنون الماركسية ؟

إن الماركسية وسيلة ثورية وطريق لتغيير الحياة . وما هو الشيء الذي يخسره الافريقي في روديسيا عندما يتبنى الماركسية ؟ ليس لديه العمق التاريخي الموجود للأمة العربية ، أو التراث الفكري الذي تمتلكه هذه الأمة والذي تقدم من خلاله ولادات صحيحة لنظريات قائمة بذاتها للحياة في التغيير والصيرورة . إن الأمة العربية مهبط كل الأنبياء والرسل ، إضافة الى أن حضارتها هي أقدم الحضارات . ولا خلاف في أن أقدم حضارة في العالم هي حضارة وادي الرافدين التي ليست حضارة العراقيين المعزولة عن تاريخ الأمة ، وإنما هي حضارة قامت بجهد العراقيين مستندة ومتفاعلة مع جهد وتراث الأمة .

فؤاد مطر : ألا ترى أن شعار البعث (وحدة . حرية . اشتراكية) وضع بصيغة تمني الحدوث وليس بصيغة إمكانية الحدوث ، وأن ترتيب عبد الناصر للشعار (حرية . اشتراكية . وحدة) أكثر واقعية ؟

والى ذلك ، ما هي في تحليلك الاستفادة التي حصل عليها البعث من تجربة عبد الناصر ، وفي المقابل ما الذي استفاده عبد الناصر من تجربة البعث ؟

الرئيس صدام حسين : ترتيب (وحدة . حرية . اشتراكية) ليس ترتيبا تنظيميا وحسب وإنما هو ترتيب في النظرة ، أي أن على العرب أن يناضلوا من أجل الحقيقة

القومية وأنه ليس في امكانهم أن يحققوا الحرية الحقيقية من دون أن يكون منهجهم قوميا ونضاليا لتحقيق الوحدة العربية ، على ألا تفهم نظرة الحزب هذه على أن العرب لا يستطيعون تحقيق أي حرية إلا عندما تقوم الوحدة العربية ، وإنما أن يفهم منهج الحزب هذا على أساس أن العربي لكي تكون له الحريه الحقيقية ينبغي أن يكون منهجه قومياً ونضالياً في عمله من أجل الحرية . وهذا المنهج القومي والنضالي ينبغي أن يهدف الى إقامة الوحدة ، وهكذا بالنسبة الى البناء الاشتراكي .

ولنتوقف هنا قليلا عند العراق . هل إن حرية العراق الآن مثل حريته لو أنه أصبح جزءا من دولة العرب الكبرى ؟

في عالم اليوم المليء بالكتل الكبيرة وبالحيتان التي تجوب البحار من حولنا من الصعب أن نقول أن الحرية التي يمتلكها العراق في السياسة الدولية هي ذاتها التي تمتلكها الأمة عندما تكون دولة واحدة . وفي الوقت نفسه علينا أن نعترف أن أي منهج للحياة ليس حالة فكرية نظرية فحسب وإنما هو عمل دؤوب صائب ، أي أنه نظرية عمل ثورية . لذلك فان الوحدة العربية شأنها شأن الأهداف الأخرى للنضال القومي لا تتحقق لمجرد توفر التصور النظري والمبدئي الصحيح .

كذلك لو كانت الأمة العربية دولة واحدة لكانت الحرية التي تصيب المواطن العراقي أكثر من الحرية التي يتمتع بها الآن أو في المستقبل في العراق وحده لإن الحرية التي يتمتع بها المواطن داخل المجتمع وفي ميادين العمل والنشاطات المختلفة ليست معزولة عن مقدار الحرية التي تمتلكها الدولة في التعامل الخارجي . وهكذا تكون الحرية في الممارسة النوعية المتقدمة حالة إقتدار وجدية .

إن الإنسان القادر والمتمكن والذي يشعر بالراحة يمنح الحرية للناس أكثر من الإنسان الخائف . لهذا السبب أعتقد أن ترتيب أهداف الحزب صحيح ولا يحتاج التعديل .

ولقد استفدنا من تجربة عبد الناصر الكثير . كانت أمام الحزب بداية بناء الدولة بعد تموز ثلاث تجارب هي الفشل في سوريا والفشل في العراق وتجربة عبد الناصر . وبعد وفاة عبد الناصر والردة التي حصلت في مصر فإن تجربة عبد الناصر كانت ماثلة أمامنا في كل التفاصيل الحيوية التي نعالج بها مشاكل المجتمع الاقتصادية والسياسية والاجتماعية وأخص من تجاربه هنا إخفاقاته وأسبابها ، وكذلك دراسة الأسباب التي سهلت مهمة الردة في مصر وجعلتها شاملة .

أما ماذا استفاد عبد الناصر من البعث ، فأنا لا أستطيع أن أجيب عن ذلك بصورة تفصيلية ودقيقة لأنني لم أكن حزبيا قياديا في وقت قيام الوحدة بين مصر وسوريا . لكنني مع ذلك أقول أن منهج عبد الناصر رحمه الله في بدايته لم يكن هو المنهج الذي اعتمده في النهاية ، ومن أجل ذلك يمكن القول أن بعض التفاعل بين عبد الناصر وبين البعث قد تحقق .

وقد إستفاد عبد الناصر من هذا الخطأ قطعا في أنه أطل على الوطن العربي من أفق قومي وليس من ثقل مصر وحدها ، وهذه أهم النقاط المركزية في ثورة ٢٣ يوليو في مصر بقيادة عبد الناصر خاصة أثناء وبعد حرب السويس عام ١٩٥٦ .

فؤاد مطر : هل يمكن أن تحدثنا عن خصوصية علاقتك بالرئيس أحمد حسن البكر وعن ظروف علاقتك بالأستاذ ميشال عفلق.

ومناسبة هذا السؤال أمران :

الأول ـ لعلها حالة فريدة من نوعها في العالم أن يكون نائب الرئيس يمارس قوة وسلطة رئيس الدولة من دون أن يقرر على مدى عشر سنين إنتزاع السلطة الأولى بحركة منظمة .

الثاني ـ إن عدم الغاء حالة التهيب من جانبك للأستاذ ميشال عفلق على رغم تبدل ظروف المواقف حيث اصبحت رئيسا للجمهورية يشكل نموذجا في التقاليد غير مألوف ؟

الرئيس صدام حسين : إنني لا اعتبر الاحترام عنصر تهيب أو عنصر ضعف وإنما هو عنصر قوة للشخصية . عندما يقولون أن فلانا مؤدب فهذا لا يعني أنه ضعيف ، وإنما هو قوي بمقدار ما يحمل من مواصفات الأدب المعروفة في إطار العلاقات السياسية ، وأن مثل هذه الصفة والسلوك تضيفان الى الشخصية قوة حقيقية .

السيد الرئيس البكر ، كان أمين سر القطر . ولقد تربينا في حزبنا على الإحترام للتسلسل الأعلى . والى ذلك أنا لا أقيم العلاقة بيني وبين رفاقي على أساس رافد واحد في الحياة . قد يكون هنالك بين البعثيين مفكر ممتاز فهل هذه هي كل الصورة أو الصيغة التي أريدها للبعثي ؟ لا . الإنسان البعثي هو الانسان الذي يعيش قضية الشعب ويؤمن بالمبادىء ويتصرف على هذا الأساس في الحياة اليومية ، وحتى لو كانت مقدرته السياسية والفكرية محدودة .

نرجع الى تاريخنا ، لأن التاريخ أمام عيني في استمرار خصوصا الحلقات المشرقة والبارزة منه . نرجع الى علاقة الإمام علي وعلاقة عمر بن الخطاب بأبي بكر الصديق وننظر كيف كانت . هل كان أبو بكر الصديق أقوى من عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب ؟ ثم نرجع الى علاقة الإمام علي بعمر بن الخطاب عندما كان يستشيره عمر ، هل كان الامام علي أقل قوة ومقدرة من عمر بن الخطاب ؟ ثم نرجع الى علاقة الامام علي بعثمان وهو أضعفهم جميعا .

إن جسر المبادىء كان هو الأساس في مسألة المحافظة على علاقات الاحترام بين الخلفاء الراشدين . وعندما كان يختار هؤلاء العظماء أحدهم لكي يعبر عن المبادىء من الموقع الأمامي كانوا يحيطونه بالاحترام الكامل ويعطونه كل فرصته التي يستحقها في القيادة والعمل .

إن علاقتي مع الرئيس البكر كانت علاقة رفقة وعلاقة أخوة وعلاقة أبوة ، ولا أعني الأبوة هنا بالمعنى التقليدي ، وإنما بالمعنى المتطور الذي يعني الاحترام بقول الرأي وممارسة الدور الكامل . وقد يكون بدا في ظروف الطوارىء أن صدام حسين يتصرف بسلطة رئيس الدولة ، وقد يكون حصل شيء من هذا احياناً في ظروف خاصة ، ولكن لم تستهوني ظروف الطوارىء يوما لكي أحولها الى حالة دائمة . عندما تنتهي ظروف الطوارىء التي تجعلني أمارس السلطة بأكبر من الإستحقاق الرسمي

والدستور لنائب رئيس مجلس قيادة الثورة أعود الى مكاني بكل إحترام .
وقد يستغرب البعض إذا قلت أنني عندما كنت اتحدث مع الرئيس البكر بالتلفون ويقول لي أن أحضر اليه ، لا أدخل مكتبه عندما يقول لي مرافقه تفضل وأطلب منه أن يدخل على الرئيس ويقول له إن فلانا وصل . هذه مسائل أؤمن بها ولم أنظر يوما اليها على أنها عبء علي أو أنها تقلل من شخصيتي أو تضعفها . كنت دائما أعتبرها مصدر قوة . ثم إن الأمة العربية غادرت كثيرا مواقعها القديمة ومرت بمراحل تدهور وإنسحاق في الجوانب الخلقية إلى حد كبير ، ومطلوب من المناضلين العرب هز ضميرها بنماذج من العلاقة مهما تكن الخسارة أو التضحية التي يقدمها الإنسان مع الأخذ في الاعتبار أن هذه الخسارة ليست شيئا إزاء ما ستفرزه العلاقة النموذج من نتائج مشرقة في الخلق العربي .
ومن المؤكد أن اسلوب عملنا كان سيبدو أسرع لو كان صدام حسين رئيسا للدولة قبل خمس سنوات . هذه حقيقة لا نغالي فيها . وهذه كانت قناعة الرئيس البكر . ولكننا كنا نغالطه لكي لا ندعه يغادر موقع رئيس الدولة . ولو أننا لم نتعامل بهذه الصيغ الأخلاقية ما الذي كنا سنقوله للناس ؟ ماذا نقول لهم عن تجربتنا المتميزة ؟ لا شيء . سيكون حالنا حال اية حركة ثورية في العالم او في الوطن العربي من دون تميز واضح في الجانب الاخلاقي ، اي ان من هو أكفأ يحل محل صاحبه في الأمام وينظر الى الكفاءة باطار ضيق . وبمعنى آخر ان مقاييسنا ستكون مثل مقاييس الكثير من الحركات الثورية ، ونحن لسنا كذلك .
ثم ان الاستاذ ميشال عفلق هو الذي أنشأ الحزب وليس صدام حسين . كيف يمكن أن ننسى هذا . كيف يمكن أن ننسى فضل الاستاذ ميشال عفلق على صدام حسين في هذا المكان . لولا الاستاذ ميشال عفلق لما وصل صدام حسين الى هذا المكان . صحيح انه ليس هو الذي قام بالثورة وان صدام حسين وصل الى هذا الموقع بمواصفاته النضالية بالدرجة الأساس ، ولكن بأي روحية صنعنا الثورة وبأي روحية تجمع البعثيون وناضلوا وضحوا وتحت لواء اي عقيدة ؟ بفكر البعث وبروحيته صنع البعثيون الثورة وناضلوا وضحوا . البعث الذي اسسه ميشال عفلق لذلك يجب ان نحترمه بغض النظر عن الموقع الرسمي الذي يمثله ، وبغض النظر عن تاريخ كل واحد منا ومقدرته . إنها حالة فريدة ولكن الحزب حالة فريدة . الحزب حالة غير مطروقة من قبل في عقيدته وفي خلقه وفي أهدافه في العصر الراهن .

فؤاد مطر : هل إن كل قراراتك التي أتخذتها أستندت الى معلومات دقيقة . أو أنها استندت الى شيء من المعلومات وشيء من التحليل . بل والى بعض الفراسة أحياناً ؟
وهل أنت مع اتخاذ القرار المستند الى الشجاعة والمستعد لتحمل المخاطر . أم أنك تعتبر أن مثل هذا القرار ارتجالي ؟
وفي هذا الإطار هل تسمح ببعض الأمثلة عن بعض القرارات التي أتخذت في مناسبات عدة . وكان بعضها يستند الى التحليل والبعض الآخر الى التحليل والمعلومات . وعن مشاعرك لإن القرار غير المستند الى معلومات يتعرض لاهتزازات ؟

الرئيس صدام حسين : أنا دائماً افرق بين القائد وبين الخبير . بين القائد وبين المساعد . بين القائد وبين الاستشاري . لذلك اعتقد أنه عندما يتحول الخبراء الى أن يكونوا قادة فأي نظام من هذا النوع لا يمكن أن يحقق مسائل كبيرة وتاريخية ، وعندما يكون السياق العام للقادة هو إهمال رأي الخبراء أو الاستشاريين يتحول تصرفهم الى ضرب من العمل المغامر ، والعمل المرتجل . لذلك أفرق دائماً بين الإرتجال وبين المبادرة . بين المجازفة المحسوبة وبين المغامرة . بين التردد وبين التحسب . وعلى هذا الأساس وفي ضوء هذه المفاهيم نتخذ قراراتنا في القيادة . ولذلك ينبغي أن يسبق قرارنا تمعن بالمعلومات اذا توافرت المعلومات ، وينبغي أيضاً التدقيق فيها ، على الا نتوهم بأن كل قرار ينبغي أن يكون هو الحصيلة الميكانيكية لجمع المعلومات ، وانما في الوقت الذي يستند القرار الى المعلومات في حال توافرها فإن القرار ينبغي أن يكون شيئاً جديداً ، ولادة جديدة ، خلقاً جديداً يتصل بالمعلومات ولكن ليس هو حاصل جمع المعلومات بالموقف الجديد . وهذا المفهوم لا ينطبق على القرارات السياسية والعسكرية وحسب وإنما ينطبق حتى على القرارات الاقتصادية ذات المنهج الاجتماعي . وكل قراراتنا الكبيرة كانت في استمرار تستند الى ذلك ومنها على سبيل المثال قرار التأميم . وقد جمعنا معلومات عما لدينا من مواردنا السنوية غير النفطية ، ودرسنا ماذا يمكن ان نحصل عليه من القروض من العرب او غير العرب ، ودرسنا ايضا امكانية الصعوبات التي تجابهنا في تسويق النفط وتناقشنا مع الفنيين الاختصاصيين في الشؤون المالية الاقتصادية والشؤون المالية المصرفية الاقتصادية النفطية ، لكن كل هؤلاء حذرونا من التأميم ، ولم يكن هنالك خبير واحد الى جانب التأميم . ومع ذلك إتخذنا قرار التأميم .

ما هي الحسابات المركزية التي اعتمدناها ؟

نحن تصرفنا ، بروح وعقلية اخرى اساس حساباتها يكمن في تقديرنا الصائب ان الروح المعنوية التي يخلقها التأميم تتحول الى عملة صعبة تعالج الثغرات التي اشار اليها الفنيون ، وهذه المسألة لم يستطع الفنيون رؤيتها ، أما نحن فقد حولنا بطريقة خاصة التحول المعنوي وكل مفردات الحياة المتصلة بالوضع الجديد الذي سيخلقه التأميم والمجابهة مع الاحتكارات واسيادها الى عملة صعبة والى مفردات اخرى في الحياة الاقتصادية والاجتماعية جميعها لصالح قرار التأميم ومستلزمات انجاحه . وهكذا جاء قرارنا صائبا . والدليل على ان القرار صائب انه نجح . معنى ذلك اننا لو كنا استندنا تقليدياً الى رأي الخبراء والفنيين بما في ذلك وزير النفط لما كنا اتخذنا القرار . لقد اتخذنا القرار على رغم انه كان في القيادة العليا اعضاء غير متحمسين له .

وهكذا كان القرار . والقرارات العظيمة تكون ولادتها صعبة . انها لا تولد ولادة اعتيادية تقليدية وانما دائما ولادتها من نوع خاص ، والا فلماذا هي عظيمة . والذين يقومون بها يوصفون بأوصاف خاصة لانها من النوع الذي يتطلب جرأة خاصة وعقلية خاصة ، واحيانا مجازفة خاصة .

فؤاد مطر : في القرارات التي تتخذها هل تأخذ في الاعتبار الظروف النفسية والمصلحية للدول العربية والصديقة أم أن الذي يهمك هو العراق فقط ؟

الرئيس صدام حسين : إنّ أهداف حزبنا توجب علينا أن تأخذ قراراتنا في الاعتبار الظروف النفسية للدول العربية والدول الصديقة . ولذا ليس في الإمكان أن نتخذ قرارا ذا صلة بالعالم الخارجي من دون أن نحسب صلة القرار بالعرب وتأثيره عليهم ، وكذلك نظرة العالم الى العرب والى العراق من جراء اتخاذ القرارات .

فؤاد مطر : ألا ترى أن المعاهدة المعقودة بين العراق والاتحاد السوفياتي تلقي ظلالاً على الناحية الاستقلالية للعراق ، وما هو جدوى الابقاء عليها ؟

الرئيس صدام حسين : لقد ألقت المعاهدة ظلالاً على جانب من الناحية الاستقلالية من وجهة نظر المراقبين في الخارج في السنوات الأولى التي تلت توقيعهاعام ١٩٧٢ ، وأظن أن هؤلاء غيروا رأيهم بعدما عرفوا طبيعة النظام في العراق وبعدما رأوا تصرفنا بالسياسة العراقية الخارجية والداخلية بعد توقيعنا المعاهدة . ونحن في هذا لم نأت بما هو خارج سياقات السياسة التي نفهمها كبعثيين ولم نكن نفهم معاهدة الصداقة خارج هذا السياق من السياسة . نحن لم نفهم المعاهدة على انها تقيد الحرية العراقية او تجعل العرب توابع للاتحاد السوفياتي ولم تكن هي كذلك ، وانما ننظر اليها على انها اعلان للعالم بان هنالك صداقة من نوع خاص بين العراق والاتحاد السوفياتي . وما زلنا ملتزمين بهذه الصداقة ونريدها ، ليس من اجل مصلحة العراق وانما من اجل مصلحة الأمة العربية وصراعها مع اعدائها . نريدها وفق ما يفيد نضالنا القومي ويحقق الاحترام المتبادل وعدم التدخل في الشؤون الداخلية وبما لا يقيد ارادة العراق في النضال القومي ، وفي رؤيته الانسانية . وأظن أن هذا الأمر اصبح واضحا حتى للذين قالوا وكتبوا في البداية الكثير عن تبعية العراق المزعومة للاتحاد السوفياتي .

فؤاد مطر : لكن البعث في الأصل ضد الأحلاف والمعاهدات ؟

الرئيس صدام حسين : هو ضد المعاهدات التي تجعل منه امتداداً لاستراتيجية دولة اخرى او يتصرف الطرف الآخر فيها على اساس هذا الفهم ، لكنه ليس ضد الاعلان التعهدي الذي يعلن مستوى معيناً من الصداقة . إن البعث ضد الأحلاف العسكرية ذات الطبيعة العدوانية أو الامبريالية ، لأن هذه الأحلاف هي علاقات وامتدادات استراتيجية غايتها قهر شعوب اخرى او دول اخرى او استعمارها ، أو ربط الدول الصغيرة بعلاقة تبعية مع الدول الكبرى ونحن لم نكن هكذا .

فؤاد مطر : تحدثت في بعض المناسبات عن الفرص المباشرة التي يمكن ان يستغلها الاستعمار لعمل مضاد ، وعن الفرص الفنية أو الخلل الفني أو التصرف الخاطىء من الناحية التعبوية ، ما الذي تقصده بذلك ؟

الرئيس صدام حسين: إن تعابير «الاستراتيجية» و «الفني» جزء من قانون الفكر الثوري والفكر العسكري . ولتوضيح المسألة المشار اليها يمكن اعتبار الكيان الصهيوني مثالا . إن هذا الكيان موجود والعرب موجودون ايضا . والاستعمار يجد أن الكيان

الصهيوني سلاح استراتيجي في يديه لمنع العرب من اقامة وحدتهم ومن نموهم وتقدمهم . تلك مسألة ظاهرة . ولكن كيف ينبغي ألا يعطي العرب الاستعمار فرصة فـنـية في خدمة هذا الهدف تجعله يستخدم هذه الفرصة استخداما استراتيجيا ، اي يستخدمها بما يحقق له انتصارا ضد الأمة أو يسبب أذى كبيرا لها . انه عندما ينقسم العرب على حالة قبل موعد ضرورة الاختلاف عليها فهذا يحقق للعدو فرصة فنية قد يستخدمها استخداما استراتيجيا . وعلى سبيل المثال قد ينقسم الفلسطينيون على الدولة الديمقراطية التي يريدونها ، قبل أن تتوفر معطيات أو امكانية تحققها . إن مثل هذا الاختلاف يحقق للعدو فرصته الفنية التي بامكانه أن يستفيد منها فائدة استراتيجية في تقسيم الفلسطينيين ، وفي توزعهم الى محاور متناحرة تقلل من شأنهم ومن نشاطاتهم ضده ، وبذلك يكون العدو قد استخدم فرصة فنية سببها خطأ تقدير المقابل وهي فرصة بالمجان ، وعند ذلك نقول ان العدو سيستخدم هذه الفرصة الفنية بما يخدم استراتيجيته . من حق الفلسطينيين ان يختلفوا في الافكار ، ولكن عليهم ألا ينقسموا الآن ، فمتى تحققت الحالة المرفوضة التي تستدعي هذا الانقسام ، أو كان بامكانها أن تتحقق فعلا في وقت قصير عند ذاك من حقهم أن ينقسموا ، أما والحالة لم تتحقق بعد ولا بقدر بسيط حتى وفق ما يريده من يسموا بـ « المتساهلين » ومع ذلك يطرح شعار للانقسام وللتناحر ، فنحن نقدم في هذه الحالة للاستعمار فرصته الفنية ومثل هذا الانقسام يخدم الهدف الاستراتيجي للاستعمار والصهيونية .

نقطة أخرى ، ان العشائرية والطائفية والأقليات القومية موجودة في المجتمع والوطن العربي وليس بالامكان تجاهل وجودها ولكن كيف ينبغي التصرف ازاءها بالصورة التي لا تسهل للامبريالية عملية استغلالها الى المدى الذي تريده وبحيث لا يكون التأثير المضاد لها وفق الصورة التي تأملها منها وبنت خططها عليها. عندما يكون التصرف من دون دراية فنية ميدانية للحياة ومن دون عقل متفتح وروح مبدئية فان ذلك معناه تسهيل استخدام تحول الطائفة الى موقف طائفي ، وتحول العشيرة الى موقف عشائري ، وتحول الاقلية القومية الى موقف تعصبي مضاد لحركة القومية العربية .

تلك هي التقديرات التي بسببها نطلق التحذيرات المستمرة من أن يتصرف الثوري بما يجعله يخطىء خطأ فنيا يسهل للعدو انتصارا استراتيجيا ليس سببه جهد العدو ، وإنما سببه غباء أو غفلة الثوري بالدرجة الأساس .

فؤاد مطر : ماذا تعني لك هذه الاسماء، نبوخذ نصر . صلاح الدين الايوبي. غاندي. لينين . جمال عبد الناصر . ديغول . تشي جيفارا . ماوتسي تونغ . هوشي منه . تيتو . نهرو . كاسترو . علي بن أبي طالب . عمر بن الخطاب . معاوية . الاندلس . القدس . القاهرة ؟

الرئيس صدام حسين : نبوخذ نصر يثير في نفسي التاريخ القديم قبل الاسلام وكيف أن أي انسان بأفق يتجاوز المنظور من الحياة المتداولة وبايمان عال ويوفر مستلزمات هذا الاجراء بتناسق فكري وعملي ، فإنه يصل الى ما يهدف اليه ويصبح

عظيماً ، وكبيراً . واهم ما يعنيني في نبوخذنصر هو الربط بين امكانية العرب وبين تحرير فلسطين . ذلك أن نبوخذ نصر عربي من العراق . صحيح أنه من العراق القديم ، الا أن العراق من الأمة . لقد جلب نبوخذ نصر اليهود اسرى مربوطين بالحبال من فلسطين . ولذلك عندما أتذكر نبوخذ نصر ، فلانني اريد أن اقول للعرب وللعراقيين خصوصا أن التاريخ يضع على عاتقكم عبئاً هو سلاح وليس ثقلا يمنع الحركة ، فعليكم أن تستخدموه لأن لديكم تاريخا ، ونعدد لهم أسماء الذين حرروا فلسطين على مر العصور سواء بعد الاسلام أو قبله .

أما صلاح الدين الايوبي فالخاصية نفسها ولكن بروح الاسلام . إنه عراقي مسلم ولهذا السبب قلت للأخوان في المؤتمر الفلاحي (عقد في بغداد خلال كانون الأول ١٩٧٩) لا تستغربوا أن يستشهد فلسطيني في فلسطين وهو لم يولد فيها وإذا استغربتم ذلك فلا تستغربوا ان يستشهد عراقي أو لبناني أو سوري ، أو اي عربي على أرض فلسطين . والى ذلك انني اعتبر صلاح الدين قائدا عظيما لإنه استطاع في تلك الفترة أن يستخدم روح الأمة وأن يحييها لهدف محدد هو توحيدها لانتزاع النصر العظيم من الصليبيين .

أما عظمة غاندي فتكمن في أنه جعل من حركة بلا سلاح قوة عظيمة لا تقهر وهو بهذا التقط شيئا جوهريا يتناسب مع شخصية الشعب الهندي . وهذه الحركة ما كانت لتنجح في العراق ، أو في سوريا . إن غاندي استخدم الكثافة السكانية وربط بينها وبين الطبيعة الهندية ليخلق منهما فكر مقاومة المستعمرين بشعار المقاومة السلبية .

وفي جيفارا أحب الشجاعة والرومانتيكية المبدئية علما بأنهما لا تكفيان لكي يكون الانسان قائدا .

أما ماوتسي تونغ فان عظمته تكمن في أنه استطاع أن يحرر الصين ، ويبني الاشتراكية وأن يختار طريقا خاصا ضمن الماركسية يؤكد فيه خصوصية الصين من ناحية النظرة الى الفلاحين والعمال وهي غير النظرة المألوفة التي كان لينين يفكر فيها وهو حي ...

هوشي منه قائد ثوري كبير لم أره ولم اقرأ عنه ما فيه الكفاية ولكن لدي احساس ببساطته وتعجبني هذه البساطة في التعامل التي كانت تستقطب رفاقه الثوار حول قيادته .

أما تيتو فهو قائد ثوري كبير ، أهم ما يستوقفني في تاريخه أنه استطاع أن يبني النهج المستقل ليوغسلافيا ويجعل شعوبها ذات القوميات المتعددة تعيش موحدة وسعيدة بأقل ما يمكن من الخسائر والعنف ، وهو بذلك ينفرد في هذا الموقف عن كل الأنظمة الشيوعية الأخرى .

لمجرد أن أذكر اسم نهرو أتذكر على الفور استاذه غاندي مع تقدير كامل للتلميذ الذي اصبح قائدا سياسيا ومفكرا كبيرا .

أهم ما في كاسترو الذي عرفته جيدا أنه مباشر وجريء . معظم القادة الثوريين جريئون ، لكن كاسترو يتميز بجرأة خاصة .

في علي إبن أبي طالب أتوقف عند مبدئيته . وتستوقفني في عمر بن الخطاب عدالته وفي خالد بن الوليد فروسيته . أما معاوية فلا استطيع أن أعطي حكما متميزا عليه أو أن أقول فيه رأياً قاسياً . ما يمكنني أن أقوله هو أن تاريخه لم

يستوقفني لكي استفيد منه فائدة مباشرة . ومن خلال قراءتي للتاريخ يبدو لي أن معاوية عمل للأرض أكثر مما عمل للسماء ، وأنا لا يستوقفني التاريخيون إذا كانوا فقط عملوا للأرض وحدها .

أما القدس فهي تمثل أمجاد العرب وجانبا مهما من تاريخهم العريق فضلا عن أنها إحدى مقدساتهم . ويشترك تاريخ فلسطين مع تاريخ العرب في الأندلس في جانب مهم ينبغي أن يبرز في التاريخ العربي ، ذلك أن هذا التاريخ لم يعط حقه من العرب وغيرهم .

إن الأمة العربية تختلف عن بقية الأمم التي عندما إمتدت خارج حدودها السياسية كانت تقيم العلاقة على اساس استعماري في حين أن الأمة العربية كانت تقيم علاقاتها على أساس البناء ، وكانت نظرة العرب المتسامحة مع القوميات ومع الأديان واضحة عندما فتحوا الأندلس وعندما حرروا فلسطين فضلا عن أنهم تركوا مآثر وآثاراً حضارية نلاحظ أن اسبانيا على سبيل المثال تستفيد منها سياحيا .

وأما القاهرة فأهم ما يعنيني فيها أنها كانت في عهد عبد الناصر منبرا تتكلم باسم الأمة كلها عن العرب ، وهذا أمر يجب أن نعتز به بغض النظر عن رأينا في تجربة عبد الناصر الذي كان الحاكم العربي الوحيد الذي يعبر عن الأمة أمام العالم كله بصرف النظر عن طريقة التعبير . وهذه الفاصلة من تاريخ القاهرة أكثر حضورا من كل الفواصل الأخرى التي أمامنا .

ويبقى ديغول ذلك الفارس الذي تعجبني فيه فروسيته . وأتذكر في استمرار الحوار الذي دار بينه وبين تشرشل عندما قدموا له المساعدات حيث قال : سجل على فرنسا انها لا تقبل مساعدات غير مسجلة ، وهذا الموقف يحمل الكثير من المعاني العظيمة .

فؤاد مطر : هل إن الثورة فعل لا ينتهي ، أم أنها في نظرك مقدمة لوضع مرن يعقب الوضع الثوري ، كما حدث على سبيل المثال في الصين ؟

الدافع الى هذا السؤال هو تحذيراتك المستمرة من سقوط الثوري أمام المرونة الليبرالية وخشيتك من أن يتلذذ بهذه المرونة وبالتالي يغرق فيها ليعوض ما فاته في فترة العمل الثوري .

والى ذلك اليست الثورة مثل الحرب والثوري مثل الجندي . يخوض الجندي الحرب فاذا كسبها فمن الطبيعي أن ينعم بقطف ثمارها . والثوري يمارس العمل الثوري ، فاذا نجح في تسلم السلطة يشارك في قطف ثمار هذه السلطة وهي كثيرة جداً ؟ .

الرئيس صدام حسين : ان الثورة فعل لا ينتهي في تطبيق مفاهيمها ولكن طريقة التعبير عن مفاهيم الثورة تأخذ اشكالا وصيغا محسوبة على اساس اعتبارات كثيرة ومفردات شتى من مفردات الحياة . لذلك فان التعبير عن مفاهيم الثورة يتطور مع تطورها وتطور الانسان الثوري القائد أو الانسان الثوري في المجتمع بوجه عام . وفي ضوء تطور فهم المجتمع لمسألة الحقوق والواجبات يصبح فهمه لها فهما صحيحا . وهكذا تجد أن التعبير عن الديمقراطية والحرية يتناسب في الشكل وفي الصيغة مع

المرحلة أو المراحل التي تقطعها الثورة بنجاح في مسيرتها وكذلك الأمر في ما يتعلق بموقف الثورة من خصومها واعدائها .

وفي كل مراحل التطور ينبغي أن تحافظ إجراءات الثورة على روحها المرتبطة بمصلحة الشعب الذي جاءت الثورة من أجله .

أما وإنني أحذر الثوري من السقوط في شباك المرونة « الليبرالية » وشباك الحياة المستقرة الجديدة بما يجعله فريسة رغبات غير مشروعة ، أو أن الحياة الجديدة ومعطياتها في توفير العيش الرغيد تجعله يعيش عليها فقط ، وينسى واجباته القومية ، فهذا يعني أنني الغي الجانب الإنساني في هذه التحذيرات وأجرد الثوري من حقوقه الإنسانية لإننا نؤمن أن من حق الثوري أن يعيش كإنسان وأن يتمتع بما يتمتع به الإنسان العادي بكل ما هو مشروع ، ولكن على البعثي أن يدرك أن واجبه لا ينحصر في حراسة الثورة في القطر العراقي وتطبيق منهجها ، وإنما ينتظره الواجب القومي في كل ساحة الوطن العربي . ومن هنا علينا أن ندرك حالتنا هذه وأن لا ننسى بأننا لسنا ثوريين للعراق فحسب ، ولو كنا هكذا لكانت تحذيراتنا أقل وأخف ، وإنما نحن ثوار وثوريون للأمة .

كذلك ، وعندما تكون هذه رسالتنا وهذا هو البعد القومي لرسالتنا ، ونطمح في أن تقدم الأمة في نضالها القومي والوطني والاجتماعي نموذجاً انسانياً بناء للعالم كله ، فلا بد ان نتصور عمق الحصانة المطلوبة للعراقي الثوري لكي يبقى نموذجاً يشع في الوطن العربي . واذا عدنا الى تاريخ أجدادنا نرى أنهم من عهد الاسلام كانوا يعطون هذه المسألة اهتماماً غير اعتيادي ، وكان الخليفة عمر بن الخطاب يبقي الكثيرين من الصحابة في الجزيرة العربية لكي لا يتأثروا بمغريات الأمصار والأقطار المحررة لإن حياة الجزيرة غير حياة هذه الأمصار ، حيث أن شظف العيش فيها يبقي الإنسان مستعداً في استمرار لركوب الفرس وحمل سيفه ليقاتل في أي مكان يصبح القتال فيه مطلوباً لخدمة المبادىء ، وهذا واحد من الاسباب التي دفعت عمر بن الخطاب الى أن يجعل الملكية مشاعة في أرض العراق ولم يقسمها على المجاهدين من المسلمين عندما حرر المسلمون أرض العراق وهزموا الفرس . إذن إن السبب الأساس من هذه التحذيرات ليس لإننا ثوريون وقادة للشعب الأمر الذي يلزمنا بأن نحتفظ بروحنا الثورية الى أبعد نقطة فحسب ، وانما لإننا جزء من وطن كبير ، ومطلوب أن تقدم هذه الثورة نموذجاً له وتشع عليه . لذلك لا أعتقد ، وليس صواباً تشبيه الثورة بأنها مثل حرب تبدأ وتنتهي ، وعلى الجندي بعد انتهائها أن يشارك في التمتع بمعطياتها وقطف ثمارها ، وإنما هي حالة مستمرة وهي رسالة للحياة . والثوري إنسان مجاهد ينبغي أن يستمر بحمل الروح الجهادية وتطلعاتها وحصانتها وسيفها كذلك .

فؤاد مطر : الآن ، وبعد أن حققت سلطة ثورية ، أيهما الاصعب ، العمل من أجل تحقيق سلطة ثورية ، أو العمل من أجل الحفاظ على هذه السلطة ؟

الرئيس صدام حسين : الأصعب ليس الوصول الى موقع السلطة ، وإنما كيفية جعل السلطة وسيلة دائمة لخدمة الشعب . هذا هو الاصعب من أية معركة أخرى للوصول الى السلطة بما في ذلك حالات النضال السري القاسية التي مر بها الحزب . ولكنني

ايضاً لا أضع حدوداً ميكانيكية للروحية بين أيام النضال وبين التعبير عن المبادىء من خلال وسائل السلطة تعبيراً أصيلاً . وعندما لا نكون مناضلين أصيلين لا يمكن أن نكون ثوريين أصيلين ونقدر على جعل السلطة وسيلة لخدمة الشعب .

فؤاد مطر : هل يمكن أن تشرح لي مفهومك للثورة والإنقلاب ؟

الرئيس صدام حسين : الثورة والإنقلاب كالبحر ورافده. هناك صلة فنية بينهما إذ كلاهما يغير السلطة بالقوة ، ولكن هنالك إختلافاً في العمق والشمولية (المدى) ، وفي المنهج وفي الصيرورة ، أي من الممكن أن يكون الانقلابيون أناساً ثوريين ويرفضون حالة إتفق الشعب على رفضها ، ولكن عندما يكونون بلا منهج وبلا عمق في النظرة وبلا تصور شمولي للحياة التي يريدون إقامتها بعد تغيير السلطة في المنهج الإجتماعي والاقتصادي والسياسي فإنهم يكونون إنقلابيين فقط .

والإنقلابيون يقومون بعمل جيد عندما يرفضون حاكماً سيئاً ويغيرونه ولكن عندما لا يكون لديهم منهج حياة شمولي يلتزمون به فإنهم يكونون مجرد أدوات إنقلاب محدود . وهذا هو الفرق .

فؤاد مطر : ما هو دور الجيش في العراق ؟ هل إنه دور فني أم سياسي ؟

الرئيس صدام حسين : الدور ليس فنياً فحسب . ولو كان دوره فنياً لكانت ثورة تموز إنقلاباً ، وانما كان دوراً سياسياً ملتزماً في الدرجة الأساس . والعسكريون من المناضلين الثوار في ثورة تموز كانوا بعثيين في الدرجة الأساس وإستخدموا الصفة الاختصاصية إستخداماً فنياً لمصلحة منهج البعث الثوري والشمولي للحياة المطلوبة . وهذا هو دور الجيش الان .

فؤاد مطر : متى يمكن اعتبار الاستقلال الوطني قائماً وما هي نظرتك إلى مسألة الثروة العربية ووسائل إستفادة الأمة منها ؟

الرئيس صدام حسين : الإستقلال الوطني يمكن أن يقوم بدرجات ، أقواها في عالم اليوم أن يكون لديك إقتصاد قومي لا يسمح بالضغوط التي تقود الى المساومات ، وأن يكون لديك جيش قوي قادر على الدفاع عن سيادتك وسياستك ، وقادر على تلبية واجب العمل من أجل الأهداف الاستراتيجية ، وأن تكون لديك قدرة عالية بالنتيجة وهي حصيلة كل بنائك السياسي والاقتصادي والاجتماعي والعسكري وحصيلة وضعك الداخلي وعلاقاتك الخارجية العربية والدولية ، وتستطيع أن تصرفها بما يجعلك تحصل على السلاح من دون شروط من شأنها أن تؤثر على منهجك في الاستقلالية والسيادة إذا لم تكن قادراً على أن تصنع السلاح وهو المنهج الصحيح الذي لا بد منه لمن يريد أن يكون مستقلا ويكون له دور قومي وإنساني مشهود .

ونحن في العراق ، إستخدمنا الثروة لتقوية الاستقلال الوطني . ولو أن ثروتنا لم تكن على ما هي عليه الآن لكانت درجة استقلالنا والتعبير عنها أخف مما هي عليه الآن ، لإن التعبير عن الاستقلالية في عالم اليوم وان ارتبط بالدرجة الاساس

بالمبادىء المستقلة وبتوفير الارادة بهذا الاتجاه فإن الإرادة بهذا الاتجاه تتأثر بصورة أو بأخرى بالقدرة أو الاقتدار في الوقت الذي تصنع الارادة القدرة والاقتدار كذلك . إن الثروة يمكن أن تكون طريقا للاستعباد ويمكن ان تكون سلاحاً للسيادة . ونحن إستخدمنا الثروة بما جعلها سلاحاً ووسيلة فعالة لتقوية السيادة والإستقلالية وتوفير السعادة للإنسان .

فؤاد مطر : ما الذي جعلكم تعطون الأكراد الحكم الذاتي ما دمتم وحدويين ؟ وهل إنتهت الى الأبد مشكلة الأكراد في تطبيق الحكم الذاتي . وما هو حجم التعايش العراقي العربي ـ الكردي ؟

وما الذي كان يمكن حدوثه في صفوف الأكراد لو قامت وحدة بين العراق وسوريا ؟

الرئيس صدام حسين : هنالك قضيتان أساسيتان في قرار الحكم الذاتي هما : القضية المبدئية الحية ، والواقع الحي المتطور ومعطياته الجديدة . إن القضية المبدئية لحزبنا تؤكد على أهمية احترام رأي الشعب . وفي الواقع الحي إن شعبنا الكردي كان يريد الحكم الذاتي ، وكانت هنالك اتجاهات شريرة كثيرة تلعب ببعض تياراته وتتحرك بين صفوفه لكي تحوله ضد الثورة تحت غطاء هذا الشعار . ولو أن الحكم الذاتي لم يكن مطلباً لشعبنا الكردي يلح عليه لما كنا أقمناه . لكن شعبنا الكردي يريد الحكم الذاتي ، وعدم إعطائه الحكم الذاتي يوصل الى الصراع الدموي ويفتح منافذ الفرقة والتبعثر داخل الشعب . ومادام الحكم الذاتي يقوي من صلة الوحدة في علاقة الشعب الواحد بين العرب والأكراد ، فإن عدم رؤية هذه الحقائق والتصرف على أساسها يجعل المرء يبتعد عن مبدئيته ويجعله لا يقدم خدمة جدية للموقف الثوري ، إننا لا نرى هنالك أي تعارض بين الحكم الذاتي داخل القطر العراقي لشعبنا الكردي وبين القضية المبدئية في نضالنا القومي وإقامة الوحدة العربية . لذلك وعلى أساس هذه المبادىء طبقنا الحكم الذاتي من دون أن نرى تعارضاً بينه وبين الوحدة العربية ، بل بالعكس . وكان النص على الحكم الذاتي من جملة المسائل التي كنا نريد أن ندخلها في دستور الوحدة الذي ناقشناه مع النظام السوري على هامش علاقات الميثاق القومي بيننا وبينهم آنذاك ، وليس في دستور العراق فحسب ، لإننا ندرك بأن المحافظة على خصوصية شعبنا الكردي في الحكم الذاتي توفر فرصاً أوسع أمام النضال القومي واقامة الوحدة العربية بين العراق وأي قطر عربي آخر .

إن المحافظة على الحكم الذاتي لشعبنا الكردي داخل أي وحدة تقوم بين العراق وأي قطر عربي آخر شرط لا بد منه لقيام مثل هذه الوحدة ، لإن صاحب الخصوصية ، وهو هنا شعبنا الكردي ، اذا أحس أو تصور أن خصوصيته (الحكم الذاتي) تقتل في العمومية ، التي هي الوحدة العربية ، فسوف يقف ضد العمومية حتى اذا كان في منهجها ما يحقق مصالحه المبدئية الأخرى . ولذلك نحن نعتقد أن الخصوصية في الحكم الذاتي ليست حالة متعارضة مع العام ، الذي هو تحقيق الوحدة العربية .

فؤاد مطر : في استمرار تردد أنه يصعب على الأمة العربية أن نكون أمة قوية ومقتدرة من دون العراق القوي . هل يمكن بالتحليل من جانبك توضيح هذه المقولة ؟ وهل معنى ذلك أنه اذا كان العراق قوياً وكانت هناك اقطار أخرى غير قوية تبقى الأمة العربية قوية ومقتدرة ؟

الرئيس صدام حسين : بالدرجة الاساس أنني أقصد في شعار العراق القوي العراق الذي يقوم بناؤه على اساس مبادىء حزب البعث العربي الاشتراكي . ومن حقي كإنسان مؤمن بهذه المبادىء أن أرى طريق خلاص الأمة العربية في هذه المبادىء . ولكن هذه النظرة المبدئية لا تلغي التعامل الواقعي مع حالة الأمة العربية . فعندما توجد أنظمة وطنية وقومية ، بغض النظر عن الاختلافات في المنهج الفكري ، علينا أن نتعامل معها ونتعاضد من أجل تقوية الأمة . ولذلك أنا أرى أن العراق المبني، على أساس مبادىء حزب البعث العربي الأشتراكي هو قوة غير إعتيادية للأمة ، وليس في امكاني ان افصل بين العراق القومي وبين أن تزدهر الأمة وتتقدم ، ولكنني لا أرى بأن طموحنا يتحقق بهذه القوة لوحدها أي بعراق قوي وبأقطار ضعيفة ، وإنما أعتبر أن العراق القوي المبني على اساس مبادىء الحزب سيساهم مساهمة غير اعتيادية في عملية نهوض الأمة وفي تقوية أقطار الأمة العربية الأخرى سواء بصيغة مباشرة أو غير مباشرة .

فؤاد مطر : تعطي البعثي ثقة لا حدود لها وتعظم شأنه مميزاً إياه عن الآخرين . ولقد استوقفنا قولك مرة « ان العراق لا يمكن ان يحافظ على عزه ، ولا يمكن ان يحافظ على شرف هذه الأرض بدون حزب البعث العربي الاشتراكي ، ولا يمكن لأحد ان يحقق حلم تحقيق أمجاد الأجداد الأوائل من دون حزب البعث » واستوقفنا أيضاً قولك إنه « من دون ثورة ١٧ تموز لم نصل الى طريق الخير » .
ألا تبدو أنك في ذلك تنكر على غير البعثي ولاءه للوطن وحرصه وقدرته على تمجيد التراث والحفاظ عليه ؟

الرئيس صدام حسين : لو أخذت هذا الموضوع معزولا عن كل الحالة ، فقد تصل الى هذا الاستنتاج ، اما إذا ربطته بحالة اخرى ومكان آخر وهو المكان الذي نقول فيه « إن كل العراقيين الوطنيين المخلصين للأمة العربية هم بعثيون وإن لم ينتموا » يصبح المعنى واضحاً لديك في المناسبة وفي الحالة التي أشرنا لها .
ثم إننا نؤمن أن البعث روح الأمة المستحضرة بهذه الصيغة ، وليس في إمكان أي عربي أن يحقق حالة نهوض قومي وصيرورة حضارية للأمة من دون أن يؤمن بروح الأمة . وعند ذلك فإن البعثي كأي مؤمن بعقيدته لا بد أن يؤمن بأن طريقه هو طريق خلاص الأمة .
إن أي انسان لن يحقق ما هو عظيم ومفيد للأمة إن لم يؤمن بأن طريقه هو طريق الخلاص أو طريق خلاص للأمة وتحقيق السعادة لها ، وهذا لا يعني أن يتصرف على أساس إنكار الآخرين ، وإنما يجب أن يؤمن بأن طريقه هذا هو طريق الخلاص ، وإلا كيف يمكن أن يستشهد من أجل هذا الإعتقاد من دون أن يكون إيمانه على هذه الصورة ؟

إن أي إختلال في إيمان البعثي بنفسه وعقيدته يجعله لا يستشهد من أجل هذه المبادىء العظيمة . ولكن في تصريف السياسة ينبغي ألا ينكر البعثي دور الآخرين وألا يتعصب بما يمنعه من التفاعل معهم ومن إستحضار كل امكانياتهم بعملية تفاعلية بينه وبينهم للقيام بالمهمة الواحدة . وبهذا التصور والفعل يكون البعثي قائداً للمجتمع .

فؤاد مطر : وعدت في إحدى المناسبات بأن تصبح تجربة البعث في العراق تجربة تدرس بعناية من قبل العالم عموماً . هل تعني أنها تجربة مثالية سيؤخذ بها ؟ وهل في المقابل درستم تجارب الآخرين بقصد الاستفادة منها ؟

الرئيس صدام حسين: درسنا تجارب الآخرين ودرسنا فكر الآخرين ، وعطفاً على كلامنا السابق نحن نرفض الانعزال ونقول بالتفاعل القائم على اساس الثقة بالنفس ، بمعنى أن نكون قادرين على أن نفيد الانسانية جميعاً في الوقت الذي نستفيد من الإنسانية بكل روافدها وبكل تجاربها ونظرياتها . ولذلك أنا مقتنع بأن تجربة الحزب ونظريته سوف تدرسان بعناية في بلدان العالم الثالث بشكل خاص ليس بقصد نقلها ، لإنني اعتقد أن نقلها غير مفيد لبلدان العالم الثالث ، وإنما بمعنى التفاعل معها واستيعاب دروسها ، وفهم الروحية التي صارت بموجبها هذه التجربة ، أي الاستفادة من الروحية أكثر من الاستفادة من القوالب لان القوالب الجاهزة لا تفيد .

فؤاد مطر : هل هنالك طموح أو خطط تستهدف أن تصبح الأكثرية الساحقة من العراقيين بعثية ؟
وعندما تقول « كل العراقيين بعثيون ، المنظم أو غير المنظم ، وحتى الذي يحمل الآن في قلبه بعض الشيء على حزبه ، فهو بعثي ... » فهل إنك تشير الى ما هو كائن أو الى احتمال ما سيكون أو الى ما يجب أن يكون ؟
والى ذلك ما هو مدى النقد المقبول عندكم من الآخرين غير البعثيين ؟

الرئيس صدام حسين : الثقل الاساسي كائن ، وأعتقد أن الاغلبية الساحقة من العراقيين الآن بعثيون . المنظم وغير المنظم ، والبعثي العام ، بمعنى الإنسان العراقي الوطني المؤمن بالمنهج العام للثورة ، والبعثي الخاص أو البعثي « الفني » وهو البعثي المنظم الذي يؤمن بالمنهج العام وخصوصياته ، ومستوعب للمنهج العام بكل خصوصياته ، وقادر أكثر من غيره على التعبير عن هذا المنهج بصورة أدق وأشمل في الفهم والعمل . ولذلك فإن أي مواطن مخلص وغيور ، عندما يكون مؤمناً بالمنهج العام ، حتى لو كان لديه رأي مخالف بالتفاصيل ، هو بعثي .
لنأخذ مثلاً موضوع الديمقراطية . نحن نعتقد في الحزب وفي القيادة ، ولقد قررنا ، أن الصيغة التي وردت في قانوني المجلس الوطني والمجلس التشريعي هي الصيغة الناضجة التي تعبر عن الديمقراطية في هذه المرحلة ، أكثر من غيرها . هكذا رأينا الأمر ، ولكن هذا لا يمنع من أن تنتقد هذه الصيغة وناقش من قبل الآخرين من الشعب ، وتقدم بدائل يعتقدونها أفضل من الصيغ المعروضة أمامهم ،

على أن يكون الاساس في ما ينطلقون منه بالمناقشة هو الحرص على الثورة ومبادئها المركزية ، والحرص على أن يبقى البعث العربي الاشتراكي قائد الثورة ، وبعد ذلك يكون طبيعياً أن يظهر من يختلف رأيه عن رأينا في طريقة التعبير عن الديمقراطية ، وفي طريقة التعبير عن الاشتراكية ، وفي طريقة تحقيق الوحدة العربية . وعندها يكون الاختلاف في وجهات النظر ليس مسألة اعتيادية وغير خطرة فحسب ، وانما مسألة مطلوبة وصحية لإغناء الحياة وتجاربنا فيها ولعملية التطور والتجدد ، وبخلافه سوف ننساق الى مذهبية خاصة وجامدة في التطبيق والتصور ، ولا نعود نرى مستلزمات تطور الحياة كما ينبغي .

فؤاد مطر : تتحدث فقط عن ايجابيات البعث والبعثي وكما أنه ليس هنالك سلبيات على الإطلاق . ألا ترى أن هنالك وفي ضوء التجربة والممارسة سلبيات في العقيدة البعثية يجب إسقاطها . وأن هنالك في البعثي سلبيات ايضاً يجب أن يتخلص منها ؟

الرئيس صدام حسين : في أماكن كثيرة، وخاصة في الكراسات الداخلية ، إن الثقل الأساس في احاديثنا ليس عن ايجابيات البعثي ، وإنما عن سلبياته ، وفيها نتحدث عن سلبيات البعثي الى حد القسوة ، والى الحد الذي أتحدث مرات عنها بحجم أكبر من واقعها ، لكي أصور التقصير لدى البعثي بحجم أكبر وذلك من أجل أن أحفّزه على طريق العمل الصحيح والأدق . ولكن عندما أتحدث عن سلبيات البعثي وحدها من دون أن أتحدث عن ايجابياته فإنني أساهم في ابعاده عن التصور الشمولي للحياة التي يكون اشراق قيمها في الأفق أمامه مسألة ضرورية لتحريك جذوة حماسته وإستعداده العالي للتضحية ، يساعده في هذا إحساسه بأنه يقف على أرضية صحيحة وراسخة البنيان في انجازاتها لخدمة المبادىء التي يناضل من أجلها ، وعندها لا يسبب الحديث عن الأخطاء وابرازها انكساراً معنوياً للبعثي وانما يكون مسألة لا بد منها لكي يتجاوز الاخطاء ويواصل المسيرة في الاتجاه الصحيح وبذلك نتجنب كل ما يعرقل مسيرة البعثي ويقتل فيه روح المبادرة والحركة الى أمام في الوقت الذي نفتح عينيه وعقله لطرد السلبيات من طريق مسيرته .

ونحن ننتقد البعثي على مرأى من الجماهير وفي الاذاعتين المسموعة والمرئية . وهنالك ندوات جماهيرية نقول فيها أن أكثر من يتحمل ظاهره الخطأ في هذا الموضوع أو ذاك هم البعثيون ، لماذا ؟ لإنهم قادة ويفترض فيهم أن يتحملوا ثقل الوزر أكثر من غيرهم . ولا بد أن اقول بوضوح أنني حتى الآن لم أكتشف خللاً في منطلقات حزب البعث العربي الاشتراكي . ولكن الحزب لم تكن لديه نظرية عمل في بناء المجتمع قبل ثورة تموز العظيمة لإن فرص قيادة السلطة لم تتوافر له قبل هذا التاريخ في أجواء صحية ولزمن مناسب ، وإن وضع نظرية عمل متكاملة نسبياً لمجتمع الثورة لا يتحقق الا في ظل وصول الحزب الثوري الى السلطة ، ومن خلال الواقع الجديد يستطيع أن يصوغ نظريته في العمل لبناء المجتمع الجديد في ضوء معايشة المنطلقات النظرية والتفاعل معها . وهكذا اصبحت للحزب الآن نظرية عمل مازالت مفتوحة للتطوير والتعميق ، ولكننا نعتز بما وصلنا اليه ، ومن البديهي ان

نكتشف في نظرية عملنا بعد أي فترة من العمل بموجبها ، أخطاء ما ، أو قصوراً في النظرة . ومن الطبيعي كذلك أن نغني نظرية حزبنا من خلال الواقع الجديد ولكننا لم نكتشف حتى الآن أي خلل أو قصور في المنطلقات العامة لحزبنا ولإهدافه المركزية .

فؤاد مطر : من هو المناضل وهل هو فقط المنتمي لحزب البعث العربي الاشتراكي ؟

الرئيس صدام حسين : كل إنسان يعيش من أجل الشعب أعتبره مناضلاً ، وليس البعثي فقط . إنه كل من يوقف حياته للمبادىء وكل من لا يعيش على سطحين ، أي يريد الحياة التقليدية ويريد أن يغرف من شرف النضال . ولكي يعيش المناضل من أجل الشعب ينبغي أن يحرسه بعينه عندما ينام ، وأن يتواجد في ضميره وعقله حيثما يكون وفي كل الظروف ، وأن يحبه في كل أطواره ، عندما يصيب وعندما يخطىء ، عندما يتجاوب معه وعندما يبتعد .

فؤاد مطر : هل البعثيون فقط هم الذين جسدوا روح العرب الأولى على حد قولك في احدى المناسبات ؟

الرئيس صدام حسين : إن الحزب ، كنظرية وكروح وكإتجاه عام ـ هكذا أؤمن ـ هو الوحيد الذي جسد روح العرب الأولى من بين كل الحركات العربية . أما البعثيون ، فلا أعتقد أنهم جميعاً جسدوا روح العرب الأولى . فلا يزال بين البعثيين وبين روح العرب الأولى فاصل ينبغي أن نناضل لكي نصل اليه .

فؤاد مطر : قبل عشرين سنة كانت أفكار البعث تشكل عبئاً على الذين في السلطة ، وكانت هذه الأفكار تبدو نموذجية إزاء تطلعات المواطن العربي . ثم وصل البعث الى الحكم وبدأ يمارس في اطار مبدأ الحفاظ على الثورة وأمن الثورة ما يمارسه الحكام التقليديون . ثم كانت إنقسامات البعث وبعض المراحل المفجعة التي رافقت هذه الانقسامات .

القصد من ذلك أن نسمع من الرئيس تحليلاً يقارن بين البعث قبل الحكم والبعث بعد الحكم .

الرئيس صدام حسين : من غير الممكن أن نقول أن العلاقات الاجتماعية والنظرة الانسانية المبدئية الحقيقية تتحقق في إستمرار في مفردات التطبيق في ظل السلطة بما يرضي الجميع ، وفي الوقت نفسه علينا أن ندرك أن صيغ واساليب التعبير عن المبادىء بعد الوصول الى السلطة لا تعني أن تصورات المناضلين عن كل مفرداتها قبل الوصول الى السلطة صحيحة ، ثم إننا لا ندعي أن ظروف السلطة لا تؤثر على المناضلين ولا تنقصهم أي « وزن » معنوي أو تؤثر في الإيمان بما كانوا عليه من روحية قبل الوصول الى السلطة سواء في تعاملهم مع الشعب أو في الحياة الداخلية للحزب . ومع ذلك لا نعتقد أن من الإنصاف مقارنة صيغنا بالعمل

الثوري في مرحلة البناء بأي عمل تقليدي للحكام والأنظمة العربية . إن القصور الذي قد يظهر في بنائنا وفي سلوك المناضلين ليس حالة عامة مرضياً عنها من الجميع ، أو حالة شمولية ، وإنما هو حالة واقعية ومفترضة في مسيرة الحياة . ولكن ينبغي أن يكون الحكم على المسيرة في محصلتها ، وليس على مفردات منها معزولة عن السياق العام ، دون أن ننسى تعقيدات السلطات عندما نحاكم المبادىء .

إن ما يهمنا دائماً في التقييم الموضوعي بالدرجة الأساس هو المسائل الأساسية ، والمحصلة التي نسميها دائماً الحركة العامة لصالح المبادىء المركزية التي ناضلنا من أجلها ، وان نرى باستمرار أن علينا المحافظة على الروحية التي كنا نعمل ونناضل بظلها في سبيل الوصول الى المجتمع الجديد . وأفرق هنا بين تجربة البعث الفاشلة في العراق والتجربة الفاشلة التي حسبت عليه في سوريا، وبين تجربة البعث الحالية لأسباب معروفة ، لذلك فإن نظام البعث فيه سجون ايضاً في الوقت الذي كان ينتقد الحكام الذين كان يناضل ضدهم بأن لديهم سجونا . لدى البعث كذلك أحكام تصدر ضد بعض الناس بموجب القانون . ويحصل هذا الان في الوقت الذي كان البعثي في السابق يناضل ويتخذ من رفض هذا الوضع شعاراً له في جانب من نشاطه الثوري .

ولكن لنتساءل من هم الموجودون في السجون الان ؟ هل هم الناس الذين يعملون من أجل الشعب ؟ هل هم الفقراء ؟ هل هم الثوريون ؟ إننا في آخر قرار اتخذناه في تموز ١٩٧٩ أخرجنا الجميع من السجون ، وكان المحكومون لأسباب سياسية منهم قليلين ، وكانت الأحكام الصادرة بحقهم بسبب حملهم السلاح ضد الثورة ، ولم يبق الا الجواسيس والمحكومون بجرائم التخريب الاقتصادي من النوع الذي يكون فيها الطرف الآخر أجنبياً ، أطلقنا حتى سراح المحكومين بسبب تخريب اقتصادي محلي ، وليس لديهم ارتباط بالأجنبي ، بما في ذلك أناس كانوا محكومين بالإعدام ، وأصبحوا بين عشية وضحاها طلقاء ، بعدما كانوا ينتظرون تنفيذ الحكم .

وقد تجد بين صفوف البعثيين من يرتشي ، واخر يستغل موقعه . وقبل قليل كنت أطالع في تقرير عن قضية متعلقة برفيق حزبي وصل الى مستوى عضو قيادة شعبة في فرع إتحاد الفلاحين في نينوى ، أصبح يملك خمس سيارات نقل كبيرة ، وبنى بيتا قيمته في وقت بنائه ٣٠ ألف دينار ، فلفت هذا انتباهنا ، وشكلنا لجنة تحقيق وطلبنا منها ان تحصر قبل كل شيء مفردات ملكيته ، وبعد ذلك تسأله عن موارده وتتقدم لنا الرأي ، وخرجت اللجنة برأيٍ هو أنه كان مستغلاً ، وهو عضو في حزبنا .

هذا الشخص بعثي ولكنه ليس بعثيا بالروحية وبالمبادىء وبالخلق . قبل الثورة لم يكن لدينا مثل هذا النموذج لأنه لم تكن لدينا سلطة ، لكننا لو سكتنا على هذه القضية لكنا غير بعثيين . ولكن القرار الذي اتخذناه هو إحالته الى محكمة الثورة أولاً ، ثم احتجازه ومصادرة كل ملكيته وتحويلها الى ملكية الشعب . هذه هي روح الثورة وتلك هي روح الحزب . وقد يكون في أجهزة الدولة من يتصرف مثل تصرف هذا الشخص المنحرف ولكن هذا السلوك لا يعبر عن روح الثورة ولا عن روح الحزب لأنه ليس ظاهرة في حياتنا الراهنة وانما هو مسألة مفردات منحرفة من السلوك ، ما أن نكتشفها حتى نقتص منها القصاص العادل ، وبما يحمي ويعزز المنهج الاخلاقي والمبدئي للثورة والحزب ، وهذا هو معنى كلامنا عن البعثي في

ظل الثورة والبعثي قبلها .

فؤاد مطر : ذكرت مرة «إن تجربة البعث ليست للقطر العراقي فحسب ، وإنما هي للأمة ككل . بل إننا نطمح الى أن تكون تجربة ذات آفاق واسعة تتجاوز الوطن العربي » .

هذا الكلام يدعونا الى التساؤل، ما الذي جعل بذرة البعث لا تنمو سوى في العراق وسوريا ؟ وما دام الأمر كذلك فكيف يكون هنالك طموح نحو الآفاق الواسعة ؟

الرئيس صدام حسين : بذرة البعث لم تصل الى السلطة الا في العراق عام ١٩٦٣ وفي ثورة تموز ١٩٦٨ وفي سوريا في آذار عام ١٩٦٣ ، ولكنها موجودة في كل الوطن العربي . وقد يكون التفاوت موجوداً بين قوة فرع الحزب في العراق وقوة فرع الحزب في اقطار عربية أخرى ، ولكنها موجودة في كل الوطن العربي .

اما الحديث عن أن هذه التجربة ستكون ملك الإنسانية فلأننا نرى الأمر هكذا . نرى أننا لا يمكن أن نكون قوميين وإنسانيين مالم تكن نظريتنا إنسانية ، بمعنى أن تكون تجربتنا في خدمة الإنسانية ، وتكون نظريتنا موضوعة على طاولة الاستفادة الانسانية ، ومجهوداتنا كذلك لا تنسى خدمة الإنسانية في الوقت الذي تتوجه بالدرجة الأساس الى الأمة .

فؤاد مطر : ما هي الخصوصية المتميزة في عقيدة البعث ونظريتها في العمل التي كثيراً ما تشير اليها في أحاديثك وخطبك ؟

الرئيس صدام حسين : في نظرية البعث هنالك الربط الحي بين الأهداف النضالية الاجتماعية وبين الأهداف النضالية السياسية والأهداف النضالية القومية ، أي ما يسمى بالعلاقة الجدلية بين النضال القومي والنضال الاجتماعي . وهذه حالة انفرد البعث بها في التكامل النظري ، وفي الرؤيا الشمولية . ولا أغالي اذا قلت أن حزبنا هو الوحيد بين كل الحركات في الوطن العربي الذي برهن عن عمق الصلة بين المبادىء التي طرحها وبين الواقع الذي يقوده .

الدولة العربية الوحيدة التي قاتلت على جبهتين في حرب تشرين ١٩٧٣ هي العراق . وفي الوقت الذي كانت الأسراب العراقية تضرب مرابض الصواريخ الاسرائيلية في أول معركة طيران على الجبهة المصرية تحركت الأسراب العراقية أيضاً عندما قامت الحرب على الجبهة السورية .

والعراق هو القطر الذي غامر بترابه الاقليمي من أجل أن يحفظ التراب القومي . وكان جيشنا محتشداً على حدود ايران في الوقت الذي كانت العلاقة سيئة بيننا وبين شاه ايران ، وكان الخلاف على شط العرب على أشده . وأعلنا في الاذاعة يوم ٧ تشرين الثاني ١٩٧٣ ، ومن طرف واحد ، في بيان لمجلس قيادة الثورة تعهدنا بإستعدادنا لحل المشاكل المعلقة بيننا وبين ايران . وكان المفهوم العام آنذاك وما يطلبه شاه ايران كذلك هو أن يعطى قسم من شط العرب للإيرانيين . وهكذا سحبنا جيشنا ، في أكبر مغامرة عسكرية في الحسابات التقليدية ، من الحدود مع

ايران لنتوجه به الى أرض الشام لمواجهة جيش الكيان الصهيوني الزاحف الى دمشق . هكذا فعلنا واستبسل الجيش العراقي في معركة الشرف ليخيب ظن وزير دفاع العدو الذي صرح قبل وصول الجيش العراقي الى ارض الجولان بأنه (أي وزير دفاع العدو) ينوي في اليوم الثاني تناول طعام الغداء في دمشق العزيزة . لقد وضعنا في موقفنا هذا مبادىء حزبنا القومية في التطبيق .

وفي قمة بغداد ، قدم العراق التضحيات الجسام لكي يحرك ضمير أبناء الأمة لمواجهة الخطر الكبير الذي تعرضت له الأمة في عمل السادات .

فؤاد مطر : لقد أعطت كوبا الأولوية للمسألة الاجتماعية وحققت بذلك انجازات كبيرة . كيف تنظرون الى المسألة الاجتماعية . وهل تعطونها الأولوية ؟

الرئيس صدام حسين : نحن لا نفصل المسألة الاجتماعية عن الواقع العام للمجتمع ومستلزمات إحداث التغيير الشمولي فيه على الصعيدين المادي والمعنوي تبعاً للأحكام المبدئية والاعتبارات الموضوعية . ولذلك فإننا لا نتصور الأولوية لأي موضوع من خلال انفصاله عن غيره من العوامل التي لا يمكن موضوعياً وعلمياً فصلها عنه أو اغفال مؤثراتها عليه . الأولوية ليس بمعنى العزل الميكانيكي للأهداف عن بعضها بما في ذلك الأهداف التي تحظى بالأولوية ، والأسبقية في العمل ، ومن أجل ذلك نراها دائماً في أولويتها وفي مواقفها الأخرى من خلال التفاعل الكلي والامتزاج مع غيرها على الأصعدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وغيرها .

فؤاد مطر : كيف تكون أوضاع العراق لو كان قومية واحدة ودينأ واحداً ومذهباً واحداً ؟

والى ذلك ، هل أن صيغة البعث قادرة في تقديرك على إزالة الصراعين الصامتين في العراق وهما الصراع الطائفي والصراع الاجتماعي ؟

الرئيس صدام حسين : لو كان العراق قومية واحدة ومذهباً واحداً لكان أقوى . تلك حقيقة موضوعية . ولكننا لا نعاني من تركيبة شعبنا وهي أمر واقع . كما أن هذه التركيبة لا تشكل عبئاً علينا يمنعنا من العمل الى أمام أو تستغله القوى المضادة الى الحد الذي تمنعنا من تحقيق المجتمع الذي ننشده ونصل الى الأهداف التي نناضل من أجلها ، لإن عقيدة الحزب تستوعب كل الأمور التي تعمق الوحدة الوطنية لشعبنا . ولو أن الذي يقود السلطة الآن كان غير حزب البعث العربي الاشتراكي لما استطاع ان يحل الأمور حلا مبدئياً ويحقق وحدة شعبنا الوطنية كما هي الحال الآن .

إن أبناء العراق جميعا يعملون بدون استثناء من أجل العراق القوي ولصالح الدور الطليعي الذي يؤديه وهو في حضن الأمة ويناضل بقوة من أجل اهدافها .

ليس هنالك صراع طائفي صامت في المسألة الدينية أو في المسألة المذهبية . عندنا أناس طائفيون ، سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين ، سنة كانوا أم شيعة . ويوجد في المجتمع شوفينيون عرب وإنفصاليون أكراد . ولكن هذه حالات بسيطة يمكن

وجودها في أي مجتمع من المجتمعات المماثلة . وليست ظواهر عامة ، لإن اغلبية الشعب لا تؤمن بها ولا تمارسها ولا تجد في أي منها ما يصلح بديلاً لمبادىء الثورة والمجتمع الذي تحرص على بنائه . إن الشعب فخور بثورته ، فخور بعراقه ، فخور بأنه يناضل من أجل أهداف الثورة ، وسعيد بما تحقق .

إن الحالات السلبية التي اشرنا اليها لم تتحول الى ظاهرة ، وان الزمن الذي نسجله في العمل المبدئي الى أمام يخفف وقد ينهي الكثير من هده الحالات وتأثيراتها على المسيرة .

إن الحالة تتحول الى ظاهرة عندما تكون معبرة عن حالة الأغلبية . فلو كانت الأغلبية السنية أو الاغلبية الشيعية في شعبنا طائفية ، أو كانت الاغلبية الكردية انفصالية ، أو كانت أغلبية العرب شوفينية ... لكنا قد فشلنا في أداء مهمتنا . وقد وجدنا عندما قامت الثورة أن بعض الحالات التي أشرنا اليها قد تحولت أو كادت تتحول الى ظواهر بسبب غياب الموجه النزيه والنظام الوطني فضلاً عن تخطيط الأمبريالية والصهيونية .

فؤاد مطر : عادة تكون أحلام الثوري ترجمة لخطط يناضل في سبيلها . هل يحلم الرئيس بما سيكون عليه العراق في العام ٢٠٠٠ ؟

الرئيس صدام حسين : بصورة عامة أحلم بما يكون عليه العراق بعد عام ١٩٨٥ ، وأتصور أنه سينتقل من حالة الى أخرى أكثر اشراقاً . الحياة الاجتماعية السعيدة ستجد آفاقاً أرحب ، وسوف تشهد القاعدة الصناعية والقطاع الزراعي إزدهاراً كبيراً .

فؤاد مطر : ما هو تصورك لدور القطاع الخاص في مرحلة البناء الاشتراكي ؟

الرئيس صدام حسين : إن حزبنا منذ البدء كان يعي أهمية الدور التاريخي للنشاط الخاص . ولا نقصد بالدور التاريخي مرحلة معينة عابرة في مسيرة الحياة الاشتراكية ، لأن النشاط الخاص في مفهوم حزبنا سيستمر يرافق النشاط الاشتراكي الى الأبد ،ويشتركان معا في خدمة المجتمع ، وينشطان معا على مساحة مشتركة واحدة ، ويؤديان غرضاً انسانياً واحداً هو إسعاد الإنسان في ظل المجتمع الاشتراكي . وعندما نأخذ الأمور على اساس هذا التحديد ، يكون هذا الطريق هو الطريق الذي نؤمن به للتغيير الاجتماعي وإسعاد الأمة العربية ضمن منهجنا . تلك هي المنطلقات التي أعتمدها حزبنا منذ البداية ووجدت معانيها في التطبيق الآن ضمن منهجنا في القطر العراقي ، ونحن مطالبون أن نحول المنطلقات الى برامج عمل ، والى ما يسمى في الفكر الثوري بـ « نظرية عمل » . فنحن نعتقد أن النشاط الخاص في ميادين معينة أقدر من النشاط الاشتراكي . وفي ميادين اخرى خصوصاً في مجتمعات البلدان النامية ليس في استطاعة النشاط الخاص أن يدخلها وأن يبدع فيها وأن يستثمر فيها على نطاق واسع . وعندما نتحدث عن الدور التاريخي للنشاط الخاص ضمن هذه الرؤيا فليس لإننا في حاجة الى استثماراته كما هي الحال في بعض الاقطار . إننا نحتاج الى عقل القطاع الخاص وأنامله ، أي جهده الذي لا بد أن يتوخى الربح، ولكن ينبغي أن توازن ربحه

المسيرة الاشتراكية بحيث لا يؤدي ذلك الى الاستغلال. ولا نتصور أن في الامكان بناء الاشتراكية بنشاط أجهزة الدولة وقطاعها الاشتراكي وحده ، وإنما لا بد من نشاط القطاع الخاص .

فؤاد مطر : هل تقصد بالقطاع الخاص القطاع العراقي الخاص ، أم أنه من الممكن أن يكون عربيا أو أجنبيا ؟

الرئيس صدام حسين : إن نظريتنا للأمة وليس للعراقيين فقط ، وكونها كذلك وكوننا لا نرى الأمة بمعزل عن العالم فلا يمكن إلا أن يكون لنظريتنا بعد انساني . ولكن نظريتنا ليست معدة للتطبيق في الأمم الأخرى . لذلك إن من حق هذه الأمم أن تختار نظريتها كما اخترنا نحن نظريتنا . الذي في تصورنا هو أن كل النظريات ليس في امكانها الاستغناء عن النشاط الخاص ، وهي تطبق الاشتراكية ، اذا كانت بالفعل تتوخى إسعاد الانسان في كل التفاصيل اللاحقة لبداية التطبيق الاشتراكي وضمان تطور وتوفير الحاجات المتجددة كماً ونوعاً ، وليس إشباع بطن الانسان فقط . وفي رأينا إن من يقول بامكانية الاستغناء عن النشاط الخاص ، إنما ينطلق من نظرة مبتسرة . لذلك فمن غير الممكن أن نشبع الحاجة الانسانية بكاملها عن طريق نشاط أجهزة الدولة والقطاع الاشتراكي المرتبط بهذا النشاط وحده ، وإنما بامكاننا اشباع البطون عن طريق النشاط الاشتراكي وأجهزة الدولة وامكاناتها . ونحن لا ننشد اشباع البطون وحدها ، وإنما ننشد اشباع الحاجة الاستهلاكية بكل مستجداتها المطلوبة لهذا الغرض في قطاع الخدمات ، وفي قطاع الانتاج ، وعموم القطاعات الاخرى ، وأن نوفر الظروف المناسبة وكل ما يلزم لتفجير طاقات الانسان ونشاطه المبدع والمتجدد على نطاق واسع وعميق . من اجل ذلك فان ما نعنيه من نشاط خاص هو النشاط الخاص للعراقي وللعربي بموجب المسموح به وفق القوانين العراقية وليس النشاط الخاص الأجنبي .

فؤاد مطر : على هذا الأساس هل من المتوقع أن يشهد العراق الذي يعتمد الاشتراكية حركة في إطار الصناعات الصغيرة للقطاع الخاص ، وفي إطار السياحة ، وغيرها ؟

الرئيس صدام حسين : نعم . وهذه مسألة لم نكتشفها الآن وانما منهجنا مصمم على هذا الاساس. ولكن هذا التحديد الدقيق للأفق التاريخي كما أشرنا في الإجابة على السؤال السابق ، إضافة الى أن المفردات المعبرة عن هذا المنهج على نحو دقيق ، قد اكتشفت خلال التقادم في العمل فضلا عما قدمته المنطلقات الفكرية والمبدئية لحزبنا ، أعني أن هذه الرؤية وفي تفاصيل مفرداتها الحية المطلوبة ليست الآن كما كانت قبل سبع سنوات ، أي أن رؤيتنا الآن في اكتشاف المفردات الحية المعبرة عن هذه النظرية هي أكثر دقة وشمولاً مما كانت عليه في السابق . لذلك فاننا لا نرى أنه من الممكن أن يكون النشاط السياحي للقطاع الاشتراكي بمعزل عن النشاط الخاص ، أو أن يكون عموم النشاط الخدمي الاشتراكي بمعزل عن النشاط الخاص . وعلى سبيل المثال إنه في إمكاننا تأمين تصليح السيارات عن طريق النشاط الاشتراكي ، ولدينا ورش للتصليح مرتبطة بأجهزة القطاع الاشتراكي ، ولكننا

نقتل انسانية الانسان عندما نلزمه الزاماً بأن يقف في صف طويل لينتظر دوره من أجل أن يصلح سيارته في القطاع الاشتراكي حصراً . ولذلك فانه في الوقت الذي نوفر ورش تصليح القطاع الاشتراكي فان النشاط الخاص يقوم بدوره في تصليح سيارات المواطنين وعلى نطاق واسع . وهكذا تتجنب الدولة أن تتحول في نشاطها الى دكاكين صغيرة محل النشاط الخاص في ميدان التجارة الداخلية وتوزيع السلع وفي ميدان تقديم الخدمات المحددة من تصليح الراديو والتلفزيون الى المقهى الصغير والمطعم الصغير وغير ذلك . وهكذا نتجنب الاختناقات الفكرية والعملية التي وقع بها بعض الماركسيين .

لكن ، في المقابل هل أن القطاع الخاص قادر على الدخول مثلا في ميدان التصنيع الثقيل ؟ الجواب : لا ، لإن هذا غير ممكن من الناحية العملية في مجتمعنا ، إذ لكي يدخل القطاع الخاص ميدان التصنيع الثقيل ينبغي أن نسمح لملكية القطاع الخاص بأن تنمو الى الحد الذي تغدو قادرة على توفير الاستثمارات اللازمة في ميدان التصنيع الثقيل الذي يتطلب استثمارات كبيرة وهذا غير ممكن . ولكن في مجتمعنا الاشتراكي الجديد لا مكان لتأثيرات الملكية على الاتجاه الاشتراكي ، ونحن نتعامل مع النشاط الخاص ونسمح له بالاستثمار والنشاط بما يجعله في خدمة النظام الاشتراكي ، ولا يشكل قيدا عليه أو معوقا له. ثم إن السلطة السياسية للنظام الاشتراكي ينبغي أن تستمر بيد ممثلي الشعب . ولكي نضمن هذا المنهج ينبغي أن نحافظ على الشروط الأساسية المطلوبة ومن بينها ألا تنمو الملكية إلى الحدود التي تجعلها ذات مؤثرات سلبية على السلطة السياسية ، وعلى مجتمع الثورة بما يغير من خصائصه .

على هذا الأساس ، وعلى أساس حماية الاتجاه الاشتراكي في سياقه الانساني فاننا في الوقت الذي نفترض ونقر بوجود هامش من الربح للنشاط الخاص نحدد الربحية بما لا يجعلها تفسد المجتمع الذي نريده ، ونقوم بهذه المهمة من خلال روافد شتى من المعالجات بما يضمن لنا هذا الاتجاه .

هذا من الناحية المبدئية ، أما من الناحية العملية فإنه ليس في استطاعة النشاط الخاص ، أن يطمئن في أي بلد نام الى استثمارات من نوع واسع وكبير ، لانه لا يمكن أن يعرف ما ستكون عليه الخطوات القادمة . من هنا ان النشاط الخاص في بلدنا سيبقى في تصورنا الى ما لا نهاية ينشط على مساحة مشتركة مع القطاع الاشتراكي ، ولكن في الاطار المرضي عنه اشتراكيا .

فؤاد مطر : الملاحظ ان دعواتك من أجل الاهتمام بالزراعة أصبحت متزايدة . هل هي نتيجة مخاوف معينة . أم أنها مقدمات تسبق الرغبة في إنعاش القطاع الخاص .

الرئيس صدام حسين : لقد تحدثت عن رؤيتنا لكيفية استخدام عائدات النفط . وفي استمرار هنالك هاجس يقلقني وهو أنه إذا وصلنا الى حافة نضوب النفط من دون أن تكون لدينا زراعة مزدهرة ومن دون أن نكون بنينا هيكلا اساسيا صحيحا للخدمات فمعنى ذلك أننا نكون عمليا حكمنا على انفسنا تاريخيا بما يبقي التخلف حالة مستديمة .

من أجل ذلك لا بد من الاهتمام بالزراعة ، ولا أعني بذلك الاهتمام بنشاط القطاع الاشتراكي في الزراعة وحسب ، وإنما الاهتمام وتوفير كل مستلزمات التطوير للنشاط الخاص كذلك ، بالاضافة الى توفير مستلزمات التطوير والعمل للقطاع الاشتراكي .

فؤاد مطر : العراق دولة نامية . هل في ذهنك متى تنتقل من مرحلة النمو الى المرحلة الأخرى . وأعني ما بعد المرحلة النامية ؟

الرئيس صدام حسين : إن المقصود بتعبير نامية ، هو أن يكون تعبيراً أكثر لياقة من معنى التخلف بالقياس اليه . العراق بالقياس الى الدول المتقدمة بلد نام ، بمعنى أنه متخلف عن البلدان المتقدمة في الصناعة والزراعة والثقافة بكل معانيها والتعليم والتقنية . وعندما نتطور فنياً وعلمياً وتقنياً وثقافياً ويكون لدينا الحد الأدنى في التحصيل الدراسي بمستوى مرضي عنه ، وعندما تزدهر الزراعة ويزداد الدخل القومي للفرد والمجتمع الى الحد المرضي لنا... عند ذاك نكون قد غادرنا هذه الصفة . وأنا هنا لا أريد أن اعتمد المصطلحات الدارجة في التحديد الزمني ولكنني سبق أن ذكرت أننا في نهاية عام ١٩٨٥ سننتقل نوعيا الى حالة جديدة من خلال برامج العمل الموضوعة لهذا الغرض . وليس معنى هذا أن العراق سيغادر كل مظاهر التخلف ، وإنما سيتطور بولادة نوعية متقدمة عن الحالة السابقة في شتى الميادين وبصورة متوازنة .

فؤاد مطر : هل يرفض الرئيس اعتبار الإهتمام بالقطاع الخاص نوعاً من الانفتاح مثلا ؟

الرئيس صدام حسين : أنا لا أحب هذا النوع من الكلمات لإنها اتخذت غطاء للردات اليمينية . فنحن لم نكن منغلقين لكي نتحدث عن الانفتاح وإنما هذه هي نظريتنا ولقد باشرنا في تطبيقها ، ولم نمض بخطوات تجعلنا نادمين على تصرفنا لكي نقول إننا إنغلقنا وعلينا أن ننفتح الآن . نحن نطبق نظريتنا بصورة صحيحة. وفي الوقت الذي أتحدث عن مستلزمات تحديد دور القطاع الخاص تحديداً دقيقاً لإداء مهامه في خدمة المجتمع الإشتراكي أتحدث أيضا عن أهمية القطاع الاشتراكي وتعزيز دوره وتعميق تجربته أيضا .

فؤاد مطر : هل يمكن اعتبار ما تحدثت فيه صيغة جديدة للعمل الاشتراكي أو للإشتراكية ؟

الرئيس صدام حسين : إنها صيغ نظريتنا ، لان نظريتنا لم تتوفر أمامها الفرصة المناسبة قبل الثورة لكي تطبق في بناء الدولة ومجتمع البعث الذي ننشده ، وإنما كانت برامج حزبنا دائما برامج نضالية لاغراض العمل السري وتغيير الأنظمة . أما الآن فاننا للمرة الأولى نوفر الفرصة التاريخية للحزب في أن يحول منطلقاته الفكرية والمبدئية الى برامج عمل في بناء المجتمع الاشتراكي .

فؤاد مطر : حول الاشتراكية والتطبيق الاشتراكي هنالك بضعة أسئلة وتساؤلات ،

أولا ـ الملاحظ أن الاشتراكية غير مطبقة بشكل جذري . والملاحظ في الوقت نفسه أن الانفتاح ليس معتمداً بطلاقة . وإذا جاز القول فان هنالك نصف إشتراكية ونصف إنفتاح ، وجمعهما أدى الى صيغة جديدة من التطبيق الإشتراكي .

هل أن الصيغة ثابتة وهل هي الحل ؟

ثانيا ـ الا ترى أن هنالك ثغرات في التطبيق الاشتراكي استفادت منها الأيديولوجية الماركسية من جهة ، والأيديولوجية الإسلامية من جهة أخرى ، وأنه من أجل ذلك بات من الضروري طرح صيغة جديدة للإشتراكية ؟

ثالثا ـ لقد وفر عبد الناصر على البعث أخطاء التطبيق الاشتراكي على أساس أنه كان المبادر في عملية التطبيق هذه . هل إن البعث إستفاد من هذه الأخطاء بحيث أن ما رافق التطبيق الاشتراكي في مصر من أخطاء لن يتكرر في عملية التطبيق التي تحدث في العراق ؟

رابعا ـ ألا ترى أن البعث أفرز كوادر وحدوية جيدة في حين أنه لم يفرز كوادر مماثلة على صعيد الاشتراكية ، وأنه من أجل تطبيق مثالي لا بد من وجود هذه الكوادر ذات الأفق الاشتراكي ؟

نقول ذلك على اساس ان الهاجس الاساسي للنضال القومي عند البعث هو الوحدة وليس الاشتراكية على ما يبدو ؟

خامسا ـ هل إن المكاسب التي حققتها الاشتراكية للمواطن في العراق وفي الدول العربية التي اعتمدت الخط الاشتراكي هي في مستوى التضحيات التي قدمها المواطن ؟

سادساً ـ أليس مستهجناً أنه بعد عشرين سنة من التطبيق الاشتراكي ما زالت الاشتراكية أمراً مرفوضا من الأكثرية في عدد من الدول العربية . هل أن ذلك عائد الى سوء التطبيق أم لانها كانت أقرب الى الماركسية منها الى العدالة الإسلامية ؟

الرئيس صدام حسين: لا يوجد في منهجنا الاجتماعي شيء اسمه حاصل جمع المفردات ، أي أننا دائما ضد صيغة حاصل جمع المفردات واقتطاف الزوايا لتركيب هيكل يصلح للعراق من مجموع الهياكل والنظريات الأخرى على مستوى التطبيق أو على صعيد التنظير . نحن دائما نقول بالتفاعل ، فنطلع على تجارب الآخرين ونظرياتهم ونتمثلها ، لكننا دائما ننظر اليها بعقل بعثي ، ونتفاعل معها بعقل بعثي ، ولا نذهب الى تجارب الآخرين بفكر خال ، وإنما نذهب اليها ونحن ممتلئو الفكر . أما أن نقول بأن الفكر الانساني يجب أن يتفاعل على مساحة الكرة الأرضية كلها ؛ فهذا منهج صائب ونحن نأخذ به . لذلك نحن لم نذهب الى الماركسية لنأخذ أو نجتزىء منها القانون الفلاني أو الفلاني ونهمل ما عداه . إننا عندما نقرأ الماركسية فانما نقرأها كنظرية إنسانية ثورية ، ولكن ليست النظرية الانسانية

الثورية الوحيدة ، وليست النظرية الانسانية الثورية الأسبق ، لأن لدينا نظريات ثورية انسانية أسبق من الماركسية .

نظرية محمد بن عبد الله (ص) مطبقاً أحكام السماء في الأرض ، وكل القادة والزعماء العرب المسلمين المستوحاة من نظرية السماء التي هي الدين الاسلامي ، أسبق من الماركسية ، لإن عمرها ١٤٠٠ سنة . إذن عندما نقرأ الماركسية فإنما نقرأها بمعنى أننا ندرسها لكي نفهمها ونتفاعل معها حيثما تطلب الأمر ذلك ، ولكي نكون بالنتيجة قادرين على الخلق الجديد لمجتمعنا وفق الطراز البعثي ، وليس وفق الطراز الماركسي . من هنا ان مسألة جمع تجارب الاخرين ونظرياتهم ليست واردة في منهجنا إطلاقاً .

وحتى عندما ندرس تجربة عبد الناصر لا ندرسها لكي نأخذ منها مقتبسات وإنما لكي نأخذ منها دروسا ، ونستوحي من خلال الدراسة ما يجنب نظرية العمل البعثية الوقوع في أخطاء أو مآزق أخرى ، وهي تجربة عربية قريبة لم يكن البعث بعيدا عنها ، ولا كانت هي بعيدة عن البعث بمقدار أو آخر أو بصورة وأخرى .

وعندما أتحدث عن موضوع التطبيق الاشتراكي والانسان ، فإنني أتحدث عن البعث ، وعن تطبيق نظرية البعث في القطر العراقي . أما عندما يكون الحديث عن الاشتراكية في بلدان عربية أخرى فلهذا مجال آخر . ففي تصورنا إننا حتى الآن لم ندخل أي مأزق من النوع الذي وجد الآخرون أنفسهم فيه بشكل أو بآخر ، فارتدوا عن الاشتراكية أو وجدت القوى الاخرى فرصتها في هذا الارتداد عليها بسبب التطبيق الخاطىء ، احجاما عن الذهاب بها الى المدى الذي ينبغي ، أو ذهابا الى ابعد ما ينبغي في بعض تفاصيل الحياة . أو فلنقل إن التصور الخاطىء للاشتراكية بما في ذلك الإحجام عن اعطائها كامل معناها الانساني الشمولي فكراً وتطبيقاً صار ستاراً أو غطاء للردة باتجاه يميني . وأبرز مثال على هذا تجربة مصر نفسها . إن أهم غطاء تستخدمه الردة على الاشتراكية في تصورنا هو أن يقال بامكانية انعدام النشاط الخاص في المجتمع الاشتراكي ، أو تقييده الى الحد الذي لا يستطيع أن يقدم الخدمة المطلوبة للمجتمع الاشتراكي . ومن يقول إن بالامكان أن نطبق الاشتراكية ويكون الإنسان سعيدا في كل مراحلها ، وفي الوقت نفسه ينعدم في هذه المسيرة نشاط القطاع الخاص ، فانه يلحق أذى فادحا بالاشتراكية ، وهو في ذلك كمن يقول بإمكان إقامة تنافس « حر » بين القطاع الاشتراكي والقطاع الخاص على سطح واحد ، وبفرص متساوية وبدون تدخل الدولة . ومع ذلك إن هذا لا يعني أنه ليس لدينا أخطاء ، ولكن هناك فرقا بين الأخطاء التي تكون من طبيعة الحياة وبين المأزق . نحن لم ندخل او نقع في مأزق في هذا المنهج ولكن لدينا اخطاء وهذه الأخطاء في تصورنا ما زالت ضمن قدراتنا في المعالجة ، ولسنا عاجزين أمامها ، بسبب تفهم الجماهير وبسبب استيعاب الحزب ، وبسبب حضور قدرة القيادة ، وتوفر الامكانات المادية ، وتوفر الكادر . فليس الهاجس الوحيد للنضال العربي هو النضال القومي وبناء الوحدة ، وإنما الهاجس المركزي المشترك والمتفاعل بكل أركانه هو بناء دولة العرب الواحدة الاشتراكية الديمقراطية . ولكن الحزب اراد أن يعطي للوحدة أرجحية معنوية ، عندما وضع الوحدة في اسبقية التسلسل ضمن أهدافه المركزية في الوحدة والحرية والاشتراكية ، وهذا ما تحدثنا عنه سابقا .

نحن لا نشكو من مأزق في قلة الكادر الذي يفهم الاشتراكية ، رغم وجود نقص واضح في هذا الكادر ، ولكن علينا أن نقول أن الفكر القومي منذ اوائل هذا القرن ركز على الجانب النضالي القومي ومعانيه النظرية ومنطلقاته أكثر مما ركز في الكتابات وفي البحث عن المعنى الاشتراكي كمضمون للنضال القومي لا بد منه في عملية الامتزاج والتفاعل في العلاقة الجدلية بين النضال القومي والنضال الاجتماعي ، وإن قيام بعض التجارب الوحدوية بأسبقية خاصة على تجارب البناء الإشتراكي في الوطن العربي جعل الحزب كما جعل كل الحركات القومية الأخرى تعاني من بعض النقص في الكوادر التي أشرت اليها . أما في حزبنا فمن المؤكد أننا نستطيع القول بثقة أن لدينا الآن الكادر القادر على فهم طريقة تطبيق اشتراكية البعث ، ولكننا مع ذلك لم نصل الى ما ينبغي أن نصل اليه . والمطلوب هو استمرار برامج التطوير والتثقيف وصولا الى المطلوب من الكوادر .

فؤاد مطر : هناك تركيز من جانبك على مسألة تحرر المرأة العربية . وهنالك إقرار بأن الثورة على الإحتكارات النفطية والمصالح الأجنبية أكثر سهولة من الثورة على القيود التي تكبل المرأة العربية . وفي الوقت نفسه هنالك تهيب من جانب الثورة لاعتماد الأساليب الاقتحامية في مواجهة التقاليد الموروثة والمفاهيم غير المنظورة التي تشكل العقبة في وجه التحرر ، ومعنى ذلك أن تبقى مسألة التحرر مؤجلة .

ولقد قلت في إحدى المناسبات ، « لكن الثورة عندما تعالج بعض الجوانب الحقوقية للمرأة بصيغ غير متوازنة في عملية المساواة ، وفي دورها التاريخي ، فإنها بالتأكيد ستخسر قسماً من الشعب » . ماذا لو حدثت هذه الخسارة التي يمكن مواجهتها بتوعية ذات تميز وأنهيتم الى الأبد المفاهيم والتقاليد الظالمة . إن الخسارة ستحدث مرة واحدة وستنتهي . أما التقاليد فإنها تواصل الانتشار .

ثم هل لك أن تحدثنا عن طبيعة مظاهر التحرر عند المرأة ، وعن الخسارة التي يمكن حدوثها لو أزلتم هذه المظاهر بأسلوب اقتحامي ؟

الرئيس صدام حسين : عندما كنا نحذر من اعتماد الأساليب الاقتحامية في معالجة موضوعات تحرير المرأة وتحقيق التكافؤ المطلوب بينها وبين الرجل كنا نفرق بين الصيغ الاقتحامية ذات المعاني الخاصة التي استخدمت مع الشركات الأجنبية ، وبين الصيغ الجريئة والمبدئية التي ينبغي أن تعالج بها قضية تحرير المرأة . فنحن لم نلغ في قاموسنا استخدام الجرأة ، التي تقتحم المواقع المتخلفة ، ولكن مسألة تحرير المرأة مسألة تتعلق بمجتمعنا ، بينما طرد الإحتكارات مسألة يريدها شعبنا كله ، وهي تتعلق بطرف آخر أجنبي يستحوذ على ثروتنا .

عندما نطرد الاحتكارات ونؤمم البترول بأسلوب إقتحامي فإننا نضع الشعب كله موحداً في خندق واحد ، ونضع القوى الثانية التي هي ليست من الشعب وانما هي قوة أجنبية بصيغة احتلال اقتصادي في خندق آخر . هذه المقارنة كانت في سياق تحذير البعثيين والمواطنين من إفتراض إمكانية تطبيق الأساليب

الاقتحامية التي طبقت ضد الشركات الإحتكارية لمواجهة المشاكل الاجتماعية للشعب . وأذكر أن هذا القول كان تعليقاً على كلام احدى المناضلات في مؤتمر نسائي حضرته ، وجاء في كلامها أن القيادة التي أممت النفط واستطاعت أن تنجح في موضوع التأميم ، لماذا لم تقتحم مواقع العقلية الرجعية فتحرر المرأة وتشرع القوانين اللازمة لهذا الغرض في وقت قصير حيثما يقتضي الأمر تحررها . فكان جوابنا على هذا القول إنه ينبغي التفريق بين الشركات الأجنبية وأسيادها والصيغ الاقتحامية التي اتبعت ضدها وبين الصيغ المطلوبة لمعالجة قضية تحرير المرأة . وفي هذا الكلام قلت على ما أذكر أننا عندما نجد أن استخدام صيغة الآن من شأن تأجيلها ثلاث سنوات جعل الخسارة في صفوف الشعب أقل من حالة الاستخدام الآن فعلينا أن نؤجلها . ومع ذلك فانه بعد هذا الكلام بسنة واحدة فقط صدر قانون الأحوال الشخصية وهو القانون المركزي لتأكيد الدور الانساني للمرأة وتحقيق التكافؤ بينها وبين الرجل .

ونحن في هذا الموضوع كما في المواضيع الاخرى لا نعالج الأمور بالصيغ وبالكيفية التي تعالج بها المعارضة أموراً من هذا النوع بما في ذلك حزبنا عندما كان في المعارضة وتصور ، ربما ، أن تحرير المرأة لا يستلزم أكثر من دراسة مجموعة قوانين ثم القول بها مرة واحدة .

إن الثورة التي لا تقنن افكارها ، أي لا تحول افكارها الى قوانين ثورية لتغيير المجتمع تبقى ثورة كلامية . وعلى هذا الاساس لا بد للثورة من أن تتحول الى فعاليات وقوانين وتقاليد راسخة لكي تثبت كحالة نهائية نسبيا في بناء المجتمع الجديد . من هنا نقيم اعتباراً غير عادي للقانون ، ولكن لا ننظر الى مسألة تحرير المرأة على أنها عبارة عن مسألة قانونية ودراسة قانونية صحيحة من حيث الاتجاه المبدئي ، وإنما ننظر اليها من خلال سلسلة الروافد التي تغطي كل حركة المجتمع . إننا نعتقد مثلا أننا عندما نعلم المرأة فانما نساعد على تحريرها . وعندما نوفر فرصة عمل للمرأة ونهيء المجتمع باتجاهه الصحيح في الميدان الاقتصادي والاجتماعي بما في ذلك توفير اوسع الفرص أمام المرأة لدخول ميدان العمل فاننا بذلك نساعد على تحرر المرأة . وعندما نوفر دور حضانة للمرأة حتى لا يحتج الرجل بضرورة انصرافها لشؤون بيتها ، فاننا بذلك نساعد على تحرر المرأة .

وفي الوقت نفسه يجب أن تعالج كل هذه النشاطات بصيغ قانونية وليس بصيغ توجيهية فحسب . من هنا فان عملية تحرر المرأة إنما هي عملية تغيير عقل المجتمع ككل ، من حالة الى حالة . وتغيير عقل المجتمع لا يتم في سنة واحدة أو سنتين أو ثلاث أو أربع ولا يتحقق هذا من خلال رافد واحد من روافد المجتمع . لذلك عندما نأتي بسلسلة من القوانين التي يفترض أن تغطي مسافة زمنية عمرها اثنا عشرة سنة خلال سنة واحدة من مسيرة ، ونقول هكذا تتحرر المرأة ، فلا بد من أن نتوقع مقدار الخسارة التي لن تكون في صفوف الأجنبي وإنما في صفوف شعبنا . ونحن لا نريد أن نخسر من صفوف شعبنا الا عندما نكون مضطرين . وفي تجارب الثورات الاشتراكية هنالك ثورات كثيرة خسرت بالالاف وبالملايين من البشر لكي تطبق الاشتراكية ، لكننا لا نريد أن نقع في مثل هذا الخطأ . لذا يجب أن نتعظ من دروس التجربة الإنسانية في الوقت الذي نستفيد منها ، ولذلك ترى أن خسائرنا قليلة على رغم أن منهج التطبيق الاشتراكي بما في ذلك تحرر المرأة

يسير بشكل طبيعي ·

إن البناء الاشتراكي والتحويل الاشتراكي في مفهومنا ليس تحويل الاقتصاد باتجاه اشتراكي فحسب وإنما تحويل الحياة الاجتماعية والعلائق الاجتماعية كلها في هذا الاتجاه وعلى هذه الأسس ·

فؤاد مطر : الحديث حول المرأة العراقية في العموميات ينقلنا الى الحديث حول أمر يتسم بالخصوصية وهو المتعلق بالسيدة حرمك · فهي على الرغم أنها أصبحت زوجة رئيس جمهورية لا تزال تذهب صباح كل يوم الى المدرسة التي تعمل فيها نائبة للمديرة · ولإن هذه الحالة لا مثيل لها فان ما نتمنى سماعه منك هو :

أولا - هل هنالك حرص من جانبك شخصياً على أن تستمر زوجة رئيس الجمهورية موظفة عادية في الدولة على أساس أن ذلك يساعد في خططك الرامية الى تحرير المرأة العراقية من القيود الموروثة ؟

ثانيا - لماذا هنالك في الوقت نفسه نوع من التعتيم الاعلامي على هذه الظاهرة مع أنها ظاهرة صحية ويمكن اعتبارها قدوة يحقق تسليط الضوء عليها فائدة أساسية في العالم الاسلامي والعالم الثالث عموما ؟

هل إن زوجتك تحظى ببعض التميز على أساس أنها زوجة الرئيس ؟

الرئيس صدام حسين: لم تعد زوجتي نائبة مديرة. في إطار الترقيات المعمول بها في العراق أصبحت مديرة مدرسة ولم يحدث ذلك بعد قيام الثورة مباشرة وانما بعد قيامها بسنوات ·وهي شديدة الإعتزاز بعملها وأنا أيضا أعتز بأن زوجتي تشارك في الحياة العامة ضمن المؤهلات التي عندها· ونحن من خلال نظرتنا الى الحياة نعتبر المسألة عادية ·سيدة تقوم بواجبها نحو بلدها ومجتمعها، وكونها زوجة رئيس الدولة لا يعني أن يشكل ذلك قيداً على واجبها المفترض أن تؤديه لمجتمعنا ووطنها ·

ثم من هو رئيس الجمهورية ؟

إنه في إطار مفهومنا إنسان مكلف بواجب في موقع لكي يخدم شعبه ·ومدير المدرسة أو مديرتها أو المدرس أو المدرسة مكلفون أيضا بواجب في موقع آخر لخدمة شعبهم ·أقول ذلك على سبيل المثال لا الحصر ·

تقول أن هنالك نوعا من التعتيم على الأمر ·هذا ليس مقصودا مثلما إننا لن نتعمد الحالة العكسية، أي تسليط الضوء، لأن المسألة في نظرنا عادية جدا وهي جزء من مفهومنا ونظرتنا الى الحياة وممارستنا الاصيلة في مجتمعنا ·ولإن الأمر كذلك فاننا لا نريد أن يكون مادة دعاية ، هذا مع الأخذ في الإعتبار أننا لا نمنع أحدا من الحديث حول ذلك ·

ويبقى أن زوجتي لا تحظى بأي تميز· راتبها مثل راتب زملائها وزميلاتها ·وتحاسب إذا وجبت المحاسبة من جانب الأعلى موقعاً · وهكذا ·

فؤاد مطر : حول المرأة ايضاً هنالك سؤال ، هل ان مشاركة المرأة الاسرائيلية الى جانب الرجل في الحرب هي التي دفعت بك الى تدريب النساء على السلاح في الجيش ، أم أن مبادىء البعث في الأصل تدعو الى المساواة حتى في هذا الأمر ؟

الرئيس صدام حسين : في الواقع هنالك أمران : المبدئي والسياسي . في الأمر المبدئي نرى ان الإنسان في المجتمع ينبغي أن يعمل في خط عام مشترك قائم على أساس التكافؤ سواء كان امرأة أو رجلا ، ولكن ضمن هذا الخط العام تؤخذ قابليات الانسان بنظر الاعتبار في توزعه على روافد الحياة . فمثلما تؤخذ قابليات الرجل عند توزيع المسؤوليات بين الرجال يجب أن تؤخذ قابليات المرأة بعين واقعية في توزيع الواجبات عليها بالمستوى الذي تقدر أن تؤدي فيه أداء حسناً . هذا هو الأمر المبدئي .

أما الأمر السياسي، فهو أن الكيان الصهيوني استخدم موضوع خدمة المرأة الصهيونية في القوات المسلحة للكيان الصهيوني بصورة مخططة للتأثير على نفسية العرب .لقد أدرك جانبا من الأمراض التي أصيبت بها العقلية العربية ومنها أنها تنظر الى المرأة نظرة استصغار ،ومن هنا بدا الصهاينة كمن يريدون أن يقولوا للعربي « أنت الذي تنظر الى المرأة نظرة استصغار إنتصرنا عليك بالمرأة »،وكان ذلك إمعاناً منهم في تهشيم معنوية العرب .وهكذا إن الجانبين المبدئي والسياسي ترافقا لكي يستخرجا هذه التجربة في توقيت إدخال المرأة العراقية في الجيش العراقي النظامي وفي الجيش الشعبي .

فؤاد مطر : في المؤتمر الثالث للاتحاد العام لنساء العراق المنعقد بتاريخ ١٧ نيسان (ابريل) ١٩٧١ ذكرت بأن التنظيم النسوي لعب دوراً بارزاً وطليعياً في بناء الحزب . وقلت « ... وعندما كانت تشتد ظروف الارهاب على المناضلين كان التنظيم النسوي في الحزب يلعب دوراً نشيطاً وفعالاً في ادامة الصلة بين القيادة وكل منظمات الحزب وبين الرفاق المعتقلين والرفاق الذين كانوا خارج المعتقل ، كما كان التنظيم النسوي قوة للتعبئة الفعالة بين الجماهير » .

هل تعتقد انه قد آن الأوان للكشف عن ظروف ذلك الدور وبطلاته .

والى ذلك لماذا لا يستطيع هذا التنظيم ممارسة دور أكثر فعالية في مواجهة المشاكل الاجتماعية الموروثة والمستجدة في العراق . خصوصاً ان الوضع الاجتماعي للمرأة العراقية هو الأكثر تعقيداً وهو الذي يتطلب مواجهة حقيقية .

في المؤتمر نفسه تحدثت عن أن «التحرير الكامل للمرأة العراقية » هدف أساسي من أهداف الحزب والثورة . ما الذي تعنيه بالتحرير الكامل ؟

وهل أن صلابة القضية الدينية هي التي فجرت عبقريات وبطولات نسائية في التاريخ ومعنى ذلك أن هوية العقيدة هي العنصر الاساسي في التحول الاجتماعي وليست المعتقدات والتقاليد الدينية المتوارثة .

الى ذلك هل ترى أن عقيدة البعث مكنت المرأة العراقية التي اعتنقتها من تجاوز العقلية والمفاهيم التقليدية . أم أن هذه العقلية وتلك التقاليد أقوى وأرسخ من أن تزيلها العقيدة البعثية ؟

الرئيس صدام حسين : في بعض مراحل النضال السري قامت الرفيقات بدور المراسل . وأهم دور كلفن به هو نقل بعض مستلزمات العمل السري من مكان الى آخر ، وتوصيل رسائل من الحزب الى المناضلين في السجون . بل إنهن أوصلن مستلزمات أخرى مثل «عدة الهروب» التي مكنتنا من الهروب من السجن ، وهذا

على سبيل المثال لا الحصر . المهم ان حضورهن النضالي كان فعالا .
وفي الوقت الحاضر بدأ الحزب يكتب تاريخه النضالي وسيضم هذا التاريخ في صفحاته مواقف وبطولات قام بها رفاق ورفيقات . وللمناسبة إننا إبتعدنا في الماضي عن الحديث حول التاريخ النضالي للحزب ، لإن جانبا منه يتعلق بأشخاصنا أو أننا لم نكن مهيئين نفسياً لكي نزيح الستار عن بعض المواقف النضالية . أما الآن فالحزب مهيأ للتحدث عن تاريخه بكل تفاصيله ، وهناك إهتمام من جانب الرفاق في ملاحقة هذا الموضوع ، وإن كان الاهتمام بهذا التاريخ الغني بالمعاني النضالية لم يصل الى المستوى الذي ينبغي أن يكون عليه .
إن العقيدة في تصورنا ، هي الأساس في تغيير أي مجتمع تغييرا جذرياً ونوعياً الى أمام . فأي تغيير عميق لا يمكن أن يحصل إلا من إنسان مؤمن . ولكن في الوقت الذي نقول عن نظرية حزبنا ، بأنها نظرية للحياة ، وليست نظرية دينية وهي ليست من السماء وإنما من الأرض ، فإننا نقيم الصلة الحية بينها وبين تراثنا وفي المقدمة تراثنا القومي والديني ، وأهم حلقة فيه هي الاسلام وروح هذا الدين ، وهي أيضاً المسلمون الأوائل .
إن فهمنا لجوهر الاسلام ، أنه لا يضع المرأة في اطار حريم ، أي أن هناك رجالاً ، وهناك نساء في خدمة الرجال ، وانما هنالك مجتمع فيه إمرأة وفيه رجل . ومثلما إن هذا المجتمع لا يمكن أن يتكون من دون الرجل فإنه لا يمكن أن يتكون من دون المرأة ، ولا يمكن أن يكون سعيداً من دونهما معاً .
إن تقسيم العمل لا يجري على أساس وضع المرأة في صيغة دينية ، وإنما وضعها في موضع متكافىء مع الرجل . ومن هنا فإن التقسيم يجري على أساس أن المرأة تجيد هذا النوع من العمل أفضل من الرجل وأن الرجل قادر على نوع آخر من العمل ويجيده أفضل من المرأة . هذه المسألة صحيحة . كانت صحيحة في الماضي وهي صحيحة في الحاضر وستبقى صحيحة في المستقبل أيضا .
من هنا ان نظريتنا هي الأساس في منهجنا لتغيير المجتمع ومن ضمن التغيير تحرير المرأة .

فؤاد مطر: ولكن الغرب المتقدم جدا يعيش أزمة طاحنة . أحد اسبابها أن المرأة مضطرة للعمل والرجل كذلك . وهذا الاضطرار أوجد حالة فراغ نفسي وإجتماعي عند الاثنين ... واستتبع ذلك حدوث تشتت أسري ثم انتهى التشتت الى حالات درامية وانهيارات عصبية . ونحن عندما نضع تحرر المرأة العربية هدفا لا حدود له فمعنى ذلك أننا سنوصلها مع الوقت الى الحال التي تعاني منها المرأة في الغرب .
ألا يرى الرئيس أن التحرر يحتاج الى مبادىء عمل أو نظرية عمل إذا جاز التعبير مخافة أن نصل الى وقت يصبح تحرر المرأة الذي هو مطلب لإنصافها عبئاً عليها بالغ القسوة ؟

الرئيس صدام حسين: إن حزبنا متنبه لهذه الظاهرة. فهو لا يقول بأن المرأة خلقت للعمل في كل الميادين وتحت كل الظروف، وبالصيغ نفسها التي يعمل بها الرجل . عندما نقول ذلك نلحق أذى كبيراً بالمرأة ، كما أن المرأة لا تريد مثل هذه النظرة اليها .

ولقد قلت في ندوة مفتوحة مع اتحاد نساء العراق أن المساواة النظرية والقانونية والعملية هي ضد المرأة ، لإننا عندما نطالب بأن تتساوى المرأة مع الرجل في العمل الشاق الفلاني نكون عملياً قد غدرنا بالمرأة تحت هذه النظرية في المساواة . المجتمع الغربي مجتمع رأسمالي بمعنى أنه لا يوفر الدخل على أساس نظرة اشتراكية عامة لبناء المجتمع وانما على أساس جهد الانسان بغض النظر عن الاعتبارات الاخرى ، وعلى أساس حاجة « الماكينة » الرأسمالية له ، ومن أجل ذلك فإن المرأة مضطرة للعمل وفي اعتقادها أنها تقوي من خلال مساهمتها في إعاشة نفسها وعائلتها الرباط الأسري . لكن ثقل العمل والمسؤولية عليها يجعلها تكتشف مع الوقت بأنها فقدت الجو الأسري وحدث التشتت بالفعل ، ذلك أن الفرق كبير بين عمل المرأة في اطار المساهمة وعملها في اطار الحاجة والاضطرار .

بالنسبة الينا الوضع مختلف لأن المفهوم مختلف . إننا نحدد الدخل على أساس المطلوب لتحقيق سعادة الانسان . وفي الوقت الذي نوفر فرص العمل للمرأة نوجد قوانين تقوي الصلات الأسرية . إننا على سبيل المثال أعطينا المرأة العاملة الحامل إجازة طويلة تبدأ قبل الولادة وتنتهي بعد أن تكون اطمأنت الى وليدها وارتاحت . ومن وجهة النظر الاقتصادية المجردة تبدو مثل هذه الاجازة الطويلة تفتيتاً للإقتصاد لولا أننا خلافا للمجتمع الرأسمالي نرى أن الحركة الإقتصادية يجب أن تكون في خدمة المجتمع الاشتراكي . وهذا ليس هو القانون الوحيد في شأن الحفاظ على الاسرة الذي يرافق خططنا من أجل تحرير المرأة . فهنالك خطوات أخرى كثيرة ستتحول الى قوانين بعد أن تناقش ما فيه الكفاية . وهذه القوانين ستأخذ في الاعتبار ، كل الاعتبار ، تقوية العلاقات الأسرية وعدم الانشغال عنها في زحمة بناء المستلزمات المادية للتطبيق الاشتراكي الفعال .

فؤاد مطر : بعد التغيير الذي حدث في ايران والتطورات المتلاحقة بدا كما لو أن هنالك تناقضا حاداً بين الثورة العربية والثورة الاسلامية .

ألا ترى أنه في الإمكان ايجاد الصيغة التوفيقية بين الثورتين بحيث تساند الثورة الأخرى ؟

وفي ضوء مواجهتين حدثتا بين العراق وسلطتين مختلفتين في ايران ، سلطة الشاه والسلطة الدينية التي أسقطته ، ما هو تحليلك لقضية إيران عموماً ، وأي ايران هي التي يطمئن العراق الى حسن جوار مثالي معها ؟

وهل أنه ليس في خططكم وضع اليد على الجزء العربي من إيران ؟

الرئيس صدام حسين: في تصورنا أن أي ثورة تقع خارج الوطن العربي في أحد الأقطار الاسلامية تستلهم روح الاسلام وتعبر عنه نفرح لها ونرى فيها جسرا يمتن صلة الوصل بين الأمة في حركتها بإتجاه بناء المجتمع الجديد والأمم الاسلامية غير العربية . ونعتقد أن أي ثورة في المجتمع الإسلامي لا تستلهم روح الاسلام ولا تتصل به فإنها لا بد تبتعد أو تتعارض مع الثورة العربية . إذن نحن نفرح لأي ثورة تقوم على أساس روح مفاهيم الإسلام في أي مجتمع اسلامي غير عربي لإنها توفر هذا الجسر

المشترك بين العرب وبين غير العرب في المسلمين الذي هو الاسلام . ونرى في أي ثورة تأخذ الأسلام غطاء لها ثم تتصادم مع الثورة العربية أنها مؤذية للعرب ، مثلما هي حالة مؤذية لجوهر الإسلام ، لإنها تنطلق من تصور خاطىء يفترض أن هنالك تناقضاً ، بدلاً من التوافق ، بين هذا النوع من الثورة وبين الثورة العربية .

ومن الطبيعي بالنسبة الينا ألا نرى تناقضاً مع أي ثورة أصيلة تستلهم روح الاسلام بعد ١٤٠٠ سنة بسبب إدراكنا لإهمية جسر العلاقة بين الثورة العربية وهذه الثورة على مساحة عمومية مشتركة من المصالح والتقاليد بالإضافة الى الاشتراك الواسع في بعض الأصول التاريخية والعقيدة الدينية ورفض الظلم والإستغلال والتبعية .

تلك هي صلة الفهم التي نراها . ومن هذا المنطلق فرح كل عربي عندما سقط الشاه ، ليس لكونه حاكماً باغياً وطاغياً ، ولإن حكمه كان فاسداً وسقوط أي حكم فاسد في العالم يعد نصراً لقوى الخير والتقدم ، وإنما على أساس مفهوم خاص ، وهو أن المجتمع الذي سقط فيه هذا الباغي ، هو مجتمع اسلامي ، وهو مجتمع يقع على حدود الأمة العربية .

من هذا المنطلق فرح كل العرب بسقوط الشاه ، وفرحوا بالظروف الجديدة على أساس ما عسى أن توفره من مناخ لإقامة جسر مشترك بين الثورة في ايران والثورة العربية لان الثورة العربية ليست حركة القوانين الخاصة لبناء المجتمع العربي في إطار جديد على الارض فحسب ، وإنما هي الحالة الثورية المستوحاة من روح السماء في الوقت الذي تتصل بالارض .

لكن عندما نراقب كيف تصرف الإيرانيون ، ولنقل بعض الايرانيين ، بل ولنحدد هؤلاء بالمسؤولين في إيران ، نلاحظ أنهم تصرفوا وكأنما هنالك تناقض مفترض بل حتمي بين ثورتهم وبين الثورة العربية . ولا يمكن أن يفترض مثل هذا التناقض إلا عندما يكون الايرانيون شوفينيين وإنعزاليين في نظرتهم الى العلاقة مع العرب تاريخاً ومصالح ومستقبلاً . وفي هذه الحالة فقط يفترض وجود التعارض بل يكون حتمياً ، مع حركة القومية العربية . وعندما تنطلق الثورة الايرانية منطلقاً طائفياً سيحدث التصادم معها بصورة مؤكدة ايضاً لان الثورة العربية ليست طائفية .

وعندما تصور الثورة الايرانية لنفسها أنها تريد أن تحرر العرب ، تقع في الوهم والتصادم مع أنه كان في إمكانها أن تشارك في تحرير بعض المجتمعات العربية من فساد الأنظمة بمعنى الإشعاع وبمعنى النموذج الذي لا يأخذ معنى التعصب والمعنى الضيق للقومية ، أو يأخذ المعنى الفئوي الطائفي في القضية الدينية .

وعندما تكون ثورة تستوحي مبادىء الاسلام الأصيلة وتتصل به إتصالاً حياً فإننا نعتقد أنه لا يمكن ان يكون بينها وبين الثورة العربية أي تناقض .

ولنقل أكثر من هذا . نحن ضد أن نحشر أو يحشر الآخرون أنفسهم في أحكام مسبقة ، وبوصفات جاهزة . ولهذا السبب نرى صورة البعث في التصدي الجريء للظلم والفساد في كل الشباب الذين يعملون بروح الإسلام ضد الأنظمة المهترئة والفاسدة ، عربية وغير عربية ، وإن أخذت شكلا آخر غير شكل البعث . وإننا نعتقد أن فعل كل الشباب المسلم الثائر على الفساد ، إنما هو فعل ثوري أينما كان حتى ضمن الوطن العربي ، وعندها لا نجد تناقضا بيننا وبينهم في عملهم ضد

الأنظمة الفاسدة والعميلة والطائفية والمتخلفة ولكننا ندعوهم من الآن الى أن يفهموا تطور الحياة وأن يفهموا الفارق الزمني بين دعوة محمد بن عبدالله (ص) قبل ١٤٠٠ سنة وبين المرحلة الحالية بعد هذا التاريخ ، بمعنى أن يفهموا كيف يعبرون عن روح الاسلام وجوهره الأساسي في المجتمع الذي سيقيمونه بعد ذلك .

الى أي مدى ينجح الثوار الذين وصفناهم ، في المجتمع الاسلامي غير العربي أو المجتمع العربي ، في بناء المجتمع وفق هذا الإطار بعد إزاحة الأنظمة المهترئة والفاسدة الأخرى ؟ تلك مسألة أخرى . أما في تصديهم لهذه الأنظمة مستعينين بمفاهيم الإسلام المضادة للتصرفات الشاذة والظالمة فنحن نجد أن هؤلاء كأنهم بعثيون يقومون بمهام ثورية ، وينبغي أن يثوروا في كل الأساليب ضد الأنظمة الفاسدة ، بصرف النظر عما إذا كان بناؤهم بعد سقوط الفساد سيأتي صحيحاً ، وتلك مسألة اخرى تعتمد على الجانب الآخر الذي أشرنا اليه .

ليس من مهمتنا أن نقدم النصائح ، ولكن من حقنا أن نعتقد وعلى أساس هذا الفهم ، أن مجتمعاً كالمجتمع الايراني يتضمن خمس قوميات ، لا بد لحكامه إذا أرادوا له الحياة السعيدة البعيدة عن المشاكل وتدخل القوى الخارجية ، أن يفهموا هذه الحقيقة ، وأن يفهموا أنهم في الوقت الذي يقولون عن ثورتهم بأنها تقوم على أساس مبادىء الدين الاسلامي لا يوجد تناقض بين جوهر الدين وبين الخصوصية القومية التي ينبغي أن تعطى للقوميات الأربع غير الفارسية الموجودة في مجتمعهم وهي قوميات العرب والأكراد والبلوش والاذربيجانيين إضافة الى الفرس .

أما عن وجود عربي ضمن دولة ايران ، فهذه حقيقة . العرب ليسوا قلة ، وهم ليسوا بالآلاف وإنما بالملايين . وعلى هؤلاء وليس على أي جهة أخرى يتوقف أمر إختيار المصير الذي يريدونه .

وتكراراً ، إن إيران التي يطمئن العراق اليها والى حسن جوار مثالي معها هي التي تأخذ بالمبادىء والحقائق الموضوعية التي أشرت اليها .

فؤاد مطر : كيف بدأت علاقتك بفلسطين . ومتى انتقلت نظرتك الى فلسطين من نظرة معاناة رومانطيقية الى نظرة واقعية ؟

والى ذلك ماذا كان تصورك أنك تستطيع أن تفعل لفلسطين لو أمكنك تسلم الحكم . وبعدما تسلمت الحكم ما هي الحواجز التي اصطدم بها تصورك ؟

وبين العام ١٩٤٨ والعام ١٩٧٩ ما الذي قدمه العراق للقضية الفلسطينية . وأي فلسطين هي التي تناضلون من أجلها ؟

الرئيس صدام حسين : لا أعتقد ان في امكان اي حركة أن تخلق مجتمعاً جديداً ، بمعنى أن تحوله نوعياً من حالة الى حالة من دون ان يكون لهذه الحركة خيال ثوري ، لا يهمل الأرضية ، ولكنه لا يكتفي بها .

وفي الوقت الذي يقف الخيال الثوري على تلك الأرضية ، يتطلع فيرى الحياة ، مثلما يريدها في الأفق ، أي أنه في الوقت الذي يتعامل مع الحياة التي تحكمها ظروف الواقع يرى الحياة التي يناضل من أجلها بتفاصيل أخرى ، متطورة عن

الحياة التي يتداول مفرداتها في الافق تتوهج في اشعاعها لتخترق له كل دياجير ظلام الطريق الموصل اليها . ومثل هذا الخيال الذي أشرت اليه خيال مشروع . والرومنطيقية الثورية بهذا المعنى موجودة حتى الآن عندي ، لم تغادرني ولم أغادرها ، بل بالعكس أجد لذة فيها الآن أكثر من السابق ، وأجد نفسي بحاجة اليها الآن أكثر من النضال السابق لكي لا تاسرني مفردات الحياة العملية اليومية أو ذات الافق المحدود ، أو ذات البرامج الزمنية المحددة .

وعلى أساس هذا الفهم ، ليس كل ما نتمناه أو كنا نتمناه حققناه . وهذا أمر طبيعي .

لكن ماذا قدمنا للقضية الفلسطينية ؟ نحن نتمنى أن نقدم أكثر . ففي عمرنا لم نكتف بما قدمناه ونعتقد أن ما قدمناه شيء مثمر ، بالقياس الى كل الدول العربية بلا إستثناء . فإذا ما حذفنا خصوصيات بعض الدول التي احتلت أرضها الاقليمية ، فنحن قدمنا أكثر من أي قطر عربي . لم تقم حرب من دون أن يشترك العراق فيها . ولم تطلق قذيفة من دون أن يكون للعراق لولب فيها . وكنا في استمرار ندعو الى دعم الثوار والمناضلين الفلسطينيين ، بل نحن المبادرون الى دعمهم وسوف نبقى .

أما ما هي فلسطين التي نتمناها ، فإنها فلسطين الخالية من كيان صهيوني مغتصب . ولكن ذلك ليس دعوة إلى كيان فلسطيني خال من اليهود . إن العرب في تاريخهم لم يكونوا متعصبين سواء في نظرتهم الدينية أو في نظرتهم القومية . ولكن المسافة بيننا وبين هذا الهدف لا تزال بعيدة ومن الممكن تغطيتها ببرنامج تخطيطي صبور ومتفائل لإغراض الوصول .

فؤاد مطر : في هذا الأطار ، نسأل الرئيس ، كمناضل ثوري ، كيف تصبح الثورة الفلسطينية أكثر فعالية ، وهل يرى أن تشجيع العراق في فترة من الفترات النضالية ، لنوعية بالغة الحدة من العمليات الفلسطينية وبالتحديد العمليات التي خطط لها المرحوم الدكتور وديع حداد ، أفاد القضية ؟

الرئيس صدام حسين : حينما تتخلص الثورة الفلسطينية من تأثيرات التيارات السلبية في الوطن العربي ، وعندما تتخلص من اللعبة الدولية ، تصبح افضل .

إن الامة العربية ، هي مصدر الإلهام الأساسي ، ومصدر القوة الأساسي لها ، ولكن سلبيات الأمة العربية ، هي ثقل كبير على عاتقها . وفي الوقت نفسه ، إن عروبة الثورة الفلسطينية هي أساس قوتها وتفاؤلها وأساس نجاحها قطعاً ، واذا تخلت عنها لن تصل الى الهدف ، علماً بأن عروبة الثورة الفلسطينية هي ايضاً عبء على أكتاف الثوار الفلسطينيين .

لقد صارت عروبة الثورة الفلسطينية تدخل كل أطراف وتيارات المجتمع العربي السياسية ، وبات كل الحكام العرب يتدخلون في الثورة الفلسطينية ويمتدون الى داخلها ، الخيّر منهم وغير الخيّر . أصبحت عروبة الثورة الفلسطينية المدخل لوصول كل التيارات الدولية اليها من خلال الأنظمة العربية المرتبطة بالتيارات الدولية أو من خلال تلك التيارات الدولية من دون واسطة .

ولقد كان في إمكان الثورة الفلسطينية أن تتجنب بعض السلبيات التي نضحت إليها من المجتمع العربي وفق الصيغ التي أشرنا اليها ، ولكنها لم تفعل ، وربما كان للثوار الفلسطينيين أسبابهم الجغرافية السياسية حيث أنه ليس للثورة الفلسطينية قاعدة خاصة بها ، تستطيع أن تحصنها وتستخدمها للإنطلاق بعيداً عن القيود السلبية التي أشرنا اليها .

ومن خلال هذه الظروف نتصور قيمة وأهمية التفاعل بين رافد الثورة العربية في إختصاصها الفلسطيني وبين الروافد الأخرى للثورة العربية . ولنقرب الصورة فنقول بين الثورة العربية بمعناها الشمولي وبين الثورة الفلسطينية في خصوصيتها الوطنية للوصول الى الهدف الواحد وليس الهدف المشترك ، وهو تحرير فلسطين .

أما تأييدنا للعمليات الحادة ، فإنه يتصل بالحالة الظرفية التي لا بد من إدخالها في كل عمل وكل خطوة . ونحن مازلنا مستعدين لتأييد أي عملية حادة تخدم القضية الفلسطينية والنضال الفلسطيني ، بما في ذلك العمليات الانتحارية داخل الارض المحتلة وخارجها . وهذا الخط ، لن نتخلى عنه ، وإن كانت صيغ التعبير عن هذا الخط قد تأخذ معان واتجاهات وأساليب ، تبدو وكأننا تحولنا من حالة الى أخرى . إننا مع أي صيغة تبدو معبرة عن ضمير الفلسطينيين والعرب في نضالهم التحرري ، دون أن تفقدهم الرأي العام على نطاق واسع ، وهذا خط ثابت في منهج حزبنا لا تغيير فيه ما دامت الفعاليات تتجه الى تحرير فلسطين .

فؤاد مطر : في تاريخ العراق أبطال سجلوا مواقف مضيئة إزاء فلسطين . من هؤلاء على سبيل المثال نبوخذ نصر وصلاح الدين . هل يمكن ان نفترض انك تحلم بدور كالذي قام به هؤلاء ، وهل تعتقد أن ذلك ممكن ، أم أن الظروف التي كانت قبل ثلاثة آلاف سنة تتيح لمن يتطلع الى دور تاريخي في فلسطين ، أن يقوم بهذا الدور على نقيض ظروف العصر الراهن ؟

الرئيس صدام حسين : أنا والله أحلم وأتمنى ذلك ، وانه لشرف عظيم أن يحلم الانسان بهذا الدور ويتمناه . ولكن أنا في الواقع مثل كل الثوريين البعثيين والمناضلين العرب عموماً ، بغض النظر عن عقائدهم ، أدرك أن عالم اليوم هو غير العالم الذي حرر به نبوخذ نصر الأرض المغتصبة في فلسطين أو قاتل صلاح الدين الايوبي الصليبيين . ذلك أمر من المهم ادخاله في الحساب .

اما بالنسبة الى المنهج العام فنحن نؤمن أنه لا يمكن تحرير فلسطين من دون إستنهاض الأمة ومن دون توفير قدرات تحرير الأمة في ذاتها وامتلاكها ثقتها بنفسها ، ومن دون توفير مستلزمات التحرر في الميادين الأخرى . هذه ساحة مشتركة وفهم مشترك لكل المناضلين العرب والثوار ، ومهما كانت المسافة التاريخية بين هذا أو ذاك . ونحن مطالبون بأن نجعل من عبقرية أي قائد تجسيدا لعبقرية الأمة ، أكثر مما هي عبقرية تبدو متقدمة على عبقرية الأمة ومنفصلة عنمخزونها من العبقرية . في عالم اليوم إن عبقرية أي قائد ، هي بمقدار ، ما يكون معبراً عن عبقرية الأمة ، وبمقدار تواصله مع تاريخها ومع ضميرها في الوقت الذي يكون عمله حالة متقدمة على واقع الأمة في اللحظة أو في الظرف .

لا أريد التقليل من شأن أي قائد، بما في ذلك دوري كإنسان مناضل، ولا أريد أن أهمله، ولكنني لا أنظر الى الأمور نظرة المقارنة، ليس استصغاراً لنفسي أو عدم الثقة بها، ولكن للحسابات التي أجريناها وهي أن الأمة في حاجة الى عمل جماعي، يوفر الحد الأدنى من التلاقي الذي يخدم الأمة، مع أرجحية قيادية تخلقها الظروف النضالية ذات المدى الطويل. والأمة العربية باتت محرومة الآن من فرصة زمنية طويلة تعبر فيها عن كل معانيها التاريخية والنضالية على هذا الطريق، لإن التحديات صارت كثيرة ومتعددة الألوان والجهات وصارت اللعب الدولية تأخذ دوراً واسعاً في الوطن العربي. وفي هذه القضية، هناك تقييدات أخذت تحد من عبقرية الأمة كما ينبغي من أجل ظهور قادة أو مناضلين في المستوى المطلوب، ولذلك فإن فرصة أي قائد عربي في أن يظهر على غرار نبوخذ نصر أو صلاح الدين الايوبي الآن غير متوافرة كما كانت في تلك العهود، ولكن من حق كل واحد أن يحلم وأن يناضل وأن يستوحي المعاني الأساسية التي من أجلها أو بواسطتها إنتصر صلاح الدين ونبوخذ نصر والآخرون. أي نحلم في أننا قاب قوسين أو أدنى من فلسطين وأن نعمل بوحي هذا الحلم، من دون أن ننسى ان الدول الكبرى تحاول أن تخيف العراق. ولكن العراق سيمضي في الطريق، وسيمضي لكي يجسد للأمة على هذه الرقعة معانيها النضالية والانسانية. من خلال استحضار كل تاريخها القديم وكل عبقريتها، عبر كل المعاني الانسانية التي أعطتها للإمم في الماضي والتي تتطلع كذلك بها الى أمام. لكن في كل لعبة، حتى الألعاب الرياضية بما في ذلك الألعاب الريفية، عندما يرون لاعباً ماهراً يطوقونه دائماً ويحاصرونه لكي لا يتركوا له فرصة في أن ينتصر.

كذلك يتملكني إحساس بأن بعض الدول الكبرى باتت تتنبه الى أهمية أن يحاصر العراق وأن يشاغل بشتى الطرق.

ومهما كانت التضحيات لكي لا يخرج العراق بروحه وبمبادئه خارج الحدود، وأعني بالعراق هنا روح الثورة العربية في هذا المكان، وعدم السماح لها بأن تخرج الى نطاق واسع، فإنني متفائل بأن روح الأمة سوف تشع مهما كانت المحاولات الى أبعد من العراق، وتملأ أرض الوطن العربي وهجا ومبادىء.

فؤاد مطر: حول الصراع العربي ـ الاسرائيلي. هناك بضعة أسئلة:

أولاً ـ كيف ترسم خريطة هذا الصراع؟

ثانياً ـ ما هو الفرق بين الموقف السوفياتي والموقف الاميركي ما دام الموقفان يلتقيان على أن اسرائيل وجدت لتبقى. وما دام الاتحاد السوفياتي يرفض أن يمد العرب بالأسلحة الهجومية التي تجعل قاعدة التوازن في القوى بين العرب واسرائيل متعادلة؟

ثالثاً ـ أليس لاتفاقات كامب ديفيد أية ايجابيات؟

رابعاً ـ هل فاجأك موقف الرئيس السادات وما هو في تقديرك السر في أنه لم يكترث على الإطلاق بكل العروض التي قدمت اليه كي لا يواصل السير فى مخطط الحل المنفرد؟

خامساً ـ ما هي في تصورك الاستراتيجية التي من شأن التحرك في ضوئها تحقيق الحل العادل لأزمة الشرق الأوسط ؟

سادساً ـ هل ترى أن الدولة الفلسطينية التي باتت مقبولة من معظم الأطراف الفلسطينية يمكن أن تشكل حالة استقرار في المنطقة ؟

سابعاً ـ هل إن الدور الذي لعبته من أجل عقد قمة بغداد كان ضمن مفهوم جديد ، وهل إن المرونة التي إتسم بها هذا الدور كانت مسألة تكتيكية أو أنها جاءت على حساب قناعتك في أسلوب التصدي ؟

الرئيس صدام حسين: في مؤتمر بغداد كان التشدد وكانت المرونة معاً . التشدد في رفض العمل الذي أقدم عليه السادات والذي كان من الممكن أن يسكت عنه كثيرون أو يقبل به آخرون . والتشدد بمعنى العزم على الرفض الحازم والعمل الايجابي بالضد من هذا التصرف . وقد قلنا للمترددين بأننا ما لم نتفق على رفض خطوة السادات وإدانتها والعمل على تطويقها بموقف جماعي فينبغي أن ننقسم ونحترب فيما بيننا ، بين من يقف الى جانب السادات ويؤيده ، وبين من يرفض السادات ويحاربه ، وليس هنالك مكان بين الحالتين ، وكان هذا الموقف يحمل تشددا مبدئيا واضحا ، ولكن في الوقت نفسه كانت المرونة في التفتيش عن صيغة للتعبير عن هذا الموقف تجمع الجميع وتشكل الحد الادنى في الموقف المشترك الذي يكون النزول دونه خيانة وانحدارا الى الهاوية .

وهكذا فإن القرارات في قمة بغداد لم تجر على أساس المرونة وحدها ، ولو أن مؤتمر قمة بغداد إنعقد على أساس المرونة وحدها لما كان بإمكاننا أن نخرج بالقرارات التي خرجت . كذلك لو كان التشدد وحده ما كان بالإمكان ان نخرج بالقرارات التي خرجنا بها .

لقد كان التشدد المبدئي المرفود بصيغة من المرونة المعبرة عنه تعبيراً أصيلاً يشكلان حالة واحدة واتجاهاً واحداً ، لذلك وجد عرب قمة بغداد ان النزول دون تلك القرارات لا بد أن يكون إنحداراً بالموقف الى جانب السادات . وهكذا رفعت قمة بغداد الآخرين الى الأعلى من الذين كان ممكناً أن يسقطوا دون الحد الذي رسمته تلك القمة ، وهذا هو السر الأساسي في نجاحها .

نأتي الآن الى تحديد الفرق بين الموقف الأميركي والموقف السوفياتي . الواقع أن كليهما يقولان من الناحية العامة بضرورة إنسحاب « اسرائيل » والاعتراف لكل دول المنطقة بحدود آمنة ، ولكن الموقف السوفياتي واضح في ضرورة انسحاب العدو ، وأكثر جدية من الموقف الأميركي ، لأن السلاح الذي يعطي الموقفالسياسي جديته والمستخدم من قبل العرب هو سلاح سوفياتي بينما السلاح المقابل له والذي يستخدم من قبل الكيان الصهيوني هو سلاح أميركي ، لذلك فان السوفيات يقولون بضرورة انسحاب « اسرائيل » إلى ما بعد حدود ٥ حزيران .

وقد يتضمن الموقف السوفياتي بعض المرونة والتنازل عن بعض أراضي العرب المحتلة بعد ٥ حزيران ١٩٦٧ ، فضلاً عن أنه لا يجد أي مكسب في أن يحتفظ الكيان الصهيوني ببعض أراضي العرب التي احتلها بعد ٥ حزيران ١٩٦٧ ، في حين قد يجد الأميركان ما يوافقهم إستراتيجياً في بقاء الاحتلال الصهيوني لإراض عربية

احتلت بعد ٥ حزيران ١٩٦٧ . ومع كل ذلك فإن الموقف السوفياتي في حساباته واعتباراته الاستراتيجية الى جانب العرب الى « حدود » قبل بدء حرب ٥ حزيران ١٩٦٧ في حين أن الحسابات والاعتبارات الاستراتيجية قد وضعت الأميركان الى جانب الكيان الصهيوني . ويصر كل من الاتحاد السوفياتي والاميركان على أن حقوق العرب يجب ألا تتجاوز بالنسبة للسوفيات استرجاع كل الاراضي العربية التي احتلتها « اسرائيل » بعد ٥ حزيران ، وبالنسبة للاميركان أغلب الأراضي التي احتلت بعد ٥ حزيران ١٩٦٧. وكلاهما يشترط اعتراف العرب بـ « اسرائيل » كدولة قائمة بصورة طبيعية على أراضي فلسطين التي احتلتها قبل ٥ حزيران ، بما فيها أرض فلسطين العربية التي احتلتها سنة ١٩٤٨ ، وقبل هذا التاريخ . ومع ذلك فنحن نرى ان هنالك ربطاً بين وجود الكيان الصهيوني كقوة قادرة على إيذاء أو تهديد العرب في الوقت الذي تشاء وبين الاستراتيجية الأميركية ، بينما هذا الربط غير موجود بالنسبة للاستراتيجية السوفياتية الآن . أما كيف يتصرف العرب بما يجعل الاستراتيجية السوفياتية لا ترى في حركة العرب الى أمام ما يتناقض مع بعض خصوصياتها فهذه مسألة فنية تعتمد على القيادات العربية وعلى عوامل أخرى في السياسة الدولية وتطورها .

وفي تقديرنا وإيماننا إن إمكانات العرب النامية وقدرتهم على الفعل الى أمام قادرة على أن تطور المواقف السوفياتية الى ما هو أبعد من المنظور الراهن ، وكذلك بالنسبة الى الموقف الأوروبي ومواقف الشعوب الأخرى التي مازال موقفها دون الموقف العربي ، بما في ذلك التأثير في عقلية الأميركان الذين يستطيعون التحرر من ضغوط المصالح الصهيونية وتأثيراتها في المستقبل .

فؤاد مطر : تبقى اتفاقات كامب د يفيد وما اذا كانت لها ايجابيات . ويبقى موقف الرئيس السادات وهل أنكم فوجئتم به . وتبقى الدولة الفلسطينية وهل إن قبول معظم الأطراف الفلسطينية بها يعني قبولاً من جانبكم وهل انها تحقق استقراراً في المنطقة ؟

الرئيس صدام حسين : كيف يمكن ان تكون لإتفاقات كامب ديفيد ايجابيات ؟

فؤاد مطر : بمعنى أنها أفرزت عناصر عربية كنتم تظنون أنها محصنة وتتعاملون معها على أساس أنها شريكة في القرار العربي وفي النضال من اجل فلسطين ؟

الرئيس صدام حسين : لا نعتبر اسباب الهزيمة مكاسب ، ولذلك ليس في امكاننا ان نرى بأن اتفاقات كامب ديفيد تتضمن أية ايجابيات ، ولكننا نعتبر الخيانة أو الانحراف عندما يبدأ من الشاطىء ويستمر فسوف يصل الى الغاطس أو الهوة السحيقة ، ومن هنا كنا دائما نحذر من المرونة التي تروض النفسية العربية ومن ثم تؤخذ غطاء للردة ، وهذا ما حصل .

وما فعله أنور السادات لم يكن في امكانه ان يفعله عام ١٩٧١ لإنه في ذلك الوقت كان مغامرة كبرى . ولكن الفعل التساومي الذي سمي « مرونة » مر بسلسلة من عمليات الترويض واشتركت فيه قوى عدة البعض منها عن وعي وإدراك كالولايات المتحدة والصهيونية ، والبعض الآخر وقع فريسة أو ضحية سوء التقدير بسبب إنعدام النظرة المبدئية الشاملة أو لإسباب أخرى .

وفي ما فعله السادات فاجأتني الصيغة ولكن لم تفاجئني النتيجة لإننا كنا نقدّر أن الانحدار سبق اجتماع كامب ديفيد وقبلها زيارة القدس . وكما نتصور ان القرار السياسي الخائن أو المهزوم سيكون النتيجة الطبيعية لسياسات خاطئة أو منحرفة ظهرت على سطح السياسة العربية قبل هذا التاريخ ، وكان الكثيرون من غير الاميركان والصهاينة يطبلون لها ويلتمسون لها الأعذار ويصفونها بالحصافة السياسية فيما كانت توصف مواقفنا المبدئية بالتشدد غير المعقول أو أنها تعبير عن عدم النضج السياسي ، لذلك فإننا كنا نرى في الأفق كإحتمال ممكن ، ما وقع فعلا .

أما مسألة الإستقرار في المنطقة وهل إنه يتحقق بقيام الدولة الفلسطينية ، فرأيي أن حالة الاستقرار في المنطقة لا تمر عبر صيغة واحدة ، ولا تصبح قائمة عند معالجة قضية أو ظاهرة واحدة ، بمعزل عن كل الحالات والظواهر الأخرى . حالة الاستقرار الحقيقية في المنطقة تتحقق عندما تتحرر الأمة العربية تحرراً حقيقياً وتمتلك إرادتها الكاملة بنفسها وأن يغادرها الأجنبي ، وعندما تنمو قدرتها الوطنية والقومية الى الحد الذي تصبح عنده قادرة على الدفاع عن نفسها وحفظ سيادتها وحقوقها من دون التوهم بأن هذا يمكن تحقيقه بالاتكاء أو التبعية لهذا الطرف الدولي أو ذاك .

فؤاد مطر : حول الوحدة والوفاق العربي هناك بعض الاسئلة :

أولاً ـ متى سنصل الى وقت يشعر كل بلد عربي بالحاجة الى التوحد مع البلد العربي الآخر ؟

ثانياً ـ ما هي في تصورك العقبات التي تحول دون تحقيق الوحدة ؟ هل هي مثلاً عدم توافر القناعات أم هل هي تكمن في الصراع الصامت في نفس العربي : صراع الحضارة والبداوة والخوف من ذوبان الكيان ؟

ثالثاً ـ ألا ترى أن هنالك إستحالة لامر تحقيق الوحدة العربية ما دامت حال الأقليات في الوطن العربي على شيء من التعقيد . وإزاء هذا الأمر هل يرى الرئيس أن من الأفضل إستنباط صيغة جديدة دون الوحدة يمكن للجميع التعايش في ظلها ومع الوقت يصبح من السهل اذابة الحساسيات وتقبل الوحدة كاملة ؟

رابعاً ـ هل أنت متفائل بأن الوحدة العربية يمكن أن تتحقق ومتى وفي ظل أي ظروف . وما دمت تؤمن بالمرونة فلماذا لا يكون هنالك سعي من أجل عمل دون الوحدة وفوق التنسيق يشكل البديل للوحدة المستعصية التحقيق ؟

خامساً ـ كيف تفسر ظاهرة التعايش المثالي بين الأنظمة التقليدية العربية واستحالة هذا التعايش نسبياً بين الأنظمة الثورية ؟

الرئيس صدام حسين: إن الاشتراك في خواص واحدة بين أوساط متعددة تقع على سطح واحد يسهل التفاهم فيما بينها واتخاذ المواقف المشتركة ، لذلك فإن الخواص المشتركة قادرة على أن تجعل منها خطاً واحداً من دون أن يفقد أي منها خواصه ، وهكذا نجد العرب اليمينيين والرجعيين في علاقاتهم . لذلك فإن التعايش بينهم يأخذ معناه في

الاستقرار النسبي والتوافق ويجد معناه في المصالح المشتركة والخواص المشتركة بين تلك الأنظمة لإن تقاليدها مبنية على اساس أنها أنظمة بالاتجاه الرأسمالي شبه الاقطاعي، بينما نجد أن الانظمة التقدمية مازالت خواصها في طور البناء وفي اتجاه عام لا يتضمن تحديدات واضحة في التقاليد الراسخة فضلاً عن ان القوانين مازالت في طور البناء الحديث، ومازالت تعيش على سطحين، سطح التقاليد والبناء القديم وسطح التقاليد والقوانين والبناء الجديد والتي هي في اغلبها غير راسخة وغير مستقرة في ضمير الشعب وعقله عدا عن كونها متباينة بين هذا النظام التقدمي وذاك. من هنا فهي أوساط غير متجانسة واقترابها من بعضها غير قادر على أن يحقق منها جميعاً وسطاً بخواص واحدة وانما تبقى حالتها في الاقتراب من بعضها هي حالة جمع الخواص المتباينة وغير المتجانسة، لذلك نجد أن حالة التناقض بينها تكون أكثر مما هي في حالة تلاقي الأنظمة اليمينية والرجعية العربية مع بعضها.

والى ذلك ان طموح الأنظمة الرجعية في الزعامة يأخذ معاني وتعبيرات أكثر واقعية من طموح بعض الزعامات في الأنظمة التقدمية، حيث تجد أن بعض الأنظمة التقدمية، في الوقت الذي تنافس الأنظمة العربية عموماً، خصوصاً الأنظمة العربية التقدمية على كل مساحة الوطن العربي، فإنها تنافسها على مساحتها الوطنية والاقليمية التي تقيم نظامها عليه. وهنالك الكثير من الأنظمة والحركات الموصوفة بالتقدمية تجد أن التحدي المباشر لها قادم من الأنظمة والحركات التقدمية وليس من غيرها، وهكذا نجد ان التباين أو الاختلاف يتحول الى تناقض والى خلافات حادة وتناحرية، بدلا من أن تبقى في حدود الاختلافات الاعتيادية أو الطبيعية، ولهذا أسباب كثيرة لعل أهمها عدم النضج والعمق في النظرة والتصرف. وربما يكون ضعف الثقة بالنفس وبالاتجاه واحداً من هذه الأسباب، يضاف الى ذلك التأثيرات والامتدادات الدولية التي صارت تغزو الأنظمة والتيارات والحركات الموصوفة بالتقدمية مثلما تغزو الأنظمة والحركات الرجعية واليمينية، فلو كان هناك ادراك حقيقي وواقعي بأن المساحة تستوعب آلاف الفرسان وبامكانها ان تتسع لأن ترتفع فيها عشرات الرايات الوطنية والقومية من دون ان تحجب أية راية منها مهما إمتدت ساريتها الرايات الاخرى، ولو كان هنالك إيمان وادراك كاف لمعنى العمل العربي المشترك ... لكان بإمكاننا عند ذلك أن نجد مساحة واسعة للعمل المشترك بين الحركات والأنظمة الوطنية والقومية التقدمية فعلاً، والتي لا تتأثر سلبا بالأجنبي والاعيبه.

نأتي الى موضوع الوحدة. قبل عشرين سنة كنا نتصور أن في الإمكان تحقيق الوحدة بالفعل الدستوري والسياسي والقيادي وربما الفوقي الذي يؤدي الى الوحدة مباشرة كما حدث في وحدة عام ١٩٥٨، أما الآن فإننا في الوقت الذي نتطلع الى الوحدة ونناضل من أجلها ونعتبرها هدفا نضاليا شريفا وأن الوحدة دستوريا وسياسياً بين قطرين عربيين أو أكثر عمل نسعى اليه لتحقيق الوحدة الكاملة، نجد أن الوحدة أو الاقتراب منها لا يتحقق فقط في ميدان الفعل السياسي والدستوري الوحدوي، وإنما أصبحنا نبحث عن مسهلات العمل الوحدوي في ميادين أخرى كذلك، ومنها التفتيش عن التلاقي والتفاعل على أي مساحة مشتركة للعمل العربي الذي لا يفقدنا التطلع الى إمام. وهكذا نرى أن التشابك في العلاقات الاقتصادية عملية تخدم الوحدة ولكنه ليس الوحدة.

ان الخطأ الكبير الذي مرت به الأمة وبعض ابنائها هو أنهم إما أن يبتعدوا في تطلعهم الى الأمام عن أية امكانية للفعل في الحاضر في ضوء معطياته، وإما ان ينظروا الى الممكن من فعل الحاضر والذي يوصلهم الى صيغة من صيغ التنسيق العربي على أنه الوحدة التي يناضلون من أجلها، لذلك ينبغي أن لا نقلل من أهمية العمل العربي المشترك بعد الآن، بانتظار ان تقوم الوحدة بشكلها الدستوري والسياسي المتكامل لكي تصبح هنالك امكانية لقيام عمل عربي مشترك. وفي الوقت نفسه ينبغي ألا نصور أي عمل مشترك يقع دون الوحدة، بأنه هو الوحدة، وعلى أساس هذه المفاهيم نرى أنه بعد وحدة عام ١٩٥٨ قامت علاقات بين هذا القطر العربي أو ذاك وسميت وحدة أو اتحاداً، ولكنها لم تكن كذلك، وعندما انفرطت حُسب فشلها على الوحدة العربية والنضال القومي. ومن هذه التجارب «الاتحاد» بين سوريا ومصر وليبيا وبين ليبيا ومصر وبين مصر واليمن الشمالي على زمن المرحوم جمال عبد الناصر. كما كان يجري الحديث عن صلات وحدوية بين سوريا والاردن. وفي تصورنا أنه عندما يصبح العرب مقتنعين بأهمية الوحدة فسوف يحققونها، وهم لن يقتنعوا بالوحدة الا عندما يقتنعون بأنهم من دونها لا يستطيع أي مخلص منهم أن يعبر عن ضمير الأمة، وعن تطلعاتها الحضارية كما يجب، ومن دونها لا تستطيع الأمة أن تحافظ على كيانها. وعندما تتوفر المستلزمات الأخرى والظروف، وأهم من هذا عندما تتوفر الارادة العربية المؤمنة والقادرة على الفعل الدقيق في ظل محصلة كل الظروف وبالاستناد الى امكانات العرب بالدرجة الأساس، ستتحقق الوحدة.

فؤاد مطر: يحدث في مرحلة النضال أن تكون الديمقراطية في أولوية القضايا التي تتمحور حولها الحركة النضالية الى درجة الشعور لكثرة ما تطرح الديمقراطية كمطلب يفترض الانسان العربي أن الطرف المناضل سينشر الديمقراطية لمجرد أن يصبح سيد القرار. ثم يحدث بعد ذلك أن يُقنَّن مفهوم الديمقراطية الى درجة لا تعود الديمقراطية تحمل معناها التقليدي.

هل تفترض ان الديمقراطية هي مفهوم غريب لا يناسب العالم العربي أم أن لك مفهوما محددا لها. والى ذلك ألا ترى أنك كقائد واثق من نفسه وخاض تجربة نضال على مدى عشرين سنة نصفها في الحكم ونصفها الآخر كان من أجل الوصول بالبعث الى السلطة في إمكانك البدء بتجربة ديمقراطية يحتذى بها؟

الرئيس صدام حسين: أنا أؤمن بأن في إمكاننا أن نجد صيغا ديمقراطية في العراق يحتذى بها في الوطن العربي. وإلا فلماذا آمنّا أن نكون بعثيين وأن يناضل حزبنا على مساحة الوطن العربي كلها؟

اما هل نعتقد ان الديمقراطية الغربية تناسب الوطن العربي، فجوابي مباشرة: لا.

ولنعد الى تاريخنا قليلاً ... الى تاريخ العرب المسلمين، وعند ذلك سيتضح أننا على رغم عمق العلاقات والحقوق الديمقراطية في هذا التاريخ، لا نجد أن العرب عبروا عن تلك الديمقراطية بصيغة غربية وإنما عبروا عنها بالشورى وبصيغ غير صيغ «البرلمان». وهكذا نجد أن المفاهيم الديمقراطية في نظرية حزبنا تأخذ معناها

ـ نظرية وتطبيقا ـ من خصوصية الأمة وخصوصية الحزب الذي يعبر عنها . ورغم أن المعاني المركزية للديمقراطية في حزبنا وفي تاريخنا باتجاهها العام واحدة من حيث مفهوم القيادة الجماعية وإحترام الحقوق السياسية والقانونية للمواطن وتطبيق العدالة ودور الشعب في البناء وعلاقة الشعب مع القيادة ، فإن للزمن ولخصوصية العقيدة ولتطور الحياة فعاليتها ودورها في الطريقة والصيغ التي سيعبر بها حزبنا عن الديمقراطية . ولذلك فمن الطبيعي اذا كنا لا نجد ان النقل الآلي من تجارب تاريخ أمتنا ممكن في الديمقراطية فمن الأولى ألا نجده مفيداً ، إن لم نقل نجده مدمراً ، في حالة النقل الميكانيكي والإقتباس من تجارب الأمم الأخرى شرقية أو غربية . وحتى المجتمعات المتشابهة في بعض الخواص عليها أن تتجنب أن تقتبس أياً منها وتنقل نقلاً ميكانيكياً من تجارب الآخرين في المسألة الديمقراطية مفاهيم وتطبيقات أو في غيرها من ميادين الحياة ومستلزماتها لأنه يكفينا فارق التطور وحده لكي نبتعد عن حالة من هذا النوع حتى لو حصل التقارب أو التماثل في المشاكل والقضايا الأخرى . ولذلك لا نستطيع أن نفهم كيف أن مجتمعاً أقل تطوراً يمكن أن يأخذ بصيغة لمجتمع متطور جداً عليه في الحياة الاجتماعية وفي الأمن القومي وفي التطور والتقدم العلمي والتقني والاقتصادي والسياسي .

ولكن ما هي الصيغ الملائمة للتعبير عن الديمقراطية المتطورة مع مراحلها والمرتبطة بتطور جملة من العوامل الواسعة في الحياة العامة ؟ تلك هي الصيغة التي نبحث عنها وفي يقيننا إننا مارسناها بصورة أو بأخرى وبشكل متدرج منذ ٣٠ تموز ١٩٦٨ . ولو سألت الآن مجموعة من الشعب العراقي من هو « أبو دُلَف » ، لأجابوك على الفور إنه كريم الجاسم رئيس الاتحاد العام للجمعيات الفلاحية . كريم الجاسم فلاح ابن فلاح من الريف العراقي يقرأ ويكتب في حدود ، لكنه أصبح شخصية إجتماعية بارزة في مجتمع البعث يقود في الريف ملايين الفلاحين . كيف يمكن أن يصبح هذا قائدا جماهيريا وبصورة مقنعة لو لم تكن هنالك حياة ديمقراطية في علاقته مع الفلاحين ؟ ذلك هو المعنى الذي خلقته الممارسة الديمقراطية في ظل العمل الثوري . من هنا ان التعبير عن ارادة المجتمع بمعناه التفاعلي الجماعي قائم منذ ٣٠ تموز ١٩٦٨ ولكن بصيغ متجددة على الدوام. أما ممارسة الديمقراطية للشعب على مستوى التقرير والقرار الدستوري من مستوى أعلى فلم يجر العمل به بصورة مباشرة. وكان مجلس قيادة الثورة هو الجهة الوحيدة التي تقرر بصورة مباشرة في الشؤون التي تتطلب إصدار قرارات دستورية عليا. أما قانونا المجلس الوطني والمجلس التشريعي لمنطقة الحكم الذاتي اللذان يناقشهما الشعب الآن فسيقضيان الى مشاركة ممثلين للشعب من هذين المنبرين في القرارات ذات الاختصاصات الدستورية العليا وفي رسم السياسة العليا للدولة والمجتمع .

على أساس هذا الفهم نعتقد ان التجربة الديمقراطية الليبرالية لا تناسب مجتمعنا لانها وجدت وتطورت وأخذت أشكالها الراهنة في ظل المجتمعات الرأسمالية وقوانينها ، وهي تستند الى مفاهيم مركزية غير المفاهيم التي تستند اليها ثورتنا . ومن بين المفاهيم المركزية التي تستند اليها الديمقراطية الغربية أن يكون الاقتصاد حراً في مجتمعاتها ، ونظرتها الى الاقتصاد الحر تنسحب على

مفاهيم اخرى بذات الاتجاه ، لان اي نظرة للاقتصاد لا يمكن أن تكون معزولة عن النظرة الى الحياة ككل .

فؤاد مطر : أنت أدرى من غيرك بحقوق الانسان العربي للأسباب الآتية ،
أولا - واجهت ظروفا اجتماعية صعبة في طفولتك .
ثانيا - واجهت ظروفا مماثلة في فترة لاحقة .
ثالثا - استبسلت بعدما اصبحت حزبيا الى درجة الاستعداد للاستشهاد من اجل حكم يأخذ في الاعتبار حقوق الانسان .

إنطلاقا من ذلك أسألك أن تحدد لي حقوق الانسان العربي كحد أدنى وكحد أقصى . ومتى ووسط اي ظروف سيحصل هذا الانسان على هذه الحقوق بشقيها الاجتماعي والسياسي ؟

وإستكمالا لذلك ما هي الحقوق التي نالها الانسان العربي في العراق ؟ وما هي الحقوق التي لم ينلها بعد ؟ وكيف سينالها ؟

الرئيس صدام حسين : دعنا نتفق على أن حالة الحقوق إنما هي حالة « ديناميكية » متحركة وليست حالة « ستاتيكية » جامدة . ودعنا نرجع الى التاريخ العربي الاسلامي حيث أنني أهتم جدا ودائما بمثل هذا الرجوع لان تاريخنا ليس تاريخاً سهلاً إنما هو تاريخ عمل الأجداد بروح السماء . وفي هذا التاريخ نجد أن الحقوق التي مارسها العرب لم تكن حالة جامدة ولم تأخذ شكلاً واحداً في كل ممارساتها عبر كل الحقب التاريخية منذ ظهور الرسول محمد بن عبد الله (ص) والى العهود والفترات المشرقة من حكم العرب والمسلمين بعده ، وقبل التدهور والانحطاط . وكانت الحقوق تأخذ اشكالاً متطورة في الدولة والمجتمع ويعبر عن كل حالة وفق ظرفها وبالاستناد الى المبادىء .

دعنا نبتعد أكثر لنقول إن احكام السماء في ارادة الاله لم تأت كلها بصيغ واحدة منذ البدء ، ولهذا السبب ظهرت الديانات على التعاقب ، حيث سبقت الاسلام الديانتان المسيحية واليهودية . ونفهم من ذلك أن الله سبحانه وتعالى كان يرى الظروف المناسبة لفعل ارادته في خلق الظروف المستجدة . وهكذا كانت العلاقة محسوبة بين إرادة الله في الزمن والمكان وبين الظروف ، وكانت إرادة الله تفعل فعلها من خلال الأنبياء والرسل ثم يخلق الله الإرادة الأخرى لكن بنفس الاتجاه . ولو أخذنا سيرة الرسول محمد (ص) ولاحظنا تطبيقات السنة النبوية لرأينا كذلك أن تعبيراتها عن حقوق الانسان كانت تأخذ صيغا متحركة . وهكذا في ظل الخلفاء الراشدين ونزولا الى ما بعد . ولكن كلها كانت باتجاه واحد تمارس بها ومن خلالها حقوق الانسان بصورة تخدم السماء وتستجيب لمستلزمات التعامل الصحيح في الارض . فالممارسة كانت ، اذن ، تأخذ بالحساب أن تكون صيغها مرتبطة بالظرف .

ولنأخذ القرآن الكريم . لماذا استخدم التدرج بالأحكام ؟ هل كان الله سبحانه وتعالى يكتشف بعد إعطاء الحكم أن هنالك حكما أصوب منه ؟ حاشى أن يكون

الأمر كذلك وإنما كان الله سبحانه وتعالى يحرك الحال ويطوره بارادته ثم ينسخ الحكم القديم ويستبدله بحكم جديد قادر على أن يجعل المعنيين بنقل الرسالة قادرين على استيعابه وحمل ثقله في الاستيعاب والايمان والالتزامات المترتبة عليه .

نعود مرة اخرى الى التاريخ ونتساءل : هل استخدمت الديانة الاسلامية طريق التبشير وحده ؟ أم إنها استخدمت الوعي والتوعية والسيف للاقتحام كذلك ؟

الجواب: إن تاريخنا معروف في هذه الموضوعات ، ومعروف كيف استخدم العرب المسلمون الاثنين معا ، السيف والقرآن . ولكن هل استخدم المسلمون السيف بنفس الطريقة والى نفس المدى الذي استخدموه في بداية الدعوة ؟

وهل أن محمدا بن عبد الله (ص) استخدم السيف في السنة ١١ هـ بالطريقة نفسها التي استخدمها في السنة الاولى والثانية والثالثة والرابعة والخامسة والسادسة ؟

الجواب هو ايضاً : لا .

من هنا إن حقوق الانسان تأخذ تعبيراتها بقدر ما تأخذ الثورة مداها في التعبير عن مبادئها وتطمئن عليها ، أو تأخذ حقوق الانسان صيغها ومعانيها بقدر متوازن مع الشوط الذي تقطعه الثورة في التعبير عن مبادئها الشمولية في الحياة ككل . وعلى هذا الاساس إن التعبير عن حقوق الانسان الآن يأتي بمعنى متقدم في الصيغ والتعبير عن صيغ التعبير عن حقوق الانسان قبل اربع سنوات لإن الشوط الذي قطعته الثورة الآن في السنة الثانية عشرة على طريق تحقيق مبادئها هو أبعد من الشوط الذي قطعته على ذاك الطريق بعد مرور الذكرى الثانية والثالثة والرابعة . ولكن كل صيغ التعبير عن حقوق الانسان تأخذ معناها من جوهر واحد اساسه أن تضمن الثورة في حركتها حقوق الانسان في أن يعيش حرا ولكن ليس بمفرده وبغض النظر عن حقوق المجتمع ، وإنما بالتفاعل مع حرية الآخرين وحقوقهم .

وعلى هذا الأساس لا يرى حزبنا أن في الامكان أن تقوم للانسان حرية وحقوق في المجتمع على أساس حاصل جمع الحريات والحقوق الفردية للإفراد ، وإنما على أساس التفاعل بين حريات المجتمع وحقوقه ككل تحت سقف ومفهوم مشترك للحرية العامة مع حرية الفرد . وهو يرى ان مصلحة الانسان تتحقق في العملية التفاعلية بين مصلحته ومصلحة الجميع فلا ينبغي أن تسحق مصلحته في ظل الدعوة الى مصلحة المجتمع عندما تكون هذه المصلحة مشروعة ، ولا ينساق الى النظرية الرأسمالية التي تنطلق من أن محصلة جمع مصالح البشر وحرياتهم تساوي مصلحة وحريات المجتمع ككل . إنه يرى ان يكون حرا في معتقداته حرا في ذاته ليس بمعنى توافر وسائل العيش وإنما بأن تكون وسائل التقدم وفرصه مفتوحة بمساواة عامة وليست مطلقة .

ولهذا نحن لا نقول بالمساواة المطلقة وانما نرى أن يأخذ المواطن فرصته في التقدم الى أمام في ضوء مقاييس عامة متطورة وموضوعية وعادلة مع حركة المجتمع والعوامل التي أشرنا اليها .

تلك هي الخلاصة الاجمالية لرؤيتنا لمسألة حقوق الانسان . ونعتقد في كل الأحوال أن كل انسان يرى حقوق الانسان من زاوية منطقه المرتبط بعقيدته .

وبعض الدول في عالم اليوم تنادي بصيانة حقوق الانسان خارج مجتمعاتها ليس من زاوية منطلقاتها العقائدية والفكرية بالدرجة الأساس وإنما من زاوية مصالحها. وهكذا نجد أن الاميركان يتحدثون عن حقوق الانسان في الاتحاد السوفياتي في الوقت الذي يقتلون الانسان في مجتمعات أخرى ، ونجد مجتمعات شيوعية تتحدث عن حقوق الانسان في مكان آخر في الوقت الذي تقتل حقوق الانسان في أراضيها وفي اراضي غيرها.

إن تاريخنا يستحق من الانسان ألا ينساه ، رغم اني لا افتش عنه كي انقل منه ، وإنما مطلوب منا ومطلوب من كل عربي ان نتوخى دروسه وروحه. إن بعض ابناء الأمة ممن يؤمن ايماناً راسخاً بتاريخ الأمة وعظمتها وعمق رسالتها يقف أمام هذا التاريخ عندما يقرأه وقفة العاجز فيقول انني لا أقدر أن أكون مثل أجدادي في التاريخ ولذا فالأحسن ان نتركه كله ونتغنى به فحسب. نتركه على حاله دون أن نتعب أنفسنا في تمثل دروسه ونفهم عمق معانيه ، وهذا موقف خاطىء ، كما هو خاطىء ومنحرف موقف الذين لا يؤمنون ولا يحترمون تاريخ أمتهم.

فؤاد مطر : منذ فترة طرحتم فكرة إعادة كتابة التاريخ . وكلامك الآن يوجب طرح السؤال الآتي : هل إنكم بهذه الروحية ستعيدون كتابة التاريخ ؟

الرئيس صدام حسين : نحاول هذا الآن . ومنذ سنوات تحركت الأقلام ، وهنالك حركة مستمرة في الصحف والمجلات . وهذه المفاهيم البعثية لا تتحرك بصيغة أمرية وإنما بصيغة تفاعلية. صيغة الأمر لا تقدر أن تخلق إبداعاً ، رغم أننا لا نستطيع أن نستغني عن بعض الأوامر لانجاز الابداع .ولكن هنالك فرقاً بين الأمر الذي لا يلغي التفاعل والاستنهاض المعنوي ويدعو الى الانضباط والطاعة في تنفيذ ما هو مطلوب ، وبين الصيغ والنظرة والعقلية الأمرية التي تتصور أن بامكانها بالأوامر والانضباط والطاعة المعزولة عن التفاعل والوعي والايمان أن تنجز الواجبات المطلوبة من الآخرين ، وهكذا تكون مثل هذه العقلية بالغة الضرر للأمة ، مثلما هي العقلية التي تسقط من الحساب أهمية الانضباط والطاعة والحساب والرقابة. إن التشدد حيثما تطلب الأمر لانجاز الواجبات ، وبهذا الفهم وبطرقه المعبرة عنه ، يحقق الابداع الذي نريده لشعبنا.

فؤاد مطر: أمس جلست مع أولادك بغرض أن أعرف كيف يعيشون وكيف ينظرون اليك وكيف تعاملهم.

وعندما تحدثت مع إبنك الأكبر عدي الذي كان يرتدي زياً عسكرياً وعائداً من التدريب على إستعمال السلاح وهو أمر مبكر بالنسبة الى سنه. خطر في بالي أن اوجه اليه السؤال التقليدي الذي يوجهه عادة الآباء الى الابناء وهو ماذا ستعمل عندما ستكبر وبأي فرع ستتخصص ؟

ولقد التقى جوابه مع سؤال بين الاسئلة الأكثر أهمية والتي أعددتها سلفاً لاطرحها عليك. لقد أجاب ابنك أنه سيصبح عالم ذرة.

وأما السؤال المعد سلفا لطرحه عليك فهو : هل في خطط العراق السعي للحصول على القنبلة الذرية ؟

الرئيس صدام حسين : في العلم الآن كل حلقة متقدمة ينبغي أن ترتكز على أساس صحيح ، ولذلك ليس في إمكاننا أن نتصور إمكان استخدام الذرة للاغراض السلمية وعلى نطاق علمي صحيح وواسع في مجتمع بدوي متخلف ، ذلك أن المال وحده غير قادر أن يجعل أي دولة في العالم قادرة على أن تمتلك المفاتيح لاستخدام الذرة لاغراض سلمية استخداما صحيحا أو لاغراض أخرى . موضوع استخدام الذرة له شروطه وظروفه ومستلزماته الخاصة المتقدمة في منهجنا ، ولا ينبغي لإي أمة أن تراه بمعزل عن الرؤيا الشاملة للحياة والانسان وللسياسة الدولية ولمصالح الأمة والحياة السعيدة المطلوبة للشعب . وأظن أنك لو سألت اي حاكم من حكام العالم هل تتمنى أن تكون عندك قنبلة ذرية لأجاب بأنه يتمنى .
ولكن في الوقت نفسه ، ان القنبلة الذرية ليست لعبة اطفال ، وهي عبء ثقيل في الوقت الذي قد تكون في ظاهرها ليست كذلك . ولو سألت هذا السؤال من جيبوتي الى الهند الى دبي الى نيبال الى اليابان المرتبطة بمعاهدات خاصة بعد الحرب العالمية الثانية لاجابوك ، نعم ، انها ستكون عبئا ثقيلا .
أما كبرنامج فلكل حالة من التقدم العلمي والتقني مستلزماتها ، ونحن يهمنا من الذرة الآن الاستخدامات السلمية لها ، ولذلك فنحن نركز في الحصول على تعزز الامكانيات العلمية والتقنية للعراق في الاستخدام السلمي للذرة. هذا هو منهجنا الأساسي .

فؤاد مطر : ما هي في تقديرك مراكز القوى والاستقطاب التي سيشهدها العالم في الربع القرن المقبل وما هي الاستراتيجية التي رسمتموها للتعامل مع هذه المراكز ؟

وللمناسبة هل على سبيل المثال يمكن نشوء حلف عربي - سوفياتي - اوروبي أو حلف عربي - اوروبي - ياباني مستقبلا يكون قادرا على حسم بعض القضايا العالقة والمسؤولة عن وضعها الولايات المتحدة ؟

الرئيس صدام حسين : في عام ١٩٧٥ حددنا في حديث مع سفرائنا مراكز الاستقطاب في العشرين سنة التي تلي عام ١٩٧٥ والتي قدّرنا انه سيظهر فيها مراكز تأثير غير اعتيادية أو مراكز استقطاب مؤثرة في السياسة الدولية تتميز بقدر أو بآخر عن الكتلتين وتلتقي أو تفترق حسب مصالحها . ولقد شمل التحديد اليابان وأوروبا والأمة العربية كمراكز للتأثير والاستقطاب . وتضمن الحديث اشارات الى نوعية التأثير والاستقطاب وتصورات لكيفية التلاقي والافتراق .
لكن ذلك مرتبط بتغيير المصالح وتغيير الاستراتيجيات تبعا لتغير المصالح . ولكي تتغير المصالح لا بد من سلسلة من المتغيرات الأخرى أي أن المصالح ليست حالة تقرر في مختبر العقل القيادي معزولا عن مستلزمات أخرى ، وإنما هي الحالة المستخلصة من الظروف والروافد والمستلزمات الأخرى في الوقت الذي تتقدم عليها . لذلك ليس في امكاننا منذ الآن أن نرسم حالة التلاقي المحتمل وميادينه

وحالة الافتراق وموضوعاته .

وفي الوقت نفسه لا بد أن نقول ايضا انه ليس هنالك تناقض بين الصين وبين الأمة العربية حتى الآن . لذلك فان احتمالات التلاقي مفتوحة . كذلك ليس هنالك حساسية تاريخية بين الأمة العربية واليابان ولذلك فان احتمالات التلاقي كذلك حالة مفتوحة لكنها ليست حالة حتمية التلاقي دون أن نفترض التناقض . وينطبق هذا على جميع القوى الكبرى والكثير من الدول الصغرى في ظروف خاصة .

فؤاد مطر : هل تعتقد أن صيغة القوتين الكبريين صيغة ثابتة بمعنى أنه لا مجال بعد ذلك لاصابة احداهما بوهن كما حدث لبريطانيا التي لم تعد عظمى بعد العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ ؟

وهل اذا حدث ولظروف موضوعية أن جرى للولايات المتحدة ما جرى لبريطانيا يمكن أن تستمر هنالك قوة كبرى واحدة تتحكم في العالم ؟

الرئيس صدام حسين : لا أتصور أن هنالك قوة كبرى واحدة يمكن ان تحكم العالم . في كل تاريخ العالم لم يحدث ذلك ولا أتوقع حدوثه بل إنني استبعده .

فؤاد مطر : ألا تعتقد ان الحرب الباردة التي سبقت الوفاق بين القوتين الكبريين كانت المناخ المناسب لمرونة في التحرك العربي . وما الذي فقدناه بسبب الوفاق ؟

والى ذلك لو كنت في موقع المسؤولية في فترة الحرب الباردة كيف كنت ستتعامل مع هذه الحرب ؟

الرئيس صدام حسين : من الصعب افتراض حالة متأخرة لحالة متقدمة وبناء الأحكام على أساسها . ولكن أقول بشكل عام إنه من المسائل التي سوف تؤخر الوحدة العربية هو أن أكثر من قوة دولية أصبحت تصطرع وتتنافس على ساحة الوطن العربي ، وهذه من المسائل التي تؤخر العمل الوحدوي ولكنها ليست المسألة الوحيدة كما أنها ليست حالة حتمية لا بد من أن تفعل فعلها المضاد في كل تفاصيل الحياة . ونضوج الذات العربية كما ينبغي يقلل من تأثير هذه المسائل وكل العوامل السلبية المضادة .

فؤاد مطر : الملاحظ أنك ترى ضرورة التعامل مع كل مراكز الاستقطاب في العالم باستثناء الولايات المتحدة . ما السبب ؟

والى ذلك ألا ترى أن من مصلحة العرب التركيز و بشكل مكثف على مركز استقطاب واحد كما فعلت اسرائيل ؟

الرئيس صدام حسين : لا أعتقد أن التحالف مسألة مرفوضة في العمل السياسي ، ذلك ان التحالفات المؤقتة المنسلخة عن حالة متطورة لها والتي تنشد هدفا ابعد هي حالة موجودة حتى في تاريخ نبينا محمد (ص) . أنا لم استبعد

الولايات المتحدة كقوة معروفة ومفهومة في قدرتها التأثيرية حتى في حال توفر ظروف صحية لبناء علاقات شريفة معها أو علاقات تخدم الأمة ولا تجعل الولايات المتحدة تستخدم دول أقطار الأمة العربية . ومن الطبيعي أن نقول إن الأمة الموحدة في علاقاتها مع مراكز الاستقطاب الدولية هي غير الأمة المجزأة اذ انها في الحالة الأولى تستطيع أن تبني علاقات متوازنة مع الدول الكبرى ، ولكن في الحالة الثانية فان بعض اقطارها لاسباب معروفة تنقصهم القدرة وربما الرغبة في بناء مثل هذه العلاقة مع كل الدول الكبرى في العالم .

ولكن عندما نتحدث عن الولايات المتحدة كسياسة راهنة نجد أنه بسبب تحالفها مع الكيان الصهيوني لا يمكن أن نعتبرها حليفا أو صديقا للأمة ، بل ان الصفة الصحيحة لها الآن هي أنها تتصرف ضد الأمة وتلحق ضرراً فادحا بها. واذا لم نُعرِّف الولايات المتحدة على هذا الاساس نكون قد خدعنا انفسنا . أما اذا ظهرت امكانيات الامة بصورة أفضل بما يجعل الولايات المتحدة تتصرف على اساس مصالحها الاميركية وبصورة تحترم الأمة فأنا لا أستبعد التعامل معها على هذا الاساس ، ولكن هذه حالة تحتاج زمنا ومستلزمات معروفة .

أما الإنفراد بصيغة تحالف مع قوة واحدة في العالم فهو افتراض أظن انه غير واقعي لإن التحالف مع قوة واحدة في العالم يفترض قبول هذه القوة بأن توحد الأمة العربية نفسها وتجد في وحدة الأمة العربية ما يضمن لها صيغ التلاقي في المصالح والاستراتيجيات . وحتى الآن فان قوة من هذا النوع غير موجودة وغير مرئية .

فؤاد مطر : تعطي فرنسا خصوصية واضحة جداً وتميزا كما لو أنك تراهن على دور أكبر لفرنسا . هل هذا الافتراض في محله ؟

الرئيس صدام حسين: أعتقد ان فرنسا حتى الآن تعمل مقتنعة أو مضطرة في ظل المفاهيم العامة للمنهج الديغولي الذي وضعه ديغول عندما كان رئيسا لفرنسا . وهذا المنهج ينزع الى أن تتوحد اوروبا وتتميز عن اميركا . وقد طور بعض الفرنسيين الديغوليين هذا المنهج في ميدان التعامل مع بلدان العالم الثالث فصاروا يرون (وتصدر تصريحات شتى عن المسؤولين الفرنسيين المعاصرين ديغوليين وغير ديغوليين) أن السياسة الفرنسية ينبغي أن تفترض إمكانية تحقيق مصلحة فرنسا بغير الطريق القديم الاستعماري مع بلدان العالم الثالث ، وإنما عن طريق زيادة حجم التبادل التجاري وزيادة صلة وتوسيع العلاقات الاقتصادية .

وفي منهجنا العربي نحن لا نرفض هذا . لا نرفض أن نقيم علاقات اقتصادية متبادلة المنافع مع أي بلد من بلدان العالم ولا نرفض زيادة حجم التبادل التجاري في ضوء مصالحنا السياسية والاقتصادية مع اي بلد في العالم لديه هذه الرغبة وتعتبر سياسته المعبرة عن هذه الرغبة سياسة نزيهة تنشد المصلحة وتسعى الى التكافؤ في العلاقة والاحترام المتبادل وعدم التدخل في الشؤون الداخلية .

من هنا إننا نشجع السياسة الفرنسية المؤمنة بهذه المفاهيم ونعتقد أن لهذا الاتجاه مستقبلا في اوروبا مثلما له مستقبل في فرنسا . إن المعطيات التي أمامنا تشير الى ان فرنسا ذات أرجحية خاصة في اعتماد بعض هذه المفاهيم ، مقارنة

بالدول الاوروبية الأخرى التي لها وزن خاص في السياسة الدولية وذات دور تأثيري خاص في السياسة الأوروبية · على اساس هذا الفهم اعطينا هذا التميز للعلاقة مع فرنسا بمقارنتها بالعلاقة مع دول اوروبية أخرى ·

فؤاد مطر : تبدو الديغولية في بعض جوانبها كما لو أنها البعث ولكن على صيغة فرنسية ·

الرئيس صدام حسين : أنا لا أميل الى مثل هذه التشبيهات ولكني أجد بيننا وبين هذه السياسة جسراً مشتركاً ·

فؤاد مطر : هل ان فرنسا قادرة على استيعاب طموحات العراق اقتصادياً وعسكريا ؟

الرئيس صدام حسين : طبعاً لا فهذا صعب .

فواد مطر : الملاحظ أن أي نجربة وحدوية أو تنظيم قومي لا يعود في الإمكان إعادة الروح اليهما عندما يحدث إنقسام أو انفصال · بعد حدوث إنفصال سوريا عن مصر ظهرت إستحالة عودة الوحدة وتعثرت كل المحاولات التي بذلت · وبعد إنقسام البعث بعثين ظهرت استحالة عودة البعث موحدا على رغم المحاولة التي حدثت · ومن قبل شهدت بعض الحركات القومية حالات إنقسام واستمرت منقسمة على رغم السعي في سبيل التوحيد ·

حول هذه الظاهرة هناك سؤالان :

الأول ـ هل تعتقد أن الوحدة السورية ـ المصرية كانت مرتجلة فرضتها الظروف وليس القناعات وهل كان من الممكن إنقاذها ؟

الثاني ـ هل إن عودة البعث موحدا مسألة ممكنة ؟ أم أن المواطن العربي سيشهد هذا الاستمرار في الإنقسام ؟

الرئيس صدام حسين : في ضوء دراستنا للوحدة السورية ـ المصرية واطلاعنا على تحليلات القادة الحزبيين والقادة والمفكرين السياسيين غير البعثيين الذين واكبوها وكان لهم دور في إقرارها يظهر بوضوح أن الوحدة بين مصر وسوريا كانت تحركها نوازع الخير والعواطف القومية والطموح في الوصول الى الأفق أكثر مما كانت ترتكز على توفير المستلزمات العملية لاستمرارها ولجعلها وحدة مشعة ، ولذلك انفصلت · انفصلت بصيغة دراماتيكية لا تليق بوحدة العرب ، ذلك أن الانفصال حدث من دون أن تكون هنالك مقاومة جدية لمنع حدوثه .

أما ما تسميها بالوحدة بين البعثين فنحن لا نعتبر ما هو موجود في سوريا بعثاً ، ومن المؤكد أنك عندما تسألهم يقولون لك الشيء نفسه عن العراق . ولكن لنترك هذا الموضوع ونقول أننا لا نعطي حكماً واحداً ودرجة واحدة لقواعد حزب السلطة في سوريا من جهةالسوء الموجود في كل مستويات التنظيم هناك . وعندما تتهيأ الظروف

لكي يجد الناس الذين لا مصلحة عندهم في الإفتراق ولا مصلحة في الفساد الذي أوجد الافتراق أينما وجد ، فإن الشمل سيلتئم عند ذلك .

فؤاد مطر : ما هي القناعات التي استجدت وجعلتّك تقرر اعادة الحياة النيابية الى العراق بعد غياب دام إحدى وعشرين سنة · وهل أنت مطمئن الى أن الحياة السياسية لن تقود الى وضع سياسي يتناقض مع مفهوم البعث للعمل السياسي ؟

الرئيس صدام حسين : الذي دعانا الى هذا العمل في القيادة هو تطور الثورة وتحقق برامجها ، والمستوى الذي قطعته الثورة على طريق برامجها · وأهم ما في هذه البرامج هو مستوى الوعي والادراك للحقوق والواجبات وعلى نطاق واسع من الشعب · وهذا المستوى المتقدم يجعلنا عندما نخطو هذه الخطوة نرى أن ذلك يخدم المسار المطلوب للثورة وبرامجها ·

فؤاد مطر : هل يجوز القول أنك في زياراتك المفاجئة لبعض منازل المواطنين الذين لا تعرفهم ، وتناولك الشاي والطعام معهم ، وكثيراً ما فعلت ذلك ، تبدو متأثراً بتقاليد عربية قديمة ، أو بتقاليد أوجدها بعض الحكام العرب القدامى ؟

الرئيس صدام حسين : فلنقل إننا نعتز بكل ما إحتواه تاريخنا العربي المشرق ، كما نعتز دائماً بكل الرموز والقادة العرب المسلمين ونحاول أن نستوحي دروساً من هذا التاريخ العظيم . وليس عيباً أن نقول إننا نتمنى أن نصل الى ظل من ظلال ممارساتهم علما بأن بيننا وبين هذا مسافات بعيدة . فالأساس الذي ثقفنا وربينا عليه شعبنا العربي ليس تاريخنا بمعناه المجرد العام وإنما هي نظرتنا البعثيةالتي هدتنا الى الممارسات الانسانية التي أشرت الى جانب منها . ومن المؤكد ان تاريخنا العربي مليء بالدروس الغنية في هذا الاتجاه · ومن المؤكد أيضاً أنه ماثل أمامنا دائماً ·

فؤاد مطر : نلاحظ من خلال متابعتك أن ثمة بعض التقدير من جانبك للتجربة الكوبية . وفي استمرار كنا نلاحظ توقفك عند المرونة الثورية التي يتصرف بموجبها النظام الكوبي إزاء تواجد القاعدة الأميركية في الأراضي الكوبية . إنك في ذلك تبرر هذا الانتقاص من استقلال كوبا وسيادتها على أرضها في حين أنكم لم تتساهلوا في العراق وتعيدوا العلاقات الدبلوماسية التي سبق أن قطعت مع الولايات المتحدة ·

والى ذلك ما الذي يبهرك في التجربة الكوبية وهل أن الانبهار شكل في بعض المراحل حافزاً على الإستفادة من هذه التجربة خصوصا في ميدان محو الأمية ؟

الرئيس صدام حسين : في كل اجاباتي تركيز على أن التجارب الانسانية ينبغي أن تكون متفاعلة . ونحن نعتز بكوبا الثورة ونكن لها احتراماً حقيقياً ونقدر قادتها وفي مقدمتهم فيدل كاسترو . وعلى أساس هذا الاحترام والتقدير نبني العلاقات

المتطورة ، خصوصاً مع كوبا . ولكننا في هذه العلاقات لا نريد أن نصبح شيوعيين كوبيين ولا نريد أن نجعلهم بعثيين ، وانما لكل واحد منا تجربته ، ونتبادل التجارب والآراء والاطلاع والتأثير من دون أن يكون في منهجنا البعثي أو في منهجهم الشيوعي ما يفرض أن يقتبس أي منا عن الآخر .

من هنا نحن لم نضع أمامنا الثورة الكوبية في تجربة محو الأمية وإنما وضعنا أمامنا منهجنا البعثي بالدرجة الأساس وإستندنا الى تاريخنا . بماذا اهتمت الدعوة الاسلامية أول ظهورها ؟ أليست أول آية نزلت هي «إقرأ بإسم ربك الذي خلق» . هذا هو تاريخنا وهذا هو تراثنا الذي يعلمنا دروساً غنية . وعندما نرجع الى هذا التاريخ لنستوحي منه الدروس ونجدد حركة الأمة بضوئه نرى مواقف عظيمة . نرى على سبيل المثال كيف كانوا يكلفون الأسرى بتعليم عدد من المسلمين مقابل إطلاق سراحهم من الأسر . واذا كان الكوبيون استطاعوا محو الأمية فإن من الطبيعي بالنسبة الينا اصحاب تاريخ يمتد الى ١٤٠٠ سنة أن نعتمد على شواهد في هذا التاريخ ونستوحي دروساً تقوي من عزيمتنا في المضي الى أمام وهذا ما فعلناه . استوحينا الدرس الأساس من تاريخنا في الوقت الذي استفدنا من تجارب الإنسانية في عصرنا الراهن .

أهم ما يدعو الى التقدير والإعجاب في الثورة الكوبية أنها ثورة خلقها رجال كوبيون بروح كوبية ومستمدة من واقع كوبا في الدرجة الأساس ومن مصلحة كوبا والإيمان بامكانية تحقيق النصر الذي صار واقعاً مستمراً ، والذي ترتبط به عزيمة لا تلين على إمكانية الاستمرارية . ولذلك نجد أن الكوبيين ليسوا بعيدين عنا بمعنى أن هنالك الفة شبه غريزية بيننا وبينهم وبين كل الثوار في بلدان العالم الثالث الذين يصنعون ثورتهم بأنفسهم لإننا ايضاً من بلدان العالم الثالث ومشاكلنا العامة تقريباً واحدة . الثورة في العراق والثورة في كوبا لم يصنعها أحد ويقدمها هدية لنا أو لكوبا ....

ومن المؤكد أن كوبا ترى بأنه عندما تقول أنه ينبغي أن ترحل القاعدة الأميركية فإن هذا يمكن أن يؤدي الى حرب عالمية . ولو كان الكوبيون يعتقدون أن في امكانهم طرد الأميركان من دون أن يؤدي ذلك الى حرب عالمية لفعلوا .

وفي الحالتين هنالك إختلاف طبعاً . فكما أن لكوبا ظرفها وموقعها فإن للعراق ظرفه وموقعه ، فضلاً عن أن لكل منا مبادئه الخاصة .

فؤاد مطر : من المنطلق نفسه نطالبك بتحليل لظاهرة تبدو محيرة بعض الشيء : لماذا لا تكون الثورة وبالتالي التطبيق الاشتراكي في الوطن العربي حالة فرح كما هي الحال في كوبا على سبيل المثال ؟ ولماذا يبدو المواطن في معظم الدول الإشتراكية في العالم أكثر فرحاً وأكثر اطمئناناً وأكثر اكتفاء ؟ نقول هذا مع الأخذ في الاعتبار ان معظم الدول الاشتراكية ليست غنية بل إن دخل بعضها على جانب من الدقة .

الرئيس صدام حسين : أين طبقت الاشتراكية في الوطن العربي بمعناها الجدي الدقيق ؟

هنالك محاولات للتطبيق الاشتراكي حتى الآن في بلدنا بمنهج مفهوم ومعروف وبخطوات ثابتة وعميقة لهذا الغرض ، وهذا ليس ادعاء . أما في دول عربية أخرى فإن المسألة الإشتراكية أخذت معنى التأميم وسيطرة الدولة على بعض النشاطات الاقتصادية أكثر مما أخذت معنى تغيير الحياة تغييراً شاملاً وجذرياً . وهذا يعني أن الاشتراكية لا يجوز أن تحصر في ظل صيغة أو شكل من المعالجات الاقتصادية المتقدمة بالقياس الى حالها السابق فقط وإنما هي حالة تتعدى هذه المعالجة ... حالة الحياة الشمولية ونقلها من معنى العلاقات الاستغلالية الى معنى العلاقات التي تستبعد الاستغلال وتقيم مجتمعا جديداً مستنداً الى الكفاية الجدية والعدالة الجدية وتفتح أمام الشعب الفرص الجدية للممارسة الديمقراطية .

وعندنا في العراق كيف ترى مجتمعنا ؟ هل هو سعيد ؟ لقد إحتككت به كإنسان عربي فهل رأيت أنه مجتمع تعيس او منزعج من تجربته ؟ إنه يفتخر بها ويعتز في الوقت الذي قد تكون لديه ملاحظات عليها . وعندما نتحدث عن الوطن العربي وحتى عن التجارب الإشتراكية الأخرى في العالم نقصد أن الشعوب هي التي تختار الطريق الذي تجد أنها سعيدة فيه .

إن المجتمع العراقي سعيد بتجربته حتى الآن ونحن مصممون على أن نجعله أكثر سعادة سنة بعد أخرى ، ومصممون على أن نبتعد عن أي طريق أو صيغة يرفضها شعبنا بوعي بعد أن نقوم بواجبنا القيادي تجاهه في التوضيح والتوعية والمستلزمات الأخرى . وإذا إعتقد الشعب العراقي أن هنالك صيغة للاشتراكية تعبر عن الاشتراكية بشكل أفضل من غيرها فإننا سنحترمها وندخلها في حسابنا حتى لو كان هذا يقتضي إجراء التعديل الجدي في ما نقرره في القيادة من برامج عمل لهذا الغرض .

فؤاد مطر : ألا ترى أنه بعد ٣٥ سنة على انشاء البعث لا بد من عملية تقييم لمبادىء الحزب وبالذات ما يتعلق بنظرة البعث للدين الإسلامي .

ومناسبة هذا القول أمران :

الأول - إننا نعيش حالة صحوة اسلامية ، أو إذا جاز القول ، حالة بعث إسلامي . وقد يكون السبب في هذه الصحوة شعور جيل السبعينات بأن العمل القومي إنتهى الى انتكاسات ، ومن أجل ذلك ليس أمامه سوى اللجوء الى الدين .

الثاني - إن البعث اكتفى بأن حدد صلته بالدين الاسلامي في الاطار الاستلهامي في حين إنه أعطى العلمانية كل الإهتمام .

وعملية التقييم المشار اليها تبدو ممكنة بالنسبة اليك على أساس أنك في الموقعين المتقدمين ، موقع السلطة وموقع القدرة على التنظير ، خصوصاً إن حالة البعث الاسلامي في الوطن العربي قبل العالم الاسلامي مرشحة لإن تستقطب جيلاً عربياً يبدو حتى الآن أن البعث القومي أخفق في إستقطابه

الرئيس صدام حسين : في الواقع ان الحزب في نظرته الى الدين وفي صياغة نظريته لم يقم في الأساس على إستلهام المنطلقات والأحكام والروح الأساسية للدين

فحسب ، وإنما يقول بأنه في نظرته ليس محايداً بين الإيمان والإلحاد وانما هو مع الإيمان . معنى ذلك أن الحزب يتعامل مع المسألة الدينية بصيغتين . فهو يستوحي في نظريته وفي تطبيقاته الأحكام المركزية للدين ، ومن جهة أخرى يطبق جانباً من هذه الأحكام في نشاطات البعثيين وتصرفاتهم .

وعندما نقول بأننا لسنا محايدين بين الإيمان والإلحاد وانما نحن مؤمنون ، فهذا يعني أن البعثيين شأنهم شأن المؤمنين من الشعب يقومون بممارسة بعض الطقوس الدينية وفق إختيارهم الخاص . فهم يصلون ويصومون ويقومون بواجبات العبادة الأخرى في العلاقة مع الرب .

إذن هذه الصلة هي صلة مباشرة بالدين وعلى نقيض النظرة التي تفهم العلمانية على أساس الموقف الحيادي بين الإيمان والالحاد ، أو ربما الجنوح الى الإلحاد من خلال نظرة مادية للحياة .

لماذا نركز في نظرتنا وفي تطبيقاتنا على أن نستوحي الأحكام من روح الدين بدلاً من أن نتعامل مع الحياة من خلال طريق ديني ؟

إننا في الواقع نقدر أنه بعد ألف واربعمائة سنة صار ينظر الى الكثير من أحكام الدين وتعبيراته ومفرداته ومسالكه في التطبيق من خلال مدارس وفرق ومذاهب ولم يعد مدرسة واحدة ومذهباً واحداً في صلته بالحياة وحتى في تفسيرات الكثير من أحكامه . وبناء على ذلك ففي تقديرنا إن العودة للتعامل مع الحياة بإسلوب وصيغ دينية لا تخدم في تصورنا جوهر الأحكام الدينية والأمة العربية ،لأن العودة لهذا المسلك تقسم الأمة العربية أدياناً ومذاهب ، وتقسمها فرقاً ومدارس . ولقد تحدثنا عن هذا الموضوع في كراس « نظرة في الدين والتراث » قبل أن تقوم الثورة في إيران . والآن ورغم الفترة القصيرة لقيام الثورة في ايران ، نرى أن توقعاتنا أصبحت بادية للعيان في السياسة الإيرانية وفي الظروف التي خلقتها . بدأت الإختلافات بين المجتهدين الكبار ، على مسائل حياتية وعلى مسائل السلطة ، بل على تفسير المسألة الدينية في قضايا أساسية . وكل ذلك خلال ظرف قصير .

الذي أود قوله إن لنا بالدين صلتين ، صلة نستوحي منها دروسه الأساسية ومبادئه الأساسية وصلة الإتصال بأحكام العبادة كمواطنين عاديين بالإضافة إلى صفتنا البعثية فنمارس طقوس العبادة وفق إختيار حر في الدين والمذهب والمدرسة من دون تدخل من سلطة الدولة .

وعلى أساس هذا الفهم لم نجد حتى الآن ما يستوجب أن نقف وقفة تقييمية لمنطلقات حزبنا الصائبة في مسألة النظرة الى الدين والتراث ، ولكن علينا أن نقول أنه ينبغي أن نقف وقفة عميقة لتحليل الأسباب التي جعلت الكثير من الشباب يتخذ من الدين المسيّس منهجاً نه وسلاحاً للنضال ضد الأنظمة الفاسدة بدلاً من أن يتخذ من البعث مصدراً للإيمان والإلهام وسلاحاً ضد الأنظمة الفاسدة ، رغم علمنا أنه ليس هنالك شباب ثوري يتخذ من الدين مرتكزاً وفق الصيغة التي أشرنا اليها دون أن يكون هذا موجها ضد أنظمة فاسدة وكذلك دون أن يكون هنالك بعثيون يتخذون من البعث مرتكزاً ومنطلقاً وسلاحاً ضد الأنظمة نفسها وعلى ساحة مشتركة واحدة .

فالبعث ، إذن في الواقع ليس في حالة إنحسار وإنما في حالة انتشار . وبالاضافة الى حالة إنتشار البعث هنالك حالة إنتشار أخرى كالتي ذكرناها لشباب الحركات

الدينية وهي تشكل ظاهرة تستوجب الدراسة ، ليس بمعنى الدراسة المتخوفة لإننا نجد في الشباب المتمرد على الأنظمة الفاسدة والساعي لتصحيح مسارات الفساد جانباً من صور البعثيين ونشاطاتهم ضد الفساد والظلم والطائفية والتبعية وإن إتخذت صيغاً أخرى ، أما إلى أي حد يستطيع هذا الشباب لو تمكن ، وحتى الآن لم يتمكن ، من أن يزيح الأنظمة الفاسدة وأن يبني وفق الطريقة الدينية بصيغها الإقتباسية مجتمعاً يسعد الشعب العربي ويضع العرب على طريق توحدهم ، فهذه مسألة أخرى .

أما القيام بعمليات تقييمية لملاحظة صلة حركة الحزب بالعقيدة والتصرف بموجبها والتفاعل مع الحياة بصورة يومية وملاحظة ما يفرزه من أفكار وتطبيقات وولادات متجددة لتعزيز وإغناء فكر الحزب ، فهذه مسألة حاصلة ليس بصيغة محرابية تأملية ، وإنما بصيغة مستمرة ومتجددة مع الحياة .ولذلك فنحن لا نجد في الواقع أن هنالك تناقضاً بيننا وبين الشباب الذي يجعل من الدين الاسلامي مرتكزاً أو مصدراً للإيمان والإلهام والاقتدار الذي يتصدى للمسارات المنحرفة أو الفاسدة في المجتمع العربي في ظل النضال السري ودون أن يكون مرتبطاً أو متأثراً بجهة أجنبية ، ولكننا لا نزال نؤمن أن طريق البعث هو الطريق الذي يستطيع بناء مجتمع العرب السعيد بالإضافة الى أنه الطريق النضالي المجرب والقادر على إزاحة الفساد والإنحراف والظلم . وفي نضالنا ليس المهم أن نزيح الفساد فحسب وإنما الأهم من هذا كيف نستطيع أن نبني البناء الذي يسعد الإنسان العربي مع المحافظة على روح دياناته ومعتقداته وتقاليده .

وحتى تصبح نظريتنا في التطبيق واضحة فنحن إذن نتصل بالدين إتصالاً مباشراً في تطبيق مستلزمات العبادة كأناس ضمن مجتمع متدين وبصيغ إختيارية دون تدخل الدولة تاركين لكل إنسان حق ممارسة طقوسه الدينية في العبادة وفق دينه ومذهبه وطريقته الخاصة . ومن النواحي الأخرى نحن نستوحي القيم الأساسية والمبادىء الأساسية لقيم السماء في الأرض في نظرتنا للإنسان وفي نظرتنا الى طريقة إسعاد الانسان في شتى ميادين الحياة .

وهكذا تجد اننا راضون عن حساباتنا وعن نظريتنا الفكرية مثلما أننا راضون عن منهجنا لتطبيق هذه النظرية . ونحن لسنا راضين بمعنى الرضا المطلق وإنما بمعنى الرضا النسبي . إننا راضون عن أن تطبيقات مبادىء حزبنا تسير بالطريق الصحيح في القطر العراقي . وهكذا نرى أنه أينما وجد نظام فاسد في الوطن العربي وجد بعثيون يناضلون ضد الفساد والظلم ويستشهدون دفاعاً عن الحق والمبادىء السامية ....

إن النظرة الى المسألة الدينية بصورة اقتباسية وفق طريق ديني في التعامل مع السلطة والحياة تعني أن نطبق منذ أن نصبح سلطة دينية كل روح وكل نصوص الدين ، أليس كذلك ؟ إن محمد بن عبدالله (ص) عندما إستلم الحكم طبق كل نصوص الدين كما جاء في القرآن . والخلفاء الراشدون من بعده فعلوا نفس الشيء . لكن كم مضى على الثورة في إيران ؟ أحد عشر شهراً ، ماذا طبقت وهل ستأخذ بالتدرج ؟ وهل تدخل في الحساب عوامل التطور وظروفه ومستلزماته ؟ إذا لم تفعل هذا فإنها ستجتهد وسيضعها الإجتهاد في خلافات وإختلافات لا حد لها، وهي بهذا المعنى سوف تجتهد في الحياة وتجتهد في تفسير أحكام الدين في شؤون الحياة،

وسيقودهم الإجتهاد أيضاً الى مدارس وربما الى مذهب جديد . نحن نعتقد أنه اذا استمرت الثورة في ايران وفق نفس الطريق الى فترة أطول فسوف تتحول الى مذهب جديد في التطبيق ، وسوف تفترق عن المذهب الشيعي وتظهر إجتهادات واسعة . والذي يجري في إيران يؤكد هذه النظرة .

تلك هي المسائل التي جعلت حزبنا وقادته الأوائل ينظرون الى الحياة العربية النظرة التي إعتقدوا من خلالها أن منطلقات البعث في هذا الطريق هي أن نستوحي من أحكام ومبادىء السماء في تطبيقاتنا على الأرض دون أن نعالج شؤون الحياة والسلطة عن طريق ديني ، تلك هي نظرتنا لهذا الموضوع . لا نعالج شؤون الحياة عن طريق ديني وفي نفس الوقت نتصل بالدين بمعنى العبادة من موقع آخر يأخذ معنى الحرية في الأديان وحرية المذاهب وحرية الاجتهادات .

ولو أن المجتمع العربي كان ديناً واحداً ومذهباً واحداً وقومية واحدة لكانت فرص معالجة الصلة في هذا الموضوع أرحب ، ولكن الوطن العربي الآن ليس مذهباً واحداً ، بالإضافة الى أن العرب ليسوا كلهم دينا واحداً ، فضلاً عن أن العربّ الآن تحيطهم حياة دولية ليست من نمط الحياة الدولية التي أحاطت بالعرب في الزمن البعيد . إننا الآن في وضع تستطيع القوى الدولية أن تستغل معه أية ثغرة في جدار الأمة العربية وتطورها بما يعرقل نمو الأمة وبناء السعادة للإنسان ...

وهكذا ، فنحن نؤمن أيماناً عميقاً ونعتقد اعتقاداً جازماً بأن طريق البعث هو الطريق الصحيح لإنقاذ الأمة من الأخطار وبناء حضارتها الجديدة التي تزدهر ويتعاظم فيها الدور الانساني للأمة ، وتنتهي فيها عوامل الوهن والفساد والظلم وتحقق السعادة للجميع وتتحقق العدالة على كل صعيد .

أما لماذا هذه الصحوة التي سميتها الصحوة الدينية ؟ في الواقع ان المجتمع العربي لم يكن طيلة عمره ملحداً ، ولم يخل المجتمع العربي من الشباب الثائر الذي يتخذ من الدين الاسلامي مرتكزاً له وسلاحاً لمقارعة الظلم . كان عبد الناصر في جوهر عمله يرتكز الى الإيمان بالدين ويتخذ منه سلاحاً ويتصل بالدين من موقع الصلة المباشرة والصلة عن طريق ما يستوحيه في المبادىء المركزية من الدين في تطبيقات الأرض . أما هل وفق أم لم يوفق في هذا فتلك مسألة اخرى .

كان الإخوان المسلمون يتخذون من الدين إيماناً وسلاحاً لمقاومة الانكليز في مصر .

وكانت الحركات الدينية منتشرة في الوطن العربي ومزدهرة في مرحلة الاربعينات والخمسينات .

وفي العراق وقبل ثورة تموز ١٩٥٨ كان هنالك توجه ديني نشط بين الشباب ، ولكنه لم يكن يأخذ تعبيراته بنفس المعاني الحالية .

إن انتشار الحركات والأفكار السياسية الدينية في الوطن العربي وظهور ما يسمى بالصحوة يرجع الى تعبيرات الظلم بمفردات حية فضلا عن أن حالة الفساد منتشرة الآن في الوطن العربي أكثر من أي وقت سابق ، وتوجد أنظمة فيها كل معاني الفساد ، ويفترق الحكام بكل خطوة من خطواتهم وبكل صيغة من صيغهم عن أي معنى من معاني الفضيلة لصلة الانسان بالسماء ولصلته بالأرض . والى ذلك ان المساجد تساعد على حرية الحركة في التعبير عن الاحتجاج لإن أي حاكم فاسد لا يبدو قادراً ما فيه الكفاية على التحرش بالناس وهم في المساجد ، في حين أن

مسارات العمل في النضال القومي تشجع الحاكم على المداهمة والإعتقال . إن المساجد اذا جاز القول هي مراكز علنية للعمل السري في اطار التوجهات الدينية .
والى ذلك إننا نفرح عندما نرى شباباً مؤمناً يحمل الدعوة الاسلامية ومستعداً للاستشهاد والموت ضد الفساد ونشعر بالتعاطف معه . ومثل هذه الحالة لم تظهر الا في مصر في السابق وفي الجزائر ، لكنها الآن ظهرت في أماكن عدة . ولكن هنالك الى جانبها حالة متصلة بالبعثيين الذين يناضلون ضد الفساد ويستشهدون ويدخلون السجون . ومعنى هذا أننا لا نشعر بما يستوجب وقفة من جانبنا نقيّم فيها منطلقاتنا النظرية بسبب هذه الظواهر .

(فؤاد مطر : الحركات الدينية التي أشرت اليها كانت ضد الاستعمار بينما تبدو حالات الصحوة الدينية إحتجاجاً صارخاً على سوء التصرف بالثروة وعلى مسلكية الحاكم في الإطارين الشخصي والوطني .
و بالنسبة الى ايران بالتحديد قد تكون المسألة دينية في وسط مجمع العلماء وآيات الله والمجتهدين ، أما بالنسبة الى المواطن العادي فإن القضية وطنية في الدرجة الأولى) .

فؤاد مطر : تابعت الأسلوب الذي عالجت به حادثة إلقاء القنبلة من جانب عراقي متجنس على الحشد الكبير في الجامعة المستنصرية يوم الأول من نيسان (ابريل) ١٩٨٠ والذي ذهب ضحيته عدد من العراقيين والعرب واصابة عضو مجلس قيادة الثورة طارق عزيز . ثم تابعت تطورات حادثة القاء القنبلة بعد يومين على جنازة الذين قتلوا في الحادثة الأولى .
حول هذا الأمر هنالك بضعة أسئلة :
الأول - مثلما إنه عندما يتآمر عدد من رفاقك في الحزب والقيادة ضدك على رغم الثقة التي كانت ممنوحة لهم والوضع القيادي الذي خصصته لهم يكون معنى ذلك أن هنالك خللاً ما في الولاء للعقيدة البعثية ، فإنه عندما يسمح عراقي متجنس لنفسه بالقاء قنبلة ويقتل الآخرين يكون معنى ذلك أن هنالك حالة خلل ما في مسألة الولاء للوطن .
ما هي نظرة الرئيس الى ذلك وهل هناك إطمئنان من جانبك الى ولاء العراقيين لوطنهم وثورتهم ونظامهم الذي تقوده ؟
الثاني - بدا الاسلوب الذي عالجت به الحادثتين كما لو أنه دق النفير وتعبئة الشعب لمواجهة حاسمة مع ايران وكان الأثر واضحاً بعد الزيارات التي قمت بها الى المستشفيات لتفقد الجرحى وما رافق ذلك من كلام تعبوي من جانبك . هل هذا افتراض صائب وهل تأخذ في الاعتبار أن هنالك قوى عربية كثيرة تتمنى لو أنك تقرر المواجهة مع ايران على اساس ان هذا الاشغال للعراق سيقلل من وهج الدور الذي يتطلع اليه ؟
الثالث - هل ترى أن تركيا لو كانت قوية يمكن ان تتعامل مع العرب

بالأسلوب نفسه الذي تعتمده ايران . وهل هنالك وضوح لدى المواطن العراقي لطبيعة هذه الحدة في العلاقات بين العراق وايران ؟

الرابع ـ على مدى احدى عشرة سنة اظهرتم حسن نية تجاه دول الخليج في حين انكم بمقياس القوة ومن منطلق النظرة القومية كنتم قادرين على إحداث تغيير طفيف أو جذري في خريطة الخليج .

أين يقف حكام الخليج الآن من تصديكم لمحاولات الهيمنة الإيرانية . هل هم معكم أم إنهم على الحياد وهل حدث تشاور معهم حول خطورة تلك الهيمنة وأبعادها ؟

الرئيس صدام حسين : من خلال وضع الجمهور العراقي والثورة في مسارها الآن، يبدو أن العرب لا يدركون مدى وعمق التحولات التي أحدثتها الثورة في عقل ونفسية المواطنين .

ان العراقيين سهلون وصعبون في نفس الوقت . فهم عاطفيون ، وهنا تكمن سهولتهم ، وصعبون وهنا صعوبتهم . ولهذا السبب ترى أنهم اعطوا ولاءاتهم لفترة قصيرة جداً في بداية السنوات التي مرت على الحكم الحديث ، ولكنهم سحبوا ولاءاتهم بسرعة . وبين منح الولاء وسحبه كان شعبنا لا يقف على الحياد وانما ينتقل من حالة الى اخرى ، اي من حالة التأييد ونسميه الولاء الى حالة المعاداة الصائبة .

المرة الوحيدة في حياة شعبنا على حد ما نقدر أن نفهم التاريخ التي منح فيها ولاءه لنظام ، ولم يكن في بداية عهده وإنما بعد مضي سنوات من ذلك العهد ، هي ولاؤه لثورة ١٧ تموز ١٩٦٨ ، وتلك دلالة كبرى ، إذ يمكن لاي شعب تراه عاطفياً أن يعجب بحاكم ، بمعنى أن يعجبه شكله ، أو يعجبه تصرفه ، أو يعجبه قرار واحد إتخذه في البداية أو كلمة واحدة قالها ، فيعطيه قدراً من الثقة يحمل كل الآمال التي يعلقها على المستقبل، ولكن عندما يمنح الشعب ثقته متدرجة فإنه يكون بعد ١٢ سنة مانحاً ثقة عميقة وواسعة وراسخة ومستقرة وقاطعة وهذا يعني شيئاً غير اعتيادي .

إن صفة شعب العراق الصعبة مأخوذة من عدة إعتبارات في التاريخ ، أهمها أن هذا الشعب في كل تاريخه القديم والحديث قبل الإسلام وبعد الإسلام ، لم يكن حالة وسطاً أبداً . فهو إما أن يقود أو أن ينسحق تحت سنابك الخيل . ولم يكن حالة إعتيادية إطلاقاً ، أي بمعنى آخر إما أن يصل الى القمة أو يصل الى الهاوية مع ثقل كبير فوق رأسه .

ومن الطبيعي أن يكون لكل حالة وكل منطقة وكل شعب مواصفات . وهي أنه لا بد أن يتحمل ثقل الصفة الثانية لكي يصل الى الصفة الأولى . ولا بد أن يصل في حياته الى الحالة الأخرى ، أي حالة الصعود الى القمة ، لإن صفة الدور القيادي تستعدي عليه الشعوب والأمم المحيطة .

أما ملاحظتك حول وجود التعبئة الجماهيرية فنحن في الواقع لم نفعل سوى الأمر الاعتيادي والطبيعي الذي نقوم به دائماً ، والإستثناء فقط هو ذهابي الى الجامعة المستنصرية نفسها وحديثي مع الطلبة ، وهذا جاء جواباً على

الحادثة التي حصلت . أما الزيارة للمستشفى فإنني زرت المستشفيات أكثر من خمسين مرة من تموز الى الآن . وهكذا فإن هذه الزيارة لم تكن ضمن اطار التعبئة بقدر ما هي أداء الواجب تجاه المواطنين . إن أي تصرف من هذا النوع عندما يكون مخططاً ، فإنه بالتأكيد ، لا يعطي النتائج المطلوبة ما لم يتجسد في سلوك الإنسان ، كتعبير عن إحساس ضميري مستقر ...

لا زال الأعداء ، يتوهمون الكثير ، لإنهم لم يفهموا جيدا حقيقة الشعب العراقي . وكل الذي يقوله حكام ايران في ادعاءاتهم ويعتقدونه انما هو كذب . واذا أخذت اية نشرة يومية يصدرونها ترى الكذب الموجود فيها واضحا بشكل كبير . لقد اقسمت في خطاب الجامعة المستنصرية بالله ثلاثا بأن الدماء التي سالت لن تذهب سدى ، فقالوا إنه أقسم بطلاق زوجته ثلاثا ، وقصدهم أن صدام حسين لا يقسم بالله .

إن البعض يتوهمون ، حيث لا يزال الشاه وعملهم تجاهه مسيطرا على عقولهم ، ويعتقدون أن صدام حسين شاه لشعب العراق ، وهم آيات للشعب العراقي . الشيء الذي اعانهم على هذا الفهم المخطوء ـ رغم كونهم جيرانا لنا ، ويفترض انهم يعرفون ما هو العراق مع أنهم ليسوا حكاماً ، ولم تمض عليهم فترة طويلة في الحكم ـ هو أنهم عندما كانوا في مرحلة المعارضة لم يهتموا بالعراق ، وإنما اهتموا بقضيتهم التي كان ممكنا أن يفيدهم فيها الخميني . ولكن الخميني رجل دين وعمره ثمانون سنة وهو يجلس في النجف ويرى وسطا ، ويسمع من وسط هو ليس وسط الشعب ، وإنما وسط رجال الدين وليس كلهم ، إذ كانت له خصومات مع عدد من رجال الدين في العراق الذين لم يكن يرتاح لهم مثل الخوئي ، وعدد آخر . كان يسمع من وسط خاص يروي له حتما كيف أن الحكم معزول ، وكيف أن هنالك اضطهادا ، والى آخر القصص التي ترسخ الآن في رأسه . وعندما يكون الشخص قد عاش في العراق خمس عشرة سنة داخل أصيص بعيد عن المحيط الحقيقي ، فبامكان المرء أن يتصور ما هي المعلومات والتحليلات التي يمتلكها عن العراق .

نأتي الى ما يتعلق بالعرب . وفي هذا الشأن أقول رداً على ما طرحته من اسئلة : حرام علينا أن نطلب شيئا من العرب لإننا بذلك سنثقل عليهم في حين إننا نريد أن نخفف من الثقل الذي يحملونه .

إننا حتى في الطلب من العرب أن يتفهموا طبيعة الصراع بيننا.وبين ايران وطبيعة هذا الصراع وجذوره التاريخية نكون نثقل عليهم . فالعرب يحتاجون الى نظام يتحمل عنهم دون أن يكلفهم بشيء ، ولا يثقل عليهم بالتحليل الذي لا يرتاحون اليه نفسياً أحياناً .

هل المطلوب أن نتحدث مع الشيخ زايد ونسأله عن طبيعة الصراع بين العراق وايران ولماذا اختاروا العراق ؟ هذا حرام ليس لأجل خاطره وإنما لاجل خاطر الأرض التي يجلس عليها ، ولأجل خاطر الشعب . وبغض النظر عن نظرتنا في أن نراعي خاطره او لا نراعيه فتلك نظرة عامة بالنسبة للحكام سواء الذين نضع لهم مكانة خاصة في قلوبنا وفي نفوسنا وفي تعاملنا ، أو الذين لا مكانة لهم . أما قضية الشعب والأرض ، فهذه قضيتنا ، بمعنى انه عندما يريد حاكم ما أن يتخلى عنها ، فاننا لا نتخلى .

ولو أجريت مسحا سريعا لعرفت لماذا اختاروا العراق ، وستجد قطعا أنهم في

الوقت الذي يتهمون القذافي بقضية الصدر يستخدمونها بصيغة ابتزاز لبناء علاقات خاصة مع القذافي ، تصل الى الحد الذي تكون فيه أرض ليبيا مأوى لما يسمونهم بالفدائيين الذين يدربونهم حتى يرسلونهم للتخريب في الوطن العربي . وفي الوقت الذي يتحدثون عن أنهم جاؤوا ليضعوا الدين الاسلامي في موقعه في التطبيق تجدهم يبنون علاقات متميزة مع أنظمة ، الدين الاسلامي ثائر عليها ، كسوريا مثلا . اذن انهم يعرفون تماما انه لا يمكنهم الذهاب الى ابو ظبي ما لم يكسروا السد العالي الذي هو العراق ، كيما تعبر سفينتهم الى المكان الآخر . ويبدو أن ابو ظبي ايضا تعرف انه ما دام العراق موجودا فان السفينة الايرانية لا يمكنها العبور الى ابو ظبي ، وهي مرتاحة الى ذلك .

ان العراق هو العقبة بالنسبة الى الذين يؤدون دورهم الفارسي في كل تخيلاته وكل حقده على العرب . وهؤلاء بالتخيلات العنجهية المتوارثة ليسوا افضل من الشاه . لقد احتفظوا بكل مكاسب الشاه خارج ايران ، ولديهم تصور بأنهم ما لم يكتسحوا العراق فانهم لن يكتسحوا الآخرين . وعلاقتهم الجيدة مع اي نظام عربي الآن ليست نابعة من ايمانهم بأن هذه العلاقة يجب أن تكون جيدة ، وإنما ضمن حسابات يأملون منها النيل من العراق وإضعافه .

فؤاد مطر : لقد طرحت يوم ٨ شباط (فبراير) ١٩٨٠ في ذكرى الثورة التي اوصلت حزب البعث الى الحكم في العراق للمرة الأولى ، اعلانا قوميا تضمن ميثاقا ينظم العلاقات بين الدول العربية ولا يجيز لدولة حل منازعاتها مع الدولة الاخرى باستعمال القوات المسلحة ، وأرفقت الميثاق بالدعوة الى تعاون اقتصادي يصل الى مرتبة التكامل .

وبدا الميثاق كما لو أنه رد على الدور الذي مارسه الاتحاد السوفياتي في افغانستان ، كذلك بدا الميثاق كما لو انه قرار من جانبكم باعتماد حالة من الاسترخاء في موضوع نشر مبادىء حزبكم داخل الدول العربية الاخرى .

هل يمكن الافتراض بأن هذا الميثاق مؤشر الى أنك تفضل أن تكون في المرحلة الراهنة من الحكماء وليس من الثوريين ؟

وما هي الدوافع التي جعلتك تعلن هذا الميثاق ؟

الرئيس صدام حسين : لكل تصور صيغ لتطبيقه ، ولكل حالة جانبان : التصور ، ثم رسم مستلزمات التطبيق التي هي أدوات الوصول الى التصور .

إن حزبنا يتحدث عن الأمة الواحدة ، وعن الوطن العربي ، ومن أجل ذلك يجب أن تكون الأرض غير مجزأة . فعندما يجزأ هذا الوطن ويصبح حصصا مشاعة بين أطراف عدة فأين ستقام الوحدة العربية ، وأين ستمارس عملية النهوض الحضاري ، وفي أي مكان ستبنى الرسالة الانسانية المشعة ؟

إننا في تحليلنا للوضع الراهن للعالم نرى أنه طالما هنالك قوى كبرى لديها امكانية الخروج خارج حدودها الاقليمية فلا بد لهذه القوى من أن تبحث عن مناطق للنفوذ ، وبذلك تصبح كل مساحات العالم خارج الحدود الاقليمية للدول الكبرى معرضة لأن تقتسم مناطق للنفوذ .

إن الصين الكبرى ستطلع خارج حدودها عندما تصبح متقدمة فأين حصتها ؟ ولانه ليس لها الآن حصة فانها لا بد ستأخذ من الحصص الموزعة من قبل . كذلك السوفيات واليابان ، وتلك حالة الاميركان .

معنى ذلك أن الأمة العربية مرشحة لان توزع حصصا وعندما يحدث ذلك لا تتحقق الوحدة العربية لان هذه الوحدة لا تعود قضية قوى محلية أو قضية استعمار قديم ، وإنما قضية حصص موزعة على دول كبرى متعددة .

وتحدث احيانا حالات تبعية وحالات عمالة سببها شعور بالضعف ، بحيث أنه عندما يقال لدولة ما في الخليج ان السوفيات اصبحوا قريبين من الخليج فان هذه الدولة ترى من خلال وضعها الذاتي أنها غير قادرة على الدفاع عن اراضيها وبالتالي ترى أن مواجهة السوفيات لا بد أن تكون بالأميركان . وعندما يأتي الاميركان الى تلك الدولة بصيغة قواعد وبصيغة نفوذ فان القوى الاخرى لا بد ستفتش عن أماكن لها في الوطن العربي .

والى ذلك ، هنالك فرق بين أن نتحدث عن الوحدة العربية بصيغة كما لو أننا سيطرنا تماما ووجد حزبنا في كل أقطار الوطن العربي كما هو موجود في العراق ، وبين الواقع ألراهن للوطن العربي .

هذا يقودنا الى أن نتساءل : كيف نتصور الوحدة العربية ؟

إننا نتصور قيامها وفق شكل دستوري معين وعلاقات اقتصادية وسياسية معينة .

ولكن هل هذا جائز ؟

عندما جاء الاسلام بقي اناس كثيرون داخل الوطن العربي لم يعتنقوه . ومثلما إن المسيحية ومن قبلها اليهودية لم تغطيا الكرة الارضية فان الاسلام لم يغط الكرة الارضية هو الآخر .

اعني بذلك أنه من الممكن تحقيق هدفنا وإننا نؤمن بذلك ولدينا استعداد للاستشهاد في سبيل ذلك . لكن في الوقت نفسه علينا أن نحسب حسابا للزمن وأن لا ننظر اليه على أنه حالة مجردة وإنما كحالة تفاعلية يمكن بعوامل أخرى أن يبعد فرصة ويقرب فرصة .

وهذه العوامل مجتمعة والشعور بالحاجة الشديدة الى ضرورة تقدم الأمة العربية خطوات واسعة وخلال عشرين سنة علمياً وتقنياً تدفعنا الى القول بأنه لا بد من أن نجد محرمات عند العرب ونجد ايضاً مقبولات يرى فيها العربي « اي عربي ، عندما يحكم عقله قليلاً وبمستوى دون مستوى رؤية الوحدة أو التنازل عن ظواهر الحياة القطرية الأنانية من أجل الوحدة ، أنه لن يخسر شيئاً ، بل انه سيربح .

واذا كانت بعض اقطار الأمة كمصر والجزائر والعراق وغيرها لن تصل بعد عشرين سنة الى مستوى البرازيل الآن قياسا بالولايات المتحدة أو مستوى رومانيا قياسا بالاتحاد السوفياتي فمعنى ذلك أننا سنكون مستعبدين شئنا أم أبينا ، ذلك أن قيمة النفط قد تكون بعد عشرين سنة مثل قيمة الفحم الحجري الان قياسا بالنفط أمام احتمال انتقال العالم الى مصدر جديد للطاقة ، وأغلب الظن أنه يتجه نحو مصدر للطاقة لا ينضب .. هو الشمس بعدما جرب كل مصادر الطاقة الأخرى .

ان مبادىء الاعلان القومي في غاية التبسيط . إنها دعوة لكي لا يقتل احد

الآخر ويكرس بدلا من ذلك جهده لقضية أخرى . وإذا كانت هنالك دولة عربية ليست على حدودها دولة اجنبية فان مبادىء الاعلان القومي تحول دون أن تطلب تلك الدولة معونة من دولة اجنبية كما حدث مع تونس عندما اضطرت لطلب مساعدة من فرنسا تواجه بها ليبيا والجزائر .

والى ذلك ان المبادىء هي للحيلولة دون أن تنصرف اي دولة عربية عن المهمة الكبرى أمامنا وهي مواجهة الكيان الصهيوني ، ومن أجل أن ننقذ بعض الدول من الواقع الاقتصادي الصعب الذي تعيشه بحيث لا تبقى دولة مثل اليمن على الحالة التي هي عليها وانما تصبح بعد عشرين سنة مثل العراق اليوم . والا فكيف يمكن القول أن للأمة رسالة قومية ورسالة انسانية .

كذلك جاءت مبادىء الاعلان القومي لتسد الثغرة التي يمكن لاجنبي من خلالها التسلل الى العرب ، وهذا يكون في تعايش سلمي بين العرب والامم المجاورة وفي عدم التدخل بالشؤون الداخلية .

وحتى الآن هنالك تفهم عربي لما طرحناه إنما لا يكفي التفهم فقط لكي يتحقق الهدف الذي من أجله كان الاعلان القومي بمبادئه الثمانية .

فؤاد مطر : هل يخطر في بالك احياناً ان تتساءل ،

لماذا كان العرب أفضل في الماضي حضارة وتفوقا وما الذي جعل الصورة تنعكس في الزمن الحاضر ؟

ولماذا كل الحضارات السالفة في المنطقة من لبنان الى سوريا الى العراق الى مصر ما زالت هي المشعة في حين أن المنطقة تعيش في الزمن الحاضر أزمة حضارة ؟

ولماذا لم يعد العرب يجيدون غير الشعر والتقليد بعدما كانت المنطقة منارة تضيء حضارة ثم هاجرت هذه الحضارة لتستقر في مواطن أخرى ؟

ولماذا كان العرب امثولة في الفروسية ، وأصبحوا يفتقرون الى فرسان ؟

ولماذا كانوا مهبط الرسالات فأصبحوا يعيشون أزمة دين ؟

وكانوا موطن التشريع فأصبحوا يعيشون أزمة قانون ؟

وكانوا روادا في الطبابة فأصبحوا يوفدون مرضاهم الى الخارج ؟

وكانوا اصحاب أمجاد فكرية وفنية فأصبحوا يتطلعون الى ما يصدره الغرب اليهم ؟

ولماذا كانوا مادة للتاريخ وأصبحوا اشارات عابرة قد تدونها كتب التاريخ ؟

الرئيس صدام حسين : من الطبيعي أن ترد في بالي هذه التساؤلات لكنني لا أجد حتى الآن أن الأمة غير قادرة على النهوض وغير قادرة على استيعاب الدور في الانسان .

ولو تساءلنا كم أمة وصلت الى معنى انساني مشع وأعطت الانسانية ما أعطته الأمة العربية ، لكان الجواب : ليس هنالك أمة واحدة كالأمة العربية في هذا الدور . ولو تساءلنا أيضا : كم أمة نهضت ووصلت الى أن تكون منارأ ثم انسحقت ثم عادت

منارا يهدي الى قيم الحضارة والانسانية . المنار الذي يخرج في تأثيره من حدوده القومية الى رحاب الانسانية ليس بصيغة الخروج العسكري التدميري أو بصيغة الاستعمار والابتزاز ، وإنما الخروج الانساني المصلح الباني والذي ينقل قيم الفضيلة والمحبة الى أوسع نطاق في المعمورة ... لكان الجواب : إن الأمة العربية وحدها التي فعلت ذلك .

يبدو وفق قوانين الحياة أن واحدا من تطبيقات الحياة هو أن الأمم في نهوضها أو في انتكاسها تعيش حالة قريبة من حالة الإنسان ، أي الطفولة ثم الشباب ثم الكهولة ثم الشيخوخة ثم الوفاة . ولهذا أسباب كثيرة لا نريد الدخول فيها ، لكن أهمها إن الناس المسؤولين عن ادارة الكيان الحضاري عندما يفقدون ايمانهم في التطلع المبدئي الى أمام وعندما يفقدون اشعاع الايمان في قلوبهم وفي عقولهم ومحركاته الى أمام ، تبدأ عملية التدهور . وللأمة العربية في ظروف الانحطاط أسباب أخرى .

ولكن عندما نطرح كل هذه التساؤلات لا بد أن نطرح التساؤل الآتي : عندما كانت الأمة العربية في مرحلة النهوض والاشعاع الحضاري كيف كانت حال الأمم الاخرى ؟

كانت الأمم الاخرى في مرحلة التلقي . ولكن الأمة العربية في اكثر من مناسبة أظهرت أنها ليست أمة حضارة واحدة ، أي أنها لم تحقق النهوض الحضاري في مرحلة واحدة وحسب ، وإنما أمة حضارات .

وحضارات الأمة العربية من الحضارات الفريدة في معانيها الانسانية التي عندما تبدأ في مرحلة الاشعاع لا تكتفي بأن تشع على الأمة لوحدها وانما تشع بما يجعل للبشرية دائما نصيبا كبيرا في التغذي منها . وفي الوقت الذي كانت الأمة العربية مركز اشعاع عظيم في شتى علوم الحياة وقيمها وقوانينها ، كانت الأمم الأخرى تعيش في دياجير الظلام وكانت تتفاعل مع حضارة الأمة العربية أو تقتبس منها .

وعندما تبدأ الأمة مرحلة الضعف والانحطاط فان الأساس في هذا أن أبناء الأمة والمسؤولين الأساسيين عنها يفقدون صلتهم ومسؤوليتهم وايمانهم بالمعاني والقيم العميقة لدور الأمة ورسالتها وقيمها . وحيث أن تركيب الأمة ومواصفاتها وتاريخها تجعلنا وبلا تردد نقول بأنها أمة رسالات ، لذلك فان امتنا غير قادرة أن تعيش حالة وسط أو حالة تواضع إزاء دورها التاريخي في علاقاتها مع الأمم الأخرى وفي دورها الانساني وهذا واحد من الاسباب التي جعلت الامة العربية عبر التاريخ إما أن تنهض نهوضا انسانيا حضاريا قياديا وتأثيريا على نطاق واسع في الحياة الانسانية ، أو تتكالب عليها عوادي الدهر وحسد وأحقاد الطغاة والأشرار لكي تجعلها في حالة ضعف أو تدهور سحيق ، لأن الأمة الناهضة غالبا ما تستقطب تحالفات مضادة لمنعها من أن تأخذ دورها المتكافىء مع خواصها .

ولكن لو سأل سائل هل الأمة العربية رغم كل هذا هي الان في مرحلة التدهور أم في مرحلة صعود بالقياس الى السنوات العشر التي مضت ، لأجبناه وبلا تردد إنها في مرحلة صعود . الأمة في مرحلة نهوض .

ولكن هل توفرت مستلزمات النهوض في الأمة كما ينبغي ؟ .

الجواب : كلا ، ولكن عوامل البحث عن تفاصيل الطريق الصحيح والسعي

لانقاذ الأمة والايمان بأهمية إنقاذ الأمة صارت حالة متوفرة في داخل شباب الأمة . وحالة البحث هذه كانت موجودة قبل هذا التاريخ ، ولكن حالة التعبير عن هذا الطريق بصيغ أدق موجودة الآن بصورة أكثر فاعلية وأكثر وعيا . والحالة العلمية التي هي عصب اساس تقاس عليه الأمم في جانب اساس من نهوضها ، بدأت الآن تدخل مرحلة النهوض والصيرورة الجدية ، ولذلك فان كل التساؤلات التي اوردتها ، أو القسم الأكبر منها ، أمر طبيعي ، ولكنني في الاجابة على أي منها لا أجد ما يثبط همتي ويمنعني من أن أقول بثبات إن الأمة بدأت مرحلة النهوض وتوفر لديها الكثير من امكانات النهوض .

ولا بد من القول إن فرصا كثيرة مرت كان ينبغي أن يملأها الحزب . ومرت ظروف كثيرة كان ينبغي أن ينتزع الحزب بها فرصة ، ولكن ذلك لم يتحقق كما ينبغي . وهذا معناه انه ليس هنالك خلل في منطلقاتنا النظرية وإنما الخلل في هل إن المعنى الذي أشرت اليه يكمن في أن الحزب لم يستطع أن يوفر مستلزمات إملاء الفرصة أو انتزاعها كما ينبغي بالشكل الذي يجعله القائد الجماهيري المبرز في الوطن العربي كله وليس في العراق وحده كما نطمح ؟

وليست كل الظروف الصعبة التي مرت بالحزب هي المسؤولة عن ذلك ، ويبدو أن المستلزمات الذاتية لم تكن قد توافرت في الحزب كما ينبغي لاملاء هذه الفرص او انتزاعها .

لقد كان هنالك تقصير في استخدام المنطلقات في التعبير بدقة أفضل ، وفي استخدام امكانات الحزب في اتجاهها الأصوب . ولو أن ثورة شباط في العراق والتغيير الذي حدث في سوريا في آذار سارا في الطريق البعثي الذي تسير عليه الثورة البعثية الآن لبات في الامكان تصور حال الوطن العربي الآن . مع ذلك اننا ونحن نستفيد من اخطاء الماضي لا نقف نبكي على الجانب السلبي . علينا ان نسترد النضال ونقوي العزائم لمواصلة الطريق الى الامام .

إن أمتنا عظيمة وستعود أكثر عظمة . ذلك وعد المناضلين .

كتب للمؤلف

الحزب الشيوعي السوداني	١٩٧١
نحروه أم انتحر ؟	نفذ (٣ طبعات) ـ دار النهار للنشر
أين اصبح عبد الناصر	١٩٧٢
في جمهورية السادات ؟	نفذ (٤ طبعات)ـدار النهار للنشر
روسيا الناصرية	١٩٧٢
ومصر المصرية	نفذ (٣ طبعات)ـدار النهار للنشر
بصراحة	١٩٧٥
عن عبد الناصر	نفذ (٤ طبعات)ـدار القضايا للنشر
الثورة الثانية في ليبيا	١٩٧٦
	نفذ (طبعتان) ـ دار القضايا للنشر
سقوط الامبراطورية اللبنانية	١٩٧٦
(خمسة اجزاء ومقدمة صدر منها حتى الآن أربعة اجزاء)	(دار القضايا للنشر)

المؤسّسة العربيّة
للدراسات والنشر
بناية برج الكارلتون – ساقية الجنزير
ت ٣١٢١٥٦ -٣١٩٥٨٦- برقيا. موكيالي. بيروت
ص. ب.: ١١/٥٤٦٠ بيروت





المؤلف ... والكتاب

ليس هناك مشقة على الكاتب تعادل مشقة الكتابة عن تجربة تتواصل ..

ومن هنا ان فؤاد مطر، صاحب المؤلفات الجادة والاكثر انتشارا حول شؤون السياسة العربية وقضايا الشرق الاوسط، يعرض في هذا الكتاب الجديد له (الذي صدر اولا باللغة الفرنسية في باريس) تجربة صدام حسين على مدى عشرين سنة بالحد الاقصى من التوغل في عالم الرجل الذي يقود العراق والحد الادنى من اطلاق الاحكام على اساس ان التجربة تتواصل.

ولقد استند فؤاد مطر وهو يتوغل في عالم صدام حسين الى لقاءات كثيرة و طويلة مع هذا القائد المتميز و الى مناقشات مع قياديين آخرين فضلا عن مناقشة استثنائية في نوعيتها مع ميشال عفلق، الرجل التاريخي لحزب البعث. و في الفصول الثمانية فضلا عن المقدمة و التمهيد و التي يتألف منها كلها هذا الكتاب اجابات عن اسئلة و تساؤلات كثيرة. و تشكل هذه الاجابات في مجموعها ما من شأنه ان يوضح طبيعة عالم صدام حسين. من هذه الاسئلة التساؤلات على سبيل المثال لا الحصر: ○ كيف وصل البعث الى العراق ؟ ○ كيف و لماذا اصبح صدام حسين بعثيا ؟ ○ ما هو السر في نوعية العلاقة بين مدنيي البعث و عسكرييه و التي صممها صدام حسين و ما هو دور الجيش ؟ ○ كيف اصبح الجيش في العراق بعثيا و لماذا لا يسمح لغير البعثيين بالعمل السياسي داخله ؟ ○ لماذا "الجيش الشعبي" و ما هي قدراته ؟ ○ ما الذي جعل صيغة القيادة بقائدين (البكر ـ صدام) تستمر و ما هي ادوار صدام حسين في الفترة التي كان فيها شريكا في القيادة ؟ ○ ما الذي جعل الوحدة بين العراق و سوريا لا تتم ؟ ○ كيف نشأت فكرة قمة بغداد و ما هو دور صدام حسين فيها و ما هي ظروف ميثاق ٨ شباط ؟ ○ هل كان لا بد من الحرب مع ايران و ما هي طبيعة العلاقات العراقية ـ الايرانية قبل ان تبدأ الحرب ؟ ○ ما هو اسلوب صدام حسين في ادارة الصراع و ما هي طبيعة العلاقات بين العراق و كل من الولايات المتحدة و الاتحاد السوفياتي و فرنسا و بقية دول العالم و ما هو الدور الذي يتمناه لكتلة عدم الانحياز؟ ○ لماذا جاء روكفلر الى بغداد و ماذا قال له صدام حسين ؟ ○ كيف يتعامل صدام حسين مع القياديين في الحزب و ما هي و صاياه الى البعثيين و كم هو عدد الحزبيين و الانصار في العراق و ما هي مؤسسات البعث و تنظيماته ؟ ○ العلاقة بين صدام حسين و ميشال عفلق و ماذا يقول كل منهما عن الآخر ؟ ○ لماذا يقوم صدام حسين بزيارات مفاجئة لبيوت الناس و المدارس و الاسواق و المناطق و ماذا يجري خلال هذه الزيارات ؟ ○ ما هي نظرة صدام حسين الى الماركسية و الشيوعيين العرب و الى الدين و ما هو رأيه في علي بن ابي طالب و معاوية ؟ ○ كيف ينظر صدام حسين الى تجربة عبد الناصر؟ ○ لماذا قرر تدريب النساء على استعمال السلاح؟ ○ كيف يتخذ صدام حسين قراره ؟ ○ كيف يعيش صدام حسين في بيته و مع اولاده ؟...

ثمن النسخة: ٢٤ ل.ل او ما يعادلها